

إثْرَاءُ
المشْرُوعِ الحَضَارِي

المجلَّدُ
١٧

مَوْسُوعَةُ الأَنْبِياءِ والمُرسَلِين
قَادَةُ الحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّة

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

الحَقِيقَةُ الكَامِلَةُ

تأليف
د. علي مُحَمَّد مُحَمَّد الصَّلَابِي
الأَمِينُ العَام لِلاتِّحَادِ العَالَمِي لِعُلَمَاءِ المُسْلِمِين

تقديم
أ.د. عَلِي مُحْيِي الدِّين القَرَه دَاغي
رَئِيس الاتِّحَادِ العَالَمِيِّ لِعُلَمَاءِ المُسْلِمِين





دار الأصالة

رقم الإصدار 315
الترقيم الدولي للسلسلة (Tk) 978-625-5637-70-3
الترقيم الدولي للمجلد (17.c) 978-625-5637-87-1

اسم الموسوعة موسوعة الأنبياء والمرسلين: قادة الحضارة الإنسانية الربانية
اسم الكتاب المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.. الحقيقة الكاملة
اسم المؤلف د. علي محمَّد محمَّد الصلَّابي

المدير العام للدار رجب صونگول

الاخراج الفني AsaletAjans
ajans@asaletyayinlari.com.tr

الطبعة الأولى - يوليو 2026 م / محرم 1448 هـ

İmak Ofset Basım Yay. A.Ş.
Sertifika No: 71320
Akçaburgaz Mah. 137. Sk.
No: 12 Esenyurt/İSTANBUL

دار النشر دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة
Asalet Eğitim Danışmanlık
Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret
Sertifika No: 40687
Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.
Yümni İş Merkezi No: 16B/16 Vezneciler
Fatih/ İSTANBUL-TÜRKİYE
Tel: +90 212 511 85 47
www.asaletyayinlari.com.tr
asalet@asaletyayinlari.com.tr

كما أن إصداراتنا متاحة على منصّتي
Google Play Books

Copyright © 2026
دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2026
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

إِثْرَاءُ
المشْرُوعِ الحضَارِي

المُجَلَّدُ
١٧

مَوْسُوعَةُ الأَنْبِياءِ والمُرسَلِين
قَادَةُ الحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّة

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

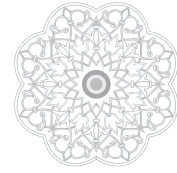
الحقيقةُ الكاملةُ

تأليف
د. علي محمد محمد الصلابي
الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

تقديم

أ.د. علي محيي الدين القره داغي
رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

أ.د. فضل بن عبد الله مراد
أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي



تقديم

بقلم أ. د. علي القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

هذا جزء من عنوان كتاب جديد: المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام)، الحقيقة الكاملة، للعالم المحقق الموفق أخي العزيز فضيلة الدكتور علي محمد الصلابي الذي خاض في موضوع يُعدُّ من أكثر المسائل تعقيداً وخلافاً حتى على مستوى النصارى أنفسهم، لكنه استطاع بفضل الله وتوفيقه أن يجد بغيته في كتاب الله الذي أنزله شفاءً ورحمة وتبياناً لكل شيء، وأنه نزل لبيان الخلاف الذي حدث بين الأمم السابقة، فقال تعالى ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل ٣٩] فالله تعالى قد بيَّن من خلال كتابه الحقائق التي اختلف فيها السابقون والمعاصرون.

وليس هذا الإقدام على مثل هذه الموضوعات الكبيرة غريباً على المؤلف الذي تعايش مع القرآن الكريم بكل جوارحه، وجعل رسالتيه العلميتين (الماجستير، والدكتوراه) في التفسير الموضوعي، كما أن مؤلفاته الكثيرة النافعة في السيرة والتاريخ ساعدته في إنجاز هذا الكتاب، بل هذا المشروع العظيم.

وإذا كان شرف العلوم بشرف موضوعها، فإن هذا الكتاب نال شرفين عظيمين هما:

شرف المؤلَّف فيه ، وهو سيدنا عيسى ابن مريم (عليه السلام) الذي هو من أعظم الأنبياء والمرسلين ، بل هو من أولي العزم ، وأن أتباعه لايزالون يشكلون أكبر نسبة بين الأديان السماوية حيث تصل إلى ٣١٪ .

والشرف الثاني : هو أن مصدر المعلومات له هو القرآن الكريم الذي أولى عناية منقطعة النظير لكل ما يتعلق بسيدنا عيسى (عليه السلام) ، حتى سُمِّيت ثالثة سورِه باسم آل عمران ، وسورة أخرى من أعظم السور باسم والدته مريم (عليها السلام) ، وسورة ثالثة عظيمة باسم «المائدة» ، وهي التي طلبها حواريو عيسى (عليه السلام) إضافةً إلى ما خصّه القرآن الكريم لبني إسرائيل ولأسرة عيسى (عليه السلام) من السور والآيات العظيمة .

فقد استثمر المؤلف الكريم تخصُّصَه التاريخي العلمي في بيان الجذور التاريخية للوطن الذي ولد فيه عيسى (عليه السلام) ، وهو فلسطين ، فخصَّص المبحث الأول لتأريخ فلسطين ، وما يتعلق به سياسياً واجتماعاً وفكرياً ، كما خصَّص المبحث الثاني لحديث القرآن الكريم عن عيسى (عليه السلام) فأطال النَّفَس فيه ، وأفاض بفيوضات مباركة وإشراقات عميقة واستنباطات رائدة ، وتنظيم رائع من حيث حسن التنسيق والتفسير والتنظيم والترتيب ، حيث أعطى صورة مستقلة ، ومتكاملة عن سيدنا عيسى (عليه السلام) .

وأستطيع القول إنه لم يترك آية تتحدث عنه ، أو تدور حوله ، أو تتعلق به أو بأسرته من قريب أو بعيد إلا ذكرها وفسّرها أو فصَّلها ، وذكر ما فيها من آراء أو احتمالات إن وُجدت ، ثم لم يترك ذلك دون موازنة وترجيح ، كما خصَّص المبحث الثالث لمعجزات عيسى (عليه السلام) .

ومن مميزات الكتاب أنه استكمل أهمَّ ما يتعلق بأتباع عيسى (عليه السلام) حيث خصَّص المبحث الرابع لما جرى بين النصارى وبين الرسول ﷺ كما تحدَّث عن الحوار بين الأناجيل الأربعة حديثاً علمياً موضوعياً مستعيناً بمئات من المصادر والمراجع التي أثرى بها الكتاب أيَّما إثراء .

الكتاب حقيقة متكاملة

إن كل من يقرأ هذا السفر العظيم يصل إلى حقيقة ناصعة ، وهي أنه أعطى صورة متجانسة متكاملة متوازنة وفق فقه الميزان عن سيدنا المسيح (عليه السلام) ، لأنه اعتمد على القرآن العظيم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت ٤٢] وعلى السُّنَّة الثابتة التي لا ينطق صاحبها (وهو رسول الله ﷺ) عن الهوى فقال تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم ٣ـ٤] .

فالقرآن الكريم ومعه بيانه قد بيَّن الحقيقة الكاملة لسيدنا المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) ، وذلك ليرفع الخلاف حول حقيقته ، يقول المؤلف المحقِّقُ معبراً عن أهم نتيجة تمخَّض عنها كتابه «لا يوجد كتاب على وجه الأرض منح السيد المسيح (عليه السلام وأمه البتول وعائلته الكريمة تكريماً وتبجيلاً أعظم من القرآن الكريم ، بل إن تكريم القرآن الكريم للمسيح وأمه وعائلته يفوق ـ بلا شك تكريم كل من التوراة والإنجيل الموجودين حالياً ، وكان القرآن الكريم بالإضافة إلى هذا التكريم ـ هو المصحح للأخطاء والاتهامات والافتراءات الباطلة التي كانت توجَّه إلى السيد المسيح وأمه الطاهرة على ألسنة اليهود والمسيحيين أنفسهم ، بل توصَّل المؤلف إلى ما ذكره القرآن الكريم من معلومات دقيقة ومفصَّلة تعدُّ «من أوجه الإعجاز الإنبائي والتأريخي والتربوي والعلمي في سرد القرآن الكريم لعدد من المواقف المجددة من سيرة عبد الله ونبيه عيسى ابن مريم (عليه السلام) .

وقد اعتمد المؤلف في فهم الصورة القرآنية على السُّنَّة النبوية الثابتة أيضاً ، وعلى المصادر المعتمدة في التفسير والشرح والتحقيق في المعاني والمباني ، والتدقيق في الاستعمال اللغوي ووجوه الإعجاز البياني .

فقه الميزان في الكتاب

إن ما بيَّنه القرآن الكريم حول سيدنا عيسى عليه السلام وأمه مريم يقوم على

الموازين القرآنية المتعلقة بالخالق والمخلوق ، والكاشفة عن الحقائق التي تتفق مع الفِطر السليمة والعقول المستقيمة فميزان فقه الخالق أنه واجب الوجود وأنه ليس مخلوقاً ولا مُحدَثاً ولا مولوداً ولا محتاجاً إلى أحد ، وأنه لا يأكل الطعام ولا الشراب ، ولا يحتاج إلى قضاء الحاجة ونحو ذلك ، في حين أن ميزان المخلوق يقوم على أنه مُحدَث قد خلقه الله تعالى من العدم أصلاً ثم وضع له نظاماً دقيقاً ، وأنه مولود ، ومحتاج إلخ .

ولذلك نرى أن القرآن الكريم ركَّز على هذه الموازين وفصَّل في كيفية خلق عيسى (عليه السلام) من البداية إلى النهاية ، فذكرَ البداية حين نذرتِ امرأة عمران ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران ٣٥] حيث تدل هذه الآية على أن سيدنا عيسى (عليه السلام) هو مخلوق مولود من أمه مريم ، وأنها مولودة من أمها كل ذلك للتأكيد على أنه عليه السلام لا يختلف عن أي إنسان إلا بأمرين :

أحدهما : أن الله تعالى خلقه دون أب ، وإنما بنفخة من عند الله .

والثاني : أنه رسول الله وكلمته ، وأنه أكرمه بمعجزات مادية عظيمة ، ليكون هو وأمّه آيةً للناسِ فإن كل كلمة في الآية السابقة تدل على أن مريم مخلوقة محتاجة، وقد أعاذتها أمُّها وذريّتَها من الشيطان الرجيم ، ثم كفالة زكريا لها وما رزقها الله تعالى ومنحها من الكرامات ، ونحو ذلك . كل ذلك لأجل التأكيد على أن مريم مخلوقة وأنها بعيدة عن صفة الألوهية ، ثم يأتي القرآن ليبين بالبراهين العقلية القطعية أن ابنها أيضاً ليس بإله ، وهنا يأتي تأكيد القرآن الكريم على ذكر عيسى بأنه ابن مريم أي مولود لم يكن موجوداً ، وأنه مخلوق وليس خالقاً ولا إلهاً ولا رباً بأي معنى من معاني الألوهية ، وهنا تأتي الأدلة القرآنية على ذلك بوضوح في ضوء ما يأتي ، وأن عيسى (عليه السلام) وُجد ببشارة الملائكة لمريم ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران٤٥] والخالق واجب الوجود أزلي قديم ليس قبله شيء .

وإذا كان هناك غرابة في ألا يكون لعيسى (عليه السلام) والد فقد بيَّن اللهُ تعالى بأن ذلك يعود إلى قدرة الله تعالى وكلمته الكونية القادرة على أكثر من ذلك ، بحيث إذا أراد شيئاً ليقول له كن فيكون.

فكون عيسى عليه السلام خُلق بدون أب وأنه كلمة الله لا يترتب عليه أبداً القول بأنه إله لأن ذلك لا ينفي عنه كونه مخلوقاً كما أن وصفه بأنه «كلمة الله» أو «كلمة منه» يراد به أن الله تعالى خلقه بكلمة منه دون توافر الأسباب الطبيعية لخلقه من وجود النطفة الأمشاج المكونة من مني الرجل وبويضة المرأة ، ولذلك كان خلقه مثل خلق آدم الذي خلقه الله تعالى من تراب دون أب وأم، فقال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران ٥٩] فالله قادر على الخلق من العدم ، وقادرٌ على خلق إنسان بلا أب ، قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم ٢٧] ، ثم إن عيسى كان جنيناً في بطن أمه ، وطفلاً في المهد ثم شابّاً ثم كهلاً ، وقد تعرض للأذى والتعذيب من اليهود وغيرهم ، فهو عاش حياة إنسان يتقلَّب في الأحداث ويتأثَّر بها وتتغيُّر أحواله بتغيُّر الأزمان ، ويتحول من صِغَر إلى كِبَر ومن حال إلى حال ، كل ذلك برهان قطعي عقلاً ومشاهدةً على أنه مخلوق ، وليس إلهاً كما تدعي ذلك جماهير النصارى.

وبناءً على ما سبق فإن دعوى جماهير النصارى بأن عيسى إله أو ابن إله ضمن الآلهة الثلاثة أو الأقانيم الثلاثة[١] دعوى متناقضة مع العقل والمشاهدة ، ودعوى يتعارض بعضُها مع بعض ، فهم يعترفون بكل ما حدث لعيسى (عليه

(١) جاء التثليث حسبما أقرته كنيسة روما بموجب قرار مجمع (نيقية) الذي انعقد سنة ٣٢٥م حيث جاء فيه «يسوع المسيح (عيسى عليه السلام) ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للأب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء ، الذي من أجلنا ـ نحن البشر ومن أجل خلاصنا ـ نزل من السماء وتجسد من الروح القدس».

السلام) من الحمل والطفولة والتعذيب ، بل إنهم يعترفون بأنه صُلب وقُتل ـ ونفاهما القرآن الكريم عنه ـ ، فكيف يكون إلهاً؟

يعتقد معظم النصارى باستثناء الموحدين منهم أن الإله واحد ذو أقانيم ثلاثة. الأب الخالق لكل شيء ، والمالك له ، وأقنوم الابن المولود منه ، والمساوي له في الجوهر ، والأقنوم الثالث أقنوم الروح القدس ، وهذه الأقانيم الثلاثة متحدة في الجوهر والإرادة والمشيئة ، لكنهم لا يشكلون ذاتاً واحدة ، بل هم أشخاص وأقانيم ثلاثة ، كل واحد منهم إله كامل مستقل بذاته ، فالمسيح إله تجسد بشراً وهو إله أيضاً ، وهنا اختلَّت الموازين بشكل فظيع وتناقض لا مثيل له.

وقد ردَّ عليهم كثير من العلماء المفكرين ، وقالوا: إن هذه الفكرة جاءت من الحضارة الرومانية ، وأن الأناجيل المُعترَفَ بها لا تدل بالقطع على التثليث بدليل أن فيها بعض النصوص التي تدل على أن يسوع المسيح عندما يقوم بمعجزة ، وعمل خارق ، يتوجه إلى الله أولاً بالصلاة والدعاء مُتضرِّعاً بين يديه ، وحين ينتهي يتوجه إليه (سبحانه) بالشكر ، فقد جاء في إنجيل (مرقس٢٨ : ٢) أن يسوع المسيح إنسان وابن إنسان ، وفي إنجيل (لوقا ٥٢ : ٢): أنه وُلد وترعرع ، ونما ، وفي إنجيل لوقا (٧: ٣٥ـ٣٤ و ١٢ : ٦ ، ومرقس ٣٥ : ١) أنه يأكل ويشرب كسائر البشر ويصلي ويُكثر من الدعاء مُتضرِّعاً ومُناجياً جُلَّ الليل والنهار ، وفي إنجيل لوقا (٤٢ : ٤ـ٤٣) أنه أُرسل نبياً ورسولاً ومُعلِّماً إلى بني إسرائيل.

وفي هذا الصدد يقول كلايد تارنز[١]: «إن الاسم الذي أطلقه المسيح على نفسه أنه (ابن الإنسان) وكل ما رواه لنا عنه الإنجيل يقدمه كإنسان عاش واتَّصف

(١) كلايد تارنز: هذه عقائدنا ص٨٣ نقلاً عن أحمد علي عجيبة: تأثر المسيحية بالأديان الوثنية ، ط١ ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ٢٠٠٦م ، ص٣٥٠.

بكل صفات الإنسان ، كبر ، ونما جسدياً . . . ، كما تألَّم آلاماً جسدية ، بكى ، ونام ، ومات ، كل هذه الاختبارات تشهد بكون يسوع إنساناً» .

وأما أسفار العهد القديم (التوراة) فتدل بوضوح على أن الأنبياء ليسوا آلهة ، وليس لهم قدرة على المعجزة إلا بقدرة الله[١] .

ويَظهر من الآيات التي تتحدث عن السيدة مريم وعن عيسى عليه السلام ميزانُ المعجزات القائم على خرق السنن والأسباب بقدرة الله .

كما يَظهر ميزانُ الوحي الإلهي الذي لا يتأثر بما يَحدُث في نفسية الرسول ﷺ ، ومن معه ، فمع وجود صراع بينهم وبين النصرانيين أتباع سيدنا المسيح (عليه السلام) وما تلقاه الرسول من معظمهم من العنت والجدل وإثارة الشبهات والتشكيك استمرَّ القرآن الكريم على نهجه من العناية بسيدنا عيسى (عليه السلام) وبأمه وجدَّته ، ووصفه مع أمه بأوصاف عظيمة .

فهذا من الأدلة الواضحات على أن القرآن نزل من لدن الحكيم الخبير ربِّ العالمين ، وليس من الرسول ، وإلا فهو بشر قد تظهر آثار انفعالاته على كلامه .

والخلاصة : أن كتاب (عيسى عليه السلام . . . الحقيقة الكاملة) سفر عظيم يمثل فعلاً الحقيقة الكاملة عن سيدنا عيسى (عليه السلام) وأمه الصديقة مريم من الينبوع الصافي كتاب الله العظيم ، وأنه جامع نافع ، لا يستغني عن قراءته والتدبُّر فيه مسلم ولا نصراني ، بل ولا كل من يريد البحث عن الحقيقة المتوازنة

---

(١) انظر سفر حزقيال (٣٧ : ١ـ١٠) وسفر الملوك الأول١٧ : ٢١ـ٢٢ ، ويراجع : إبراهيم لوقا : المسيحية في الإسلام ، ط١ ، دار النشر القبطية ، القاهرة ص١٢٩ ، هيم ماكي : بولس وتحريف المسيحية ، ترجمة سميرة عزمي الزين ، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية ، الكتاب الثالث ، وشارل جبيرو : المسيحية نشأتها وتطورها ، ترجمة د. عبدالحميد محمود ، ط١٠ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص٣٩ ، وعلي زلماط : نفي ألوهية عيسى عليه السلام من خلال الإنجيل ، مقالة في مجلة البيان بتاريخ ١٦/ ٢/ ٢٠١٧ .

القائمة على الميزان الدقيق المأخوذ من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، فالكتاب يُجيب عن الأسئلة التي حار فيها معظم النصارى منذ مجمع (نيقية) عام ٣٢٥م الذي مَزَّق النصارى إلى فرقاء حول طبيعة المسيح ، وذلك لأن المؤلف (حفظه الله) جمع جميع الآيات المتعلقة بسيدنا عيسى (عليه السلام) وأمه وأسرته جمعاً واعياً قائماً على الموازين والتدبُّر والفقه العميق والفهم الدقيق .

لذلك أُوصي بقوة بنشر هذا الكتاب على أكبر مستوى وباللغات الحية في العالم ليعرف الناس جميعاً وخاصةً النصارى موقف القرآن الكريم من هذا الرسول العظيم (عليه السلام) وأسرته .

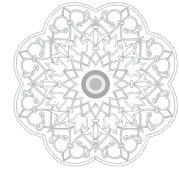
فجزى الله أخي العلامة الدكتور علي الصلابي على هذه الجهود المباركة الهادئة الهادفة المؤصِّلة ، ونفع الله به وبكتابه هذا وجعله خالصاً لوجهه الكريم وتقبله منه بقبول حسن ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدوحة ٧ شوال ١٤٤٠هـ

كتبه الفقير إلى ربه

أ د . علي محيي الدين القره داغي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله ، نحمده ونستعين به ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ـ٧١] .

يا ربِّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، ولك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرِّضا .

أما بعد : كان من أقدار الله العجيبة زيارتي إلى إيطاليا بتاريخ ٢٩/ ٤/ ٢٠١٥م، بدعوة من منظمة سانت أجيديو (منظمة مجتمع مدني) ، وكان يرافقني الأخوان الكريمان عاطف بوكره ووليد اللافي الفرجاني الترهوني ، وكان هدف الزيارة الحديث عن إحلال السلام والمصالحة بين الفرقاء في ليبيا ، وقد حضر من طرف المنظمة كلٌّ من :

ـ الأب أنجيلو رومانو .

ـ السيد أندريا ترينتيني .

ـ المترجمة السيدة أنجيلا الريس .

وكان اللقاء في إحدى كنائس روما التابعة للفاتيكان ، وقد تحدَّثتُ فيه عن مفهوم السلام في الإسلام ، وتطرَّقتُ للحديث عن أسماء الله الحسنى ومنها اسم السلام ، وأن صلاتنا تبدأ بـ(الله أكبر) وتنتهي بالسلام ، وأنَّ من أسماء الجنة دار السلام .

وكانت طبيعة الحديث تدعو إلى بيان موقف الإسلام من سيدنا عيسى عليه السلام وأمه الصديقة العذراء البتول عليها السلام ، وبدأتُ في ذكر الآيات ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم : ١٦] .

وعندما وصلت في شرحي لهم ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم : ٢٨ ـ ٣١] .

وإذ بالمترجمة تبكي وتفيض عيناها بالدموع ، ومن ذلك الموقف جاءتني فكرة ـ واعتقد أنها ربانية ـ لماذا لا نخرِّج الآيات التي تحدَّثَت عن سيرة عيسى وأمه عليهما السلام من القرآن الكريم ، ونصوغها في كتاب منهجي فكري (حضاري) يتماشى مع روح العصر والحوار الإنساني ، يعتمد على قول الله عز وجل في بيان حقيقة عيسى عليه السلام مصحوباً بخطابٍ عقلاني وأساسٍ منطقيّ ، يستهدف الوجدان الإنساني المتعطش لمعرفة حقيقة المسيح عيسى ابن مريم .

ويُعرَض هذا الكتاب ويُتَرجَم إلى لغات عالمية ، لعل الله عز وجل يهدي به أقواماً وشعوباً نحبُّ لهم الخير والسعادة في الدارين .

وقد بدأتُ في جمع المادة وشراء الكتب المتعلقة بسيدنا عيسى عليه السلام ، وكل ما له صلة بذلك ، وطالعتُ بنهمٍ عجيبٍ ما يتعلَّق بالعقائد النصرانية وجذورها ، وتاريخ المجامع الكنسيّة والعهد القديم والجديد من كتبهم المقدسة ، وإنجيل لوقا ومتّى ويوحنّا ومرقس وبرنابا ، إضافةً إلى الرسائل الجامعية حول هذه المواضيع ، والاضطهاد الذي تعرَّض له الموحِّدون من النصارى على مرِّ التاريخ ، وكذلك الحوارات والمجادلات بين علماء المسلمين والنصارى قديماً وحديثاً .

وعكفتُ على الآيات القرآنية بمنهجية التفسير الموضوعي ، وهو في الأصل تخصُّصي حيث إن رسالتي للماجستير كانت حول «الوسطية في القرآن الكريم» ، وأما رسالة الدكتوراه فكانت في «التمكين في القرآن الكريم» .

وبحثت في تفسير الآيات المتعلِّقة بعيسى وأمه وسيرتهما ، ودعوته ومكانته بين الأنبياء والمرسلين ، وما ورد من أقوال العلماء في ذلك ، وإذ بي أكتشف جهلي بتلك السيرة العظيمة المباركة ، وقلت في نفسي ألا يستحق بقيَّة عمري أن يُفنى في البحث والتعريف بسِيَر أولي العزم من الرسل وغيرهم من الأنبياء والمرسلين الذين جعلهم الله سادة الأمم وقادة الإنسانية وقدوة المهتدين على مرِّ العصور .

يعدُّ هذا الكتاب بداية لمشروع حضاري كبير ، وهو تعريف بني الإنسان بسيرة الأنبياء والمرسلين ودعواتهم من خلال القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وشرح سِيَرِهم وأخلاقهم وأصول دعوتهم من أحاديث الرسول الصحيحة ، وأقوال العلماء الراسخين بأسلوبٍ عصريٍّ يلائم المرحلة التي تمرُّ بها الإنسانية المعذَّبة ببعدها عن هدايات السماء .

إنني أحمد الله العليَّ الكبير أن وفقني للاهتمام بهذه المواضيع ، وأحمده وأشكره على نعمه ، وأسأله أن يعينني على نفسي ، وأن يجعلَ أعمالي خالصة لوجهه الكريم ، ويمدَّني بتسديدٍ وتوفيقٍ في الكتابة والمنهجية ، والطباعة

والنشر ، ويطرَح لها القبول بين الناس ، ويجعلها سبباً في هداية الكثير من الحيارى لمعرفة الطريق المستقيم ، وأن تصل هذه الحروف والكلمات والجمل والصفحات إلى العقول والفِطَر ، والقلوب والنفوس البشرية ، وتكون من الأسباب في إنارة الطريق لها في وسط هذه الدياجير الظلامية من شبهات شيطانية وشهوات إبليسية ، وأن تكون سبباً لي ولمن أعانني وأسهم في نشر هذا الخير في رفقة النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين .

وقد سمّيتُ هذا الكتاب بعنوان (**المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الحقيقة الكاملة**) ، وقد قسمته إلى مجموعة من المباحث .

تحدثت في **المبحث الأول**عن الجذور التاريخية للوطن الذي وُلد فيه عيسى عليه السلام ، فتكلمتُ على تاريخ فلسطين ، وعهود بني إسرائيل كعهد القضاة وعهد الملوك ، وعهد الانقسام ، وتناولت الحالة السياسية والاجتماعية والحياة الفكرية لهم ، وأثرَ الحضارة الإغريقية والدولة الرومانية على فلسطين وبلاد الشام ، وكذلك تحدثت عن الطوائف اليهودية عند ظهور المسيح عليه السلام ، وعقائدهم وأفكارهم ، كالسامريين والصدوقيين والفريسيين ، والقمرانيين ، والآسينيين ، وعن الهيكل ورجال الدين ، وعن مفاهيمَ لكلماتٍ مهمة في هذا الكتاب ، كالنصارى والمسيحية ، ولماذا لُقِّب عيسى بالمسيح؟ وما الفرق بين المسيحي والنصراني؟

أما **المبحث الثاني**فقد سمَّيتُه (حديث القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام) ، وجمعتُ فيه المواضع التي ذُكر فيها عيسى عليه السلام وأمُّه في القرآن الكريم ، وتتبعتُ حديثَ القرآن عن جدَّته لأُمِّه وعن عائلة آل عمران ، ولماذا ذُكروا في سورة آل عمران ، ومن هم آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين؟

وكان حديثي عن ولادة مريم من المنظور القرآني ، وبيَّنت معنى مريم بأنها العابدة الخاشعة الخادمة للربّ ، ووضَّحتُ دعاء امرأة عمران لله عز وجل

ومناجاتها له وتضرُّعها وانكسارها بين يدي ربها ومخاطبته بأسماء الله الحسنى ، الربّ ، والسميع ، والعليم ، واستجابة الله لها ، وقبول دعائها ، وكيف أن الله عز وجل رعى ابنتَها ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ـ تفيد الآية حسن نمائها وسلامتها ، واكتمال بنيتها اكتمالاً طبيعياً برعاية ربانية خالصة ـ وكيف أن الله عزَّ وجل جعل زكريا ليتكفَّل برعاية مريم عليها السلام ، وأشرتُ إلى الكرامة التي حدثت لمريم من رزق الله لها بغير حساب ، وكذلك توجُّه زكريا بدعائه إلى الله عزَّ وجل بأن يرزقه الذرية الطيبة الصالحة بعدما بلغ من الكبر عِتيًّا، واشتعل رأسه شيباً، وقبول الله لدعائه ، ووقفت على نداء زكريا الخافت وتمهيده البديع للدعاء ، وبشارة الله لزكريا وهو في المحراب ، وصفات يحيى عليه السلام التي ذُكرت في القرآن وبيّنت الحكمة والمناسبة من ذكر قصة يحيى وزكريا عليهما السلام في الحديث عن سيرة مريم ، وهو أنه لما ذكر الله تعالى قصة ولادة يحيى بن زكريا من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً ، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارقٌ للعادة لعُقم المرأة وهرم الشيخ ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع من خرق العادات فذَكر ولادة عيسى عليه السلام من غير أب وهي شيء أعجب من الأول بكثير .

وكان حديثي عن اصطفاء الله لمريم على العالمين ، هل هي صِدِّيقة أم نَبيّة؟ وتحدثت عن قنوتها وسجودها وركوعها مع الراكعين ، وبشارة الملائكة لها بعيسى عليه السلام وجملةٍ من أوصافه ، كونه وجيهاً في الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلِّم الناس في المهد وكهلاً ، ومن الصالحين ، وموقف مريم من هذه البشارة .

ونقلتُ الحوار الذي حدث بين جبريل عليه السلام ومريم الذي ذكره الله عز وجل في سورة مريم ، وشرحته من خلال أقوال علماء التفسير وما فيه من معانٍ وقيم ، ودروسٍ وعبر ، وقدرة الله المطلقة في خلقه وتدبير شؤونهم ، ووضَّحتُ ما معنى كون عيسى كلمةَ الله وروحاً منه ، وما هي الروح؟ وما معانيها في القرآن الكريم؟ وما هو تفسير قوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنۡهُ ﴾؟

ووصفتُ مولد عيسى عليه السلام كما في الآيات القرآنية التي بينت عظمة الحدث الجلل ، وما مرَّت به مريم عليها السلام من آلام جسدية ونفسية حتى وصلت إلى تمنِّي الموت ، وما صاحب ذلك الابتلاء من نفحات وبركات ومِنَحٍ ربانية عالية .

وذكرت حديث عيسى عليه السلام في المهد ودفاعه عن والدته وبراءتها من التهم التي نُسبت إليها من خلال قوله تعالى : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣٠ـ٣٣] .

وألقيت الضوء على معاني الآيات القرآنية العميقة التي بيَّنَت حقيقة عيسى ابن مريم عليهما السلام ، ونقلت موقف النجاشي ملك الحبشة من سماعه آيات سورة مريم عندما قرأها عليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، ووضَّحتُ دورَ مريم العظيم في تاريخ الإنسانية وأنها مدرسة في الصدق مع ربها ونفسها ودينها ، وفي العفة والصبر والاحتساب والعبادة ، والابتهال لله عزَّ وجل والاعتماد والتوكل عليه .

وبسطتُ القولَ في رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ، ووجوب الإيمان بأنه عبد الله ورسوله ودعوته إلى التوحيد ، وبشريّتِه ، وكيف أن القرآن الكريم جلَّى هذه الحقائق وبيَّنَها أحسن بيان ، بالاستدلال السليم والنظر القويم والمنطق الواضح والدليل الساطع :

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧٢ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٧١ ـ ١٧٢].

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١٢٠].

وغير ذلك من الآيات الكريمة المتعلقة بحقيقةِ عيسى عليه السلام ودعوته وبشريَّتِهِ.

ووضَّحتُ في هذا الكتاب مكانة عيسى عليه السلام بين الأنبياء والمرسلين، وأن تعاليمه من الله تعالى، وأنه من أولي العزم الذينَ ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وبيّنتُ أصولَ الشرائع التي دعا إليها، وكذلك أصولَ الإيمان والأخلاق والفضائل، وكذلك التفاضُلَ بين الرسل، وأكَّدت على حقيقة مهمَّة مفادها أن دين الأنبياء والمرسلين هو الإسلام، وذكرتُ الحُجَجَ والبراهين الدالَّة على ذلك من نوح ومَن قبلَه وإبراهيمَ ومَن بعدَه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من خلال الآيات القرآنية الكريمة.

وأشرتُ إلى تصديق عيسى عليه السلام لما بين يديه من التوراة، وأوصاف التوراة في القرآن الكريم وما تعرّض له من التحريف، وإلى نزول الإنجيل عليه وما تعرَّض له من التحريف بعدما رفعه الله إليه.

وقد ذكرتُ الدراساتِ المُهمّةَ حول الموضوع، وما وصلت إليه من نتائج متعلقة بالأناجيل:

ـ (التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة) دارسة لـــ د. سارة حامد محمد العبادي، وهي رسالة علمية في كتاب.

ـ (منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل؛) دراسة مقارنة لـــ د. عزّية علي طه، وهي رسالة علمية في كتاب.

ـ(مصادر النصرانية) ، دراسة ونقد لـــ د. عبد الرزاق عبد المجيد ، وهي رسالة علمية في كتاب.

ووقفتُ عند صفات محمد ﷺ في التوراة والإنجيل ، وبشارة عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٦ ـ ٧]. وسطوع البشارة به في كتب أهل الكتاب ، وذكرت من أسلم من علماء أهل الكتاب بسبب تلك البشارات.

وتحدثتُ في **المبحث الثالث**عن معجزات عيسى عليه السلام والحَواريِّين ورفعِه إلى السماء ، وتحدثت عن المعجزة وشروطها ، والفرق بينها وبين الكرامة ، وذكرت معجزات عيسى التي ذُكِرَت في القرآن الكريم ، كميلاده بلا أب ، وتأييده بروح القدس ، وتعليمه الكتاب والحكمة ، وإبراء الأكمَهِ والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله ، والخلق من الطين كهيئة الطير والنفخ فيه بإذن الله ، وإخباره عن الغيوب ، وكونها معجزات من الله لتأييد عيسى في رسالته ودعوته إلى توحيد الله عز وجل وعبادته وطاعته.

وتكلَّمتُ على الحَواريِّين واستجابتهم لدعوة عيسى عليه السلام ونصرتهم له ، وعن نزول المائدة ، ثم الاستجواب الكبير لعيسى عليه السلام على رؤوس الأشهاد من رب العالمين يوم القيامة ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨].

وتحدثتُ عن مكر بني إسرائيل بعيسى عليه السلام وحماية الله له ورفعِه إلى السماء ، وتأكيد الله عز وجل في القرآن الكريم بأن عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٥٧] .

وبيّنتُ ما جرى ليلة القبض على الشبيه ، وترتيبَ أحداث مسلسل تلك الليلة ممّا ذكره المؤرخ الكبير والمفسر الشهير العلامة ابن كثير ، وتدبَّرت في الآيات التي تحدَّثَت عن نفي قتل عيسى وصلبه ، وإنما الذي قُتل هو الشبيهُ ، واستأنستُ بآراء العلماء الراسخين ، وتجلَّت لي حقائق ذكرتها في هذا الكتاب ، وبيَّنتُ اضطراب الأناجيل في أحداث مقتل الشبيه ، وأن أقربها إلى الصواب إنجيل برنابا ، وناقشتُ فكرةَ الصَّلبِ والفداء ومفهومها في عقيدة النصارى ، وختمت المبحث الثالث بالحديث عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان والأدلة من القرآن والسنة الصحيحة ، والحكمة من نزوله ، وبماذا يحكم عليه السلام ، وأهم أعماله في تلك الفترة ، وكم يبقى في الأرض قبل وفاته؟

وأفردتُ **المبحث الرابع** لوفد نصارى نجران ومجادلتهم لرسول الله ﷺ ، ووضَّحتُ موقفهم من دعوة النبي ﷺ وذهابهم إليه وهيئتهم عند وصولهم ، ومجالس الجدل والمناظرات ، وأهم الموضوعات التي تمَّ مناقشتها والجدال حولها وما نزل عن تلك المحاورات من آيات قرآنية ، ودعوتهم إلى المباهلة وامتناعهم من ذلك خوفاً من عذاب الله لما يعلمون من صدق النبي ﷺ وصحَّة نبوته ، فقد أكَّدت الرواياتُ الواردة عنهم اعترافَهم بأنه النبي الذي بشَّرت به الكتب المقدَّسة لديهم ، وطلبوا الصلح مع رسول الله ﷺ واستجاب لهم .

وختمتُ بالدعوة إلى الكلمةِ السَّواء ، التي دعا إليها الله عزَّ وجل في كتابه عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وأن الأنبياء والمرسلين دعوا إلى توحيد الله وعبادته وطاعته ، وعرَّفوا الناس

بخالقهم العظيم ، وحقائق الكون والحياة والموت والجنة والنار والشياطين والملائكة وطبيعة الإنسان ، من خلال الوحي الرباني الذي نزَل عليهم من عند الله عز وجل .

وقد حفظ الله لنا في كتابه العزيز سِيَرَهم وتاريخهم وأصول دعوتهم ، ومن بينهم عيسى عليه السلام من خلال الرؤية القرآنية الصادقة المحكمة التي قدمت سيرة عيسى عليه السلام وأمه في أبهى صورةٍ وأروع بيانٍ وأصدق حقيقة .

وفي نهاية هذا الكتاب، رأيتُ أن أختمه بشرح أعظم آية في كتاب الله عز وجل (آية الكرسي)، وكيف عرَّف نفسه سبحانه وتعالى لخلقه من خلالها، إذ كل ما فيها متعلق بالذات الإلهية العليّةِ ، وناطقٌ بربوبيته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه .

وكان من الطبيعي أن أختم كتابي ، بما ورد في القرآن الكريم من وصف الله عز وجل بصفات الكمال ، وأنه المتفرد بها وحده دون سواه في سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] . ففي هذه السورة وصف الله سبحانه نفسه بأنه أحدٌ صمدٌ ، وهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق ، و(الصمد) هو المستغني عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد .

وحاولتُ في هذا الكتاب تبيانَ الحقيقة الكاملة لعيسى عليه السلام من خلال التفسير الموضوعي لآيات الذكر الحكيم التي جاءت في كتاب الله العزيز (القرآن الكريم) .

وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الإثنين بعد صلاة العصر الموافق لـ ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٤٠هـ الموافق لـ ٢٥ فبراير ٢٠١٩م في مدينة إستانبول عند الساعة الخامسة والأربعين دقيقة .

والفضل لله من قبلُ ومن بعدُ ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً ، وأن يُكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلبٍ خاشع منيب أمام خالقي

العظيم ، وإلهي الكريم ، معترفاً بفضله وكرمه وجوده ، متبرئاً من حولي وقوتي ، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي .

فالله خالقي هو المتفضل ، وربي الكريم هو المعين ، وإلهي العظيم هو الموفق ، فلو تخلَّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي ، لتَبلَّد مني العقلُ ، ولَغابت الذاكرة ، ولَيَبِسَت الأصابع ، ولَجفَّت العواطف ، ولتحجَّرت المشاعر ، ولعجز القلم عن البيان .

اللهم بصِّرني بما يُرضيك واشرح صدري ، وجَنِّبني اللهم ما لا يُرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري ، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلى أن تُثيبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد .

اللهم اجعله لوجهك خالصاً ، ولعبادك نافعاً ، واطرح فيه البركة والقبول ، والنفع العظيم لبني الإنسان ، ونرجو من كل من يَطَّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه .

قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] .

والحمد لله رب العالمين

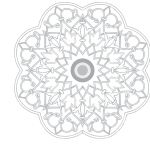
الفقير إلى عفو ربِّه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبيُّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

حُرّر في : ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٤٠ هجرية

الموافق لـ ٢٥ فبراير ٢٠١٩ ميلادية



المبحث الأول

الجذور التاريخية للوطن الذي ولد فيه عيسى عليه السلام

ولد عيسى عليه السلام بأرض الجليل من مناطق فلسطين أو «جليل الأمم» كما سمّاها الإسرائيليون[1] فيما بعد؛ لأنّها كانت إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية

(١) الإسرائيليون: ولد يعقوب عليه السلام بأرض كنعان، ورزق باثني عشر ولداً، هم أبناء إسرائيل، لهذا يقال لنسلهم بنو إسرائيل، وكان منهم أربعة أنبياء، هم: لأوي ويوسف وبنيامين ويهوذا، وموسى عليه السلام من نسل لأوي. وكان يعقوب عليه السلام كما وصفه القرآن الكريم صاحب حكمة وذكاء، كان هو وأبناؤه يسكنون جنوب بلاد الشام، وكان عددهم سبعة وستون رجلاً عدا النساء. (انظر: د. عبد الناصر قاسم الفرا، الهيكل المزعوم بين الوهم والحقيقة، مجلة علوم سياسية، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، ص ٨.
وفي ديوان العبر عند ابن خلدون: «الخبر عن بني إسرائيل وما كان لهم من النبوة والملك وتغلبهم على الأرض المقدسة بالشام وكيف تجددت دولتهم بعد الانقراض وما اكتنف ذلك من الأحوال قد ذكرنا عند ذكر إبراهيم وبنيه صلوات الله وسلامه عليهم ما كان من شأن يعقوب بن إسحاق واستقراره بمصر مع بنيه الأسباط، وفي التوراة أن الله سماه إسرائيل، و«إيل» عندهم كلمة مرادفة لعبد، وما قبلها من أسماء الله عز وجل وصفاته، والمضاف أبداً متأخر في لسان العجم، فلذلك كان «إيل» هو آخر الكلمة وهو المضاف، ثم قبض الله نبيه يعقوب بمصر لمئة وسبعة وثمانين سنة من عمره وأوصى أن يدفن عند أبيه، فطلب يوسف من فرعون (حاكم مصر) أن يطلقه لذلك فأذن له، وأمر أهل دولته بالانطلاق معه، فانطلقوا وحملوه إلى فلسطين فدفنوه بمقبرة آبائه، فهي التي اشتراها إبراهيم من الكنعانيين، ورجع يوسف إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي لمئة وعشرين سنة من عمره، ودفن بمصر وأوصى أن يحملوا شِلْوه معهم إذا خرجوا إلى أرض الميعاد وهي الأرض المقدسة». ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، المقدمة الأولى، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ج٢/ ص ٥٨.

والغربية ، أيّ في مدينة بيت لحم ، والتي تبعد قرابة ١٠٠ كم جنوبيَّ القدس .

ولذا من المهم التعريف بجغرافية هذه المنطقة والأحداث التي مرَّت بها قبل بعثة عيسى عليه السلام. ومعنى الجليل بالعبرية «الدائرة» ، ويعنون بها الإحاطة؛ لأنّها اتسعت للكثير ممن يُحال بينهم وبين الإقامة في بلاد أخرى من فلسطين ، ولا سيما الجنوب حيث اليهودية[١] .

وتقع الجليل في الجزء الشمالي من فلسطين بين البحر الأبيض المتوسط وبحيرة طبرية ، جنوب ما يعرف بلبنان ، وكانت طبرية هي العاصمة السياسية لهذه المنطقة ، أما قُراها التي اشتهرت في الإنجيل فهي كفر ناحوم والناصرة ـ حيث نشأ عيسى عليه السلام ـ ونايين ، ومجدل[٢] .

أولاً: تاريخ فلسطين:

تاريخ فلسطين تاريخ حافل ، ففي الألف الثالثة قبل الميلاد هاجر إلى هذه المنطقة ـ والتي سميت فلسطين فيما بعد ـ أفواج من القبائل العربية، فكان الفينيقيون، وهم شعب ساميٌّ مَنَبَتَهُ لا يزال غير محدَّد بصورة دقيقة ، أسبق الجماعات هجرة إلى هذه المنطقة ، وقد وجدوا على شاطى البحر المتوسط شمال غرب فلسطين مكاناً جيداً للاستقرار ، فأقاموا به وأنشؤوا أهم مدنهم : صيدا وصور .

وإلى الجنوب من الفينيقيين نزلت قبائل عربية واستقرت على ضفة الأردن الغربية نحو البحر المتوسط في المنطقة الوسطى من فلسطين، وسُمّيت هذه المنطقة مُدناً عدّةً باسمهم، فأصبحت تدعى «أرض كنعان». وقد شملت أرض كنعان مدن عدة، أهمها السامرة والتي أصبحت فيما بعد حوالي عام ٨٨٠ ق . م عاصمة مملكة إسرائيل[٣] .

---

(١) بسمة أحمد جستنية ، تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ أسبابه ونتائجه ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص٢١ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢١ . وانظر: هنري . س عبودي ، معجم الحضارات السامية ، لبنان ، جروس برس ، ط٢ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م ، ص٣٢٠ـ٨٣٥ .

(٣) معجم الحضارات السامية ، ص٤٥٤ .

وفي سنة ١٢٠٠ ق. م نزلت بالساحل المُطلِّ على البحر المتوسط جماعات من جزيرة «كريت» وكانت تسمى قبائل «فلستين» ، نزلت بين «يافا» و«غزة» واختلط الكنعانيون بهم ، وأطلقوا عليهم اسم «فلسطينيين» وأصبحت المنطقة كلها تعرف باسم فلسطين(١).

وفلسطين في المنطقة التي يذكر أهل الكتاب أن إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر إليها ، مع العلم أنهم لم يذكروا أنه هاجر بسبب أذى قومه له ومحاولتهم قتله بعد أن دعاهم إلى عبادة الله ، وفي فلسطين رُزق بإسماعيل ثم بإسحاق عليهما السلام ، ورُزق إسحاق بيعقوب عليه السلام وهو إسرائيل الذي يُنسب إليه بنو إسرائيل(٢).

وظل بنو إسرائيل ـ أبناء يعقوب بن إسحاق عليه السلام ـ في أرض فلسطين يتنقلون في جنباتها على عادة الرعاة ، ويعيشون فيها حياة البداوة كما قال عز وجل حكايةً عن يوسف عليه السلام ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

واستمر بهم هذا الحال إلى أن انتقلوا إلى مصر فاستوطنوها زمن يوسف عليه السلام حتى خرجوا منها بعد ذلك بزمنٍ طويلٍ مع موسى عليه السلام، بعد أن أوحى الله تعالى ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]، فخرج بهم، وكان أن حكم

---

(١) تحريف رسالة المسيح ، ص٢٢.

(٢) إسرائيل: كلمة عبرية مركبة من كلمتي «إسر» و«إيل»: إسر ومعناها القوة والغلبة ، وإيل: معناها الإله أو الله ، ومعناها في نصوص العهدين القديم والجديد يصرع أو يجاهد الإله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وترد كذلك بمعنى قوة الله ، أما مفهومها الإسلامي كما ذكره المفسرون فهو بمعنى عبد الله أو صفوة الله. والقرآن الكريم أقر الاسمين ليعقوب عليه السلام، وقد أطلق هذا الاسم كذلك على المملكة الشمالية لفلسطين. يُنظر: عبد الشكور محمد أمان ، بنو اسرائيل وموقفهم من الذات الإلهية والأنبياء ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ١٤٠٢هـ ، ص١٢٩. وانظر في: الشوكاني ، فتح القدير ، دار ابن كثير/ دار الكلم الطيب ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ، ١/ ٧٣ ـ ٨٤. وفي: معجم الحضارات السامية ، ص٧٨.

الله عليهم بالتيه بعد ذلك، وذلك جزاء تخاذلهم عن قتال أهل الأرض المقدسة[١].

وصل موسى عليه السلام إلى أرض «موآب» شرقيَّ الأردن، وصعد إلى قمة جبل قبالة «أريحا» ونظر إلى الأرض التي أشار إلى بني إسرائيل بدخولها، ومات موسى عليه السلام على أرض «موآب» ولم يدخل الأرض المقدسة[٢].

وخلف موسى عليه السلام يسوع ـ كما يسميه أهل الكتاب ـ «يوشع بن نون» الذي اختاره موسى قبل موته لقيادة بني إسرائيل وهو الذي عَبَرَ بهم إلى أرض كنعان ـ فلسطين ـ بعد انقضاء التيه المحكوم به على بني إسرائيل، وذلك في حدود القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكان هذا أول استقرار لبني إسرائيل، واستيطان لفلسطين[٣].

ثانياً: عهود بني إسرائيل:

مرَّت حياة بني إسرائيل في فلسطين بثلاثة عهود متميزة:

١ ـ عهد القضاة:

كان حكام اليهود فيه في هذه الفترة قضاة من الكهنة، ولم يكن في بني إسرائيل ملوكٌ في تلك الأيام، وقد دُوّن تاريخ هذه الحقبة في سفر القضاة.

٢ ـ عهد الملوك:

هو العهد الذي بدأ فيه الحكم ملكياً، وقد قصّ الله علينا خبر أول ملوكهم في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. فجعل الله عز وجل عليهم طالوت

---

(١) سعود بن عبد العزيز الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) المقريزي، تاريخ الأقباط، تحقيق: عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، نسخة عن مطبعة التوفيق، مصر، ١٨٩٨م، ص٤٣.

(٣) تحريف رسالة المسيح، ص٢٤.

ملكاً ، ويسمَّى في كتبهم شاؤول ، وخلفه داود عليه السلام في زعامة اليهود ، واتُّخذت مدينة القدس عاصمة للملك ، ثم خلف النبي داود ابنه النبي سليمان عليه السلام في ملكه ، وكان عهدهما أزهى العهود التي مرت على بني إسرائيل .

٣ ـ عهد الانقسام «زوال ملك بني إسرائيل» :

هو العهد التالي لسليمان عليه السلام ، حيث انقسمت مملكته إلى مملكتين ، مملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها القدس ، ومملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها نابلس في الجليل ، وكان بين الدولتين عداء وقتال ، وكان يحدث في بعض الفتوحات من تاريخهما توافق وتفاوت وكانت تقع على الدولتين حروب من قبل جيرانهم ، كما أن الدولتين وقع حكامهما وشعبيهما في عبادة الأصنام في كثير من فترات تاريخهما(١) .

ثم تسلط الأعداء عليهم ، ثم كان زوالهم ، وذلك باستيلاء الآشوريين على دولة إسرائيل عام ٧٢٢ ق . م والقضاء عليها ، ثم سقطت دولة يهوذا في الجنوب بيد الفراعنة عام ٦٠٣ ق . م تقريباً ، وبعد ذلك جاء حاكم بابل الكلداني بختنصّر ، واسترجع منطقة الشام وفلسطين وطرد الفراعنة منها ، وزحف مرة أخرى على دولة يهوذا التي تمرَّدت عليه ، فدمَّرها ودمَّر معبد أورشليم وساق شعبها مشياً إلى بابل ، وهو ما يُسمَّى بالسَّبْي البابلي ، وكان ذلك نهاية دولة يهوذا في حدود عام ٥٨٦ ق . م .

ثم سقطت دولة بابل في يد الفرس في عهد ملكهم قورش سنة ٥٣٨ ق . م الذي سمح لليهود بالعودة إلى بيت المقدس وبناء هيكلهم وعين عليهم حاكماً منهم من قِبَلِه .

واستمر حكم الفرس من ٥٣٨ ـ ٣٣٢ ق . م ، فجاء إلى بلاد الشام وفلسطين

---

(١) أحمد شلبي ، اليهودية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٨ ، ١٩٨٨م ، ص٦٩ ـ ٧٠ . وانظر : محمد عبد الحليم مصطفى أبو السعد ، دراسة تحليلية لإنجيل مرقس تاريخياً وموضوعياً ، مطبعة الجبلاوي ، مصر ، ط١ ، ١٤٠٤ ، ص٤٩ .

الإسكندر المقدوني اليوناني ، واستولى عليها وأزال حكم الفرس ، ودخلت منطقة اليهود تحت حكم اليونان في نهاية القرن الرابع ق . م ، إلى منتصف القرن الأول ق . م ، حيث زحف بعد ذلك على البلاد القائد الروماني بومبي سنة ٦٣ ق . م وأزال حكم اليونانيين عنها ، فدخل اليهود تحت حكم الرومان وسيطرتهم ، وفي زمانهم وُلد المسيح عليه السلام[١] .

ثالثاً: الحالة السياسية والاجتماعية:

خضعت فلسطين للسياسة الرومانية منذ سنة ١٣ ق . م ، فانتهجت في أول الأمر نظام الحماية وأوكلت ظاهر السلطة إلى ملك محلي من اليهود لضمان ولائه .

وتجدر الإشارة إلى أن من اليهود من استقبل حكم الرومان بصدر رحب ، وتعاونوا معهم في حكم البلاد ، ومنهم مَن اعتبروا وجودهم أمراً يجب محاربته ومن هذه الجماعة ظهرت أحزاب ساهمت في تطوير النصرانية .

وفي عهد أغسطس إمبراطور روما (ت : ١٤م) ، أحاطت الامبراطورية الرومانية في تلك الفترة بالبحر المتوسط كله وببلاد أوروبا الواقعة غرب نهر الراين إلى البحر الأسود ، وحكمت الأناضول «تركيا» وبلاد الرافدين والشام ومصر والشمال الأفريقي كله ، أيّ أن المجتمع النصراني وُلد في مكان التقى فيه عالمَان : الشرق والغرب ، والساميون والرومان ، والإغريق واليهود وغير اليهود[٢] .

وقد تولى الحكم في منطقة فلسطين رجل متهور هو «هيرودوس الأكبر» بين سنتي ٤ ـ ٣٧م ، ثم ما لبثت روما من سنة ٦م أن أخضعت المنطقة كلها لحكمها المباشر ، فضمت مقاطعتي اليهودية في الجنوب والسامرة في الوسط في ولاية واحدة[٣] .

وبعد موت هيرودوس الأكبر خلفه أبناؤه الثلاثة على حكم فلسطين معتَمَدين

---

(١) تحريف رسالة المسيح ، ص٢٥ .
(٢) جون لوريمر ، تاريخ الكنيسة في العهود الأولى ، دار الثقافة ، القاهرة ، د . ت ، ص٣ .
(٣) تحريف رسالة المسيح ، ، ص٢٦ .

من قِبَل الحكومة الرومانية ، فاحتفظ أنتيباس (٤ ق.م ـ ٣٩م) أحد أبناء هيرودوس الأكبر ـ بمقاطعته المشتملة على منطقة الجليل في شمال فلسطين ، والتي عاصمتها طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عيسى عليه السلام ، ووقعت مشارف الشام في حصة فيليب (٤ ق.م ـ ٣٤م) [١] .

وقد حكم أرخيلاوس منطقة اليهودية والسامرة (٤ ق.م ـ ٦م) ، والتي تشمل منطقة بيت المقدس، وتولى الإمبراطورية الرومانية بعد أغسطس الروماني طيباريوس ودام ملكه سنتين وعشرين يوماً، وقد خضعت منطقة فلسطين وما حولها تحت حكم هؤلاء لكثير من الاضطرابات، أما هيرودوس الأب فلم يكن محبوباً من الشعب؛ نظراً لخضوعه للرومان من جهة، ولطغيانه من جهة أخرى، وظل رجال الدين اليهودي يرون فيه الوثني المُحبَّذ للهلنستية، وفي عهده هَدم الهيكل الذي بناه اليهود زمن عزرا، ثم جدد بناءه على الأسس التي كانت له زمن سليمان عليه السلام[٢] . وقد عُرف هيرودوس بالعنف والشراسة، وكان لا يتردَّد في قتل أي شخص

---

(١) تحريف رسالة المسيح ، ص٢٦ .

(٢) الهيكل المزعوم: إن بناء سليمان للهيكل هو مجرد أكذوبة من أكاذيب اليهود ، والدليل على ذلك: أنه لا يوجد مصدر موثوق به يثبت بناء سليمان عليه السلام لهذا الهيكل ، فالقرآن الكريم قصَّ علينا قصة داود وسليمان عليهما السلام في عدة مواضع ، وذكر قصة سليمان مع بلقيس والهدهد والنملة ومع الجن ، وبعض هذه الأحداث تبدو أقل أهمية من الهيكل! فلماذا لم يتكلم القرآن الكريم عن الهيكل؟ إذا كان بهذه القدسية والجلالة التي يذكرها اليهود؟! .
ونبين معنى كلمة الهيكل فهي: كلمة هيكل في اللغة العبرية تعني: «بيت همقداش» أي بيت المقدس ، وتعني «هيخال» أي البيت الكبير ، وتعني «هرهابيت» أي جبل البيت ، وتعني «بيت يهوه» بيت الإله يهوه ويهوه هو إله اليهود ، وهذا يعني أن الهيكل هو بيت الإله ، وحسب الرواية اليهودية وحسب آراء بعض المؤرخين ، قام سليمان عليه السلام ببناء الهيكل فوق جبل موريا أو فوق هضبة الحرم ، وللهيكل منزلة خاصة في قلوب وعقول اليهود ، وحسب ما يزعمون يُعدُّ الهيكل أهم مكان للعبادة ، ويدّعون أن سليمان عليه السلام بناه لهم ولديانتهم التي يدعونها ، وسليمان عليه السلام يبرأ منهم ومما=

تحوم حوله الشبهات أو يهدد بقلب نظام الحكم ، وكان يضطهد أعضاء السنهدرين (طائفة يهودية) بطريقة بشعة لمجرد شعوره بشيء من النفوذ والسلطة منهم[١] .

وعندما مات هيرودوس ترك مملكته منهارةً اجتماعياً واقتصادياً ، ومقسمة سياسياً بين أبنائه الثلاثة ، وهذا ساهم في إشعال الثورات والاضطرابات بعد موته ، وقامت في البلاد تحالفات وتيارات وطوائف مختلفة من اليهود ما بين مغالية ومعتدلة ، وقد أسهم ذلك كلُّهُ في تدمير أورشليم سنة ٧٠م .

وأما عهد أرخيلاوس الذي حكم اليهودية ، فكان من السوء بحيث كثرت شكوى اليهود ضده للإمبراطور الروماني ، الذي عزله وولى مكانه بيلاطس البنطي ـ الروماني الأصل ـ والياً على اليهود سنة ٢٦م ، واستمرت ولايته عشر سنوات ثم عُزل عنها ، وكان على الجليل وقتها انتيباس الذي كان أشد من أخيه ، وهو الذي قتل يحيى بن زكريا عليه السلام[٢] ، بسبب فتواه بتحريم زواجه من امرأة لا تحل له ، ونقل صاحب العهد الجديد أن عيسى عليه السلام سماه بالثعلب لذكائه[٣] .

وفي تلك الفترة ترك كثير من الشعب اليهودي تمسُّكه بالناموس وتأثروا باليهود الذين اندمجوا في الأمم الخاضعة للإمبراطورية والذين يَفدون إلى فلسطين والقدس للحج ، حتى قادة الدين أنفسهم تخلوا عن مراكزهم وتمسكهم بالناموس ، وهو ما دعا الفريسيين إلى المناداة بالعودة إلى الشريعة ، وزاد من ترقُّب الأسينيين للمسيح الموعود[٤] .

= يفترونه عليه وعلى الله . ينظر : د. عبد الناصر قاسم الفرا ، الهيكل المزعزم بين الوهم والحقيقة ، مجلة علوم سياسية ، جامعة القدس المفتوحة ، فلسطين ، ص ٦٠ .

(١) المرجع نفسه ، ص٢٧ .

(٢) العبري غريغوريوس الملطي ، تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت . لبنان ، د.ت ، ص٢٦ .

(٣) القس فهيم عزيز ، المدخل إلى العهد الجديد ، دار الثقافة ، القاهرة ، د.ت ، ص٢٧ .

(٤) القس حنا الخضري ، تاريخ الفكر المسيحي ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط١ ، د.ت ، ص١٠١ ـ ١١٠ .

وحدثت اشتباكات عدة بين الرومان ووفود الحجيج القادمة من القدس ، وامتدت الاشتباكات إلى أماكن كثيرة لا سيما بين السلطتين وبين جماعة سُمّوا بـ(الغيورين) تميَّزوا بتعصُّب وطني في رفض الوافد (المستعمر) الأجنبي ودفع الجزية وتعصُّب ديني في محاولة تطهير الهيكل من غير اليهود[١] .

وكانت منطقة فلسطين في حالة هيجان وثورة ضد السلطات الرومانية ، كما ذهب إلى هذا أكثر الدارسين ، لا سيما في عهد صيباريوس في حين يرى بعض الدارسين خلاف ذلك .

وباستثناء الصَّدوقيين المتعاونين مع الإمبراطورية الرومانية (الاستعمار الروماني) كانت الأحزاب الأخرى ضد الرومان في نزاع مستمر وعنيف[٢] . ونتيجة لكل هذه الاضطرابات تعمقت فكرة انتظار المخلص الموعود ، وهو ما صعّد من حدة الاضطهاد بينهم وبين الرومان[٣] .

وقد ولد المسيح عليه السلام في أواخر عهد هيرودوس الأكبر ، وعاصر فترة حكم أبنائه فيما بعد بكل ما في تلك الفترة من الأحداث .

لقد كانت الحالة السياسية في فلسطين في عصر المسيح من أسوأ ما يكون ، وأبلغ منها في السوء الحالة الاجتماعية ، وذلك بسبب السلطة المعلقة التي كانت بيد الحكام حيث ضاع النظام مع القانون ، فحدث تفاوت كبير بين الحكام والمحكومين ، فكانت الثروة والترف والطغيان من ناحية ، والفقر والهوان من ناحية أخرى ، إضافة إلى الضرائب التي كانت تُجبى لحساب روما ، وانحصر هدف رجال الدين في جمع الأموال ، وخلا المجتمع من الترابط والتآلف ، وانتشرت العصبية بين الناس ، وظهرت الفوارق الطبقية[٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ص١١٠ـ١١٢ ، ٢١٦ .
(٢) المرجع نفسه ، ص٢١٣ـ٢١٥ .
(٣) تحريف رسالة المسيح ، ص٢٨ .
(٤) تحريف رسالة المسيح ، ص٢٨ .

رابعاً: الحياة الفكرية:

من المنطقي حينما نبدأ الحديث عن السيد المسيح عليه السلام أن نتحدث عن عصره بظروفه وملابساته؛ لأن رسالة الرسول ليست بمعزل عن هذه الظروف التي جاءت أساساً لإصلاحها ، ومن ثم يتفق الرسل جميعاً في هذا الجوهر ، وهو (تصحيح العقيدة) ثم يختلفون بعد ذلك اختلافات (نوعية) حسب المرض الاجتماعي الذي استشرى بسبب فساد العقيدة عند كل أمة ، وقد اختلف هذا المرض من مجتمع إلى آخر(١).

ومن ثم وجدنا كثيراً من الباحثين قد درسوا البيئة التي ظهر فيها عيسى عليه السلام ونشأ بها ، لكي يُثبتوا أن عيسى عليه السلام تأثر بهذه البيئة وبالأفكار المتداولة فيها ، فكانت تعاليمه نتاجاً لمجموعة هذه الأفكار والمعتقدات السائدة في زمنه ، وهذه النظرة توحي إلى بشرية رسالة عيسى عليه السلام(٢) ، وأنه لم يتلقّ هذه التعاليم من وحي إلهي ، وذلك لعاملين أساسيين وهما:

العامل الأول: أن التعاليم الإلهية التي جاء بها عيسى عليه السلام كانت مناسبة لهذه البيئة ، وجاءت علاجاً لمشكلاتها ، فبينما كانت تسيطر الأجواء المادية في ذلك المجتمع جاءت تعاليم عيسى عليه السلام روحية سامية لتعالج ذلك الاستغراق المادي(٣).

العامل الثاني: أن الأفكار والمعتقدات السائدة في تلك البيئة وما حولها كان

---

(١) عبد الغني عبود ، المسيح والمسيحية والإسلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص١٨ . وانظر: محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، جامعة الأزهر ، كلية الدعوة الإسلامية ، ٢٠٠٦ . ص٢٦٤ .

(٢) بشرية رسالة عيسى: أي أن الرسالة التي دعا إليها المسيح عيسى عليه السلام هي صناعة بشرية من أفكاره ومعتقداته جمعها من حوله ولم يتلق تعاليمها من وحي بعثه الله إليه كما غيره من الأنبياء .

(٣) محمد أحمد الحاج ، النصرانية من التوحيد إلى التثليث ، دار القلم / الدار الشامية ، دمشق/ بيروت ، ١٤١٣هـ ، ص٣٥.

لها أثر كبير على العقيدة المسيحية بعد عيسى عليه السلام ، ومن هنا كانت ضرورة دراسة العصر أو البيئة التي ظهر فيها المسيح عليه السلام؛ لأنها غذّت المسيحية بأفكار وفلسفات جديدة كان لها أثر في تلويث المسيحية بألوان مختلفة ، وهذا العصر أو تلك البيئة كانت تنازعها عوامل ثلاثة : هي (الحضارة الإغريقية) التي شكلت عقل الإنسان ، و(الدولة الرومانية) التي حددت له مؤسساته التي يعيش بينها ، وأُطُرَ الحياة في هذه المؤسسات ، ثم (الدين اليهودي) الذي جاءت المسيحية أساساً لإصلاحه بعد أن صار عامل تخريب في العقل وفي أطر الحياة معاً[١] .

١ ـ الحضارة الإغريقية :

هي واحدة من حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط ، التي تشمل حضارات : مصر ، وما بين النهرين (أي ما بين دجلة والفرات) ، والإغريق ، والرومان[٢] .

وأصحاب هذه الحضارات هم اليونانيون الذين كانوا يمثلون أمة عظيمة القدر بين الأمم وسمّوا بذلك أي (الإغريق) لتغلغل حضارتهم وتأثيرها بين أعضاء الجماعات اليهودية في مصر وبرقة ، وسوريا وآسيا الصغرى وفلسطين ، وقد استمرت طيلة العصر الروماني ، كما بيَّنتُ ذلك في ثنايا البحث[٣] .

ومن الثابت أن الحضارة الإغريقية قد بدأت متأخرة عن حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط الأخرى إلا أنه كان لموقعها الاستراتيجي في منطقة البحر الأبيض المتوسط أثره البارز في الاتصال بالبلاد ذات الحضارات القديمة في هذا البحر (في شمال فلسطين) تماماً ، كما اتصلوا بالحضارات الشرقية والجنوبية لحوض البحر ، واكتسبوا من هذه الحضارات الشيء الكثير ، وكان

---

(١) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٣٦٥.
(٢) المرجع السابق ، ص٣٦٥.
(٣) المرجع نفسه ، ص٣٦٥.

على رأس هذه الحضارات التي استفادوا منها الحضارة المصرية القديمة[١].

وقد أخذوا منها الكثير من معارفهم الدينية والفلسفية والعلمية ، كالفلك والطب والزراعة والهندسة والفنون الجميلة وفنون العمارة والنحت والتصوير ، وما يتجاوز الفن الرفيع إلى أشياء أخرى تُسمَّى الفنون التطبيقية وتمسّ الحياة اليومية ، وقد تمس السياسة أيضاً[٢].

وكان كثير من فلاسفة الإغريق المشهورين (أفلاطون مثلاً) قد تلقَّى تعليمه في جامعات مصر ، وقد زار مصر كثيرون من عظماء اليونان المشهورين أمثال (فيثاغورس) و (ديمقريطس)، ومع ذلك فقد استطاعت بلاد اليونان أن تسبق غيرها من البلاد التي أخذت حضارتها عنها خاصة في مجال الفلسفة؛ وذلك لأن هذه البلاد لم تحكمها دولة عريقة، ولم تكن فيها إلى جانب الدول الحاكمة دولة من دول الكهنة التي تتأصل في البلاد، وتتوارث فيها أسرار المعرفة والبحث في أصول الخلق والحياة ، أو في المسائل الإلهية التي يتأثر بها الكهان ورؤساء الدين[٣].

وغير صحيح ما يثيره البعض ـ عن جهل أو سوء نية وقصد ـ من أن حياة الإغريق قد نمت وازدهرت لأنهم قد أبعدوا الدين جانباً عن حياتهم العامة ، على عكس ما فعلته المجموعات التي سبقت اليونانيين عن طريق الحضارة ، ثم تخلفت عنهم على نفس الطريق ، ومن ثم فقد رفعوا من شأن العقل وصبغوا تعاليمهم بالصبغة المدنية[٤].

ربما من الصواب ما رآه ول ديورانت من أن الحضارة الإغريقية كانت حضارة دينية كغيرها من الحضارات التي سبقتها والتي لحقت بها حيث كانت قوانين اليونان ترى المُرُوقَ من الدين (الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية) جريمة كبرى

---

(١) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ، ص ٣٦٦.
(٢) طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص ١٧ .
(٣) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ، ص ٣٦٧.
(٤) المرجع السابق ، ص ٣٦٧.

يُعاقَب عليها بالإعدام ، وهذا هو القانون الذي حُكمَ به على سقراط بالموت[١] .

وهكذا نجد مع ول ديورانت أن الحياة في بلاد اليونان لم تكن حياة دنيوية كما يصفها المؤرخون ، بل كان للدين فيها شأن كبير في كل مكان إلا أنه كان ذا طابع فردي لا طابع (قومي) عام ، بمعنى أنه لم يكن للدولة دين رسمي يتمسك به الجميع أو عقائد ثابتة مقررة ، ولم يكن قوام الدين هو الإقرار بعقائد معينة بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسمية ، وكان في وسع أي إنسان أن يؤمن بما شاء من العقائد على شريطة ألا يكفر بآلهة المدينة أو يَسبَّها[٢] .

ولقد كانت هذه الفردية الدينية وما تبعها من فوضى دينية؛ نتيجة احتكاك الإغريق بالشرق وتأثر بعضهم بالمفاهيم الدينية السائدة فيه ، فكان سبباً عجّل بتفكيك المجتمع اليوناني ثم سقوطه سريعاً تحت ضربات الرومان. ومع ذلك فقد خلّف الإغريق ما كان ذا أثر فعال في صياغة شكل الحياة في الإمبراطورية الرومانية ذاتها ، وما كان ذا أثر فعال في الدين المسيحي نفسه[٣]. ويمكن إجمال ذلك في النقاط الآتية :

ـ تمزيق الكيان الإنساني الواحد بالإعلاء من شأن بعض المواهب التي منحها الله للإنسان والحط من شأن بعضها الآخر ، فلقد أعلى الإغريق ـ على سبيل المثال ـ من شأن العقل ، وحطوا من شأن الجسد ، فحقّروا العمل اليدوي والجري وراء الثراء ، ورفعوا من شأن المحارب السياسي والمسؤولين عن الزراعة ، وحرموا العبيد وغيرهم ممن يزاولون الحرف اليدوية من حقوق المواطنة والتمتُّع بالديمقراطية[٤] .

---

(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، تقديم محيي الدين صابر ، ترجمة زكي نجيب محمود ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ـ دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت ، د.ت ، ٥/ ٩١ .

(٢) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ، ص ٣٦٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٦٨ .

(٤) جورج سول ، المظاهر الاقتصادية الكبرى ، ترجمة راشد البراوي ، مكتبة النهضة =

ـ ترتب على ذلك أن كان هناك تمايز صارخ بين الإغريق وغير الإغريق في داخل حدود مجتمعهم الإغريقي أو في خارجه ، ففي داخل حدود بلادهم نجد أرسطو ينظر إلى العبد على أنه آلة بشرية ، ويظن أن الاسترقاق سيبقى حتى يأتي اليوم الذي تؤدي فيه الآلات التي تدور بنفسها جميع الأعمال الحقيرة ، وأما خارج اليونان فقد كانت الروح الإنسانية لليونانيين وطنية قومية ، ولذلك كانوا استعماريين من الطراز الأول ، وقد ساعدهم على ذلك تجارتهم الدولية التي أدت إلى ظهورهم وظهور حضارتهم التي شهد بها التاريخ(١) .

ـ المادية الغليظة: ظهر الميل إلى تجسيد المجردات برغم الاشتغال بالفلسفة ، ومن ثَمَّ ساد عندهم قبول التفسير المادي للوجود والإنسان ، وانعكست هذه النزعة المادية الوثنية على فكرة الألوهية عند الإغريق ، فإنه «ليس ثمة دين يقرب آلهته من الآدميين قرب آلهة اليونان(٢) . فكان اليونانيون يؤمنون بأن آلهتهم يأكلون ويشربون ويلعبون ويلهون ويخوضون المعارك فيَغلبون ويُغلبون ، ويتألمون ويفرحون ويحزنون ، والويل لمن تعرض لهم أو أغضبهم ، فإن غضبهم شديد ولذلك حكم على سقراط أن يشرب السمّ ومات شهيدَ الجهر بالحقيقة؛ لأنه أفشى أسرار الوحدانية وخلود الروح ، واعتبروه كافراً بالآلهة إلى جانب هذا كانوا يعتقدون أن الأرض لا السماء هي موطن الآلهة اليونانية(٣) .

ولذلك عبدوا آلهة شتى فهناك آلهة للحِرَف والمهن المختلفة ، وآلهة للحرب ، وآلهة مستمدة من الطبيعة ، كما عبدوا رَمْزَي الإخصاب الرئيسين في

= المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر ، القاهرة ـ نيويورك ، ص ١٨ ـ ١٩ .

(١) قصة الحضارة ، ، ٢/ ٦٨ .

(٢) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ، ص ٣٧٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٧٠ .

الرجل والمرأة ، وعبدوا بعض الحيوانات ، كما عبدوا الموتى[١] .

٢ ـ الدولة الرومانية :

سادت في أثينا كل علل (أمراض) الحضارة التي تنتج عادة من (شيخوخة) الحضارة واقترابها من الأفول ، وفي الوقت الذي كانت عوامل الانهيار تدب في جسد المجتمع الإغريقي ، كانت عوامل البناء تدب في جسد شاب مجاور هو جسد المجتمع الروماني المتمثل في الدولة الرومانية ، التي بلغت أقصى اتساع لها في عهد المسيح ، ودخل في حوزتها اسم العالم المعمور[٢] كله ما عدا الشرق الأقصى ، وأصبح من رعاياها أناس مختلفون في الجنس واللغة والعقيدة ، فشُوهدت في روما والإسكندرية ، ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر ، وبلاد الرومان (إيطاليا اليوم) مجاورة لبلاد الإغريق (اليونان اليوم) على نفس الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط ، وعلى خط العرض نفسه تقريباً ، ومن ثمّ كان هذا القرب من الموقع ممرّاً سهلاً لانتقال ديانة اليونان إلى الرومان ، إلا أن مدارس الديانة الرومانية بُنيت على الأخلاق وإن كان اليونانيون قد ألّهوا الأخلاق والفضائل إلا أن الديانة الرومانية تغالت في هذا الشأن فكانت لا تعرف إلها معيناً وما اعترفت بوجود إله أو آلهة ، وإنما كان جلَّ همهم أن يُلقِّنوا أبناءهم الأخلاق والفضائل منذ نعومة أظفارهم ، وبهذا يمكن أن يقال: إن فلسفة الديانة الرومانية وليدة الفلسفة اليونانية[٣] .

وبالرغم من هذا التأثر الروماني ـ الذي لا يُنكر ـ بالحضارة اليونانية إلا أن الرومان استطاعوا في النهاية أن يضعوا لغتهم الواضحة على هذه الحضارة لتكون

---

(١) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص ٣٧٠ .
(٢) العالم المعمور : الأرض ومن عليها من البشر .
(٣) محمد فؤاد الهاشمي ، الأديان في كفة الميزان ، دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر ، ١٩٨٦م ، ص ٣٣ .

حضارتهم هم في النهاية ابتداء من المفاهيم الدينية وانتهاء بأنماط الحياة اليومية وهياكل هذه الحياة[١].

فمن حيث الفكرة الدينية: لم تكن (الفردية الدينية) التي رأيناها سمة الحياة الدينية عند الإغريق ـ لم تكن تصلح منذ البداية للرومان ـ فإن الفردية تصلح للإغريق كمفكرين ، ولكنها لا تصلح للرومان كمحاربين ، والمفكر يطلب الحرية ، ولكن المحارب يطلب مع الحرية جماعة يحارب بها ولها[٢].

ومن ثم احتلت الأسرة في الفكر الديني الروماني منزلة لم تنزل عنها عبر تاريخ الرومان الديني ، فقد كانت الأسرة رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة ، والآلهة من جهة أخرى ، وكانت هي المركز الذي يلتفَّ حوله الدين والخُلُق والنظام الاقتصادي وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هي المنبع الذي تستمد منه هذه المفهومات كلها[٣].

وفكرة الألوهية: عند الإغريق فكرة مادية حسية بينما كانت عند الرومان معنوياتٍ مجردة كالصحة أو الشباب ، وكان الرومان يعتقدون بأن بعض الآلهة يتقمص الحيوانات المقدسة كالحصان أو الحيوان الذبيح أو الإوز المقدس[٤]. وقد استخدمت روما (إيطاليا) نظاماً من الكهنوت محكم الوضع ، وكان الأب في منزله كاهناً ، ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات من الكهنة ، ويرأسها كلها حَبْر أعظم.

وقبل ظهور المسيحية: كان الأباطرة قد بدؤوا يجدون لهم مكاناً في هذا الفكر الديني الروماني ، ففي الاحتفالات الدينية كان الإمبراطور يرأس الاحتفالات وهو الكاهن الأكبر لدين الدولة.

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣.
(٢) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص ٣٧١.
(٣) قصة الحضارة ، ، ١/ ١٢٢.
(٤) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص ٣٧٢.

وبتولي الإمبراطور أغسطس الحكم في القرن الأول قبل الميلاد اتخذ الدين الروماني شكلاً مهماً آخر ، وذلك هو العبادة الشخصية للإمبراطور نفسه ، فقد كان أغسطس ـ على حد تعبير ول ديورانت ـ من أكبر المنافسين لآلهته ، وكان قيصر قد ضرب به المثل في هذا التنافس ، ذلك أن مجلس الشيوخ اعترف بألوهية قيصر بعد عامين من مقتله ، وما لبثت عبادته أن انتشرت في أنحاء الإمبراطورية[١] .

وهكذا خلَّف الرومان لمن بعدهم إلى جانب ما خلَّفه الإغريق فكرة (تأليه الإنسان) ، وخلفت كلتا الدولتين تلك المؤسسات والهياكل والتنظيمات التي صارت تنظم الحياة الدينية الرومانية ، والتي انتقلت إلى الحياة الدينية المسيحية ، مع الانحراف الكبير والخطير عن الديانة النصرانية التي بعث الله بها عيسى عليه السلام كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى .

خامساً: الطوائف اليهودية عند ظهور المسيح عليه السلام:

أهم فرق اليهود في هذه الفترة ـ مبعث المسيح عليه السلام ـ لدى الباحثين المعاصرين : السامريّون ، والصدوقيون ، والفريسيون ، والقمرانيون ، والآسانيون[٢] .

وكلها باستثناء السامريين فرق ظهرت في الفترة الوسيطة بعد الأسر البابلي ، ويرى بعض الكتاب أن معظم فرق اليهود التي ظهرت قديماً وفي الفترات المتأخرة انقرضت دون أن تترك آثاراً مكتوبة كثيرة حتى يعرفها المتأخرون معرفة دقيقة وأن أكثر فرقتين عُرف عنها شيء من التفاصيل هما : الفريسيون والقمرانيون .

أما الفريسيون ، فالمعرفة لهم جاءت عن طريق الحاخامات الذين حافظوا على كثير من أخبارها ، وخاصة في دواوين كتب التلمود ، وأما المعرفة بجماعة

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٧٢ .
(٢) يوسيفوس ، التاريخ اليهودي ، مكتبة الكتب المسيحية ، بيروت ، ١٨٧٢م ، ص ٢٦٤ ـ ٢٨٦ .

القمرانيين، فتعود إلى اكتشاف مخطوطات البحر الميت فصارت بهذا الاكتشاف من فرق اليهود المعروفة بعد أن ظلت لحوالي ألف سنة لا يكاد يُعرف عنها شيء.

ولكل فرقة من الفرق اليهودية السابقة مذهبها حول الاعتراف بأسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية التي يزعمون نسبتها إلى موسى عليه السلام المضمَّنة في التلمود، أو إنكار بعض هذه الأصول ورفض الأخذ بما فيها من أحكام وتعاليم، ولكل منها مذهبه في انتظار المسيح الموعود[١].

وفيما يلي عرض لهذه الفرق[٢]، بما يُعرِّف بها وبمعتقداتها بشكل عام في الفترة التي بُعث فيه المسيح عليه السلام:

١ ـ السَّامريون:

سُمّوا السامريِّين نسبة إلى منطقة السامرة في فلسطين، وكانت السامرة مدينة تمثل عاصمة مملكة إسرائيل، ثم غلب اسم سامرة على شعب تلك الدولة، فصار يُطلق عليهم اسم «سامريون». وهي أقدم الفرق المذكورة آنفاً، ويقال لها: الفرقة الشمالية؛ لأن أتباعها كانوا في شمال فلسطين، وهم خليط من اليهود والآشوريين كانوا يسكنون مملكة إسرائيل القديمة.

وكان يهود دولة يهوذا يعتبرون السامريين فرقة خارجة عن اليهودية[٣]، ومن أهم ما يتميز به السامريون في عقيدتهم:

ـ إيمانهم بموسى عليه السلام وإنكارهم نبوة من عداه من أنبياء بني إسرائيل.

---

(١) السكسي، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ص٨٩ـ٩٠.

(٢) تحريف رسالة المسيح، ص ٣٤. وانظر: أحمد شلبي، اليهودية، ص ٢١٥ ـ ٢١٨، وعند: عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م، ص ٢٥ ـ ٢٨. محمد شاهين، النصرانية، ، ص ٢٠.

(٣) محمد شاهين، النصرانية، ص ٣٥.

ـ اعترافهم بالتوراة فقط ويضيفون إليها سفر يوشع بن نون عليه السلام ، وينكرون ما عدا ذلك من الأسفار والكتب التي يعزوها اليهود إلى الأنبياء وغيرهم ، كما لا يعترفون بالتلمود ولا يقبلونه .

ـ اعتقادُهم أن الجبل المقدس هو جبل (جرزيم) ، وهذه كانت من أهم نقاط الاختلاف بين اليهود والسامريين .

ويقال أيضاً إن السامريين اعتقدوا بعض الاعتقادات الباطنية التي حرموا إفشاءها لغيرهم ، وهذه ملاحظة مهمة؛ لأن أخبار النصارى تقول بأن الفرق النصرانية الباطنية التي يقال لها الفرق : الغنوصية جاءت من قبل السامريين الذين ادَّعوا اتِّباع المسيح عليه السلام ، على حد تعبير الأستاذة بسمة جستنية[١] .

وهم يؤمنون بالخلاص الروحاني على يد المسيح المنتظر أو الرسول الموعود ، ويعتقدون أنهم وجدودهم جديرون باسم الإسرائيليين ، إذ هم الذين ينتسبون إلى يعقوب عليه السلام ، وقد استمرت السامرية إلى يومنا هذا ، وإن كانوا فرقة صغيرة في أرض فلسطين[٢] .

٢ ـ الصدوقيون :

هم أتباع صدوق الذي يقول أهل الكتاب : إنه كان يتولى الكهنة في عهد سليمان عليه السلام ، وهم من أقوى فئات اليهود بعد الأسر البابلي اقتصادياً وسياسياً بسبب نفوذهم في الهيكل .

وكانت علاقتهم مع الدول الأجنبية الحاكمة الفارسية ثم الرومانية من أحسن العلاقات ، وكانت تراعي مصالح الحكام الأجانب في كثير من الأمور وهم من أكثر يهود فلسطين تأثراً بالفلسفة الهيلينية[٣] بل إن الكاهن الصدوقي جاسون

---

(١) تحريف رسالة المسيح ، ص ٣٥ .

(٢) محمد شاهين ، النصرانية ، ، ص ١٩ .

(٣) الهيلينية والهلنستية : وهي الفكر الناتج عن الثقافة والحضارة اليونانية القديمة البحتة ، فعندما غزا الإسكندر الأكبر بلاد الشرق وحمل معه هذه الثقافة والحضارة الهيلينية =

(١٧٥ ق.م ـ ١٧٢ ق.م) الذي كان كاهناً أيام المملكة السلوقية أراد أن يُحوِّل بيت المقدس إلى مدينة هيلينية بتغيير اسمها إلى أنطاكيا القدس ، ويُؤسِّسَ فيه معاهد ومدارس هيلينية .

وكانت الصدوقية فرقة صغيرة من حيث عدد أتباعها ، ولكنها كبيرة من حيث ثرواتهم ونفوذهم في الاقتصاد والسياسة .

وأما عن عقائدهم فقد لاحظ بعض الباحثين أنه هناك تشابهاً بين اعتقادات الصدوقيين واعتقادات السامريين ، إلا أن الصدوقيين اهتموا كثيراً بالهيكل والعبادات التي تُقام فيه لأنهم كانوا مشرفين عليه ، ومن وجوه التشابه بينهم وبين السامريين أن الصدوقيين رفضوا كتب الأنبياء الذين جاؤوا من بعد موسى عليه السلام ، وقالوا: إن التوراة وحدها هي مصدر اليهود ، ولم يعترفوا بالتلمود ، ولا بالروايات الشفوية التي يرويها غيرهم ، وهم لا يؤمنون بالبعث والآخرة والثواب والجزاء فيها ، وعُرفوا بالتساهل في الشرائع ، ومع أنهم رفضوا روايات اليهود الشفوية وكتب الأنبياء ، إلا أنهم كان لهم كتاب خاصٌّ دوَّنوا فيه فتاواهم وقضاياهم وأحكامهم وأظهروا الارتياب في أخبار آخر الزمان وما تعلق بمبعث المسيح عليه السلام ، وتجاهلوها ولم يُعجبهم اهتمام الطوائف بهذه الأمور ، وعندما أرسل الله المسيح عليه السلام ، بادر الصدوقيون إلى تكذيبه ، وكانوا أشد أعداء المسيح ومنهم حنانيا وقياف[1] .

= امتزجت هذه الحضارة بحضارات الشرق الروحية ، وكان نتيجة هذا التزاوج بين الحضارتين الإغريقية والشرقية ولادة الحضارة «الهيلنستية» ، ولذلك قال البعض بأن الحضارة الإغريقية مرت بمرحلتين ، الأولى: المرحلة الهيلينية وهي الحضارة اليونانية الكلاسيكية وشملت بلاد اليونان ، والثانية: المرحلة الهيلنستية وشملت البقاع التي تألفت منها الإمبراطورية اليونانية. ينظر: عبد المنعم الحنفي ، المعجم الفلسفي ، القاهرة ، الدار الشرقية ، ط١ ، ١٤١٠هـ ، ص٣٦٨.

(١) محمد شاهين ، النصرانية ، ، ص١٣ ـ ١٤ .

٣ ـ الفريسيون:

من أهم الفرق اليهودية ، لأنها تنتسب إلى اليهودية المتأخرة ـ يهودية الحاخامات ـ التي يدين بها جلّ اليهود بعد مبعث المسيح عليه السلام.

والفريسيون كلمة آرامية تعني المعتزلة؛ لأنهم فارقوا الجماعة ولم يكونوا على رأس جمهور الأحبار ، وقيل غير ذلك[١] ، ويرى بعض الباحثين أن الفريسيين كانوا جزءاً من الطائفة الحاصدية[٢] ثم اعتزلوها[٣].

وقد ملكوا مناصب نفوذ في مجلس السبعين الذي ترأس شؤون اليهود واليهودية منذ الأسر البابلي إلى تدمير الهيكل سنة ٧٠م ، وهذا ما يفسر قوة تأثيرهم قبل مبعث المسيح عليه السلام بسبب المناصب القوية التي تولَّوها.

واستمر نفوذهم ولم ينقطع ، ولما ولد المسيح عليه السلام كان الفريسيون من أقوى فئات مجلس السبعين ، وزاد نفوذهم كثيراً أيام الحكم الروماني عندما لم يشتركوا في الثورة الكبرى ضد الرومان من سنة ٦٦ ـ ٧٠م.

وبعد فشل اليهود وتدمير الهيكل اقتربوا من الرومان واستأذنوهم في تأسيس معهد فريسي لتعليم اليهودية في جنوب فلسطين ، وأصبح هذا المعهد من أهم مراكز اليهودية بعد تدمير الهيكل ، ومن أهم المجامع العلمية ، وذهب البعض

---

(١) تحريف رسالة المسيح ، ص ٣٧.

(٢) الطائفة الحاصدية (الحصيدية): أصحاب مذهب في الباطنية اليهودية ، وهو غنوص لا شك فيه ، وقيل صحيح الاسم الحسيدية بمعنى التقوية ، لكنا نرى أن الحصيدية مشتق من الحصيد بالآرامية والعربية ، وهو أسافل الزرع الذي تبقى ولا يتمكن منها المنجل ، والحصيديون هم البقية الصالحة التي لم تتمكن منها ديانات ولا عادات الأغراب ولم تصرفها عن عبادة الله على ملة اليهود. ينظر: عبد المنعم حفني ، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ، دار المسيرة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٠هـ ، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٣) عبد المنعم حفني ، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ، دار المسيرة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٠هـ ، ص ٩٥.

إلى أن الفريسيين كانوا هم الزعماء المفكرين للشعب اليهودي زمن عيسى عليه السلام ، وإن كان بعض الباحثين يرى أنه لم يكن بين أفرادها من هم في رتبة الرؤساء والوجهاء[١] .

وهم يؤمنون بالأنبياء والرسل المتأخرين الذين جاؤوا بعد سيدنا موسى وهارون عليهما السلام ، ويؤمنون بالملائكة والشياطين والبعث والحساب والجزاء[٢] ، واختلفوا في مسائل القضاء والقدر ، ووقفوا منها موقفاً شبيهاً بموقف المعتزلة عند المسلمين .

وقد آمنوا بروايات شفوية ينسبونها إلى سيدنا موسى عليه السلام تقابل التوراة وتفسيرها ، وهي التلمود ، لكنهم مع إيمانهم هذا اعتقدوا أن رواية الفريسيين هي الرواية الصحيحة وهي التي يجب على اليهود الأخذ بها ، واستوجبوا تقليد عامة اليهود للحاخامات أصحاب هذه الرواية ، بل إنهم جعلوا الحاخامات مراجعَ الدين وأقاموها مقاماً أعلى من الكهنة. وقد كانوا في ذلك ينتظرون المسيح المُخلِّص في عالم الروح ، أي مسيحاً ليس له سلطة الدولة[٣] .

ولم يرفض الفريسيون الهيكل ، وإنما جعلوه أمراً ثانوياً في دين اليهود من غير الضروريات ، ولم يكن ذلك تقليلاً لشأنه ولكنهم رأوا أن التمهيد لمجيء المسيح الذي ينتظرونه لا يكون إلا بالدراسة والعبادة وتطبيق الشرع في حياتهم اليومية ، ولذلك رفضوا قبول بعض الفرق لضرورة الجهاد كأساس للاستعداد لمجيء المسيح .

وكانوا في عصر الميلاد ينقسمون إلى فريقين؛ فريق يتبع الحكيم (هلل) الذي قدم إلى فلسطين من بابل ، والفريق الآخر يتبع الحكيم (شماي) وهو أقرب

---

(١) محمد شاهين ، النصرانية ، ، ص ١٣ ـ ١٤ .

(٢) بطرس عبد الملك وآخرون ، قاموس الكتاب المقدس ، دار الثقافة ، القاهرة ، د.ت ، ص ١٥ .

(٣) محمد شاهين ، النصرانية ، ص ١٥ .

إلى التحرج لدرجة رفض الراغبين في دخول الدين من غير اليهود ، وقد رفضوا الهيلينية وعلى العكس من ذلك تشربوا قدراً كبيراً من مذهب الثنائية الفارسي ومذهب مناجاة الأرواح أو اتصال أرواح الأحياء بأرواح الأموات والعلم الأُخروي[١] ، ولعلنا نلاحظ تأثير هذا على بولس فيما بعد حيث كان منهم .

وكانت العداوة بين الفريسيين والنصارى الأولين عداوة شديدة كما سنعرف ، وكانوا من أهم الفرق اليهودية التي أعلنت محاربة المسيح عليه السلام بكل ما لديها .

٤ ـ القمرانيون (جماعة وادي قمران) :

وجدت هذه الجماعة في وادي قمران على الشاطى الشمالي الغربي من البحر الميت ، وهو ليس بعيداً عن بيت المقدس ، بل هو أقرب مناطق البحر الميت إلى فلسطين «القدس الشريف» .

وتتحدث هذه الجماعة عن نفسها أحياناً بأنها تمثل جند الله المرابطين أو كتيبة الله ، ويعتقد القمرانيون بموسى ويوشع بن نون عليهما السلام ، ويبيتون على الاستعداد الدائم للجهاد في سبيل الله ، وكانوا يستفتحون برسول آخر الأيام الذي ينتصرون به على جميع الأمم .

وأحياناً يسمون أنفسهم بالفقراء؛ ولذا زعم بعض الباحثين أن جماعة وادي قمران هي الجماعة الأبيونية ، وهي من الطوائف اليهودية التي كانت في عصر المسيح عليه السلام[٢] .

---

(١) تحريف رسالة المسيح ، ص ٣٩ .

(٢) الجماعة الأبيونية : فرقة من اليهود المتنصرين ، تواجدت في العصور الأولى للمسيحية ، عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي ربما تعني الأغمار ، لأنهم كانوا من نكرات اليهود ، وربما قيل هذا الاسم هو الذي أطلقوه على أنفسهم بمعنى أنهم الفقراء إلى الله ، وبوصفهم يهوداً كانت الشريعة تلزمهم ولكنها لم تلزم المسيحيين من غير اليهود. ينظر عبد المنعم حفني ، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

ومما يدعو إلى التحفظ في هذه الأمور أن طوائف اليهودية منذ القرن الثاني قبل الميلاد حتى تدمير الهيكل الثاني سنة ٧٠م كانت كثيرة ومتنوعة ومتنازعة ، الأمر الذي يجعلنا لا نستطيع التأكيد على انتسابها للفرق التي يذكرها العلماء لا سيما والآسانيون لم تُكتشَف كتب لهم حتى تتم المقارنة .

وكانت حرمة الشرع الموسوي لدى القمرانيين عظيمة ، وقد أوجبوا على جميع أتباعهم دراسة الشرع دراسة دقيقة وصحيحة على أيدي أئمتهم ، وهم يؤمنون بالملائكة والقضاء والقدر والبعث والحساب ، ويوافقون في كل هذا الأصول الصحيحة التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام ، وهو خير دليل على أفضليتهم على طوائف اليهود الآخرين وأمثالها في غير وادي قمران .

ويبدو ـ من خلال نصوصهم ـ أنه كان لهم أتباع كثيرون في بيت المقدس ، وفي سائر مدن اليهود في فلسطين في ذلك الوقت .

وذهب بعض الباحثين أن جماعة النصارى الأولى التي كانت في بيت المقدس تحت رئاسة يعقوب العدل وبطرس ويوحنا الحواري ـ منذ رفع المسيح عليه السلام حوالي سنة ٦٤هـ ـ كانوا على صلة وثيقة بجماعة وادي قمران ، والتشابه بين جماعة وادي قمران والجماعة النصرانية الأولى في بيت المقدس والشام كبير .

وأشار بعض الباحثين إلى التشابه بين يعقوب العدل ـ إمام النصارى الأول ـ بعد رفع المسيح والمعلم أو الهادي العدل المذكور في مخطوطاتهم ، ومن المهم أن نذكر أن جماعة وادي قمران اعتبرت وجودها في البادية وجهاً من وجوه استعدادها لقبول المسيح عليه السلام ورسول آخر الزمان الذي يأتيهم من قِبَل البادية ، وذلك كما يصرحون عملاً منهم بقول النبي أشعياء[١] .

---

(١) حسن ظاظا ، الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه ، دار القلم ، دمشق / دار العلوم والثقافة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ، ص ٢٢١ .

٥ ـ الآسانيون :

يرى بعض الباحثين أن هذه الفرقة كانت أيام ظهور المسيح عليه السلام من أهم فرق اليهود وأكثرها نشاطاً ، حتى من يكتب عن الفكر الديني الإسرائيلي إبان ظهور النصرانية لا يخلو من ذكر هذه الفرقة بين الفرق .

ولكن المعلومات عن هذه الفرقة يكتنفها الغموض من البداية ، لندرة من كَتب عنهم من القدماء ، فهي لا تتجاوز عشرين فقرة لدى المؤرخ يوسيفوس ، كذا الحال بالنسبة للكتابات النصرانية القديمة(١) .

والشائع بين العلماء أن الكلمة (الآنسينيون) معناها الأطباء ، وأن أصلها آرامي هو كلمة (آسيا) بمعنى الطبيب والمداوي ، وكما يقول العرب (الآسي) ، وهناك أقوال أخرى(٢) .

ويميل أكثر الباحثين إلى الربط بين كون الآسينيين أطباء وبين المسيح ومعجزاته ، ويبدو أنهم ما كانوا يُبيحون للعالم الخارجي أن يعرف عنهم الكثير .

والظاهر أنه كانت لهم فلسفة دينية وأخلاقية عملت فيها تيارات أجنبية غير يهودية منها الفلسفة الفيثاغورية ، ومنها التنظيم الديني المجوسي الفارسي القائم على تقديس النور وربطه بالخير ، ومنها رواسب وبقايا من العقائد المصرية الفرعونية ، لا سيما ما يتصل منها بتقديس الشمس إلى جانب المعتقدات النابعة من كتب اليهود المقدسة بطبيعة الحال(٣) .

وقد أشارت الدكتورة بسمة أحمد جستينة إلى أن النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم ونذروها لحياة القداسة وخدمة الله لم يكونوا طائفة منظمة

---

(١) الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه ، ، ص ٢٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢١ .
(٣) الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه ، ص. ص ٢٢١ ـ ٢٣٥ . وانظر : محمد شاهين ، النصرانية ، ص ١٥ .

مثل أصحاب النِّحل[١] ، بل كانوا آحاداً متفرقين وهؤلاء تكاثروا قبل مولد المسيح؛ لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حسب التقويم العبري وهو الموعود الذي كان منتظراً لبعثة المسيح الموعود ، وكان النبي يحيى عليه السلام يُعدّ عَلَماً من أعلامهم[٢] .

وهؤلاء النذريون كانوا أهل صلاح ، فكانوا قوةً ذاتَ بال في عصر الميلاد ، وخاصة أنهم يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح عليه السلام ، ويترقبون ظهوره دون أن تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود[٣] .

إذن هذه كانت أهم الفرق الرئيسية لليهود عند ظهور المسيح عليه السلام .

٦ ـ الهيكل ورجال الدين :

الهيكل هو الذي بناه سليمان عليه السلام ليكون مقراً للعبادة ، ثم جاء البابليون بعد حوالي أربعة قرون وهدموه ، ثم أمر (قورش) الفارسي[٤] بإعادة بنائه سنة ٥٣٦م ، وجاء الملك (هيرودوس) بعد خمسة قرون فجدَّد بناءَه ، وتمّ ذلك في عصر الميلاد .

وأما عن وضع الهيكل وسلطان الكهنة في عصر الميلاد ، فكان ينتظمهم انتظاماً طبقياً يتكون من طبقة عليا هم رجال الدين ، وطبقة دنيا هم الكَتَبة أو

---

(١) أصحاب النحل : أي أصحاب الديانات والمناهج العقدية لأمة خاصة ، سواء كانت حقاً أم باطلاً . وفي حديث قتادة بن النعمان : كان بشير بن أبيرق يقول الشعر ويهجو به أصحاب النبي ﷺ وينحله بعض العرب ، أي بنسبه إليهم من النحلة وهي النسبة بالباطل ، ويقال : ما نحلتك أي ما دينك؟ ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (نحل) .

(٢) تحريف رسالة المسيح ، ص ٤٢ .

(٣) تحريف رسالة المسيح ، ص ٤٣ .

(٤) قورش الفارسي : هو أول ملوك فارس ، حكم في الفترة من ٥٦٠ ـ ٥٢٩ ق . م ، واسمه كورش بن كمبوجيه بن كورش بن جيشبيش بن هخافيش ، أحد أعظم ملوك الفرس الأخمينية ، استولى على آسيا الصغرى وبابل وميديا ، حكم من (٥٥٠ ـ ٥٢٩ ق . م) وقتل في ماساجت ودفن في باساركاد .

فقهاء الشريعة ، أما عن طبقة رجال الدين فكانت تعمل على انتظام العبادة في المعبد وتشرف على تقديم الذبائح ، وإن كانت لا تعتني بدراسة الشريعة أو تعليمها ، بل تُوجِّه كلَّ ثمارها إلى حفظ النصوص وممارسة الطقوس وخاصة في الحفلات السنوية التي تَفِدُ فيها على القدس أفواجاً من الحجيج ، وكانوا حريصين على تأثيرهم في الشعب إلا أنهم كانوا في نفس الوقت تابعين للرومان خاضعين لحكمهم(١) .

وأما الكتبة أو فقهاء الشريعة فكانوا يسجلون الأشعار الدينية لطالبيها ، وانكبوا على شرح الكتاب المقدس أحياناً ، وهم في عملهم هذا ـ شرح الكتاب المقدس ـ لم يسلموا من التأثر بالمذاهب الثنوية(٢) ، والنظريات اليونانية في الإله والكون والإنسان(٣) .

بل إن بعض الكتّاب ذهبوا إلى أنهم كانوا مسؤولين عن التفسيرات الدقيقة للتوراة ، ولم يكن لهؤلاء الكتبة نصيب من وظائف الهيكل ، وكانوا جميعاً من الفريسيين إذ هم الذين يعترفون بالأسفار الحديثة ويعتمدون عليها في العبادات والمعاملات ، ولما ولد المسيح كانت وظائف الهيكل محصورة في مجلس (السنهدرين) (٤) .

---

(١) محمد شاهين ، النصرانية ، ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) المذاهب الثنوية : الثنوية هم الذين يقولون بأصلين للوجود ، مختلفتين تمام الاختلاف ، كل منهما له وجود مستقل في ذاته ، ودون هذين الأصلين لا يمكن فهم طبيعة الكون الذي تتصارع فيه القوى المتضاربة ، التي ينتمي بعضها إلى أحد المبدأين ، وينتمي سائرها إلى المبدأ الآخر ، مما يعني أن حقيقة الوجود تنطوي على انقسام داخلي وتقابل ضروري دائم بين أصلين ، لكل منهما قوانينه وأطواره الزمنية الخاصة به ، وقد ظهر هذا المذهب منذ القديم لدى الإغريق فأثر على أعظم فلاسفتهم كأفلاطون وأرسطو . الخطيب ، معجم الفلسفة ، حرف الثاء .

(٣) تحريف رسالة المسيح ، ص ٤٣ .

(٤) السنهدرين أو السنحدرين أو السنهدريم : كلمة من أصل إغريقي معناها الاجتماع أو المحكمة ، وأطلقت على محكمة اليهود ، وأفرادها من الصدوقيين ومنهم الكهنة =

وقد سُلب هذا المجلس في عصر المسيح حقَّ الحكم في الجرائم الكبرى ، وكانت أحكامه في تلك الأيام معلقة على إقرار الحاكم الروماني يُقرها أو ينقضها ، وكان موقفهم مما يشاع في ذلك الوقت عن قرب المسيح المنتظر هو عدم الترحيب بذلك لما في ذلك من الاعتراف بفساد الزمن كله ، وفي هذا اتهام لهم بالفساد[١] .

سادساً: مفاهيم لكلمات مهمة:

١ ـ النصارى :

جمع نصران ونصرانة ، قال ابن بريٍّ: هذا في الأصل دون الاستعمال ، وإنما المستعمل في الكلام: نصراني ، ونصرانيّة بياء النسبة؛ وهم أتباع المسيح عليه السلام . والنصرانية هي الديانة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام .

ويقول الإمام الشهرستاني: النصارى أمة عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته عليه السلام ، وهو المبعوث حقاً بعد موسى عليه السلام .

والنصرانيّ هو من تعبد بدين النصرانية ، وسُمّوا بهذا الاسم نسبة إلى قرية الناصرة بفلسطين من أرض الجليل التي بُعث فيها المسيح والتي انطلق منها يُبلِّغ دين الله إلى الناس ، ومن ثم أطلق على المسيح يسوع الناصري .

وقيل: سُمّوا نصارى؛ لأنهم نصروا المسيح ، فقد جاء في تفسير الألوسي: النصارى اسم لأصحاب عيسى عليه السلام ، وسموا بذلك لأنهم نصروه ، أو لنصر بعضهم لبعض[٢] .

= الكبار ، وانضم إليهم الفريسيون بصورة لاحقة . وفي مطلع الميلاد كان أعضاؤها يتألفون من واحد وسبعين عضواً ، ومن أشهر أعضائها جمالائيل أستاذ بولس ، يُنظر: معجم الحضارات السامية ، ص ٤٩٥ . وانظر: محمد شاهين ، النصرانية ، ص ٢١ .

(١) تحريف رسالة المسيح ، ص ٤٤ .

(٢) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص ٨٨ .

وهم في الأصل اثنا عشر رجلاً يقال لهم الحواريون ، وسيأتي الحديث عن الحواريين لاحقاً بإذن الله .

والتعريف الاصطلاحي للنصارى: هم أتباع ديانة المسيح ابن مريم سواء كانوا متمسكين بديانتهم أم مفرطين[١] .

وقد أطلق على أتباع عيسى عليه السلام في القرآن والسُّنة: النصارى ، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] .

وفي السُّنة قوله ﷺ: «كلُّ مَولودٍ يُولَدْ على الفطرة ، فأبواهُ يهوِّدانِهِ أو يُنصِّرانِهِ أو يُمجِّسانِهِ»[٢] . فـ«يُنصِّرانِهِ» نسبة إلى النصرانية ، والمنتسبون إليها يسمّون نصارى[٣] .

٢ ـ المسيحية:

يسمون النصارى أنفسهم بالمسيحيين نسبة إلى دين المسيح عليه السلام ، ويسمون ديانتهم بالمسيحية ، ولم ترد هذه التسمية في القرآن ولا السنة ، وأول إطلاق هذه التسمية عليهم قيل: في القرن الثالث الميلادي ، وقيل: قبل ذلك في عام ٤٢م في أنطاكية ، ويرى البعض أن ذلك كان من باب الشتم لهم[٤] .

ولذلك إنهم فرقة مخالفة للمجتمع الذي ظهر فيه عيسى عليه السلام وأتباعه حيث سيطرة الرومان الوثنيين وعداء اليهود الشديد لعيسى عليه السلام وأتباعه

---

(١) سليمان بن عبد الله بن صالح الرومي ، دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية ، مكتبة الرشد ـ ناشرون ، الرياض ، ط١ ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م ، ١/ ١٧ .
(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الجنائز ، رقم ١٣٨٥ .
(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية ، المرجع السابق ، ١/ ١٧ .
(٤) المرجع نفسه ، ١/ ١٧ .

وسعيهم لدى الرومان في قتله ، ولذلك فالأولى أن يُسمَّوا بما سماهم القرآن (النصارى) [١] .

٣ ـ لماذا لقب عيسى بالمسيح؟

لما أراد الله خلق عيسى عليه السلام ، أرسل جبريل عليه السلام إلى مريم عليها السلام يُبشِّرها بذلك ، وذكر لها أن الله سيجعلها تنجب ولداً اسمه عيسى ولقبه المسيح ، وذكر لها بعض صفاته وهذا قبل النفخ فيها وحملها به . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥ ـ ٤٦] ، فاسمه عيسى ، ولقبه المسيح وصفته أنه ابن مريم عليهما السلام .

وعيسى اسم علم أعجمي ، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، ويسميه النصارى (يسوع) ومعناها عندهم المُخلِّص ، ونحن نستخدم الاسم الذي سماه الله به ، والذي أخبرنا عنه في القرآن ، ولقب عيسى عليه السلام هو (المسيح) ، وذُكِر هذا اللقب إحدى عشر مرة في القرآن الكريم ، وهو على وزن فعيل مشتق من المسح ، وذهب بعضهم إلى أن مسيح بمعنى اسم الفاعل (ماسح) ، على حين ذهب آخرون إلى أنه بمعنى اسم المفعول (ممسوح) ، فما معنى هذا اللقب؟ ولماذا لقب عيسى عليه السلام به ، سواء كان بمعنى اسم الفاعل (ماسح) أو كان بمعنى اسم المفعول (ممسوح) [٢] .

قال الإمام الراغب الأصفهاني : المسح : إمرار اليد على الشيء ، وإزالة الأثر عنه[٣] . وقيل : سُمِّي عيسى عليه السلام مسيحاً لكونه ماسحاً في الأرض ،

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية ، ١/ ١٨ .

(٢) صلاح الخالدي ، مواقف الأنبياء من القرآن ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ٢٠١٠م ، ص ٣٧٧ .

(٣) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : صفوان عدنان الداودي ، =

أي ذاهباً فيها ، وقيل : سُمِّي مسيحاً لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ[١] .

وقال بعضهم : عيسى ابن مريم هو المسيح ؛ لأنه مُسحت عنه القوة الذميمة من الجهل والشره والحرص وسائر الأخلاق الذميمة[٢] .

فإذا كان (المسيح) بمعنى اسم الفاعل (ماسح) فإن عيسى عليه السلام لُقِّب به لأنه كان يمسح الأرض بالسياحة والسير فيها ، أو لأنه كان يمسح بيده على المريض فيبرأ ، وإذا كان (المسيح) بمعنى اسم المفعول (ممسوح) ، فإنه لُقِّب به لأن الله مسحه بالبركة[٣] .

فكان ممسوحاً مباركاً ، ونرى أن لقبه جمع بين اسم الفاعل واسم المفعول ونُرجِّحُ أن يكون صيغة مبالغة على وزن (فعيل) .

ـ من المعاني : الممسوح الأخمص من القدم ، أي : أن قدمه مخموصة قطعة واحدة وليس فيها التجويف الداخلي في القدم .

ـ من المعاني : الذي فيه مسحة من الجمال ، ولذلك قال النبي ﷺ عن جرير بن عبد الله «كأن فيه مَسْحَةٌ من مَلَك» [٤] .

ـ أما معنى المسيح عند النصارى فهو المكرّس للخدمة والفداء ، «سُمّي يسوع المسيح ؛ لأنه مُعزَّزٌ ومُكرَّسٌ للخدمة والفداء ، ووُعد بمجيئه حالاً بعد السقوط[٥]» .

ونُسب عيسى عليه السلام إلى أمه مريم (عيسى ابن مريم) ؛ لأنه لا أب له ،

= دار القلم ، دمشق / الدار الشامية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ ، ص ٧٦٧ـ٧٦٨ .

(١) مواقف الأنبياء من القرآن ، ص ٣٧٨ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، ص ٧٦٧ـ٧٦٨ .

(٣) مواقف الأنبياء من القرآن ، ، ص ٣٧٨ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩١٨٠) .

(٥) قاموس الكتاب المقدس ، ص ٨٦٠ .

وذلك للرد على مزاعم النصارى حول تأليه عيسى عليه السلام ، فهم يقولون : عيسى ابن الله ، والقرآن يكذبهم قائلاً لهم : إنه ابن مريم ، وأمه تعرفونها عن يقين ، فكيف ابن الله؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً[١] .

٤ ـ الفرق بين المسيحي والنصراني :

إنَّ المتأمل في كتابات الدارسين للنصرانية والمسيحية يدرك أن ثمة إجماعاً بوجود فرق جوهري بين المسيحي والنصراني ، لكن الاختلاف بين المهتمين بقوة المسألة يبدأ عند تحديد التسمية التي تصدق على الأتباع الحقيقيين لنبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام . ويمكن حصر الموقف من المسألة في اتجاهين :

الاتجاه الأول : يرى أصحاب هذا الاتجاه أن «النصارى هم الأتباع الحقيقيون لنبي الله عيسى عليه السلام ، ويستدلون بشهادة القرآن الكريم عند قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] .

فقد سمَّى القرآن الكريم بنص هذه الآية من استجاب لدعوة المسيح عليه السلام ونصرَه وآزرَه بالنصارى[٢] .

وتقوية للحجة يلفت أصحاب هذا الاتجاه الانتباه إلى مسألة مفادها : أن أهل الإنجيل يفضلون صفة النصراني على المسيحي حتى إنك لا تكاد تجد في الإنجيل نصاً يُسمِّي أتباع السيد المسيح بالمسيحيين ، بل لا تجد ذكراً إلا (للنصارى) باعتبارهم يمثلون أنصار عيسى عليه السلام وأتباعه الحقيقيين[٣] .

---

(١) مواقف الأنبياء من القرآن ، ص ٣٧٩ .

(٢) د. نور الدين عادل ، مجادلة أهل الكتاب في القرآن الكريم والسنة النبوية ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط١ ، ٢٠٠٧م ، ص ٨٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

الاتجاه الثاني: ينطلق أصحاب هذا الاتجاه للاستدلال على أن المسيحيين هم أتباع السيد المسيح حقاً من الدّلالات اللغوية للفظة المسيح ، فالمسيحي لغة تتضمن معاني الانتساب للسيد المسيح عليه السلام ، كما أن فريقاً من القِسِّيسِينَ يفضلون اسم المسيحي على النصراني ، وقد صرح القسّ حموئيل مشرقي أنه من نكد الدنيا على المسيحيين أن أُطلق عليهم منذ الفتح الإسلامي اسم نصارى على خلاف الحقيقة ، ثم بين أن اسم نصارى يطلق على فرقة من اليهود آمنت بعيسى عليه السلام على أنه رسول المسيح المنتظر لا أنه المسيح المنتظر ، أما المسيحيون فهم الذين ـ حسب قوله ـ آمنوا بعيسى على أنه الإله ، أو ابن الإله[١] .

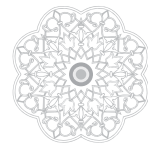
والكلمة الحق في النصرانية هي ما جاءنا من الله عز وجل في كتابه القرآن الكريم ، فنجد أن الله عز وجل سمى أتباع المسيح عليه السلام :

حواريين : قال تعالى : ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الصف : ١٤] .

مؤمنين من النصارى : قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ـ ٨٣] [٢] .

* * *

(١) د. نور الدين عادل ، مجادلة أهل الكتاب في القرآن الكريم والسنة النبوية ، ص ٩٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩١ .



المبحث الثاني

حديث القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام

إنّ عيسى عليه السلام هو من أولي العزم من الأنبياء ، كما ذكره القرآن الكريم ، وهو معجزة بحد ذاته ، منذ أن حملت به والدته البتول مريم إلى ولادته وفي حياته كاملة ، حيث كان مولده آية ربانيّة ورحمة إلهيّة للبشر أجمعين ، وقد ضلّ أقوام عن الهدى وانحرفوا عن منهج الله تعالى وعقيدة التّوحيد ، فظنّوا بعيسى عليه السّلام ما ليس فيه ولا يليق به من الصّفات الإلهيّة ، فتارة يقولون أنّ الله هو المسيح ابن مريم ، وتارة يقولون أنّه ابن الله عز وجل ، وتارة أخرى أنّه ثالث ثلاثة ، تعالى الله وتنزّه عما يقولون ويفترون ، لذلك تناول القرآن الكريم وفي مواطن كثيرة الحديث عن عيسى عليه السّلام .

وقد يتساءل الإنسان بصرف النظر عن ملّته أو نحلته : كيف نجعل القرآن الكريم والسنة التي تعدُّ مكمِّلة وموضِّحة له ، ومصدراً للحديث عن دعوة نبي الله عيسى عليه السلام ، وقد أُنزل عليه كتاب كما أُنزل القرآن؟

هناك عدة عوامل وأسباب تبرز ذلك وتسوّغه ، أذكر منها :

١ ـ أن الله جل وعلا قد وصف هذا الكتاب بأنه مصدِّق لما قبله من الكتب ومهيمناً عليه كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة : ٤٨] ، ويقول في حق رسوله ﷺ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] .

٢ ـ من الناحية التاريخية نجد أن التاريخ لا يسعفنا بالمعلومات الأساسية المؤكدة عن دعوة المسيح عليه السلام؛ وذلك لأسباب عدة منها بُعد العهد واضطراب الروايات التاريخية ، بل من المؤكد أن لتدخل العنصر البشري دوراً في هذا حتى اختلط الحابل بالنابل ، وتعسر تمييز الطيِّب من الخبيث ، والحق من الباطل .

٣ ـ أن الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام لا وجود له اليوم حتى في الأوساط النصرانية ، فكيف نحيد عن وحي سماوي وهو القرآن الكريم إلى مؤلفات بشرية ، وهي الموسومة اليوم بالأناجيل؟

٤ ـ أن القرآن الكريم مع السنة النبوية الصحيحة في الحقيقة وحدهما المصدران ـ علمياً وتاريخياً ـ اللذان صورا لنا بدقة عالية تاريخ الرسالات الإلهية كلها من أول الأنبياء آدم عليه السلام وحتى آخرهم وخيرهم محمد ﷺ ، بل ليس في الوجود ـ على الإطلاق ـ كتاب إلهي أو بشري له من الاحترام العلمي القائم على التواتر وحفظ النصوص وسلامتها غير هذا الكتاب العظيم[1] . الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تولى حفظه من لا يؤوده حفظ السماوات والأرض سبحانه وتعالى .

وأما الأناجيل التي يعترف بها النصارى اليوم ، فليس لها حظٌّ من الثقة التاريخية ، ولا نصيب من الاحترام العلمي اللازم بسبب ما شوَّهها من الاختلافات والتناقضات والأخطاء العلمية والتاريخية ، وسيأتي في هذه الدراسة أمثلة لذلك إن شاء الله .

٥ ـ إن هذه الأناجيل قد تعرَّضت لانتقادات عنيفة قديماً وحديثاً ، سواء ممن أسلموا من النصارى أو من الذين بقوا على نصرانيتهم ولم يرضوا بغيرها ديناً ،

---

(١) متولي يوسف شلبي ، أضواء على المسيحية ، الدار الكويتية للطباعة والنشر ، الكويت ، ط١ ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، ص ١٧ .

فمن الصنف الأول المستشرق الفرنسي (ألفونس إتيان دينيه) [١] الذي قال: أما أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه ، فالذي لا شك فيه أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر ولم يبق له أثر أو أنه قد أُبيد[٢].

ومن الصنف الثاني (الدكتور نظمي لوقا) حيث يقول: وأعني بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح عليه السلام من نصوص كلامه لا ما أُلحق بكلامه وسيرته من التأويل[٣].

٦ ـ نجد أن للقرآن الكريم مكانته العلمية حتى في الأوساط النصرانية ، فنجدهم يقرّون ـ مع كفرهم به ـ بجودة مصدريته ، ودقة أخباره ، وبتواتره المنقطع النظير ، وخلوه مما اتَّسمت به كتبهم من التناقض والأخطاء والتغيير والتبديل والإضافة والحذف.

يقول إميل درمنغم[٤]: «وللمسيح في القرآن مقام عالٍ ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده ، والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول إن عيسى كلمة الله أو روح الله ألقاها إلى مريم ، وأنه من البشر ، فهو يذم مذهب القائلين بطبيعة واحدة في المسيح ، ومذهب القائلين بألوهية المسيح وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية لا النصرانية الصحيحة» [٥].

---

(١) ألفونس إتيان دينيه: رسام ومستشرق فرنسي ، أسلم في الجزائر عام ١٩١٣م ، وأصبح اسمه ناصر الدين دينيه ، وتوفي عام ١٩٢٩م.

(٢) ناصر الدين دينيه ، أشعة خاصة بنور الإسلام ، المكتب الفني ، ١٩٦٠م ، ص ٥١.

(٣) نظمي لوقا ، محمد الرسالة والرسول ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٩م ، ص ٥٨.

(٤) **إميل درمنغم**: مستشرق فرنسي ، عمل مديراً لمكتبة الجزائر لفترة من الزمن ، وله مؤلفات عديدة.

(٥) إميل درمنغم ، حياة محمد ﷺ ، تحقيق عال زعيتر ، دار العالم العربي ، ط٣ ، ٢٠١٦م ، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

ويقول واشنطن إيرفنغ[١]: «كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه ، حتى إذا ظهر المسيح اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل ثم حلَّ القرآن مكانهما ، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين ، كما صحح القرآن ما قد أُدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل» [٢].

فعلى ضوء ما تقدم نخلص إلى حقيقة علمية ثابتة ، وهي أنه لا يوجد مصدر آخر ـ غير القرآن الكريم مع السنة النبوية الصحيحة ـ يمكن الوثوق به فيما نحن بصدده.

وأما الروايات التاريخية المضطربة سواء في داخل الأناجيل أو خارجها فلا يمكن اعتبارها أو الاستناد إليها في هذا المقام ، وهذا ما أكده بعض علماء التاريخ من غير المسلمين فقالوا: ظاهرة عيسى عليه السلام لم تُثِرْ انتباه المؤرخين المعاصرين له ، مما يجعل ـ من وجهة نظر تاريخية ـ أي سيرة تُكتب عنه تجميعاً هامشياً لأحداث ومعطيات متناقضة ، تحيط بفراغٍ لا يكاد يسكنه سوى ظل يكاد لا يُدرك[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن النصرانية ونبيها وكتابها عموماً ، لا تتجاوز مائتين وعشرين آية ، أي ما يمثل ٥ ،٣ ٪ من مجموع الآيات القرآنية ، خلافاً لما يتوهمه كثير من كتاب النصارى من أن غرض القرآن الأساسي هو مهاجمة العقائد النصرانية أو تضليل النصارى ، بل إن هذا العدد المذكور إنما ورد في ثمان وعشرين سورة فقط بعضها لا يحتوي أكثر من

---

(١) **واشنطن إيرفنغ**: مستشرق وكاتب قصصي أمريكي ، عدّه بعضهم أبا الأدب الأمريكي ، وكانت وفاته عام ١٨٥٩م.

(٢) واشنطن إيرفنغ ، حياة محمد ، ترجمة وتعليق: علي حسن الخربوطلي ، دار المعارف ، مصر ، ط١ ، ١٩٦٠ ، ص ٦٩.

(٣) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ، ص ٢٣.

آية أو آيتين ، مع وجود تماثل بين بعضها والبعض الآخر[١] .

٧ـ مواضع ذكر عيسى عليه السلام وأمه في القرآن الكريم :

لا يوجد كتاب على وجه الأرض منح السيد المسيح عليه السلام وأمه البتول وعائلته الكريمة تكريماً وتبجيلاً أعظم من القرآن الكريم ، بل إن تكريم القرآن الكريم للمسيح وأمه وعائلته يفوق بلا شك تكريم كل من التوراة والإنجيل الموجودين حالياً ، وكان القرآن الكريم بالإضافة إلى هذا التكريم هو المصحح للأخطاء والاتهامات والافتراءات الباطلة التي كانت تُوجَّه إلى السيد المسيح وأمه الطاهرة على ألسنة اليهود والمسيحيين أنفسهم .

ففي القرآن الكريم توجد سورة آل عمران ، وهي اسم عائلة المسيح عليه السلام ، ولفظة (آل) كلمة تُخاطَب بها العائلات الكريمة الطيبة ، وهذه السورة هي ثاني أطول سورة في القرآن الكريم وهناك سورة أخرى باسم مريم ، وهو اسم السيدة العذراء ، والدة المسيح عليهما السلام على حين أنه لا يوجد في القرآن الكريم اسم لعائلة نبي الإسلام محمد ﷺ ، إذ لا توجد سورة تحمل اسم (بني هاشم) أو (بني عبد المطلب) ولا توجد سورة تحمل اسم (آمنة بنت وهب) والدة الرسول الكريم ﷺ[٢] .

إن الوثيقة التاريخية الوحيدة الصادقة التي لا يعتريها اللبس ولا الغموض ولا التحريف ، وتتمتع بمصداقية مطلقة ما جاء من حديث واضح وقصة صادقة عن عيسى عليه السلام وأمه وعائلته وعقيدته ودعوته وأنصاره وقومه وحقيقته في القرآن الكريم .

---

(١) عبد الرزاق عبد المجيد ، مصادر النصرانية دراسة ونقداً ، دار التوحيد للنشر ، الرياض ، ط١ ، ٢٠٠٧م ، ص ٤٩ ـ ٥٣ .

(٢) بسام عجك ، الحوار الاسلامي المسيحي المبادى التاريخ الموضوعات الأهداف ، دار قتيبة للطباعة ، دمشق ، ط١ ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م ، ص ٧٢ .

وسيتبين لك من الاستعراض العلمي المؤيد بالدليل والبرهان والحجة أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي والتربوي والعلمي في سرد القرآن الكريم لعدد من المواقف المتجددة من سيرة عبد الله ونبيه عيسى ابن مريم عليه السلام.

وهذه المواقف تشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية ، بل هو كلام الله الخالق ، كما تشهد لرسول الله ﷺ ، بأنه لا يمكن أن يكون قد استقى هذه الحقائق من كتب العهدين القديم والجديد ، وذلك للاختلاف الكبير بين ما جاء عن حقيقة هذا العبد الصالح في تلك المصادر ، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن هناك من الوقائع القرآنية مالم يرد له ذكر في أيّ من كتب العهدين القديم والجديد.

وذلك من مثل معجزة كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد ، ونطقه للعبودية الكاملة لله تعالى وتنزيه الخالق العظيم عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله ، ومعجزة المائدة التي أنزلها الله تعالى على الحواريين من السماء استجابة لطلبهم ولدعاء المسيح عليه السلام بذلك ، ثم معجزة إنقاذه هو من بين أيدي اليهود الذين لم يُمكِّنهم الله تعالى من تعذيبه أو إهانته أو إذلاله وإهدار كرامته كما تصف الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى اليوم. فالقرآن الكريم يؤكد أن الله تعالى رفع عبده عيسى إليه لحين عودته الثانية إلى الأرض ليكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويصلي وراء إمام المسلمين ، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ[١].

وهذا وجه من أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي في كتاب الله لا نجده في كتاب غيره[٢]. هذا وقد ورد اسم عيسى عليه السلام خمساً وعشرين مرة في

---

(١) البخاري ، كتاب المظالم ، رقم ٢٤٧٦.

(٢) زغلول النجار ، الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٣م ، ٢/ ٨٩٤.

القرآن ، وورد اسم أمه مريم رضي الله عنها أربعاً وثلاثين مرة في القرآن ، ثلاثاً وعشرين مرة مقرونة باسم عيسى (عيسى ابن مريم) ، وإحدى عشرة مرة مجردة عن عيسى عليه السلام[١] .

مواضع ذكر مريم عليها السلام في القرآن الكريم:

ورد اسم مريم مجرداً عن عيسى عليه السلام في سورة آل عمران ست مرات أثناء الحديث عن ولادتها وكفالة زكريا عليه السلام لها ، ومخاطبة الملائكة لها ، وتبشيرها بعيسى عليه السلام .

وورد اسمها مجرداً في سورة النساء مرتين في سياق ذم اليهود لكفرهم واتهامهم لمريم ، وفي تقرير حقيقة كون عيسى كلمة الله ، ألقاها إلى مريم .

وسورة مريم التي حملت اسمها تحدثت بالتفصيل عن قصة بشارتها وحملها لعيسى عليه السلام ورد اسمها مجرداً مرتين فيها ، من بداية عرض قصتها ، عندما أتت قومها تحمل ابنها ، فاستغربوا ذلك منها وأنكروه عليها .

وورد اسمها في سورة التحريم مرة واحدة منسوبة إلى أبيها (مريم ابنة عمران) في مقام الثناء عليها لإيمانها وتصديقها وقنوتها .

تحدثت سورة آل عمران عن بداية قصة مريم رضي الله عنها منذ أن حملت أمُّها بها ، ونذرت أن يكون ما في بطنها لله وتقبلها الله ورعاها ، وقد اختلف الصالحون فيمن يكفلها وهي الطفلة الصغيرة فألقوا أقلامهم مقترعين ، فكانت من نصيب زكريا عليه السلام زوج أختها ، وتكفل زكريا بها ونشأت فتاة مؤمنة صالحة في كفالته وكان الله يكرمها برزق مستمر عندها ، وسألها زكريا عن مصدره وسط استغرابه فأجابت بأنه من عند الله فدعا ربه أن يرزقه غلاماً .

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م ، ٤/ ١٦٤ .
هناك روايتان ، رواية ترى بأنه زوج أختها وأخرى تؤكد أنه زوج خالتها .

وقد ورد هذا في آيات (٣٥ ـ ٣٨) من السورة ، وسيأتي شرحه وتفصيله في حينه بإذن الله .

ثم تحدثت آيات السورة عن تبشير الملائكة مريم رضي الله عنها ، بأن الله قد اصطفاها على نساء العالمين وعليها أن تقنت وتركع وتسجد لله وبشرتها الملائكة أيضاً بأن الله سيهبها ابنها عيسى عليه السلام وسيجعله نبياً رسولاً ، ولما استغربت مريم من ذلك أخبرتها الملائكة بأن هذا أمر الله والله يخلق ما يشاء .

وقد ورد هذا في آيات (٤٢ ـ ٤٨) من السورة .

وتحدثت سورة مريم عن حمل مريم بعيسى عليه السلام ، وبدأت الآيات بلقطة ابتعاد مريم عن أهلها نحو الشرق ، فلما كانت بعيدة عنهم وحيدة أرسل الله لها جبريل عليه السلام ، فتمثل أمامها رجلاً بشراً سوياً ، وصارحها بأنه رسول من الله ليهبها غلاماً زكياً ، فاستغربت وسألت عن كيفية إنجابها الولد وهي الفتاة العذراء العفيفة ، فأخبرها أن هذا أمر الله ونفخ جبريل فيها فحملت بعيسى ووضعته تحت نخلة ووجَّهَها إلى أكل الرطب ، وشرب الماء والصيام عن الكلام وحملت ابنها وذهبت إلى قومها ففوجئوا بابنها ، ولما سألوها عنه ، أشارت إليه ، فالجواب عنده ، فازداد استغرابهم وبلغت دهشتهم ذروتها عندما سمعوه يتكلم ويقدم نفسه إليهم ويخبرهم أنه عبد الله ، وأنه سيكون رسولاً .

وقد ورد هذا في آيات (١٦ ـ ٣٤) من السورة .

وحديث القرآن عن مريم رضي الله عنها في السور الأخرى إشارة سريعة ، فمعظم قصة مريم كانت في سورتي آل عمران ومريم[١] .

مواضع ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم:

أما عيسى ابن مريم عليه السلام فقد كان الحديث عن قصته في سور : مريم

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٦٤ .

وآل عمران والمائدة والنساء والصف والحديد والزخرف .

ـ في **سورة مريم** تداخل الحديث عنه مع الحديث مع أمه رضي الله عنها ، وكأن القصتين قصة واحدة ، الآيات (١٦ ـ ٣٤) ، وعقبَّت الآيات على ذلك بتقرير وحدانية الله ، وأنه ليس له صاحبة ولا ولد ، الآيات (٣٤ـ ٤٠) .

ـ في **سورة آل عمران** ورد اسم عيسى عليه السلام خمس مرات ، وتداخلت قصته مع قصة أمه أيضاً ، حيث بشَّرت الملائكة مريم بعيسى ، وذكرت بعض صفات عيسى ورسالته إلى بني إسرائيل ، وبعض آياته ومعجزاته لهم، ولما كذبه بنو إسرائيل آمن به أتباعه الحواريون ولما كان عيسى في خطر مباشر عصمه الله ورفعه إليه ، وذلك في الآيات (٤٨ ـ ٥٧) . وانتقلت آيات السورة بعد ذلك إلى جدال النصارى وإقامة الحجة عليهم ، وتعليم الرسول ﷺ ما يقوله لهم في مُحاجَّته لهم ، لإفحامهم وإبطال كفرهم ، وذلك في الآيات (٥٨ ـ ٧٤) .

ـ أما آيات **سورة المائدة** ، فقد تكفَّلَت بنقاش النصارى بشأن عيسى عليه السلام في مواضع عِدَّةً من السورة ، وفي حديثها عن قصة عيسى عليه السلام ، عرضت مشهد المائدة التي أنزلها الله عليه وعلى الحواريين في الآيات (١١٢ ـ ١١٥) ، وعرضت آيات السورة مشهداً من مشاهد يوم القيامة يُذكِّر الله عيسى عليه السلام بفضله عليه ، ويتبرأ فيه عيسى من عبادة النصارى له في الآيات (١٠٩ ـ ١١١ ـ ١١٦ ـ ١٢٠) [١] . وقد ورد اسم عيسى عليه السلام في السورة ست مرات .

ـ تحدثت آيات **سورة النساء**عن سوء موقف اليهود من عيسى عليه السلام ، حيث افتروا على أمه مريم وأرادوا قتلَه وصرحت الآيات بأن الله عصمه منهم وأنهم ما قتلوه ولا صلبوه وإنما شُبِّهَ لهم ، ولقد رفعه الله إليه ، وسيؤمن أهل الكتاب به قبل موته ، وأثنت الآيات على الراسخين في العلم من مؤمني أهل

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٦٦ .

الكتاب المتبعين لمحمد ﷺ ، وقد ورد هذا في الآيات (١٥٦ ـ ١٦٢) ، وورد اسم عيسى عليه السلام في السورة ثلاث مرات .

ـ أشارت آيات **سورة الصف** إلى عيسى عليه السلام مرتين؛ مرة في تبليغه الدعوة لبني إسرائيل وتكذيبهم له في الآية (٦) ، ومرة في انحياز الحواريين له ونصرتهم لدينه في الآية (١٤) .

ـ **أشارت سورة الحديد** إلى رسالة عيسى عليه السلام وإلى ابتداع الرهبان الرهبانيَّةَ من بعده في الآية (٢٧) .

ـ أشارت **سورة الزخرف** إلى نبوة عيسى عليه السلام وعبوديته ، وقد ردَّت على النصارى في عبادتهم له في الآيات (٥٧ ـ ٦٥) .

وما سوى هذا كان حديث بعض السور مجرد ذكر اسم عيسى عليه السلام ضمن الأنبياء ، أو ذكر شريعته ورسالته ، وقد ورد اسمه في سورة البقرة ثلاث مرات ، وفي سورة الأنعام مرة ، وفي سورة الأحزاب مرة ، وفي سورة الشورى مرة .

من هذا العرض الموجز نرى أن حديث القرآن عن عيسى عليه السلام تناول حمل أمه به وولادتها له ، وهذا في سورتي آل عمران ومريم ، ودعوته لبني إسرائيل وسوء استقبالهم له حيث لم يتَّبِعْه إلا الحواريون ، وهذا في سورة آل عمران والمائدة والصف ، وتخطيط اليهود لقتله ، وحماية الله له وهذا في سورة النساء ، وعرض مشهد لساحة العرض في الآخرة يتبرأ فيه عيسى من عابديه النصارى وهذا في سورة المائدة . وما سوى هذا هو نقاش للنصارى ، وإبطال لكفرهم بالله وتأليههم لعيسى عليه السلام ، وإثبات أنه عبد الله ورسوله ، وكان النقاش والجدال في سورتي آل عمران والمائدة على وجه الخصوص[١] .

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٦٧ .

هذا وقد أورد القرآن وصف عيسى عليه السلام أحياناً ، وهو (المسيح) ، وأحياناً يورد (المسيح) مجرداً ، وأحياناً يورده مقروناً باسم أمه (المسيح ابن مريم) . حيث وردت كلمة المسيح إحدى عشرة مرة في القرآن الكريم :

- في آل عمران مرة .
- وفي النساء ثلاث مرات .
- وفي المائدة خمس مرات .
- وفي التوبة مرتين .

هذه هي مواضع ذكر عيسى عليه السلام وأمه مريم في القرآن الكريم .

أولاً: عائلة المسيح عليه السلام في القرآن الكريم:

١ ـ من هم آل عمران؟ ولماذا ذُكروا في الآية :

مريم هي ابنة عمران بنص آيات القرآن الكريم : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم : ١٢] ، وورد اسم (عمران) ثلاث مرات في القرآن الكريم :

- **الأولى** : (آل عمران) في قوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣٣ ـ ٣٤] .

- **الثانية** : (امرأة عمران) والد مريم في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران : ٣٥] .

- **الثالثة** : (ابنة عمران) في قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم : ١٢] .

فمن هم آل عمران الذين ورد ذكرهم في السورة الثالثة ـ حسب ترتيب المصحف ـ التي حملت اسمهم آل عمران؟

٢ ـ من هو عمران الأول؟ ومن هو عمران الثاني؟

هناك شخصان من بني إسرائيل ، كل منهما اسمه (عمران) ، وبينهما فترة زمنية طويلة تمتد عدة قرون .

عمران الأول : هو والد نبي الله موسى ونبي الله هارون عليهما السلام .

والدليل على أن والد موسى اسمه عمران ما أخرجه الحاكم عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «موسى بن عمران صفيُّ الله» [١] ، وما أخرجه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «مَرَرتُ ليلةَ أُسرِي بي على مُوسى بنِ عِمرانَ عليه السلام» [٢] ، فنسب رسولنا ﷺ موسى عليه السلام إلى أبيه عمران .

وقد أشار القرآن إلى أسرة عمران الأول : امرأته وتصرفها عندما أنجبت ابنها موسى ، وابنته التي أمرتها بمراقبة تابوت أخيها موسى ، وهارون شقيق موسى فهؤلاء الخمسة الصالحون هم أفراد أسرة عمران ، ولا ندري هل كان لعمران أولاد غير المذكورين في القرآن أم لا؟

ـ عمران الثاني : هو والد مريم رضي الله عنها . حيث أشار القرآن إلى حمل امرأته بمريم ونذرها لله ، كما أشار إلى شقيق لمريم اسمه (هارون) وهو غير هارون النبي شقيق موسى عليه السلام وسنتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وذكر رسول الله ﷺ أن عيسى ويحيى عليهما السلام هما أبناء الخالة ، وهذا معناه أن زكريا عليه السلام كان متزوج أخت مريم .

وهذا معناه أن أسرة عمران الثاني المذكورة في القرآن والحديث مكونة من خمسة أشخاص أيضاً ، عرفنا أسماء ثلاثة منهم وهم عمران الأب ، وهارون

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، ٢/ ٥٧٦ .
(٢) أخرجه مسلم ، رقم ١٦٥ . وانظر : الأحاديث الصحيحة ، رقم ١٨٢ .

الابن ، ومريم الابنة ، أما اسم امرأة عمران وابنته الأخرى فهذا ممّا لم يُصرِّحْ به القرآن .

وإذا كان عمران الأول قد عاش في مصر زمن الفراعنة في بداية تاريخ بني إسرائيل ، فإن عمران الثاني قد عاش في بيت المقدس في آخر تاريخ بني إسرائيل وبينهما عدة قرون[١] .

٣ـ من هم آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين؟

من هم آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين؟ هل هم آل عمران الأول والد موسى أم هم آل عمران الثاني والد مريم؟

ذهب بعض العلماء إلى أن (آل عمران) هم ذرية موسى وهارون ابني عمران الأول عليهما السلام ، اللذين ظهر منهما معظم أنبياء بني إسرائيل .

وذهب آخرون إلى أن (آل عمران) هم مريم وابنها عليه السلام وأمها وأخوها رضي الله عنهم .

ـ قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣٣ـ ٣٤] .

يبين سبحانه وتعالى وحدة الإنسانية التي ما كان يسوغ معها خلاف إلا ممن ضل سبيل الهداية ووحدة النبوة والرسالة الإلهية التي وحدت بها شريعته تعالى ، وما كان يسوغ بعد هداية الله تعالى خلاف إلا إذا كان الضلال، ثم بين سبحانه من يجتبيهم ومن يصطفي ويحب من عباده وكيف يحبونه هم ويخلصون لذاته العلية بأن يسلموا وجوههم له سبحانه وتعالى ويحررون أولادَهم لعبادة الله تعالى[٢] .

قال الإمام ابن كثير في التفسير : يخبر الله أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٦٨ .
(٢) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٨م ، ٣/ ١١٩٢ .

الأرض ، فاصطفى آدم عليه السلام ، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته وعَلَّمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة ، واصطفى نوحاً عليه السلام ، وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض ، واصطفى آل إبراهيم ، ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ ، واصطفى آل عمران ، والمراد بعمران هذا هو والد مريم ابنة عمران ، أمِّ عيسى عليه السلام[١] .

وآل عمران اصطفاهم الله وهم من آل إبراهيم ، ولكنهم خُصُّوا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام تشريفاً وتكريماً ، ولأن السياق سوف ينتقل إلى الحديث عنهم بشيء من التفصيل[٢] .

كان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمنه ، وكان رجلاً صالحاً ، وكانت له زوجة صالحة طيبة طاهرة خيرة تقية وفية مطيعة لزوجها ومطيعة لربها ، وكان من نتاج هذا الزواج المبارك ، إكرام المولى عز وجل لهم بمريم عليها السلام[٣] .

ـ ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ : أي عالم زمانهم ، أي : اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه ، وقد فضلهم بما آتاهم من النبوة والكتاب في معظمهم وفي مريم : بحملها وولادتها من غير مماسة بشر ، مع طهارتها وانقطاعها لعبادة ربها وإمدادها في مُصَلاّها برزق الله في غير أوانه ، واختيارها أن تكون أماً لعيسى الذي شاء الله أن يكون بغير أب[٤] .

---

(١) زهرة التفاسير ، ٤/ ٥٩٧ .
(٢) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ٢/ ٥٩٧ .
(٣) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٥٩٧ .
(٤) عبد الله شحاته ، تفسير القرآن الكريم ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ٢/ ١٥٥٧ .

ـ ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾؛ أي ذرية يشبه بعضها بعضاً في الخير والفضيلة والنية الصالحة والعمل الصالح والإخلاص والتوحيد التي كانت سبباً في اصطفائهم ، وهذه الذرية هي التي ذكرها الله في سياق الكلام عن إبراهيم بقوله: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ كُلّٗا هَدَيۡنَاۖ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الأنعام: ٨٤ـ٨٧] (١).

ـ ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾: أي سميع لأقوال العباد ، عليم بضمائرهم وأفعالهم ، يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً ، وسميع لكل قول مجيب لصالح الدعاء وخالص الرجاء ، عليم بأحوال العباد مطلع على مكنون الفؤاد. وفي الآيتين توجيه وإرشاد إلى وجوب اتباع الأنبياء والاقتداء بهم والسير على طريقهم ففيه الصلاح والفلاح(٢).

٤ ـ ولادة مريم:

ـ قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ ﴾ [آل عمران: ٣٥ـ٣٦].

ذكر الله نشأة عيسى ببيان نشأة أمه ، بياناً لبطلان ما يعتقده النصارى فيه من أنه ابن الله تعالى عن ذلك ، وأسلوب القرآن عند رَدِّ وإبطال عقيدة ، أن يبين أصلها فينقضه لتُنْقَضَ هي تبعاً. فالجدال في فروعٍ أُصولُها خاطئةٌ لا يُوصل إلى حق ، فيزعمون أن عيسى ابن الله ، تعالى الله ، وعيسى له أم وأمه مريم ، ومريم

(١) المرجع السابق ، ٢/ ١٥٥٧.
(٢) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ص ٢/ ٥٩٩.

لها أم وأب ، ولهما أمهات وآباء إلى آدم ، فمن أين أتت بُنُوَّته لله؟

ولذا ذكر الله الزوجية بين امرأة عمران وعمران ، فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ إشارة إلى الأبوة والأمومة لمريم ، وذكر الله اسم مريم ، ولم يذكر اسم أمها ، لأن نسب عيسى يرجع إلى مريم ثم أبيها ، لا يرجع إلى أمها ، والناس تنسب إلى آبائهم ، واسم أُمِّ مريم: حنّة ، فعيسى هو ابن مريم بنت عمران ، ولا يقال: عيسى ابن مريم بنت حنّة ، وإنها ذكرت مريم ، لأن عيسى نسب إليها لعدم الأب ، ولما كان لمريم أب تركت الأم حنة وذكر الأب عمران ، ولما كانت أم مريم لا أثر لها في نسب عيسى قال ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ (١).

وقد ذكر الله الأحوال التي اكتنفت الحمل بالبتول مريم وولادتها وتربيتها ، ويلاحظ القارى أن العبادة والنسك أظَلّاها وهي جنين في بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء ، واصطفاها الله لأمر جليل خطير ، فأمها وهي حامل بها نذرت ما في بطنها لما تحرك الحمل في أحشائها أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، منقطعاً لعبادته وخدمة بيت المقدس ، والمُحرَّر: هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى(٢).

فقد أرادت امرأة عمران أن يكون ما في بطنها منذوراً لله ، موقوفاً على عبادة الله خالصاً لدين الله ، مُحرَّراً من كل قيد يقيّده في هذه الحياة ، وأرادت لمولودها أن يحقق الحرية الحقيقية ، وذلك بتحريره من قيود الذل والاستعباد المعنوي وألا يتقيد بالأهواء والشهوات والملذات ، وألا تستعبده الدنيا وما فيها ، وألا ينشغل بما فيها عما أوجبه الله عليه وكلفه به ، وأن يستعلي على كل القيود التي تقيده وتعيق عبادته.

---

(١) عبد العزيز الطريفي ، التفسير والبيان لأحكام القرآن ، مكتبة دار المنهاج ، الرياض ، ط١ ، ٢٠١٧م ، ٢/ ٥٨٢.

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت. لبنان ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م ، ص ٤/ ٦٦.

فإن كان المؤمن هكذا فهو الحر المحرر الخالص لله ، وإن لم يكن كذلك فهو عبد الدنيا والشهوة وأسير الهوى والضرورة[١] .

وهذه القصة عن جدة عيسى عليه السلام من أمه تكشف لنا عن قلب (امرأة عمران) أم مريم ، وما يعمره من إيمان ومن تَوجُّه إلى ربها بأعز ما تملك ، وهو الجنين الذي تحمله في بطنها خالصاً لربها ، محرَّراً من كل قيد ومن كل شرك ، ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه ، والتعبير عن الخلوص المطلق بأنه تحرر تعبير موحٍ ، فما يتحرر حقاً إلا من يخلص لله ويفرّ إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة ، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده فهذا هو التحرر إذن ، وما عداه عبودية وإن تراءت في صورة الحرية .

فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه أو في مجريات حياته أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التي تصرف هذه الحياة ، لا تحرر وفي قلب الإنسان تعلُّقٌ أو تطلُّع أو عبودية لغير الله وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله . فالصورة الوحيدة للتحرر هي تحقيق التوحيد والعبادة الخالصة لله ، كما بينت جدة عيسى عليه السلام في مناجاته ودعائها للسميع العليم .

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران ، بأن يتقبل ربها منها نذرها ـ وهو فلذة كبدها ـ ينمّ عن التوجه الخالص لله والتحرر من كل قيد ، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه ، ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [٢] .

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٧٥ .
(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق للطباعة ، القاهرة ، ط٣٢ ، ٢٠٠٣ م ، ١/ ٣٩٢ .

ـ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾؛ السميع لكل قول ، المجيب لصالح الدعاء والعليم بكل قصد وفعل(١) .

ـ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ ؛ لتضرُّعي ودعائي وندائي .

ـ ﴿ ٱلْعَلِيمُ﴾ ؛ بما في ضميري وقلبي ونيَّتي .

ـ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ ؛ لجميع المسموعات التي من جملتها تضرعي ودعائي .

ـ ﴿ ٱلْعَلِيمُ﴾ ؛ لكل المعلومات التي من زمرتها ما في ضميري لا غير(٢) .

ـ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ السميع لدعائي ، العليم بنيتي ، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكراً أم أنثى(٣) .

ـ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يعني أنك أنت يا رب «السميع» لما أقول وأدعو «العليم» لما أنوي في نفسي وأريد ، لا يخفى عليك سرُّ أمري وعلانيته(٤) .

ـ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي ، هذا وهي في البطن قبل وضعها(٥) .

٥ ـ ولادة امرأة عمران بأنثى :

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦] . لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً ، فالنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا

---

(١) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٠١ .
(٢) المرجع السابق ، ٢/ ٦٠١ .
(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٢/ ١٦ .
(٤) تفسير الطبري ، تقريب وتهذيب ، ص ٣٣٠ .
(٥) السعدي ، تفسير السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص ٢٠٤٤ .

للصبيان ، ليخدموا الهيكل وينقطعوا للعبادة والتبتل ، ولكن ها هي ذي نجدها أنثى فتتوجه إلى ربها في دعاء حزين ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ، فهي تتجه إلى ربها بما وجدت وكأنها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة .

ـ ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ ؛ ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه ويحدثه بما في نفسه وبما بين يديه ويقدم له ما يملك تقديماً مباشراً لطيفاً ، وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم ، حال الود والقرب والمباشرة والمناجاة البسيطة العبارة التي لا تكلُّفَ فيها ولا تعقيد ، مناجاة من يحس أنه يُحدِّث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً[١] .

وقد تحدث العلماء عن معاني عميقة في الآيات السابقة في تفسيرهم لبعض الآيات :

ـ ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ والهدف من هذه الجملة التأكيد على علم الله بما وضعت ، وعلم الله بما في بطنها عندما نذرت نذرها ، وعلم الله بما ستحمل وتضع قبل أن تحمل وتضع .

إن الله هو الذي قدَّر أن يرزقها أنثى ، لحكمة يريدها ، وهو العالم بذلك ، وعلم الله شامل لكل شيء محيط بكل شيء ، يعلم الأشياء قبل وقوعها ، ويوجدها وفق علمه بها ، فمعنى جملة ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ : الله أعلم بالمولود الذي وضعته ، وأنه أنثى ، وأنه جاء على غير ما توقعته وأرادته[٢] .

ـ ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ وهي أيضاً ليست من كلام امرأة عمران ، وإنما هي

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٣ .
(٢) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٧٦ .

تقرير لحقيقة قاطعة أراد الله بيانها في هذا الموضوع ، وهذه الجملة خاصة بالسياق الذي وردت فيه ، وهو نذر ما في بطن امرأة عمران للعبادة والخدمة والوقف .

والمعنى : ليس الذكر كالأنثى في هذا المجال ، لأن خدمة بيت الله ، والتفرغ لعبادة الله في بيت الله لا يتساوى فيه الذكر والأنثى ، فهو يحتاج إلى مزيد من الجهد ، والقوة والجلد والتحمّل والصبر ، يبذل فيه صاحبه كثيراً من الطاقة البدنية . وليس الذكر كالأنثى في هذا المجال ، فالأنثى قد لا تقدر على أداء ذلك بصورة جيدة ، فالذكر أكثر قوة وطاقة وجلداً من الأنثى .

ولا نرى أن تُعمم هذه الجملة ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ لتشمل جميع مجالات الحياة بين الرجال والنساء ، ولا نرى استنطاق هذه الجملة لتدل على التفضيل المطلق للرجال على النساء في كل شيء .

ولا يوجد نصٌّ صريح في تفضيل الذكور على الإناث تفضيلاً ذكورياً ، بل القرآن صريح في اعتماد التقوى أساس التفضيل والتفاضل والتكريم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] . أكرمكم عند الله أتقاكم ، سواء كان ذكراً أم أنثى ، واللطيف في المعنى اللغوي لكل من الذكر والأنثى أنه قائم على أساس التفريق المعنوي بينهما .

إن معنى (الذكر) قائم على الشدة والقوة واليبوسة ، ومعنى (الأنثى) قائم على الليونة والنعومة ، فالله حكيم في خلق كل من الذكر والأنثى ، فلم يجعلهما متماثلَين في كل شيء وفي موضوع الشدة والصلابة جعل الذكر أقوى من الأنثى ، الذكر هو الأشد والأمتن والأقوى والأصلب ، ليؤدي رسالته في الحياة ، والأنثى هي الأكثر ليونة وسهولة ، هي المتكسرة الرقيقة اللطيفة لتؤدي وظيفتها وتكون

مطلوبة مرغوباً فيها ، وصدق الله القائل (وليس الذكر كالأنثى) [١].

ـ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾ و (مريم) اسم الأنثى الوحيد المذكور في القرآن ، أما النساء الأخريات فإنهن يذكرن بألقابهن وكناهن فيقال: (أم موسى) و (أخت موسى) و (امرأة فرعون) وهكذا[٢].

ومعنى (مريم) في لغتهم ـ كما جاء ـ العابدة وهي تتمنى أن تكون وليدتها عابدة خاشعة لرب العالمين وإذا كانت سمتها ساعة ولادتها بهذا الاسم ، فهذا يدلُّ على امتلائها ووعيها بالغاية التي تريدها من مولودها منذ أن كانت تحنُّ للولد وتتضرع إلى الله أن يرزقها إياه ، ولهذا عجلت وأعلنت اسمها تفاؤلاً وأملاً[٣].

وفي هذه التسمية أشارت إلى عزمها على إمضاء نذرها ورجائها أن يكون عند الله مقبولاً ، والسعي في التقرب إليه سبحانه وتعالى وإظهار أنها غير راجعة في نيتها ، وإن كان ما وضعته أنثى ، وأنها وإن لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه[٤].

ـ ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾؛ وما زال الحديث موصولاً عن مناجاة امرأة عمران لربها وتضرعها إليه أن يقبل وليدتها ويجعلها مباركة ، ويحفظها من الشيطان الرجيم ، فالمولى سبحانه وتعالى خير حافظ ، وهو سبحانه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، وفي هذه الدعوة التي توجهت بها امرأة عمران لربها إشارة إلى حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها بنتها ويرعاها حتى تشب وتكبر وتكون لها ذرية ، ولقد استجاب الله تعالى لها[٥].

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٧٦.
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ١٧٨.
(٣) فاروق حمادة ، آباء وأبناء ملامح تربوية في القرآن الكريم ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ٢٣٥.
(٤) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٠٧.
(٥) المرجع السابق ، ٢/ ٦٠٧.

وعندما ننظر في الآيات التي سجلت دعاء امرأة عمران فإننا ندرك منها صفاء روحها ، وعظمة إيمانها وحرارة اتصالها بالله ، يظهر ذلك في قوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ، وفي قوله : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ، و(ذريتها) محصورة في ابنها عيسى عليه السلام ، لأن ظاهر السياق القرآني دلَّ على أن مريم لم تتزوج وأنها أنجبت عيسى بأمر من الله ، وعيسى عليه السلام رُفع إلى السماء ولم يتزوج ، فليس له ذرية ولا نسل .

وقد استجاب الله دعاء امرأة عمران فأعاذ مريم من الشيطان الرجيم ، وأعاذ ذريتها ـ ابنها عيسى ـ من الشيطان الرجيم أيضاً[١] ، لم يكن للشيطان سبيل لمريم وابنها عيسى ، ولم يكن له سلطان عليهما ، فحفظهما الله من وساوسه ونزغاته ، بل إنه لم يمسّ مريم حين ولادتها ، ولم يمس عيسى أيضاً حين ولادته ، وصرح بهذه الحقيقة رسولنا ﷺ[٢] .

فقد قال ﷺ : «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان غير مريم وابنها» ، ثم قرأ أبو هريرة راوي الحديث قول الله ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [٣] .

لقد سألت امرأة عمران ربها أن يحفظ الوليدة ابنة الأطهار الأبرار من مكائد الشيطان وتسويله لتتم النعم بخلوصها لرب العالمين ، وزادت من مناجاتها في مقام أنُسها بربها أن يتعدى حفظه ورعايته وصونه وكرامته هذه الوليدة البريئة الطاهرة لتشمل ذريتها ، مهما امتدت عروقها وتتابعت أغصانها وفروعها فهي حلقات بيت صالح ، وللصالح آثاره التي تدرك الذرية ولو بعد حين ، فاستجاب

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ١٨٠ .
(٣) البخاري ، رقم ٣٤٣١ . وانظر : مسلم رقم ٢٣٦٦ .

الله عز وجل دعاء امرأة عمران كاملاً غير منقوص وزادها نعائم على نعائمه ولم يجعل للشيطان من ساعة ولادتها إليها من سبيل[١].

وقد أرشدنا الرسول ﷺ إلى تحصين ذريتنا من الشيطان الرجيم ، فالإنسان إذا ما جاء أهله ، ومجيء الأهل مظنة حصول الولد ، فيقول الإنسان إذا جاء أهله «اللهم جَنِّبْي الشَّيطانَ وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رزقتَني ، فإن كان بينَهما وَلدٌ لم يَضُرُّهُ الشيطانُ ولم يُسلِّطْ عليه»[٢].

٦ ـ تقبُّل المولى عز وجل لمريم وإنباتها نباتاً حسناً :

لقد علم الله تعالى إخلاص امرأة عمران في ندائها لربها فقد كانت عارفة بأسرار النداء والدعاء فنادت ربها قائلة : ﴿ رَبِّ ﴾ فهي طلبت من الرب التربية من البداية إلى النهاية ، وكان في دعائها تضرُّعٌ وانكسار لنفسها بين يدي ربها حيث كان نذرها بناء على أن يكون ذكراً يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة ، والأنثى بخلاف ذلك فجبر الله قلبها وتقبل الله نذرها ، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور ، بل من أكثرهم ، وحصل بها من المقاصد أعظم ما يحصل بالذكر[٣].

وكانت الإجابات الإلهية والنفحات الربانية والمواهب اللدنية التي تنتظر هذه الوليدة السعيدة ، فأوحى الله عز وجل إلى نبي الله زكريا أن تقبلوا هذه الوليدة في رحاب البيت المقدس ، خلاف غيرها من الإناث لخدمته وللتفرغ للعبادة في جنباته ، فهي طاهرة مصون مصطفاة على النساء وهذا من استجابة دعاء الله

---

(١) د. فاروق حمادة ، آباء وأبناء ملامح تربوية في القرآن الكريم ، ص ٢٣٧ .
(٢) البخاري ، رقم ٣٢٨٣ .
(٣) السعدي ، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٠ م ، ٢١٨/١ .

لامرأة عمران ، بأن قبل ما تمنَّته من انقطاع وليدها لله ومرافقة الصالحين العابدين ، ولم يقبل قبلها أنثى في هذا .

وجعل نشأتها خير نشأة في خلْقها وخُلُقها ، فقد رزقها الله شكلاً جميلاً ومنظراً بهيجاً ، وسلكها في سلك أهل السعادة من العباد الصالحين ، وقرنها في طفولتها بالأولياء المتبتِّلين ، فلم تعرف للشر طريقاً ولا للزيغ مدخلاً ، ومن نشأ هذه النشأة الحسنة ، وترعرع في هذا الجو الإيماني فأنى له إذا كبر أن ينحرف أو يزيغ .

وهذه الآية الكريمة قاعدة من قواعد التربية القرآنية في العناية بالأطفال من ولادتهم ، وحمايتهم في نشأتهم وطفولتهم حتى يرسخ الإيمان في قلوبهم والعمل الصالح في جوارحهم ، وأن يعيشوا في أتراب لهم صالحين وقرناء طاهرين ، لينبتوا نباتاً حسناً وليسبق الخير إلى قلوبهم وعقولهم ، حتى إذا ما جاء الشر قلَّ أن يجد له مكاناً وموضعاً ، وكم في هذه الآية الكريمة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. من أثر ندي في القلب يوحي إلى قلب كل أب بمعاني العناية والرعاية ، والحرص على الأبناء والذرية ، ومن تمام العناية والنشأة الحسنة ، والرعاية الصالحة أن كفلها زكريا وهو زوج خالتها على الأشهر ، أو زوج أختها كما جاء في رواية ، ففي حديث الإسراء والمعراج : «فإذا أنا بِابنَي الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا» [١] ، ويطلق على القول الأول بتوسع .

وقد قال الإمام مالك وغيره : إن أمها أسلمتها إليهم بعد إرضاعها وبقائها في حجرها مدة يدفع مثلها إلى الغير ، وإليه مال ابن كثير وجمهور المفسرين ، أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقها ، ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العبّاد المقيمين به ، وكانت ابنة إمامهم وحَبْرهم و صاحب صلاتهم فتنازعوا فيما

(١) البخاري ، أحاديث الأنبياء ٦/ ٤٦٧ .

بينهم كل يريد أن يفوز بهذه الزلفى ، ويحظى بهذه القربة إلى الله تعالى ، فمِنَنُ عمران عليهم كمعلم وحبر كثيرة ، وهي تمتُّ إلى أصل جليل وشجرة مباركة ، فالعناية بها ليست كالعناية بغيرها ، وجاء الوحي بقبولها في البيت المقدس ، كل هذه الأمور وغيرها جعلتهم يتنافسون على الفوز بهذا الشرف العظيم ، حتى اقترعوا بينهم كما قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

وكان في قدر الله تعالى أن تكون في كفالة النبي زكريا ، وخالتها زوجه ، وقد جاء في الحديث الشريف : «الخالة بمنزلة الأم» (١) ، فعطف خالتها كبير ورعايتها لشؤونها في جانب المرأة تامة ، أما كفالة زكريا فلتقتبس من عمله وصلاحه ولتطمئن ، وتأمن على نفسها اطمئناناً تاماً ، وفي هذا تعليم للآباء ، ليختاروا لأبنائهم وبناتهم مربين ومعلمين ومعلمات من الصالحين والصالحات الأكفاء .

إن امرأة عمران بصلاحها وصلاح بيتها كانت تتمنى الولد الصالح ، وليس أي ولد ، وتوكلت على ربها في ذلك وفي غيره من شؤونها .

إن هذه الآيات التي أخبرتنا عن امرأة عمران في رغبتها للولد تكشف لنا مَعلمًا من معالم طريق الصلحاء الأتقياء أنَّهم يُهيِّئون أولادهم في مهمات الحياة الراقية وقممها العالية ، ومقاصدها الغالية ، وعلى رأسها خدمة الدين وتبليغ الدعوة في استمرارها وبقائها ، ولا يهيِّئونهم لما هو فائت عاجل ، مما يستوي فيه الإنسان والعجماوات ، ولما ولدت الأنثى لم تسخط ولم تتذمر بل رضيت وليس الرضا ألا تحس بالبلاء ، بل الرضا ألا تعترض على الحكم والقضاء .

---

(١) البخاري ، كتاب الصلح ٥/ ٣٠٤ .
هناك روايتان ، رواية ترى بأنه زوج أختها وأخرى تؤكد أنه زوج خالتها .

والرضا سكون القلب إلى أحكامه ، وموافقة القلب بما رضي الله تعالى به واختاره ، وأفادتنا هذه الآيات البينات الحرص على اختيار الصالح الحسن من الأسماء ، لما نتوسمه ونرجوه من البنات والأبناء ، ليشب الناشى ، وهو عارف بما أراده منه أبواه .

وقد كان العرب يسمون أولادهم صخراً وحرباً وأمثالها ، ويسمون خدمهم بنافع وأفلح وبركة ، ولما سئلوا عن ذلك قالوا : إن أولادنا لأعدائنا ، وخدمنا لنا ، ولهذا نُسميهم كل بما هو له .

مدت امرأة عمران أكفها إلى الله بصالح الدعاء لولدها وذريتها ، ودعاء الوالدين له شأن عظيم عند الله ، وكل هذه الدرجات مراقٍ عالية في التربية القرآنية .

وعلمتنا هذه التوجيهات الربانية أن نحرص بكل ما نستطيع على إنبات أبنائنا وبناتنا النبات الحسن ، وأن يكون ذلك نصب أعيننا في غدوتنا ورواحنا وليلنا ونهارنا(١) .

قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، والقبول هو : أخذ الشيء برضا والحسن شيء فوق الرضا ، ستلمحه في تربية مريم العذراء وهو ليس قبولاً عادياً ، ولكنه قبول حسن ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

فالإنبات الحسن يحمل ملحظين في حياة مريم عليها السلام :

أولهما : أنها كانت تحت التربية الربانية منذ بدايتها الأولى في بطن أمها ، كما يرعى الفلاح نباته بالعناية والنماء .

ثانيهما : أن إجابة الله لامرأة عمران دليل على إخلاصها ، لأن الله اختص

---

(١) فاروق حمادة ، آباء وأبناء ملامح تربوية في القرآن الكريم ، ص ٢٤١ .

مريم بالتربية التي هي من خصائص الربوبية ، من الإنبات الحسن ، وكفالة زكريا لها[١] .

وفي قوله تعالى ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ، جاءت الفاء هنا للتعقيب؛ لبيان سرعة استجابة المولى عز وجل لدعائها وسرعة تحقيقه لرجائها فهو من المؤمن قريب ولدعائه مجيب، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] [٢] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ مع قبولها عند الله قبولاً حسناً ، فقد أكرمها الله وأنعم عليها بأن أنبتها نباتاً حسناً ، قال ابن كثير : جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً[٣] ، وقد رباها الربّ عز وجل تربية حسنة في عبادة وطاعة لربها[٤] . والآية تفيد حُسنَ نمائها وسلامتها واكتمال بنيتها اكتمالاً طبيعياً برعاية ربانية خالصة .

٧ ـ كفالة زكريا لمريم عليهما السلام :

بعد أن تقبل المولى عزَّ وجل مريم عليها السلام وأنبتها نباتاً حسناً ، فجعل لها من يقوم بشأنها ويُعنى بأمرها ويهتم بإصلاحها ، قيض لها نبياً من الأنبياء هو زكريا عليه السلام ، فكانت كفالته لها نعمة من الله ورحمة قال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: ٣٧] . ولكن كيف تمت تلك الكفالة؟

لقد تمَّ هذا الأمر بتوفيق من الله عز وجل بعد أن تنافس الأحبار والرهبان وتنازعوا على كفالة مريم ، كل يرجو ويطلب لنفسه أن ينال هذا الشرف ، وأن

---

(١) محمد متولي الشعراوي ، مريم والمسيح ، جمع وإعداد: عبد القادر أحمد عطا ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، د.ت ، ص ٥٢ .
(٢) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٠٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ، ١/ ٣٥٩ .
(٤) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦١٠ .

يحظى بذاك المقام ، فمريم عليها السلام بنت إمامهم ومعلمهم عمران عليه السلام ، الرجل الصالح الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية البنت ، وحرصاً على هذا الشرف ووفاء للمعلم والمربي والمصلح والإمام كان تنافسهم وتسابقهم الذي وصل إلى حد النزاع والاختصام على كفالة مريم عليها السلام .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

فقد كان كل واحد منهم شديد الحرص على كفالة تلك اليتيمة ، ولما لم تجتمع لهم كلمة ولم يتفق لهم رأي فكل واحد يريد أن يستأثر بهذه الكرامة ، وكان أولى بهم أن يتركوا كفالتها لنبي الله زكريا عليه السلام ، ولما طال جدالهم حول من يكفلها اتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم فمن فاز في القرعة فقد فاز بالكفالة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ ﴾ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في تفسير قوله تعالى (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) : اقترعوا فجرت الأقلام مع الجِرْيَةِ وعالَ قلمُ زكريا الجِرْيَةَ فكفلها زكريا[١] .

قال ابن حجر : وعال قلم زكريا : أي ارتفع على الماء وفي إحدى الروايات (وعلا) ، و(الجِرية) بكسر الجيم والمعنى : أنهم اقترعوا على كفالة مريم أيهم يكفلها فأخرج كل واحد منهم قلماً وألقوها كلها في الماء فجرت أقلامهم مع الجرية إلى أسفل وارتفع قلم زكريا فأخذها[٢] .

وسواء جرى قلم زكريا وسبق أقلامهم أو جرت أقلامهم وثبت قلمه أو علا

---

(١) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تحقيق وتصحيح : محمد فؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩هـ ، ص ٥/ ٣٤٥ .
(٢) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦١٢ .

بقلمه وسبح على الماء وغاصت أقلامهم أو العكس ، على أي حال كان الاقتراع ، فالمهم أن زكريا عليه السلام فاز بالقرعة وتولى كفالة مريم عليها السلام[١] .

وفي قوله ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾ على أن الفاعل هو الله تعالى والهاء لمريم أي : جعل زكريا لها كافلاً ، فزكريا وإن كان قد أقبل على كفالتها ، فإن الذي هداه إلى ذلك ووفقه ويسر له ذلك الأمر هو الله عز وجل[٢] .

فقد جعل الله سبحانه وتعالى كفالتها لزكريا ، وجعله أميناً عليها ، وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودي من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل[٣] .

وكان نبياً كريماً عليه السلام ، ولأن الله يُعدّها لأمر عظيم ولهذا عاشت مريم طفولتها وشبابها عند زكريا عليه السلام ، واقتبست منه العلم والمعرفة واقتدت به في العبادة والذكر واستفادت منه الخلق والسلوك ، فنشأت نشأة إيمانية صالحة وكانت عابدة ذاكرة زاهدة مقبلة على الله متصلة به ، ومضت السنوات ومريم في كفالة زكريا ، حتى صارت فتاة بالغة ، واعية ناضجة ، وهي مقبلة على عبادتها واتصالها بالله وذكرها له[٤] .

وقد كانت كفالة زكريا عليه السلام لأمرين :

أولًا : كرامة لمريم عليها السلام :

قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

---

(١) الشرقاوي ، المرجع نفسه ، ٢/ ٦١٢ .
(٢) الشرقاوي ، المرجع السابق ، ٢/ ٦١٢ .
(٣) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٣ .
(٤) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٨٥ .

قام نبي الله زكريا عليه السلام بكفالة مريم ، وجعل مقامها في بيت المقدس ، في أشرف مكان : وهو المحراب[١] .

وقد أكرمها الله إكراماً حيث كان يرزقها رزقاً خاصاً ، وهي عابدة معتكفة في المحراب ، ورأى زكريا عليه السلام ذلك : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وكلمة (كلما) تدل على التكرار ، أي أن الرزق كان يأتي مريم وهي في المحراب متفرغة فيه للعبادة والذكر والصلاة والمناجاة ، والله يكرمها بتقديم الرزق لها بخارقة ليست مألوفة ولا معروفة .

وكلما دخل عليها زكريا المحراب يجد عندها ذلك الرزق وهو يعلم أنه لم يقدمه هو لها وهو المتكفل بتقديم الطعام لها ، فيتعجب من ذلك ، ويسألها ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أي من أي مصدر ووجه جاءك هذا الرزق؟

إنه يعلم أن هذا الرزق لم يأتها من عند الناس ، وسيكون من عند الله ، وسؤاله ليسمع الجواب منها ، وهو عالم به .

فتجيبه بصراحة قائلة ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي : الله هو الذي ساق لها الرزق ، وأوصله إليها وهي في المحراب ، بدون سعي ولا تحصيل .

قال الحسن البصري : كان زكريا إذا دخل على مريم المحراب وجد عندها رزقاً من السماء ، من الله ، ليس من عند الناس ، ولو أن زكريا كان يعلم أن ذلك الرزق من عنده لما سألها عنه[٢] .

وعَقَّب القرآن على جواب مريم بالتذكير بحقيقة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ

---

(١) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦١٣ .
(٢) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٨٦ .

حِسَابٍ﴾ ، فهذه الجملة ليست من تمام جواب مريم ، بل هي خبر من الله يخبرنا فيه أنه يسوق الرزق إلى من يشاء من خلقه بغير حساب ولا إحصاء ولا عدّ يحسِبه عليه .

إن الله لا يحصي ولا يحاسب عبده على ما يرزقه إياه؛ لأن إخراج ذلك الرزق لا ينقص خزائنه سبحانه ، فالذي يحسب ويحاسب ويعد ويحصي هو الذي يخشى النقصان من رزقه[١] .

وتقديم الرزق إلى مريم وهي في المحراب إثبات للكرامة التي ساقها الله تعالى لها؛ لأنه كان بطريقة خارقة غير مألوفة ، ومريم ليست نبيّة لنعتبر هذه الخارقة معجزة ، فالمعجزات مختصة بالأنبياء ، وإذا وقعت الخوارق من الله لغير الأنبياء سميت كرامات ، وهذا دليل قرآني على إمكانية الكرامة للأولياء ، بل على وقوعها وحدوثها ، وهناك أدلة قرآنية أخرى على إثبات الكرامة للأولياء الصالحين ، كما حصل لأصحاب الكهف الصالحين ، ونحن نثبت الكرامات للأولياء ، كما نثبت المعجزات للأنبياء ونؤمن بحصولها لهم ، وأنها من فعل الله تكريماً لهم ، وشرطنا في قبولها ذكرها في آية صريحة أو في حديث صحيح مرفوع ولا نلتفت إلى كلام الذين ينكرون الكرامات للأولياء؛ لأنه يتعارض مع كلام الله وكلام رسوله ﷺ .

وكلمة ﴿ رِزْقًا ﴾ في قوله ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ نكرة منونة ، وهذا التنكير والتنوين يدل على التعميم والشمول ، وهو مقصود ، فالرزق الذي كان يأتيها به الله يشمل جميع ما تحتاجه من الطعام والمأكولات كما أن هذا التنكير يدل على الإبهام ، حيث لم يُذكر شيءٌ من أصناف الرزق المقدم لها ، وهو يدعونا إلى عدم الخوض في تحديد أصناف ذلك الرزق ، من اللحوم والخضار والفواكه والمأكولات والمشروبات؛ لأن هذا لا دليل عليه ، ولا فائدة منه ، فلنبق

(١) الخالدي ، المرجع السابق ، ٤/ ١٨٧ .

الكلمة ﴿ رِزْقًا ﴾ على إبهامها اللطيف الجميل[١] .

ويكفي معرفتنا أنها كانت مباركة يكثر من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً حتى ليعجب كافلها ـ وهو نبي ـ من فيض الرزق ، فسألها : كيف ومن أين هذا كله؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله وتفويض الأمر إليه كله : هو من عند الله .

وفي قوله ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، هي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه واحتفاظه بالسر الذي بينه وبينه ، والتواضع في الحديث عن هذا السر لا التنفج به والمباهاة ، كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التي تثير عجب نبي الله زكريا ، هي التمهيد للعجائب التي تليها من ميلاد يحيى وميلاد عيسى ، وعندئذ تحركت في نفس زكريا الشيخ الذي لم يوهب ذرية ، تحركت تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية ، الرغبة في الذرية في الامتداد في الخلف ، الرغبة التي لا تموت في قلوب العباد والزهاد ، الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل ، إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، لحكمة عليا في امتداد الحياة وارتقائها[٢] .

ثانياً: زكريا يتوجه إلى المولى عز وجل بالدعاء أن يرزقه ذرية صالحة:

قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] . وإن المعنى : في ذلك المكان الذي رأى فيه ما رأى من كرامات مريم ، دعا زكريا ربه لقد طمع في ذلك الظرف بالولد مع كبر سنّه من المرأة العاقر ، فرجاً أن يرزقه الله منها الولد ، مع أنه عجوز وامرأته عاقر ، فرغب في الولد ، وسأل الذرية الطيبة .

---

(١) المرجع السابق ، ٤/ ١٨٧ .
(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٣ .

ومعنى ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ : من عندك .

ومعنى ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ : نسلاً .

ومعنى ﴿ طَيِّبَةً ﴾ : مباركةً .

والذرية : تطلق على الواحد والجمع وهي هنا بمعنى الواحد ، وزكريا طلب من الله ولداً فقط ؛ لأن الله قال عن طلبه في آية أخرى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥] ، ولم يقل (أولياء) .

وكان دعاء زكريا عليه السلام ربه في سورة آل عمران مجملاً ، لكنه مفصل نوعاً ما في مطلع سورة مريم ، قال تعالى : ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم : ١ ـ ٦] .

وافتتحت سورة مريم بخمسة من الحروف المقطعة ، التي افتتح الله بها بعض السور ، ثم جاء الحديث بعد ذلك مباشرة عن دعاء زكريا عليه السلام ، وخاطب الله نبيه محمد ﷺ ، بأنه سيذكر له رحمته بزكريا عليه السلام ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ . ووصف الله زكريا بالعبودية لله ﴿ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ ، وهذا وصف للتكريم والتشريف ؛ لأن مقام العبودية لله هو أعلى المقامات وأشرفها[١] .

والعبودية لله تعالى مقام كريم ودرجة سامية يوصف بها المقربون ، والعبودية لله تعالى غنىً ورفعةٌ وعز ، وأما العبودية لغيره ـ سبحانه ـ فهي فقر وذل وضَعَة فما أسوأ أن يكون الإنسان عبداً لشيطان ، عبداً لشهواته ، عبداً لهواه ، عبداً

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ١/ ١١٤ ـ ١١٥ .

للمال ، عبداً للمنصب والمال والسلطان ، يبيع في سبيل ذلك دينه ومبادئه[١] .

١ ـ نداء زكريا الخافت :

يناجي زكريا عليه السلام ربه بعيداً عن عيون الناس ، بعيداً عن أسماعهم في عزلة يخلص فيها لله ، ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم : ٣] ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكره صدره ويناديه في قرب واتصال ﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ، بلا واسطة ولا حرف النداء وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ، ولكن المكروب يستريح إلى البثّ ، ويحتاج إلى الشكوى ، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر ، فيستحبُّ لهم أن يدعوه وأن يبثّوه ما تضيق به صدورهم ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر ، ليستشعروا صلتهم بالجانب الذي لا يضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه[٢] .

٢ ـ تمهيد بديع للدعاء :

يمهد زكريا عليه السلام في مناجاة ربه بتمهيد جميل بديع للدعاء ، يقول تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٤ ـ ٧] .

ويشكو زكريا إلى ربه وهن العظم وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن ، فالعظم هو أصلب ما فيه وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمع عليه ، ويشكو إليه ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ،

---

(١) عادل أحمد صابر الرويني ، تأملات في سورة مريم ، دار النوادر ، سوريا ، ٢٠١١م .
(٢) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٠٢ .

ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة ، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد ، ووهن العظم واشتعال الرأس شيباً كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه .

ثم يعقّب عليه بقوله ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ ، معترفاً بأن الله قد عوّده أن يستجيب إليه إذا دعاه ، فلم يَشْقَ مع دعائه لربه وهو في قنوته وقوته ، فما أحوجه الآن في هرمه وكربته أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه ، فإذا صور حاله ، وقدم رجاءه ذكر ما يخشاه ، وعرض ما يطلبه ، إنه يخشى من بعده ، يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه ، وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها ، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين وأهله الذي يرعاهم ـ ومنهم مريم التي كان قيّماً عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه ـ وماله الذي يحسن تدبيره وإنفاقه في وجهه ، وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله ، وهو يخشى ألا يسيروا فيه سيرته[١] .

وللإمام ابن كثير في التفسير توجيهات لطيفة في ذلك :

ـ **الأول** : خشي أن يتصرّف مواليه من بعده في الناس تصرفاً سيئاً ، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته فاستجاب الله له .

ولم يخش من وراثة مواليه له ماله ، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى هذه الدرجة ، ومن أن يأنف من وراثة عصباته له ، فسأل ربه أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم .

ـ **الثاني** : لم يذكر أنه كان ذا مال ، بل كان نجاراً ، يأكل من كسب يديه ، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا .

ـ **الثالث** : لم يترك زكريا عليه السلام مالاً ، لأن الأنبياء لا يورثون في أموالهم ، فإن تركوا أموالاً فإنها تكون صدقة ، ودليل ذلك ما رواه البخاري

---

(١) في ظلال القرآن ، ، ٤/ ٢٣٠٢ .

ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «لا نورَث ، ما تركنا فهو صدقة» (١) .

ولذلك أراد زكريا عليه السلام بالوراثة في النبوة ، ثم إن قول زكريا عليه السلام عن الولي الوارث ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ هو كقول الله تعالى عن وراثة سليمان لابنه داود عليهما السلام ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل : ١٦] .

وقد بين العلماء في قصة سليمان عليه السلام أن وراثته لأبيه كانت وراثة في النبوة والملك ، وهنا يريد زكريا عليه السلام ولياً ابناً ، وارثاً له في النبوة وليس في المال ، وعند بعض العلماء : كانت وراثته علماً ، وكان زكريا من ذرية يعقوب ، وقال البعض الآخر : أراد أن يرثه في نبوته وعلمه(٢) .

إذن ، أراد زكريا عليه السلام أن يهبه الله ابناً ليكون ولياً له ، وليرثه في النبوة والعلم ، ويرث أنبياء بني إسرائيل ، وهم آل يعقوب في النبوة والعلم(٣) .

٣ـ ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ :

ولما طلب زكريا عليه السلام من ربه الولد ، التفت التفاتة إيمانية أخلاقية سلوكية فقال : ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ ، أي : رب اجعل ابني وارثي رضياً ، و(رضيّ) بمعنى اسم مفعول (مرضيّ) .

قال ابن كثير في تفسير ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ : أي مرضياً عندك ، وعند خلقِك تحبُّه أنت ، وتحببه إلى خلقك(٤) .

ولا ينسى زكريا النبي الصالح ، أن يصوّر أمله في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبره ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ لا جباراً ولا غليظاً ولا متبطراً ولا طموعاً ،

---

(١) البخاري ، رقم ٦٧٣٠ . انظر : مسلم ، رقم ١٧٥٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ، ٣/ ١٠٩ .
(٣) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١١٩ .
(٤) المرجع السابق ، ٤/ ١١٩ .

ولفظة (مرضي) تلقي هذه الظلال ، فالرَّضيُّ هو الذي يرضى ويُرضي ، وينشر ظلال الرِّضا فيما حوله ومن حوله[١] .

إن زكريا عليه السلام يريد أن يكون ابنه الوارث راضياً مرضياً رضياً ، وأن تُبنى شخصيته على الرِّضا ، وعندما يكون رضياً سيكون فرحاً سعيداً مسروراً ، وستكون علاقته بالآخرين قائمة على السعادة واليسر والرِّضا ، سيحبّهم ويحبونه ، ويرضى عنهم ويرضون عنه ويَألف ويُؤلف .

الرَّضيُّ ليس حادّاً ولا عصبيّاً ولا شاكياً ، ليس مُعقِّداً ولا مكتئباً ولا حزيناً .

الرَّضيُّ سهل المعاملة واسع الصدر ، حليم النفس ، حسن الخُلق[٢] .

٤ ـ حليلة زكريا عليه السلام (من امرأة عاقر إلى زوج حامل) :

كان الله عند حسن ظن زكريا ، فاستجاب له ، وكتب له الولد برحمته ، وأجرى له معجزة خارقة ، فامرأته عاقر لا يمكن أن تنجب في المنطق البشري القائم على الأسباب والعادات ، ولكنها ستحمل وتضع بأمر الله إن أراد الله ذلك وهو فعَّال لما يريد .

وأشارت إلى هذه الحقيقة آيات سورة الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء : ٨٩ ـ ٩٠] .

نادى زكريا ربه قائلاً ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا ﴾ أي لا تذرني وحيداً لا ولد لي ولا وارث ، يرثني في النبوة والعلم ، وقال ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ : هذه جملة حالية تفيد الدعاء ، فهو يريد ابناً وارثاً يرثه ويرث من آل يعقوب ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ، والوراثة المقصودة هنا هي الوراثة في النبوة والعلم ، فأراد بقوله لربه ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أي أنت خير من يبقى بعد كل من يموت ، وأنا

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٠٢ .

(٢) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١١٩ .

أعلم أنك لا تضيع دينك ولكنني أريد ألا تقطع فضيلة القيام بأمر الدين عن عقبي من بعدي ، فارزقني وارثاً يقوم بذلك .

استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام ، وكانت الاستجابة سريعة ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ ، وعبَّر عن الاستجابة بحرف الفاء ، الدال على الترتيب مع التعقيب الفوري ، وقد وهب الله له يحيى بعدما أصلح له زوجه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ أصلح له زوجه بأن جعلها قادرة على الإنجاب (بيولوجياً) ، وكانت هذه معجزة خارقة ، لأنها كانت عاقراً من قبل ، والآن سوف تحمل وتنجب بأمر الله وإرادته .

وتعبير القرآن عن امرأة زكريا قبل الحمل وبعده عجيب لطيف معجز ، فقبل الحمل أخبر أنها امرأة عاقر ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ ، وبعد الحمل أخبر أنها زوج له ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ .

فالمرأة العاقر هي التي في رحمها مرض ، أو داء يحول بينها وبين الحمل والإنجاب ، وعندما يعاشرها زوجها فإنها تعقر ماءه ، وتقطعه وتقضي على حيواناته المنوية ولا تفرز بويضة للإخصاب ، وبذلك يذهب ماء زوجها سُدى بسبب هذا المرض . وإن زكريا عليه السلام يعلمُ أن امرأته عاقر وعندها داء أو آفة في رحمها ، وعاش معها سنوات عديدة ، لم تحمل منه ولم تنجب ، ولما استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام أزال عقدة امرأته وعقرها ، وقضى على الآفة والداء الذي فيها والذي كان يقضي على ماء زوجها ويحول بينها وبين إفراز «البويضة» [١] .

واللطيف في التعبير القرآني أنه عدل عن كلمة (امرأة) إلى كلمة (زوج) ، فلما كانت عاقراً أطلق عليها امرأة ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ ، ولكنها لما حملت أطلق عليها زوج ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ . فلما

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٢٤ .

كانت عاجزة عن الحمل كانت (امرأة) ولما أصبحت قادرة على الحمل صارت (زوجاً) لزكريا عليه السلام ، وهذا يدلنا على عدم الترادف في المصطلحات القرآنية فالزوج والمرأة ليسا بمعنىً واحد ، وهو حليلة الرجل مطلقاً .

لقد أطلق القرآن الكريم على حليلة الرجل امرأة له : إذا كان هناك عدم انسجام بينهما لسبب ماديّ أو معنوي نفسي ، فإذا كانت لا تنجبُ فهي امرأة للرجل ، لوجود خلل مادي بيولوجي ، وإذا كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً فهي امرأة له ، كما قال القرآن : امرأة نوح ، وامرأة لوط ، وامرأة فرعون ، أما إذا كان بينها وبينه انسجام مادي ومعنوي فهي زوج له وهو زوج لها ، لأن المزاوجة تقوم على الاقتران والانسجام بينهما .

فلما أصلح الله حليلة زكريا عليه السلام وصارت قادرة على الحمل لم تعد مجرد امرأة له ، وإنما أصبحت زوجاً تؤدي وظيفتها الزوجية (بيولوجياً) ، وتحقق رسالتها الزوجية (عملياً) ، وتحمل لزوجها في رحمها ابنه ، وبذلك تحقق الاقتران والتزاوج بينهما على أحسن وأفضل صورة[١] .

٥ ـ بشارة الله لزكريا عليه السلام في المحراب :

بشر الله تعالى نبيه زكريا عليه السلام باستجابه دعوته ، قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٣٩ ـ ٤٠] .

لقد استُجيبت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر ، الذي علَّق رجاءه بمن يسمع الدعاء ، ويملك الإجابة حين يشاء ، وبشرت الملائكة زكريا بمولود ذكر اسمه معروف قبل مولده (يحيى) ، وصفته معروفة كذلك : سيداً كريماً ، وحصوراً يحصر نفسه عن الشهوات ، ويملك زمام نزعاته عن الانفلات ،

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦ .

ومؤمناً مصدقاً بكلمة تأتيه من الله ، ونبياً صالحاً في موكب الصالحين .

لقد استُجيبت الدعوة ، ولم يَحُلْ دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً ، ثم يحسبون أن مشيئة الله سبحانه مقيدة بهذا القانون ، وكل ما يراه الإنسان ويحسبه قانوناً لا يخرج عن أن يكون أمراً نسبياً ـ لا مطلقاً ولا نهائياً ـ فما يملك الإنسان وهو محدود العمر والمعرفة ، وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان هذه ، أن يصل إلى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة .

فما أجدر الإنسان أن يتأدب في جناب الله ، وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله ، فلا يخبط في التيه بلا دليل ، وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل ، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن عمله القليل .

ولقد كانت الاستجابة مفاجئة لزكريا نفسه ـ وهل زكريا إلا إنسان على كل حال ـ واشتاق أن يعرف من ربه كيف تقع هذه الخارقة بالقياس إلى مألوف البشر؟ ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ .

كذلك فالأمر مألوف مُكرَّر مُعادٌ حين يُرَدُّ إلى مشيئة الله وفعله الذي يتم دائماً على هذا النحو ، ولكن الناس لا يتفكرون في الطريقة ، ولا يتدبرون في الصنعة ، ولا يستحضرون الحقيقة .

كذلك بهذا اليسر وبهذه الطلاقة يفعل الله ما يشاء ، فماذا في أن يهب لزكريا غلاماً وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر؟

إنما هذه مألوفات البشر التي يقررون قواعدهم عليها ، ويتخذون منها قانوناً ، فأما بالقياس إلى الله ، فلا مألوف ولا غريب ، كل شيء مرده إلى توجيه المشيئة ، والمشيئة مطلقة من كل القيود .

٦ ـ زكريا عليه السلام يطلب آية من الله عزَّ وجل :

إن شدة لهفة زكريا عليه السلام على تحقيق البشرى ، ولدهشته المفاجئة

طلبَ من ربّه عزّ وجل أن يُرِيه آيةً على ذلك ، فكانت آيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو اتجه إلى الناس ، وأن ينطلق إذا توجه إلى ربه وحده بذكره وتسبيحه ، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ويسكت السياق هنا وتعرف أن هذا قد كان فعلاً ، فإذا زكريا يجد في ذات نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره ، لسانه هذا هو لسانه ، ولكنه يحتبس عن كلام الناس وينطلق لمناجاة ربه ، أي قانون يحكم هذه الظاهرة؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية ، فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة كذلك رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر[١].

كانت الآية العجيبة والمعجزة الباهرة في لسان زكريا عليه السلام ، إن قومه يعرفون أنه متكلم بفصاحة وطلاقة ويعلمون أنه لا عيب في لسانه ، ولكن بعد ما بشِّر بالولد فوجئوا به لا يكلمهم إلا بالرمز والإيحاء والإشارة ، واستمر الأمر على هذا ثلاثة أيام بلياليها.

كان زكريا عليه السلام في هذه الأيام الثلاثة على حالتين:

الحالة الأولى: عندما يخلو بنفسه ويكون وحيداً ليس معه أحد ولا يسمعه أحد، عند ذلك ينطلق لسانه بذكر الله وتسبيحه ويسمع نفسه وهو يسبح الله ويذكره.

الحالة الثانية: عندما يخرج على قومه ، ويريد أن يكلمهم ويخاطبهم فإنه يعجز عن ذلك حيث يحتبس لسانه عن الكلام بطريقة لا إرادية ، عند ذلك يخاطبهم بطريقة الرمز والإيحاء والإشارة.

وعندما يرى قومه ذلك كانوا يتعجَّبون ، فما الذي حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام؟ وما الذي جرى له؟ ولم يكن إمساك لسانه عن الكلام عندما يواجه الناس بسبب مرض أو خرس وإنما بمعجزة من الله ، فهو سويٌّ صحيحٌ

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٥.

فصيحٌ متكلم ، ولكن الله كان يمسك لسانه عن الكلام بطريقة لا إرادية ، لا دخل لزكريا في ذلك .

لم يستطع أن يكلم الناس ثلاث ليالٍ سويّاً ، أي : اعتقل لسانه من غير مرض ولا خرس ، وهو صحيح وهو في ذلك يسبح ويقرأ التوراة ، فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم إلا عن طريق الإيماء والإشارة ، وهذا يدل على أن الرمز والإيماء بالعين أو اليد صور من صور الكلام ، ونوع من أنواع التعبير ، فالذي لا ينطلق لسانه وإنما يستخدم حركات رأسه أو عينه أو شفتيه أو يده ، فإنه يعبّر بهذه الحركات الرمزية عما في نفسه ، ويفهم السامع منه كما يفهم منه إذا نطق بلسانه .

وقد جمعت آية آل عمران بين حالتي زكريا عليه السلام وهو يعيش المعجزة الربانية خلال الأيام الثلاثة صمته عند مواجهة الناس ، ونطقه عندما يخلو إلى نفسه : ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [آل عمران : ٤١] .

وأمره الله بالإكثار من ذكره في هذه الأيام الثلاثة ، وأخبره أنه لا يحبس لسانه عن تسبيح الله ولا يُمنع من ذكره ، وذكرت الآية طرفي النهار ، فإذا سبّح الله في طرفي النهار بالعشي والإبكار ، فقد ذكره وسبّحه طيلة النهار[١] .

والعشي : من وقت زوال الشمس بعد الظهر إلى أن تغيب ، والإبكار : من وقت طلوع الفجر إلى وقت الضحى ، وزكريا عليه السلام رغم منعه من الكلام إلا أنه يواصل ذكر الله عز وجل ويأمر الناس به حيث يشير إليهم بما يفهم منه دوام الذكر ، وزكريا عليه السلام أنعم الله عليه بالصمت ، وفي الصمت فكرة وعبرة ، كما أنعم الله عليه بتوفيقه إلى الذكر ، فاجتمع له الذكر مع الفكر ، وذكر الله عز وجل من أسنى المقامات وأجل القربات ومن أفضل الأعمال ومن أسمى

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٤٠ .

الأحوال ، والذكر مطلوب في كل حال حتى يصير المؤمن على صلة بالله ، وزكريا يواصل ذكر الله حتى وهو ممنوع عن الكلام ، فالذكر من أيسر العبادات ومن أعظمها أجراً ، وفي الحديث الشريف «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» (١).

ويواصل زكريا عليه السلام دعوة قومه إلى ذكر الله تعالى ، وحين يمتنع عن الكلام فإن الإشارة توصل إلى المطلوب ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] ، أي: أشار إليهم أن يداوموا على التسبيح في جميع الأوقات(٢).

٧ـ صفات يحيى عليه السلام كما ذُكرت في القرآن الكريم:

قدم زكريا عليه السلام على قومه بالآية الأولى ، وبعد انقضاء الثلاثة أيام ، أخبرهم أن الله هو الذي حبس لسانه عن الكلام أمامهم ، وأنه كان يطلق لسانه بذكر الله وتسبيحه عندما يغيب عنهم ، وأنه جعل هذا آية له ، تمهيداً لآية أخرى أكبر وهو الولد الذي سيمنحه له.

وسمع أتباعه المؤمنون منه أخبار المعجزة القادمة ، فازداد إيمانهم بالله وقدرته على خرق العادات والمألوفات ، وحقق الله لزكريا عليه السلام معجزته ، وحملت منه امرأته العاقر ، وانقضت شهور الحمل التسعة ، وأنجبت مولودها ، وسماه أبوه (يحيى) منفّذاً أمر الله بتسميته(٣).

وقد أخبر الله عن بعض صفات يحيى عليه السلام بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الدعوات ، رقم ٦٤٠٦.
(٢) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٤١.
(٣) صلاح الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ، ٤/ ١٤٣.

ـ معنى اسم (يحيى): سمّي يحيى؛ لأن الله أحياه بالإيمان والنبوة ، وقال بعض العلماء: سمّي بذلك؛ لأن الله أحيا به الناس بالهدى ، وقيل: سمّي بذلك لأن الله أحيا به رحم أمه[١].

ـ معنى ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾: بمعنى مسمًّى: فهو اسم مفعول: أي لم نجعل شخصاً قبل يحيى مسمّى بهذا الاسم ، ولم تلد النساء العواقر ولداً مثله ، ولم يُسمَّ باسمه أحدٌ قبله[٢].

وجاء في تفسير قوله تعالى في ذكر صفات يحيى عليه السلام:

أ ـ (مصدقاً بكلمة من الله):

والمراد بكلمة الله التي يصدقها يحيى قولان للمفسرين:

الأول: كلمة تأتيه من عند الله ، لأنه نبيّ ، والله يعطي أنبياءه ما يشاء من كلماته وكتبه ، فلعل هذه الكلمة كتاب من الله أنزله إليه فآمن وصدَّق به ، ولعلها أحكام من الله أمره بها ، فآمن وصدَّق بها والتزمها.

والثاني: كلمة الله هي عيسى ابن مريم عليه السلام فقد صرّح القرآن الكريم بأن عيسى عليه السلام كلمة من الله.

قال تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وكان عيسى معاصراً ليحيى ، وكلاهما كان نبياً عليهما السلام ، ولما بعث الله عيسى نبياً ، كان يحيى هو أول من آمن بعيسى وصدَّق به ، وشهد أنه عبد الله ورسوله ، وأن الله بعثه نبياً رسولاً ، ولا تعارض في الحقيقة بين القولين ، بل هما يتكاملان ، فيحيى نبي كريم عليه السلام ، وآتاه الله كلمات منه ، وكان هو أول من صدَّقها وصدَّق بها واتبعها.

---

(١) المرجع نفسه ، ٤/ ١٢٩.
(٢) المرجع نفسه ، ٤/ ١٣١.

ب ـ (سيداً) :

جعله الله سيداً شريفاً في قومه ، سادهم بالنبوة والعلم والعبادة والحلم ، وفسرها الصحابة والتابعون بهذا المعنى .

وقال العلماء في تفسير معنى السيد أقوالاً منها :

ـ السيد هو الحليم التقيّ .

ـ سيداً في العلم والعبادة .

ـ هو الكريم على الله .

ـ هو الذي لا يغلبه الغضب .

ـ السيد هو الفقيه العالم .

ـ السيد هو الشريف[١] .

وهذه الأقوال ليست متعارضة ، فكلُّها مرادة وينطبق عليها كلها معنى السيد ، وكلها تحققت في يحيى عليه السلام ، ولقد جعل الله يحيى عليه السلام سيداً شريفاً ، سيداً في الحلم والتقوى ، وسيداً في العلم والعبادة ، وسيداً في الفقه والكرم .

ت ـ (حصوراً) :

الحصور : هو الذي لا يأتي النساء ، إما من العنَّة ، وإما من العفة والاجتهاد في إزالة الشهوة ، والثاني هو المراد في الآية ، لأنه بذلك يستحقُّ المحمدة[٢] .

فيحيى عليه السلام منع نفسه عن النساء برغبته وإرادته وجاهد نفسه في عدم الرغبة فيهنّ ، ولم يكن فيه عنَّة تمنعه من معاشرة النساء ، فإن هذا نقص ينزَّه عنه الأنبياء[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ٣/ ٣٤١ .

(٢) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(٣) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٤٥ .

والمقصود أن مدح يحيى عليه السلام أنه كان حصوراً ليس معناه أنه لا يأتي النساء ، بل معناه أنه حصور من الفواحش والقاذورات ، وتسامى بغريزته وشهوته ، فلم يفكر في النساء ولم يتزوج النساء مع قدرته على ذلك لو أراد .

ث ـ (نبياً صالحاً) :

ومن صفات يحيى عليه السلام أنه نبي صالح ، وهذه الآية ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ نصّت على نبوة يحيى عليه السلام حيث سيجعله الله نبياً ويجعله من الصالحين .

وهذه بشارة ثانية لزكريا عليه السلام ، فقد بشره الله قبلها بأنه سيرزقه بيحيى وبشَّره فيها بأنه سيجعله نبياً من الصالحين ، وهي أعظم من البشارة الأولى .

ولما كانت امرأة زكريا حاملاً بابنها يحيى ، كان زكريا يوقن أن ما بطنها ولدٌ ، وأنه سيكون نبياً من الصالحين بناءً على هذه البشارة .

هذه صفات يحيى الأربعة الواردة في سورة آل عمران[1] .

ـ وفي موقع آخر من كتاب الله عز وجل يخبرنا الله بصفات يحيى عليه السلام ، وهو شاب ، ففي سورة مريم أخبرنا الله عز وجل عن يحيى عليه السلام بعدما صار شاباً كبيراً ، وبعدما بعثه الله نبياً قال تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ١٢ ـ ١٥] .

ويعدُّ هذا أول موقف ليحيى عليه السلام في انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى .

ج ـ (يا يحيى خذ الكتاب بقوّة) :

والكتاب هو التوراة الذي أنزله الله على موسى عليه السلام ، فقد أبقاه الله كتاباً لأنبياء بني إسرائيل من بعده ، وأمر الله يحيى عليه السلام أن يأخذ كتاب الله

---

(١) الخالدي ، المرجع نفسه ، ٤/ ١٤٦ ـ ١٤٧ .

الذي معه بقوة ، وأن يتدبَّره بقوة ، وأن يطبق وينفذ ما فيه بقوة ، وأن يدعو إليه بقوة ، وليس المراد بالقوة هنا القوة الجسمية البدنية ، وإنما المراد بها القوة المعنوية ، قوة الفهم والعلم ، وقوة الالتزام والانضباط ، وقوة الأداء والعمل ، وقوة الدعوة والبيان .

ح ـ (وآتيناه الحكم صبياً) :

وليس المراد بالحكم هنا القيادة والزعامة والرئاسة ، فلم يُنقل لنا أن يحيى عليه السلام كان حاكماً على بني إسرائيل ، وإنما المراد بالحكم الفهم والعلم والجدّ والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير ، والصبي هو ما كان قبل البلوغ[١] .

خ ـ (وحناناً من لدنا) :

وقد منَّ الله على يحيى عليه السلام بأنه آتاه الحنان من عنده ، وهذه استجابة منه لدعوة زكريا عليه السلام ، فلما طلب زكريا عليه السلام الغلام سأل ربه أن يجعله رضياً ﴿ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴾ .

فاستجاب الله دعوته ومنح يحيى الحنان ﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ ، والحنان هو رقة القلب ورحمته بالآخرين وإشفاقه عليهم ، وهذه نعمة عظيمة أنعم الله بها على يحيى عليه السلام فجعله حنوناً صاحب حنان يحبُّ الآخرين ويرفق بهم ويشفق عليهم .

د ـ (وزكاة) :

الزكاة هنا هي الطهارة من الذنوب والمعاصي ، وتطهير النفس وتزكيتها ومجاهدتها ، والإقبال على الطاعة والعبادة[٢] .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٤٨ .
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ١٥٠ .

والمقصود أن الله آتى يحيى عليه السلام الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع ، كي يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس ، فيطهرها ويزكيها[١] .

ذ ـ (وكان تقيّاً) :

كان يحيى عليه السلام تقياً عابداً لله خائفاً منه مؤدياً لفرائضه ، مجتنباً محارمه ، متسارعاً في طاعته . وقوله ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ ، هو نتيجة للصفات السابقة التي وصف الله بها يحيى عليه السلام ، وثمرة لما آتاه الله منذ أن كان صبياً آتاه الله الحكم والفهم والعلم ، وآتاه الحنان والرحمة والإشفاق ، وآتاه الزكاة ، والتزكية والطهارة ، ونتيجة لكل ذلك صار يحيى عليه السلام تقياً عابداً خاشعاً ، موصولاً بالله ، مراقباً له ، يخشاه ويرجوه في سرّه وجهره ، وليله ونهاره[٢] .

ر ـ (وبرّاً بوالديه) :

كان يحيى عليه السلام برّاً بوالديه ، وذِكرُ برِّه بوالديه مقصود هنا ؛ لأن والديه كبيران عجوزان ، وهما بحاجة إلى برِّ ابنهما بهما ؛ لتقدمهما في العمر وحاجتهما إلى المساعدة وحسن المعاملة ، لا سيما أنهما رزقا بابنهما على كبر .

وهذه من النعم العظيمة التي ينعم الله بها على الوالدين الكبيرين ، عندما يوفّق أبناءَهما إلى البرِّ بهما ؛ لأنهما في عمرهما المتقدِّم يحتاجان إلى ذلك البرِّ والإحسان .

ز ـ (ولم يكن جباراً عصيّاً) :

وبعدما وصف الله يحيى عليه السلام بوصفين إيجابيين ، نفى عنه وصفين

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٠٤ .

(٢) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٥١ .

سلبيين ونزهه عن نقيصتين فقال ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

(جبَّاراً): صيغة مبالغة من التجبُّر وهو التكبُّر والاستعلاء والتعالي والانتفاش على الناس وظلم الآخرين، واحتقارهم واضطهادهم.

(عصيًّا): بمعنى صاحب المعصية.

وعندما ننظر في هذه الآية الكريمة التي أخبرت عن يحيى عليه السلام، فسوف نرى التناسب والتناسق والتقابل في الصفات المذكورة له ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٤].

آتى الله يحيى عليه السلام أمرين، وأنعم الله عليه بنعمتين وهما: الحنان والزكاة، ووصفه بوصفين إيجابيين، هما ثمرة الحنان والزكاة، وهما: كان تقياً لله، وكان برَّاً بوالديه. ونفى عنه أمرين قبيحين، يتناقضان مع ما سبق، فلم يكن جباراً ولا عصياً، وهذه كلها ثمرة للحكم الذي آتاه الله إياه وهو صبيٌّ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، وهذا كلّه تطبيق وتنفيذ لأمر الله له ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾.

س ـ (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً):

وهذا خبر من الله سبحانه عن السلام الذي أضفاه على يحيى عليه السلام، و(سلام): نكرة، والتنكير للتكثير والتفخيم والتعظيم، أي أن الله جعله مغموراً بالسلام المبارك في حياته كلّها.

وأبرزت الآية السلام الذي تغشاه في مواطن ثلاثة، هي بحاجة إلى السلام من الله، أكثر من غيرها من المواطن؛ ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾: أضفى الله عليه السلام يوم ولادته، ولذلك لم يمسَّه الشيطان بسوء، ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾: أضفى الله عليه السلام والأمان يوم موته فجعله منعَّماً في قبره، وعصمه من فتنة القبر، وأجاره من عذاب القبر، ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾: أضفى الله عليه السلام والأمان يوم

القيامة ، فأمّنه من الفزع في ذلك اليوم الذي يفزع فيه الآخرون ، وأجاره من عذابه .

وأوحش ما يكون الإنسان في أماكن ثلاثة : يوم يولد ، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت ، فيرى قوماً لم يكن عاينهم ، ويوم يُبعث ، فيرى نفسه في محشر عظيم ، فأكرم الله يحيى عليه السلام وخصَّه بالسلام عليه في هذه المواطن ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ (١) .

وقد أشار الرسول ﷺ إلى فضل ومنزلة يحيى وزكريا ابنَي الخالة عليهما السلام ، روى الترمذي عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الحسنُ و الحُسَينُ سيِّدا شبابِ أهلِ الجنَّةِ ؛ إلا ابنَي الخالةِ عيسى ابنَ مريمَ و يحيى بنَ زكريا ، و فاطمةُ سيدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ ؛ إلا ما كان من مريمَ بنتِ عِمرانَ» (٢) .

واعتبر رسول الله ﷺ يحيى وعيسى عليهما السلام سيِّدَيْ شباب أهل الجنة ، وإذا كان عيسى عليه السلام قد رُفع إلى السماء في سنِّ الشباب كما سيمرُّ معنا ، فيبدو أن يحيى عليه السلام قد تُوفِّي وهو في سن الشباب أيضاً ، مما جعلهما سيدَي شباب أهل الجنة ، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنه لما عُرج به إلى السماء ليلة المعراج شاهد ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام في استقباله في السماء الثانية .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الإسراء والمعراج الطويل : « . . . ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقِيلَ : مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيَ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ ،

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٥٣ .
(٢) سنن الترمذي ، رقم ٣٧٦٨ . وانظر : الأحاديث الصحيحة ، رقم ٦٨ .

صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا ، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ . . . » [(١)] .

وهكذا كان زكريا ويحيى عليهما السلام من آخر أنبياء بني إسرائيل ، ولم يأت نبيٌّ بعدهما لبني إسرائيل إلا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام[(٢)] .

٨ ـ الحكمة والمناسبة من ذكر يحيى بن زكريا عليهما السلام :

لما ذكر الله تعالى قصّة ولادة يحيى بن زكريا من عجوز عاقر ، وشيخ قد بلغ من الكبَر عتيّاً ، وذلك بمقتضى السُّنن الكونية هو شيء خارق للعادة؛ لعقم المرأة وهرم الشيخ ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات ، فذكر ولادة عيسى عليه السلام ، من غير أب وهي شيء أعجب من الأول بكثير[(٣)] .

ثالثاً: اصطفاء الله تعالى لمريم عليها السلام على العالمين:

ما زال السياق يواصل الحديث عن نعم الله عز وجل على آل عمران ، وكيف اصطفاهم المولى عز وجلّ وفضلهم ، حيث بدأ السياق بالحديث عن امرأة عمران واستجابة المولى لدعائها ، وقبوله سبحانه لنذرها ، واصطفائه لمريم عليها السلام قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣] .

وانتقل السياق إلى الحديث عن مريم عليها السلام ونشأتها الصالحة في رعاية الله وعنايته ، وكفالة زكريا عليه السلام التي كانت توفيقاً من الله لمريم ولزكريا عليه السلام الذي دعا المولى بأن يرزقه الولد بعد أن رأى كرامةً لمريم واستجاب الله دعوته ورزقه بيحيى عليه السلام الذي جمع الله عز وجل له محاسن

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم ١٦٢ .

(٢) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ، ٤/ ١٦٠ .

(٣) محمد الحجار ، من قصص التنزيل ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ص ٥٠٤ .

الصفات ومحامد الأخلاق، ثم يعود السياق مرة ثانية إلى مريم عليها السلام وإلى اصطفاء الله عز وجل لها.

١ ـ في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ :

أي أن الله اختارها لهذا المقام الأسمى حيث جعلها من بيتٍ صالح ، وقبلها قبولاً حسناً ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وجعل زكريا لها كافلاً ، وأجرى الكرامة على يديها إكراماً لها وإحساناً إليها ، وهذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها أي اختارها؛ لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس ، وفي حقيقة اصطفائها عدة وجوه:

ـ منها أنه قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ، ولم يحصل مثل هذا لغيرها من الإناث.

ـ منها ما وقع لها من الكرامة حيث كان رزقها يأتيها من عند الله.

ـ منها أنه فرَّغها لعبادته وخصَّها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة.

ـ منها أنه أسمعها كلام الملائكة شفاهاً[١].

وفي قوله: (وإذ قالت الملائكة) ، أي: اذكر وقت قول الملائكة لمريم ، وهذا التذكير لرسول الله ﷺ ولكل إنسان في الوجود يريد أن يعرف قصة مريم واصطفائها وتطهيرها وقيامها بعباد الله وشكره ، وفي المصدر الأصيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه ـ القرآن الكريم ـ بيَّن الله عزَّوجل أنه أرسل ملائكة لتخبر مريم باصطفائها ، كما أرسل ملائكة من قبل لزكريا لتبشره بيحيى عليهما السلام ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

---

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٤١.

ولا غرابة في خطاب الملائكة لمريم ، مع أنها ليست نبيّة ؛ لأن هذا كان بأمر الله ، فالله يرسل الملائكة لتخاطب الأنبياء ، وهذا معروف وقد يرسل ملائكة لتخاطب صالحين وصالحات كما خاطبت امرأة إبراهيم عليه السلام ، وأزالت استغرابها من حملها بإسحاق وهي عجوز عقيم .

والمهم أن مريم عليها السلام رأت أمامها ملائكة ، ولعلها رأتهم بعد ما تحولوا من صورتهم الملائكية إلى صورة بشرية ، وأخبرت الملائكة مريم باصطفاء الله لها وتطهيرها واصطفائها على نساء العالمين[١] .

٢ ـ ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ مريم الطاهرة :

في قوله : ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ ، أي طهرك من الأخلاق الرذيلة ، وأعطاك الصفات الجميلة[٢] ، وطهرك من الأكدار ، والأدناس والأقذار والرذائل .

وللطهارة مراتب أربع :

المرتبة الأولى : تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث والفضلات .

المرتبة الثانية : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام .

المرتبة الثالثة : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة .

المرتبة الرابعة : تطهير السرّ عما سوى الله تعالى ، وهي طهارة الأنبياء صلوت الله عليهم ، والصديقيين[٣] .

والمقصود بطهارة مريم هو طهارتها بالإيمان الكبير العظيم العميق بالله عز

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٨٩ .
(٢) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، دار المعرفة ، بيروت . لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص٥٥٣ .
(٣) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت . لبنان ، ط١ ، د.ت ، ص ١/ ١٢٥ .

وجل والطاعة لله سبحانه وتعالى ، وطهارتها من الكفر والمعصية ، وطهارتها بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة من الأخلاق الذميمة والصفات القبيحة ، ومن مسيس الرجال بأي حال من الأحوال ، ومن تهمة اليهود حيث برَّأها المولى من افتراءاتهم ، وجاءت براءتها على لسان المسيح عليه السلام وهو في المهد[١] .

٣ـ ﴿ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ :

الاصطفاء الأول : بمعنى الاجتباء والانتقاء ، فالله اجتبى مريم وانتقاها من بين النساء ، وأخذها من بينهم وجعلها محلاًّ لتحقيق أمره ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ ﴾ .

والاصطفاء الثاني : ﴿ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ثمرة للاصطفاء الأول ، ونتيجة له ، فعندما اجتبى الله مريم واختارها من بين نساء العالمين ، فقد فضلها على باقي نساء العالمين .

فلا تكرار في الحقيقة في الآية ؛ لأن الاصطفاء في المرّة الثانية ليس بمعنى الاصطفاء في المرة الأولى ، بل هو ثمرة له ، وقد اصطفى الله مريم وانتقاها من بين النساء ، ونشَّأها نشأة حسنة وأنبتها نباتاً حسناً وأسبغ عليها نعمه وتوفيقه ورعايته وألهم أمَّها أن تنذرها له وهي في بطنها ، ليجعلها خالصة له محررة له وهيَّأ لها الحياة والعيش تحت رعاية نبيٍّ كريم هو زكريا عليه السلام ، وقدَّم لها الرزق المنوَّع الشامل وهي في المحراب تكريماً لها .

ولم تتوفر هذه الأمور لأي امرأة غيرها ، مهما بلغت من الصلاح والتقوى وهذا هو الاصطفاء الأول لها ، القائم على الانتقاء والاجتباء ، وبما أن الله اصطفاها وانتقاها ، فقد صفَّاها وخلَّصها من الشوائب ، وطهرها من الأدناس والأرجاس (وطهَّرك). واصطفاها الله على نساء العالمين ، وفضّلها عليهن

---

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ١٥٠ .

جميعاً في إنجابها الولد بدون أب ، حيث خصَّها وحدها بهذه الآية الباهرة ، والمعجزة الخارقة[١] .

ودلالة هذا الاصطفاء العظيم أمران مهمان :

أ ـ القرآن الكريم كلام الله :

وردت هذه الشهادة لمريم في القرآن الكريم ، مع أن الرسول ﷺ كان يخوض معركة فكرية شديدة مع النصارى ، ليدل أن القرآن كلام الله ، ومظهر من مظاهر الإنصاف والعدل في الإسلام ، والإشارة إلى الطهر هنا إشارةٌ ذات مغزى ، وذلك لما لابس مولد عيسى عليه السلام من شبهات ، لم يتورّع اليهود أن يُلصقوها بمريم الطاهرة ، معتمدين على أن هذا المولود لا مثال له في عالم الناس ، فيزعمون أن وراءه سرّاً لا يُشرِّف .

وهنا تظهر عظمة هذا الدين ، ويتبين مصدره عن يقين ، فها هو محمد ﷺ رسول الإسلام تلقى من أهل الكتاب ـ ومنهم النصارى ـ ما تلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات ، وها هو ذا يحدّث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة ، وتفضيلها على «نساء العالمين» ، بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزّون بمريم ، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد ، وبالدين الجديد .

أيُّ صدق؟ وأيُّ عظمة؟ وأية دلالةٍ على مصدر هذا الدين ، وصِدق صاحبه الأمين؟ إنه يتلقى (الحق) من ربه عن مريم وعن عيسى عليهما السلام ، فيعلن هذا الحق ، في هذا المجال ، ولو لم يكن رسولاً من الله الحق ما أظهر هذا القول في هذا المجال بحال[٢] .

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٩٢ .
(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٥ـ٣٩٦ .

ب ـ مريم أفضل نساء العالمين :

إن ظاهر القرآن الكريم والأحاديث النبوية يقتضيان أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة ، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة بنت محمد ﷺ ، ثم خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، ثم آسية بنت مزاحم ، وقد بيَّنا الآيات الدالة على اصطفاء الله لمريم ، أما أحاديث الرسول ﷺ فمنها :

ـ قوله ﷺ : «حسبك من نساء العالمين مريم بنتُ عمران ، وآسِيَةُ امرأةُ فرعونَ ، وخديجةُ بنتُ خُوَيلِدٍ ، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ ، » (١) .

ـ قال رسول الله ﷺ : «كَمُلَ مِن الرِّجالِ كثيرٌ ، ولم يَكمُلْ من النِّساءِ إلا مَريمُ بنتُ عمرانَ ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ ، وإن فضلَ عائشةَ على النِّساء كفَضلِ الثَّريدِ على سائرِ الطَّعامِ» (٢) .

إن أهل الكمال من الرجال كثير لا يحصى عددهم ، ولم يكمل من النساء غير هذه الأربع ، ومع ذلك لم يبلغوا مرتبة النبوة .

ومعنى الكمال : التناهي في الفضائل ، والبرّ والتقوى والإحسان ، وغير ذلك من الأخلاق الرفيعة والصفات الحميدة .

والكمال في شيءٍ ما يكون حصوله للكمال أولى من غيره ، والنبوة ليست أولى للنساء ؛ لأن مبناها على الظهور ، والدعوة إلى الله مع الاختلاط بجميع طبقات الشعب ، على اختلاف عناصرها ، وتباين مشاربها ، ومناهجها ، وحالهن : الاستتار ، ولا تكون النبوة في حقهنَّ كمالاً ، بل الكمال في حقهنَّ ـ الصدِّيقيَّة ـ وهي مرتبة عظيمة قريبة من النبوة(٣) .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، ٢/ ٥٩٥ .
(٢) البخاري ، رقم ٣٤١١ .
(٣) محمد الحجار ، من قصص التنزيل ، ص ٥١٤ .

وفي الحديث السابق شهد رسول الله ﷺ لمريم بكمالها ورجاحة عقلها ، ومقتضى ما نصَّ القرآن الكريم عليه أنها حازت المرتبة الأولى في الفضل[١] .

وبعد أن ذكرنا اصطفاء مريم عليها السلام وتفضيلها على النساء أجمعين ، يتبادر إلى الأذهان التساؤل التالي :

هل مريم صديقة أم نبية؟

الصحيح في هذه المسألة أن مريم عليها السلام ليست نبية ، وإنما هي صدِّيقة ، والدليل على ذلك ما يلي :

ـ ظاهر النص الكريم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٩] .

ـ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧] .

ـ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَۙ ﴾ [النحل : ٤٣] .

والحكمة من تخصيص الرجال بالنبوة دون النساء ، أن النبوة عبء ثقيل وتكليف شاقٌّ ، لا تتحمله طبيعة المرأة بتركيبها البيولوجي والنفسي ، ولهذا كان جميع الأنبياء من الذكور؛ لأن مهام الرسالة مضنية ، تحتاج إلى مصابرة ومجاهدة ، وتتطلب الكفاح والسفر ، وخوض المعارك وتحمُّل المشاقّ[٢] .

ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة وصفُها بالنبوة ، وإنما جاء وصفُها

---

(١) عمر سليمان الأشقر ، قصص التوراة والإنجيل في ضوء القرآن والسنة ، دار النفائس ، بيروت . لبنان ، ط١ ، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م ، ص ٣٢٥ .

(٢) علي الصّلابيّ ، الإيمان بالرسل والرسالات ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، ٢٠١١م ، ص ٥٤ .

بأوصاف أخرى تدل على صلاحها وطهرها وصدِّيقيَّتها قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥] ، وإنما قيل لها صديقة؛ لكثرة تصديقها بآيات ربها وتصديقها ولدها فيما أخبرها به ووُصفت بصدق وعد ربها ، وهو ميثاق الإيمان.

والقصد من وصفها بأنها صدِّيقة نفيُ أن يكون لها وصف أعلى من ذلك ، وهو وصف الألوهية؛ لأن المقام لإبطال قول الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة ، فجعلوا مريم الأقنوم الثالث ، فهو نفيٌ لألوهية المسيح وأمه وهما من البشر فكانا يأكلان الطعام ، ويتبع ذلك خروجه ، فهذا كناية عن الغائط والبول[١].

ووُصفت بالصدِّيقة لكمال إخلاصها وانقيادها لله عز وجل ظاهراً وباطناً ، والتعبّد بطاعته سبحانه وتعالى في كل حركة وسكون مع إخلاصٍ عظيم في القصد لله عز وجل.

٤ ـ قنوت مريم وسجودها وركوعها مع الراكعين:

بعد هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أكرم المولى عز وجل بها مريم ، يأمرها سبحانه ـ عن طريق خطاب الملائكة الكرام لها ـ بأن تجتهد في العبادة شكراً لله تعالى على هذه النعم والمواهب ومواصلةً للسير في طريق الهدى والصلاح[٢]. قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

والقنوت: هو لزوم الطاعة مع الخضوع ، وعلى هذا: فمدار القنوت على

(١) محمد مصطفى الزحيلي ، شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ٢٠١٨م ، ص٦١٩.
(٢) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٥٩.

الطاعة ولزومها والعبادة والاجتهاد فيها مع الإخلاص والخضوع والخشوع لله رب العالمين[١].

وتكرير النداء (يا مريم) للتنبيه والإشارة إلى أهمية ما يرد في ثناياه ، وفي النداء هنا باسم مريم ومعناه العابدة ما يدل على التشريف والتكريم ، والمعنى : يا من اسمها مريم ـ العابدة ـ عليك أن تجتهدي في عبادة الله عز وجل .

والآية الكريمة أمر من المولى عز وجل لمريم عليها السلام أن تجتهد في العبادة ، وأن تداوم على الطاعة وتكثر السجود وتركع مع الراكعين حتى تزداد قرباً من رب العالمين ، فالصلاة صلة بين العبد وربه وهداية ورحمة وشفاء وعصمة وفضل من الله ونعمة وقرب وحب ، ونور وشفاء لما في الصدور ، ومعراج إلى الله عز وجل ، تُرفع الدرجات ، وتُحطُّ الخطايا .

ولكلِّ ركن من أركان الصلاة حِكَمُه البالغة وأسرارُه الحكيمة ، فالصلاة خشوع وخضوع وقيام وقعود وركوع وسجود ، وقال رسول الله ﷺ «أقرب ما يكونُ العَبدُ من رَبِّهِ وهو ساجدٌ فأكثِرُوا الدُّعاء» [٢] . فكانت حياة مريم عليها السلام طاعة وعبادة ، وخشوع وركوع ، وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظيم الخطير[٣] .

٥ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ﴾ :

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

في ذلك إشارة إلى مجموع الأخبار الواردة في الآيات السابقة من نذر امرأة عمران لما في بطنها لله ، إلى ميلاد مريم وكفالة زكريا لها ، إلى بشارته بيحيى ، إلى كلام الملائكة لمريم .

---

(١) المرجع نفسه ، ٢/ ٦٦٠ .
(٢) صحيح مسلم (٢١٥/ ٤٨٢) .
(٣) في ظلال القرآن ، ، ١/ ٣٩٦ .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ هذه الأخبار من أنباء الغيب واعتبرتها الآية غيباً لأنها وقعت في الماضي ، وحدثت قبل قرون من حياة الرسول ﷺ وبما أنه لم يكن موجوداً عند حدوثها فهو غيب بالنسبة له ، والله هو الذي أوحى بهذه الأنباء لرسوله ﷺ وأخبره بها ، وهذا يثبت نبوة محمد ﷺ ووجه دلالتها على النبوة والوحي: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون أن محمداً ﷺ أميٌّ ، لا يكتب ولا يقرأ وهذا معناه أنه لم يعلم بهذه الأخبار من الكتب ، ولم يصاحب أحبارَ أهل الكتاب ورهبانهم فكيف علم بهذه الأخبار الخفيَّة التي لا يعلمها إلا عدد قليل من الأحبار والرهبان.

إن الله هو الذي أوحى إليه بها ، فهو رسول الله ﷺ[1]. وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

وهي إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم ، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل وفاء لنذرها وعهدها مع ربها ، والنص يشير إلى حادث لم يذكره «العهد القديم» ولا الجديد المتداولان ، ولكن لا بد أنه كان معروفاً عند الأحبار والرهبان حادث إلقاء الأقلام ـ أقلام سدنة الهيكل ـ لمعرفة من تكون مريم من نصيبه.

والنص القرآني لم يُفصِّل في الحادث ربما اعتماداً على أنه كان معروفاً لسامعيه أو لأنه لا يزيد شيئاً في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة ، فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة ـ بواسطة إلقاء الأقلام ـ لمعرفة من هي من نصيبه ، على ما نصنع في «القرعة» مثلاً ، وقد ذكرت بعض الروايات أنهم ألقوا بأقلامهم في نهر الأردن ، فجرت مع التيار إلا قلم زكريا فثبت ، وكانت هذه هي العلامة بينهم ، فسلموا بمريم له.

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ١٨٢.

وكل ذلك من الغيب الذي لم يكن الرسول ﷺ حاضره ، ولم يبلغ إلى علمه ، فربما كان من أسرار الهيكل التي لا تُفشى ولا تُباح للإذاعة بها ـ فاتخذها القرآن في مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها ـ دليلاً على وحي الله لرسوله الصادق ، ولم يرد أنهم ردوا هذه الحجة ، ولو كانت موضع جدال لجادلوه ، وهم قد جاؤوا للجدال(١) .

وهكذا نرى القرآن الكريم يعطي الصورة الصحيحة بعلم في دقائق حال عيسى ونشأته وأمه ، وهذا معين للباحثين عن الحقيقة في معرفة قصة عيسى عليه السلام الصحيحة بعكس الأناجيل التي يؤمن بها النصارى فإنها متعارضة ومتناقضة ، وفي بعضها ما يؤكد افتراءات اليهود على السيدة مريم ، ففي إنجيل لوقا ومتَّى حديث عن نسب عيسى عليه السلام وأنه عيسى ابن يوسف النجار ، وإن ورد الاختلاف في أسماء وأعداد أجداده إلا أن الأناجيل متفقة على أن عيسى ابن يوسف النجار ، وأن يوسف النجار كان خطيباً لمريم قبل ميلاد المسيح ، وأنه تزوجها وأنجب منها أولاداً آخرين كانوا بمثابة الإخوة لعيسى ، وقصة يوسف النجار في الأناجيل متقاربة ومختلفة ، وفي حين أثنى القرآن على مريم ووَفّاها حَقَّها ، فإن الأناجيل لم توضح مكانتها عند الله ، في حين يبين القرآن الكريم طهارتها وشرف أصلها واصطفاءَها(٢) .

إن ما ورد في الأناجيل في شأن عيسى عليه السلام ، وفي شأن مريم متضارب متناقض بعيد عن الحقيقة منحرف عن الصواب ، حتى شرَّاح الأناجيل قد أصابتهم الحيرة ووقعوا في أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل ، وقصة يوسف النجار قصة متضاربة متناقضة مدسوسة مكذوبة ، وليس له أي صلة بمريم عليها السلام(٣) .

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٦ .
(٢) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٦٤ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٢/ ٦٦٥ .

ولم يكن لعيسى إخوة لا ذكور ولا إناث ، وهذه التخرُّصات ليس لها سند من التاريخ ، وعيسى ولد من مريم العذراء التي لم يكن لها زوج[١] .

وهذا التباين بين ما ورد في الأناجيل وبين ما ذكره القرآن الكريم عن مريم ونشأتها وطهرها وعفتها وحملها بالمسيح عليه السلام من غير أب لقدرة الله وحكمته يرد على مزاعم المستشرقين بأن قسماً كبيراً من أخبار القرآن الكريم مقتبسٌ من كتب اليهود والنصارى ، فالقرآن كتاب الله تعالى الذي نزل بالحق على رسول الله ﷺ الذي جاء بالحق ، والذي لا ينطق إلا بالحق ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة وهو محفوظ من التحريف والتبديل[٢] .

ـ قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦٢] .

ـ قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

ـ قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

إن النبي ﷺ أخبره الله عز وجل أن مريم البتول ، أم عيسى عليه السلام كانت أفضل النساء ، واختارها الله وفضلها على نساء العالمين ، وبين ذلك لمن حوله ، وحديث القرآن الكريم عن مريم ومكانتها وتفضيلها وقصة ابنها المسيح دليل على أن القرآن الكريم كلام الله .

وتوجد صورة في القرآن الكريم باسم سورة مريم ، وهي السورة التاسعة عشرةَ من القرآن الكريم ، واسم هذه السورة إنما هو تكريم لمريم ، أم المسيح عيسى عليه السلام ، ومثل هذا التكريم أيضاً لم يسبغ على مريم في إنجيل

---

(١) محمد علي البار ، دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٦م ، ص ١٠١ .

(٢) الشرقاوي ، المرجع نفسه ، ٢/ ٦٦٥ .

المسيحيين ، ولو أننا تصفحنا (٦٦) سِفراً للبروتستانت ، و(٧٣) سفراً للروم الكاثوليك فإننا لا نجد أياً منها قد عنون تكريماً لمريم ولابنها المسيح عليه السلام ، وسنجد كتباً من الإنجيل بعنوان: متَّى أو مرقُس أو لوقا أو يوحنا أو بطرس أو بولس ، وستجد عناوين لأشخاص أقل أهمية وشهرة ، ولكنك لن تجد واحداً بعنوان عيسى أو بعنوان مريم .

ولو كان محمد ﷺ هو مؤلف القرآن لما تعذَّر عليه أن يقدم اسم أمه آمنة مع اسم مريم أو المسيح ، ولما تعذَّر عليه أن يقدم أيضاً اسم خديجة زوجته الوفية أو اسم فاطمة ابنته المحبوبة ، ولكن كلا ثم كلا ؛ لأن القرآن ليس من صنع يديه[١] .

٦ ـ بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بعيسى عليه السلام وجملة من أوصافه :

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥ ـ ٤٦] .

بعد أن اصطفى الله عز وجل مريم عليها السلام وطهرها وأمرها بالاجتهاد في العبادة والمداومة على الطاعة ، وأوصاها بالإخلاص ، والخشوع والخضوع له سبحانه ، تهيأت بذلك مريم عليها السلام للمعجزة الكبرى والآية العجاب وهي حملها بعيسى عليه السلام على خلاف العادة دون أب .

وكما بشرتها الملائكة بأنها المصطفاة الطاهرة جاءتها بشارة أخرى وهي أن المولى عز وجل اصطفاها لتلك المهمة العظيمة الشأن[٢] .

أ ـ ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ ﴾ :

جاءت البشارة عن طريق جمع من الملائكة الكرام ، وفي سورة مريم أتاها

---

(١) أحمد ديدات ، المسيح في الإسلام ، ترجمة وتحقيق: محمد مختار ، دار الفضيلة للنشر ، الرياض ، السعودية ، ١٩٨٨م ، ص ٢٧ .

(٢) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٦٧ .

جبريل عليه السلام ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٩]، ولا مانع من تكرار البشارة ، بشرتها الملائكة أولاً وعلى رأسهم جبريل ، ثم تمثَّل جبريل عليه السلام في صورة بشرية فأعاد بشارتها ، فأعادتها لتعجُّبها ، زيادة في الاطمئنان واليقين واستفساراً عن كيفية تحقُّق هذه البشارة العجيبة[١] .

ب ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ :

وسمَّى الله عيسى عليه السلام بأنه كلمته في هذه الآية (بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم)؛ لأن عيسى خُلق ووجد بكلمة الله (كن) حيث أراد أن يخلقه خلقاً خاصّاً مباشراً ، فقال له (كن) ، وهذه هي الكلمة الإلهية ، فكان ووُجد كما أمر الله وهي الكلمة الواردة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ، لقد خلق الله عيسى عليه السلام بكلمة (كن) ، وعبر عنه بأنه كلمة منه كما خلق آدم بكلمة (كن) [٢] .

وأحال القرآن الكريم المستغربين من خلق عيسى على خلق آدم الذي خلقه الله بكلمة (كن) دون أب أو أم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

و(من) في قوله (بكلمة منه): حرف جر وهي ليست للتبعيض، بل هي لابتداء الغاية، أي أن هذه الكلمة من عند الله، أي: ابتدأت من عند الله وهي كلمة (كن).

وفي قوله تعالى (بكلمة منه) لفظة (من) ليست للتبعيض ، إذ لو كان كذلك لكان الله متجزِّأً متبعِّضاً متحمِّلاً للاجتماع والافتراق ، وكل من كان كذلك فهو محدَث ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل المراد من كلمة (من) ههنا ابتداء الغاية؛ وذلك لأنها في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب

---

(١) المرجع نفسه ، ٢/ ٦٦٨ .

(٢) السمين الحلبي ، الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون ، تحقيق: أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، ط٣ ، ٢٠١١م ، ص ٢/ ١٧٣ .

موجودة ، صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر ، فكان كونه كلمة الله مبدأً لظهوره ولحدوثه ، هذا معنى (من) ، ومعنى كونه (كلمة) لا ما يتوهّمه النصارى والحلولية[١] .

وكلمة الله التي ألقاها إلى مريم هي عيسى ابن مريم (اسمه المسيح ابن مريم) [٢] ، فالمسيح سمّي بكلمة الله ؛ لأنه وجد من غير أب بكلمة (كن) على خلاف أفراد بني آدم ، فكان تأثير الكلمة في حقّه أظهر وأكمل[٣] .

ج ـ ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ :

وعيسى هو الاسم ، وابن مريم الوصف ، ولقب عيسى هو المسيح ، وورد هذا اللقب إحدى عشرة مرة في القرآن الكريم ، ونرى أن لقبه (مسيح) جمع بين اسم الفاعل واسم المفعول ، فمجموع الماسح والممسوح يكون (مسيحاً) صيغة مبالغة من المسح ، فعيسى عليه السلام كان ماسحاً يمسح بيده على المريض فيبرأ ويشفى ، وكان ممسوحاً مسحه الله بالبركة ، وباركه وكونه ماسحاً وممسوحاً جعله مسيحاً عليه السلام. وأما معنى المسيح عند النصارى فهو المكرّس للخدمة والفداء[٤] .

وعيسى معناه السَّيد ، وقيل: مشتق من العيس ، وسُمّي به لأن لونه عليه السلام كان أبيضَ مشرّباً بالحمرة[٥]وعيسى أي: الخالص الذي يكون من شيء واحد لم يختلط بغيره ، فكان خلْقه من شطر أمه فقط ، دون أن يختلط هذا

---

(١) فخر الدين الرازي ، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ، ٨/ ٤٩ .
(٢) صلاح الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٠٢ .
(٣) الآلوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، تحقيق: علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، ٣/ ١٦٠ .
(٤) صلاح الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .
(٥) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٧٠ .

الشطر بشطر آخر من رجل فيكون أبا له ككل البشر[١].

وابن مريم لقب لعيسى عليه السلام ، ووردت جملة (ابن مريم) ثلاثاً وعشرين مرة في القرآن ينسب عيسى فيها كلها إلى أمه مريم.

إن القرآن الكريم حريص على تمييز عيسى عليه السلام بالكلمات الثلاث لما رافق خلقه وولادته وحياته من معجزات؛ ليؤكد على بشريته وينقض مزاعم النصارى حول ألوهيته ، ونسبته إلى أمه مقصودة ومرادة؛ ليكذب من زعم أنه ابن الله ، فالقرآن يبين لهم: أنه ابن مريم وأمه معروفة ، أنتم تعرفونها عن يقين ، فكيف صار ابناً لله مع أنه ابن مريم؟[٢]

إنَّ ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تبين قدرة الله سبحانه وتعالى ، وأنه الفاعل المختار المريد ، وأنه لا يتقيد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسبِّبات التي نرى العالم يسير عليها ، فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله لأنه خالقها ومبدعها ومدبرها والأشياء لم تصدر عن الله كما يصدر الشيء عن علّته ، والمسبَّب عن سببه من غير أن يكون للعلة إرادة في معلولها ، بل كانت بفعله ـ سبحانه ـ وبإرادته التي لا يقيدها شيء.

وخلق عيسى من غير أب بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الأزلية بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية ، وفي عصر ساده نوع من الفلسفة أساسها أن خلق الكون كان مصدره الأول كالعلة عن معلولها ، فكان عيسى آية الله على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يتقيد بالأسباب الكونية ، وأن العالم كان بإرادته ، ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

إن ولادة عيسى عليه السلام من غير أب إعلان لعالم الروح بين قوم

---

(١) عبد المجيد العرابلي ، أحبك أيها المسيح ، دار يافا العلمية للنشر ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٩م ، ص ٢٢.

(٢) صلاح الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٠٥.

أنكروها . . . فلما جاء عيسى من غير أب وكان إيجاده من روح مخلوقة ، كان ذلك إعلاناً لعالم الروح بين قوم أنكروها ولم يعرفوها ، فكان هذا قارعة قرعت حسَّهم ليدركوا الروح وكان آية معلمة لمن يعرف الإنسان ، بأنه جسم لا روح فيه[١] .

كما أن خلق عيسى عليه السلام من غير أب صورة مكملة للصور الأربع التي ضربها الله أمثلة ناطقة بقدرته العظيمة على الخلق ، وهي :

الصورة الأولى : الخلق من العدم ، فمن التراب أوجد الله سيدنا آدم عليه السلام أبا البشرية ، وهو مثال واحد لم يتكرر في الخلق .

الصورة الثانية : إيجاد أنثى من ذكر ، لا أم لها فأوجد الله سبحانه زوج آدم ـ وآدم عزب ليس له زوج ـ وهو مثال واحد ، لم يتكرر في الخلق .

الصورة الثالثة : إيجاد ذكر من أنثى لا أب له ، فأوجد الله سبحانه وتعالى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ومريم عذراء ليس لها زوج وهو مثال واحد لم يتكرر في الخلق .

الصورة الرابعة : إيجاد الأبناء والبنات من زوجين ذكر وأنثى وهي الصورة المتكررة ، وسنة الله في الخلق[٢] .

د ـ ﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ :

ومن صفات عيسى عليه السلام المذكورة في هذه الآيات : (وجيهاً في الدنيا والآخرة) ، إنه ذو وجه ومنزلة عالية وذو شرف وكرامة عند الله في الدنيا وحفظه وحماه من أعدائه ، وفي الآخرة حيث جعله في أعلى منازل الجنة مع سائر

---

(١) عبد الرحمن حللي ، رسالات الأنبياء : دين واحد وشرائع عدة دراسة قرآنية ، مركز نماء للدراسات والبحوث ، بيروت . لبنان ، ط١ ، ٢٠١٥م ، ٢/ ٢٨٠ .

(٢) محمد عبد المجيد لاشين ، أنباء الرسالات السماوية ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٩م ، ص ٣٢٦ .

المرسلين ، يقال هذا وجيه : إذا كان شريفاً يقدره الآخرون[١] .

كما أن تعرض اليهود له بالأذى والاضطهاد لم ينقص من قدره ولم يقدح في وجاهته ومنزلته ، فالأنبياء هم أشرف خلق الله وأكرمهم وأعزهم ، وقد تعرضوا للأذى والاضطهاد ، فلم يزدهم ذلك إلا عزة ورفعة وكرامة وإباء ، وعزيمة ومضاء وإيماناً وتسليماً ويقيناً وتثبيتاً[٢] .

هـ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ :

عيسى عليه السلام من عباد الله المقربين ، الذين قربهم الله منه وأعلا منازلهم عنده ، والمقربون هم السابقون الذي يسبقون أصحاب اليمين إلى الجنة ، ومنازلهم في الجنة أعلى من منازل أصحاب اليمن ، والمرسلون هم أئمة المقربين السابقين[٣] .

و ـ ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ :

عيسى عليه السلام سيكلم الناس في المهد ، فور ولادته وذلك عندما يُفاجَؤُون بمريم تحمله ، وتذهب بهم الظنون كل مذهب ، فيُنطقه الله وهو ابن ساعات ويكلم الناس ويقدم نفسه إليهم ، ويُبرِّئُ أمه من كل تهمة[٤] . وإثبات براءتها وبيان عبوديته ونبوَّته وبركته وبرُّه بأمه ، ونفي كونه جباراً شقياً ، فهو برٌّ رحيم رفيق حليم[٥] .

كما أنه سيكلمهم في حال كهولته (وكهلاً) الكهولة في الأربعين وقيل ثلاث وثلاثين ، والكهل ما اجتمعت قوته وكمل شبابه ، وذكر هنا كلامه في الكهولة

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٠٥ .
(٢) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٧٠ .
(٣) الخالدي ، المرجع نفسه ، ٤/ ٢٠٥ .
(٤) الخالدي ، المرجع نفسه ، ٤/ ٢٠٦ .
(٥) الشرقاوي ، المرجع نفسه ، ٢/ ٦٧٢ .

لتبشير أمِّه بأنه سيبلغ مبلغ الرجال ، وقيل لبيان فصاحة كلامه وبلاغته في المهد وفي الكهولة على السواء ، وقيل إشارة إلى أنه سيرفع إلى السماء ثم ينزل إلى الأرض في آخر الزمان فيكلم الناس ومن فوائد كلامه في الكهولة أيضاً: هداية الناس إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم[١].

ي ـ ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ :

وأما سمته والموكب الذي ينتسب إليه (ومن الصالحين)[٢] ، معدود فيهم ، والصالح: من صلحت سريرته وعلانيته بالإخلاص لله ، فختم الله تعالى أوصاف عيسى عليه السلام بالصلاح ، وهو رتبة من أعظم المراتب وأشهر المقامات ، والصلاح يقتضي المواظبة على الطاعات حتى الممات[٣].

ويكـون الإخبـار عن صفات عيسى عليه السلام وأحواله هكذا: إن الله يبشرك بعيسى المسيح وجيهاً في الدنيا والآخرة ومقرَّباً عند الله في الدنيا والآخرة ، ومكلِّماً الناس طفلاً في المهد ، ومكلِّماً الناس كهلاً وصالحاً من الصالحين[٤].

وهكذا بشَّرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، فتضمنت نوعه ، وتضمنت اسمه ونسبه ، وظهر في هذا النسب أن مرجعه أمه ، ثم تضمنت البشارة صفته ومكانه من ربه[٥].

وعرفت مريم رضي الله عنها صفات ابنها عيسى عليه السلام في هذه البشارة

---

(١) المرجع السابق ، ٢/ ٦٧٢.
(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٨.
(٣) محمد صالح المنجد ، تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط١ ، ٢٠١٦م ، ص ٥٥٧.
(٤) صلاح الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٠٦.
(٥) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٨.

قبل ولادتها له ، وذكر هذه الأحوال والصفات والتقلبات والتغيرات على عيسى عليه السلام يؤكد على بشريته[١] .

فهو عليه السلام منذ أن خلقه الله مولوداً طفلاً صغيراً إلى كهولته ، يتقلب في الأحداث ويتأثر بها ويتغير بمرور الأزمنة والأيام عليه ، ويتحول من صغر إلى كبر ومن حالٍ إلى حال ، ولو كان إلهاً أو ابناً لله ـ كما زعم النصارى الكافرون بالتوحيد ـ لما حصل له ذلك ، ولقد أخبر الله عز وجل عن حالات عيسى عليه السلام التي يتقلَّب بها في عمره ، كتقلُّب بني آدم في أعمارهم صغاراً وكباراً ، إلا أن الله خصَّه بالكلام في المهد آية لنبوَّته ، وتعريفاً من الله للعباد بمواقع قدرته[٢] .

٧ ـ موقف مريم من هذه البشارة :

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

ولما سمعت مريم البشارة من جبريل عليه السلام بأنها ستنجب عيسى فوجئت ودُهشت واستغربت إنها فتاة عذراء ، ولم تتزوج ، فمن أين يأتيها ذلك الولد؟ ولقد صارحت جبريل باستغرابها ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾؟ تركت جبريل وتوجهت إلى الله وناجته ونادته : (رب) أي : يا رب يا الله . (أنَّى) : اسم استفهام بمعنى (كيف) ويدل على المفاجأة والدهشة . (يكون) : فعل مضارع تام ، و(ولد) فاعل للفعل (يكون) التام . (ولم يمسسني بشر) : الجملة في محل نصب حال : أي : وحالي أني لم يطأني بشر ولست ذات زوج ولا عزمت أن أتزوج[٣] .

وجاءها الجواب يردّها إلى الحقيقة البسيطة التي تخفى عن البشر لطول

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ٤/ ٢٠٦ .
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ٢٠٧ .
(٣) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران ، ص ٥٥٨ .

ألفتهم للأسباب والمسبَّبات ، لعلمهم القليل ومألوفهم المحدود :

ـ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب وتزول الحيرة ، ويطمئن القلب ، ويعود الإنسان على نفسه يسألها في عجب : كيف عجبتِ من هذا الأمر الفطريّ الواضح القريب ، وهكذا كان القرآن ينشئُ التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة ، بمثل هذا اليسر الفطري القريب ، وهكذا يجلو الشبهات التي تعقّدها الفلسفات المعقَّدة ، ويقرُّ الأمر في القلوب وفي العقول سواء[١] .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ :

أي : كهذا الخلق الذي تجدينه في أن يكون لك ولد من غير أن يمسَّك رجل ، وهو إبداع الله تعالى في الخلق ، ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه ، وهذه الجملة السامية تفيد أموراً منها :

أن هذا النوع من التكوين ، وهو إنجاب من غير أبٍ هو في قدرة الله تعالى ؛ لأنه الخالق المبدع ، وما هو غريب عليكم هو في قدرته سبحانه ، لأن من خلق الخلق الأول وخلق السنن الكونية وغيرها قادر على تغييرها ، لأنه مبدعها ومنشئها .

أن خلق عيسى أمر من الله تعالى ، وعيسى ليس إلا مخلوقاً من مخلوقاته ، فهو أبدعه كما أبدع غيره من المخلوقات ، فليس إلهاً ولا ابن إله .

أن الله تعالى يخلقُ بمشيئته وإرادته ، وهذا فيه إشارة إلى السبب الذي من أجله خلقه الله تعالى من غير أبٍ ، وهو أن المخلوقات لا تصدر عن الله صدور المعلول عن علّته ، ولكنها توجد بإيجاده ، وتنشأ بإبداعه ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ ﴾ .

وفي ذلك ردّ علميٌّ على أهل الفلسفة المادية التي تقول إن العالم نشأ عن

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٨ .

العقل الأول نشوء المعلول عن علّته ، ثم أشار سبحانه إلى عظيم قدرته[١] ، بقوله تعالى : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، أي أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يوجد أمراً يوجده بكلمة (كن) ، وعبَّر سبحانه عن الإيجاد بـ(قضى) ؛ للإشارة إلى أن إيجاده للأشياء ليس إلا من قبل الحكم عليها بالوجود ، فإذا حكم بالوجود في أمر نفذ حكمه ، وحكمه هو أن يقول (كن) ، فيترتب على ذلك أن يكون .

وهل الأشياء حقيقة تنشأ بمجرد الإرادة الإلهية أم أنَّ هذا تصوير لسهولة الخلق؟

الظاهر أن هذا بيان لسهولة ذلك على خالق الخلق وبارئ النسم ، فهو تمثيل لبيان قدرة الله عزَّوجل الشاملة ، وسهولة الإنشاء عليه سبحانه وتعالى ، ونفاذ إرادته في خلقه ، ولذلك جاءت الإجابة في مثل هذا المقام بهذا المعنى في سورة مريم ، فقد قال الله تعالى في الإجابة عن استغرابها في تلك الصورة : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم : ٢١] .

وهذا التعبير الكريم صريحٌ في أن السياق لبيان سهولة مثل هذا الخلق على خالق الخلق ، ويفيد أيضاً أن المقصود بيان أن الله سبحانه فعَّال لما يريد ، وهو على كل شيء قدير ، ربنا لا ترهقنا من أمرنا عسراً[٢] .

وهكذا أخذت مريم رضي الله عنها البشارة من جبريل عليه السلام وصارت على يقينٍ بأن الله سيهبها ولداً وما بقي إلا تنفيذ هذه البشارة ، وتحقيق ما وعدها الله به[٣] .

---

(١) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٣/ ١٢٢٥ .
(٢) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٣/ ١٢٢٦ .
(٣) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢١١ .

وتمضي الآيات بعد ذلك في سورة آل عمران لتواصل الحديث عن صفات المسيح عليه السلام ونعم الله عليه ، وتأييده له بالمعجزات التي تدل على نبوته كما تدل على بشريته وعن حقيقة الرسالة التي جاء بها ، ويطوي السياق الحديث عن مريم عليها السلام وينتقل للحديث عن المسيح ابن مريم وعن موقف الناس من دعوته، وقد ورد الحديث عن مريم في سور أخرى في مقدمتها سورة مريم التي واصلت الحديث عنها بمزيد من التفصيل ، وسميت بذلك الاسم تشريفاً وتكريماً لمريم عليها السلام وفيما يلي ننتقل لقصة مريم من خلال سورة مريم[١] .

٨ـ الحوار بين جبريل ومريم قبل النفخ :

قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ١٦ : ٢١].

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ ، والمراد في الكتاب هنا القرآن الذي أنزله الله عليه ، أي: اذكر يا محمد للناس في آيات القرآن التي أنزلتها عليك ، قصة مريم وحملها بعيسى ووضعها له ، واتل عليهم هذه الآيات وأسمعهم إياها .

وذكرك لهذه الآيات دليل على أنك رسول الله ، وأن الله هو الذي أنزلها عليك ، فلولا إنزالها عليك من الله لما علمت بها ، لأنك أمّيٌّ لم تتعلمها من أحد ولم ترد في كتب النصارى على ما وردت في القرآن ، وهذا الحديث يدل على إثبات نبوة محمد وتقرير حقيقة أن القرآن كلام الله تعالى[٢] .

---

(١) أحمد الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٧٣ .
(٢) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢١٣ .

أ ـ أين كانت مريم حين جاءها جبريل بصورة بشرية؟

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ ، خرجت مريم من عند أهلها وابتعدت عنهم وانفردت من دونهم وذهبت إلى مكان جهة الشرق ، أي شرق بيت المقدس ، وإنما توجهت إلى ذلك المكان لتعتكف وتختلي في العبادة ، ففي الخلوة رياضة للنفس وسموٌّ بالروح وشد للهمة وصفاء للقلب وزيادة قرب من المولى عز وجل[١] .

وجاءها الملَك في هذا المكان الطاهر المبارك حيث البركات والرحمات والنفحات[٢] .

ب ـ ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ :

لما ذهبت إلى ذلك المكان الشرقي ، اتخذت حجاباً ساتراً يسترها عن أهلها وعن الناس الآخرين ، حتى لا يشغلها شيء عن العبادة وعن رؤية أنوار الحق .

ج ـ ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ :

هو جبريل عليه السلام ، أرسله المولى ليبشرها بعيسى عليه السلام عندما كانت في ذلك المكان الشرقي وحيدة تخلو إلى نفسها ، وتشتغل في أورادها وأذكارها ومناجاتها ، شاء الله أن يحقق البشارة السابقة التي بشرها بها جبريل عليه السلام ، وأن ينفذ لها وعده بإنجابها الولد ، وكان ذلك بعدما اتخذت حجاباً في ذلك المكان الشرقي[٣] .

والإضافة في (روحنا) للتشريف والتعظيم وبيان أن جبريل عليه السلام رسول رب العالمين[٤] ، وأطلق القرآن الكريم على جبريل عليه السلام (روحاً) في أكثر من آية :

---

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٧٧ .
(٢) الشرقاوي ، ٢/ ٦٧٧ .
(٣) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢١٨ .
(٤) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٧٧ .

منها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

ومنها قوله تعالى: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٣ ـ ٤]، وعطف في الآية (الروح) على الملائكة، مع أن جبريل أحد الملائكة من باب عطف الخاص على العام، لإبراز أهمية هذا الخاص.

ـ ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠١ ـ ١٠٢]، والكلام في الآية عن إنزال القرآن على رسول الله ﷺ، وأطلقت الآية على جبريل عليه السلام أنه (روح القدس)، أي: الروح الأمين المقدس المطهرَّ، الذي هو منزَّه عن كل مخالفة أو ذنب أو معصية.

وإضافة جبريل إلى الله في قوله (روحنا) من باب تكريمه وتعظيمه، وذلك كإضافة الرسول إلى الله في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩]، والمراد بقوله (رسولنا) هنا محمد ﷺ[(١)].

د ـ ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾:

تمثل جبريل عليه السلام لمريم وهو صورة شاب سويِّ الخلق، لتستأنس به ولا تنفر منه، ولتتفهم كلامه ولأنها لا تطيق رؤيته بصورته الأصلية[(٢)].

وتحوُّل الملك جبريل عليه السلام إلى بشر سوياً، دليل على قدرة الملائكة على التحوُّل من صورتهم الملائكية إلى صورة بشرية، وأنهم يفعلون ذلك بإذن

---

(١) الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٢١٩.
(٢) الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، ٢/ ٦٧٨.

الله ومشيئته سبحانه ، وأنهم عندما تنتهي مهمتهم التي كلفهم الله بها يعودون إلى صورتهم الملائكية الحقيقية .

وعندما يتحولون إلى الصورة البشرية فإنهم يتمثلون في صورة رجال ، وليس في صورة نساء ، كما جاءت الملائكة إبراهيم ولوطاً عليهما السلام ، وعدم تمثلهم في صورة نساء ليؤكدوا على تكذيب الكفار الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[١] .

هـ ـ ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ :

ها هي مريم في خلوتها ، مطمئنة إلى انفرادها ولكن ها هي ذي تُفاجأ مفاجأة عنيفة ، إنه رجل مكتمل سوي ، ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ، وها هي تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يُفاجِئُها رجل في خلوتها ، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل ، والخوف من الله والتحرج من رقابته في هذا المكان الخالي : ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ ، فالتقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان. وهنا يتمثل الخيال تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة ، التي نشأت في وسط صالح وكفلها زكريا بعد أن نذرت لله جنيناً وهذه هي الهِزَّة الأولى[٢] .

ونظراً لعفافها وطهرها وورعها ، فإنها تعوذت بالله تعالى من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ ، فجعلت الله تعالى معاذاً لها منه ، وجعلت جانب الله تعالى ملجأً مما هم به ، وهذه موعظة له ، وذكرت صفة الرحمن لأنها أرادت أن يرحمها الله بدفع من حسبته أجنبياً عليها ، وأكدت قولها بالتذكير له بالموعظة بأن عليه أن يتقي ربه وهذا أبلغ وعظ

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٢٠ .
(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٣٠٥ .

وتذكير وحث على العمل بتقواه بصيغة الشرط لتهييج خشيته ، ليكون ممن يتقي الله تعالى[١] .

وهذا دليل على أن التعوذ بالله أو بالرحمن هو من شرعة الله تعالى ، وهو من سمات المسلمين المؤمنين والمتقين وعباد الله الصالحين ، بالاستعاذة بالله تُعاذ من كل أمر ، والتعوُّذ من الشيطان الرجيم الذي يرافق الإنسان ويسعى لغوايته وإفساده ، والمتعوّذ من ذلك يحفظه الله من مكائده وغوايته[٢] .

و ـ مفاجأة مريم عليها السلام من هدف جبريل ومهمته :

وبينما كانت مريم عائذة بالله تناشد التقوى في قلب هذا الرجل ، وهي تحت تأثير الغمرة المفاجئة ، هزَّ الرجل مسامعها هزّة ثابتة أعنف ، وذلك عندما صارحها بهدفه منه ، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : ١٩] ، أخبرها أنه رسول من الله ، أرسله الله إليها وهو مكلف بمهمة محددة إنه يريد أن يهبها غلاماً .

فهي قد سبق علمها بذلك ، ولكن لعلها مع الهزة المفاجئة والخوف الشديد والخجل البالغ من رؤية الرجل الغريب أمامها نسيت ذلك ، وسيطر عليها الفزع والتوتر والقلق والخجل ، وبما أنه صارحها بأنه سيهب لها غلاماً زكياً ـ والزكي هو الطاهر من الذنوب ، والمطهَّر من الخبائث والمعاصي والنقائص ـ فلا بدَّ أن تستعلي على خجلها وهي العذراء البتول العفيفة ، ولا بدَّ أن تصارحه فهذا الموقف لا ينفع فيه إلا المصارحة[٣] .

ز ـ تعجُّب مريم عليها السلام من البشارة :

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٠] .

---

(١) محمد مصطفى الزحيلي ، شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة ، ص ٦٠٦ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٠٦ .
(٣) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٢٢ .

علمت مريم عليها السلام وأيقنت أن هذه البشارة صادقة ، وأن الذي بين يديها ملك مرسل من عند الله تعالى ، ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقيق هذه البشارة العجيبة؛ لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا عن حمل من رجل ، والحمل إما أن يكون من زواج شرعي أو طريق غير شرعي ، وهي عليها السلام لم يمسسها بشر بزواج ، وحاشاها أن تكون بغياً ، والبغيّ: هي الفاجرة التي تبغي الرجال في الحرام[١] .

ح ـ جواب جبريل عليه السلام عن سؤال مريم التعجُّبي :

قال تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٢١] .

ـ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ﴾ :

أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغياً .

ـ ﴿ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ :

فالمولى عز وجل هو القادر ، وقدرته مطلقة وإرادته محققة ، لا يحدُّها حدود ، ولا تقيدها قيود ، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق حواء من أحد أضلاع آدم : فهو قادر على خلق عيسى من أم دون أب .

ـ ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ :

اللام في (لنجعله) لام التعليل ، والهاء فيها ضمير يعود على عيسى عليه السلام ، أي: خلقنا عيسى بهذه الكيفية لنجعله آية للناس على قدرتنا المطلقة وإرادتنا النافذة ليعرفوا من هذه الآية أن ما ألفوه واعتادوه في حصر التناسل عن طريق التزاوج بين الذكر والأنثى ، إنما يقيدهم هم ، ولكنه لا يقيدنا نحن ، فنحن نفعل ما نشاء .

---

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٨٢ .

ـ ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّآ ﴾ :

وخلقناه هكذا لنجعله رحمة منا للناس ، فسوف نبعثه نبياً رسولاً ، والرسول رحمة منا للعالمين .

ـ ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ :

هكذا أبلغ جبريل عليه السلام المتمثل في صورة بشر سوي مريم بالأمر وأزال استغرابها ، بالإحالة على قدرة الله النافذة المطلقة وانتهى كل شيء وعلَّقت الآية على ذلك بقولها ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ ، أي : وكان خلق عيسى أمراً مقضياً مفروغاً منه(١) .

وبذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين وبين مريم العذراء ، ولم تفصل لنا الآيات كيفية نفخ جبريل في مريم؛ لأن هذه كيفية غيبية ، غير قابلة للقياس بالمقاييس العقلية التي تقيس بها عقولنا الأحداث وتحللها ، فهو فوق مستوى عقولنا ومداركنا وتصوراتنا ، وكأن هذه الجملة (وكان أمراً مقضياً) تدعونا إلى تجاوز الخوض في نفخ جبريل في مريم ، وعدم الوقوف عنده ، بل الانتقال منه إلى مشاهد القصة اللاحقة ، فالأمر قد قضي وجبريل نفخ في مريم وحملت بعيسى وانتهى كل شيء . وهناك آيات أخرى ذكرت لنا أن جبريل عليه السلام نفخ في مريم ، فحملت بعيسى ، لكن هذا النفخ مجمل غير مفصل(٢) . وهذا يأتي لاحقاً بإذن الله تعالى .

٩ ـ وقوع النفخ في مريم عليها السلام :

بعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله ، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته نفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام .

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس عليه

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ٢٢٦ .

السلام في مريم ، وجاء الحديث عن النفخ في سورة مريم وسورة التحريم ، وفي ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية ، فكل آية لها سياقها الذي ينتظم مع سابقها ولاحقها ، وكل آية لها صلتها بموضوع السورة ولها اتصالها بالسياق العام للقرآن الكريم ، وحين نجمع الآيات المتفرقة في الموضوع الواحد نجد أنفسنا أمام نسيج فريد ، وبناء محكم متلائم وموضوع متكامل(١) .

وصدق المولى تعالى إذ يقول : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : ٩١] . أخبرنا الله أن جبريل عليه السلام نفخ في مريم من روح الله فحملت بعيسى عليه السلام ، وورد ذلك في معرض الثناء على مريم رضي الله عنها ، والإشارة بعفتها وإحصانها .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] ، وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن نعم الله ورحمته بالأنبياء وآلهم ، وفيها بيان لما كانت عليه مريم من العفة والطهارة ، وأن الله عز وجل قد أرسل إليها جبريل فنفخ فيها لتحمل بولد من غير أب ، لتكون وابنها آية للعالمين ، وبين القرآن الكريم بأن مريم مُحصِنة لنفسها وفرجها ومتسامية ومستعلية على الضعف والشهوة وهي في منازل المقربين عند الله ، تجد أُنسَها باشتغالها بالعبادة والذكر وسعادتها بمناجاة الله والاتصال به ، فقد أحصنت مريم فرجها عليها السلام ، فكانت عفيفة طاهرة .

والثناء على مريم بأنها أحصنت فرجها ، والشهادة لها بعفتها وطهارتها ،

---

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٨٥ .

لتكذيب اليهود الذين اتهموها في عرضها وقالوا فيها قولاً عظيماً، وهذه الشهادة لها في القرآن دليل على أن القرآن كلام الله ، وأن محمداً هو رسول الله ﷺ[١] .

وأما في سورة التحريم ، فقد قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] .

وهذه السورة تعالج بعض الأمور التي حدثت في بيت النبوة ، بين أمهات المؤمنين ، وفيها يوضح المولى عز وجل أن قرابة النسب لا تغني عن قرابة الدين ، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح ، وفيها نماذج للمرأة الصالحة مع الزوج الصالح ، حيث يذكر المولى عز وجل موقف امرأة نوح وامرأة لوط وهما زوجتان كافرتان كما تأتي نماذج للمرأة الصالحة ، فيذكر المولى عز وجل امرأة فرعون ، ثم يذكر مريم ابنة عمران ، وكما أن إيمان نوح ولوط ومكانتهما عند الله وقرابتهما من المرأتين لم تشفع لهما ، كذلك فإن كفر فرعون لم يغير امرأته لأنها كانت مؤمنة محسنة عابدة ، صادقة صابرة صامدة ، ومريم عليها السلام بنت عمران نشأت في بيت صالح وكانت عفيفة شريفة ، اختارها المولى عز وجل لتكون وابنها آية للعالمين[٢] .

التوفيق بين (ونفخنا فيها ، ونفخنا فيه):

ولما أراد الله تحقيق وعده أرسل الروح الأمين جبريل عليه السلام فنفخ فيها ، فحملت بعيسى عليه السلام ، وفي سورة الأنبياء قال تعالى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ فعبر بالضمير المؤنث لها في (فيها) ، وهذه الهاء تعود على مريم التي أحصنت فرجها؛ لأن صياغة الآية هكذا ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٢٩ .
(٢) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٨٦ .

وفي سورة التحريم قال تعالى ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، فعبر بالضمير المذكر (فيه) ، والهاء تعود على الفرج (فرجها) ، وهو مذكر في اللفظ والمعنى، أحصنت مريم ابنة عمران فرجها، فنفخنا في فرجها من روحنا .

وذهب بعضهم إلى أن المراد فتحة ثوب مريم ، وليس فرجها هي ، وقالوا إن معنى ﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أنها صانت ثوبها ، فلم يمسه أحد ولم يمسَّ فتحته التي عند عنقها أحد واعتبروا هذا مبالغة في الثناء عليها والشهادة بعفتها وطهارتها ، فإذا كانت قد أحصنت فرج ثوبها ، ولم يقترب أحد من فتحته ، فإحصانها لفرجها الحقيقي من باب أولى ، وقال هؤلاء إن جبريل قد نفخ في (فرج ثوبها) ، أي أمسك بفتحة الثوب ونفخ فيه ، وذهبت النفخة إلى جسم مريم ، ودخلت رحمها فحملت بعيسى ، والقرآن الكريم قال (فنفخنا فيه) ، وقال (فنفخنا فيها) ، والأصل حمل النفخ على ظاهره .

فالراجح أن جبريل عليه السلام نفخ في فرجها ، فذهبت النفخة إلى رحمها وحملت بعيسى ، نقول بهذا ولا نخوض في كيفية النفخ ، فهذه كيفية غيبية ، لا نخوض فيها؛ لأن النصوص لم تذكرها ، ولم تبينها ، ولا تناقض بين قول الله تعالى (فنفخنا فيها) و (فنفخنا فيه) .

إن قوله (فنفخنا فيها) وارد في سورة الأنبياء ، وهي سورة مكية ، وهو يخبر أن النفخة كانت في مريم ، أي في بدنها ، وهذا تعبير عام ، وأما قوله (فنفخنا فيه) فهو وارد في التحريم وهي سورة مدنية ، وهي نازلة بعد سورة الأنبياء والأخبار فيها أن النفخة كانت في فرجها ، وهذا تعبير خاص ، إذن (نفخنا فيها) ذكر للعام أولاً ، (ونفخنا فيه) ذكر للخاص بعد ذلك ، فلا تعارض بين الآيتين ، فجبريل عليه السلام نفخ في بدن مريم ، وكانت نفخته في فرجها على التخصيص[١] .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٣١ .

ومما سبق يتضح لنا أن جبريل عليه السلام بعد أن بشر مريم بعيسى عليهما السلام وأنه سيولد بقدرة الله عز وجل دون أب ، قام جبريل بمهمة نفخ الروح لتحقيق الآية العجيبة[١] .

١٠ ـ معنى كون عيسى (كلمة الله وروح منه) .

أ ـ وصف القرآن الكريم المسيح بأنه ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ :

تعلق النصارى بهذه الأوصاف في تبرير عقائدهم ، فزعموا بأن الكلمة التي وصف بها المسيح هي الذات الإلهية ، وأوّلوا قوله تعالى ﴿ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ أي : أنه جزء من روح الله انتقلت إلى المسيح وحلت به ، وهذه القضية من أخطر القضايا التي احتدم حولها النقاش بين المسلمين والنصارى ، وعليه نرى من الضروري أن نبين المقصود الحقيقي للوصف القرآني للمسيح ، ونبدأ أولاً بتحديد معنى الكلمة والروح كما وردت في القرآن الكريم . ويرى العلامة الرازي بأن المقصود بالكلمة في الآية الكريمة السابقة يحتمل خمسة أوجه :

ـ أنه خلق بكلمة الله ، وهو قوله تعالى (كن) من غير وساطة الأب ، فالمراد بها كلمة التكوين ، فكلمة (كن) تدل على التكوين وقدرة الله عند إرادته إيجاد الشيء ، وقد خلق المسيح بهذه الكلمة ، وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين ، بأنه حصل بكلمة (كن) من غير مادة معتادة .

ـ أنه تكلم في المهد ، وآتاه الله الكتاب في تلك السن ، فكان في كونه متكلماً صبياً ، فتسمى كلمة بهذا التأويل .

ـ إن الكلمة كما أنها تفيد المعاني والحقائق ، كذلك عيسى كان يرشد الناس إلى الحقائق والأسرار الربانية .

ـ بشَّرت بقدومه كتب الأنبياء الذين سبقوه ، فلما جاء قيل : هذا هو الكلمة .

---

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٨٩ .

ـ إن الإنسان قد يُلقَّب بفضل الله ، ولطف الله ، فكذا عيسى يسمى كلمة الله[١] .

وأما معنى (الكلمة) في قوله ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ ﴾ ، فهي كلمة الله التي يخلق بها المخلوقات ، وهي (كن)[٢] ، وأقرب تفسير لهذه العبارة ، أنه سبحانه خلق عيسى بالأمر الإلهي الكوني المباشر ، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن الكريم : إنه (كن ، فيكون) ، فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم ، فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب ـ كما هو المألوف من حياة البشر غير آدم ـ والكلمة التي تخلق كل شيءٍ من العدم ، لا عجب من أن خلقِ عيسى عليه السلام في بطن مريم من النفخة التي يعبّر عنها بقوله (وروح منه)[٣] .

إن عيسى عليه السلام بالكلمة كان ، وليس هو عين الكلمة ، فالكلمة التي ألقاها الله عز وجل إلى مريم حين قال له : (كن) فكان عيسى بـ(كن) وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان ، فالكن من الله قوله وليس الكن مخلوقاً ، وعيسى بالكن كان ، ولذلك هو مخلوق من الله تعالى[٤] .

ب ـ ما هي الروح؟

ينبغي أن نقف هنا وقفة قصيرة لنقدِّم دراسة عن الروح متصلة بقوله تعالى : ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ . وقد وردت (الروح) في القرآن الكريم بمعان منها :

---

(١) عبد القادر بخوش ، أديان العالم المقارن ، دار الضياء للنشر ، الكويت ، ط١ ، ٢٠١٤ ، ص ١٩٥ . وانظر تفسير الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٨/ ٢١١ .

(٢) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ، ٤/ ٢٣٥ .

(٣) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تحقيق : علي بن حسن بن ناصر وعبد العزيز بن إبراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان ، دار العاصمة للنشر ، الرياض ، السعودية ، ط٢ ، ١٩٩٩ ، ١/ ٢٧٠ .

(٤) في ظلال القرآن ، ، ٢/ ٨١٧ .

١ ـ الروح بمعنى الوحي: كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]. ويسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

٢ ـ تعني الروح القوّة والثبات والنصر يؤيد الله بها من يشاء من عباده المؤمنين:

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٣ ـ من دلالات الروح جبريل عليه السلام وهو أمين الوحي وأحد رؤساء الملائكة الأربعة:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٧].

٤ ـ قوله تعالى عنه أنه (روح القدس):

قال تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ٨٧].

٥ ـ من معاني الروح أنه ملك عظيم يقوم يوم القيامة مع الملائكة .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤] .

٦ ـ وتعني الروح الرحمة وقدرة الله وحكمه وأمره وفرجه :

كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] .

٧ ـ تعني الروح الرزق الحسن الطيب الهنيء ، أو الغفران .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٨٨ ـ ٨٩] .

٨ ـ قد تعني الروح أيضاً ما تقوم به الحياة ، أي : سرّ الحياة وإضافتها إلى الله للتشريف .

كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [السجدة : ٩] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] (١) .

وقيل عن الروح إنها أمر من أمر الله ، وخلق من خلق الله ، وقد سأل عنها اليهود رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عزَّ وجل قوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، والآية السابقة واضحة

---

(١) المستشار محمد عزت الطهطاوي ، الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق ، دار القلم دمشق ، الدرر الشامية بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ـ ١٨٧ .

الدلالة على أن هذه القوة التي تحدث الحياة في الكائن هي من علم الله ، وأن الله سبحانه خصَّ نفسه بمعرفة كنهها ، وهو وحده الذي يمنحها فتدبُّ الحياة أو يأخذها فتصبح الأجسام هامدة[١] .

ج- ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ :

و(من) في قوله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ وقوله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ ليست للتبعيض؛ لأن روح الله لا تتبعض ولا تتجزأ ولا تنقسم إلى أبعاض وجزئيات وأقسام ، وإن (من) هنا ابتداء الغاية ، فهي من عند الله سبحانه وتعالى .

ومن غريب ما يُحكى أن واحداً من النصارى ناظرَ علي بن الحسين بن واقد المروزي ، وقال له: في كتاب الله (القرآن) ما يشهد أن عيسى جزء من الله ، وتلا هذه الآية (وروح منه) ، فعارضه ابن واقد بقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣] ، وقال له: لو صح كلامك للزم أن تكون جميع هذه الأشياء في السماوات والأرض جزءاً من الله ، وهذا مستحيل ، فسكت النصراني وانقطع ، ثم أسلم .

وحال عيسى كحال آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

وقال تعالى عن خلق آدم ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢] ، ولم يقل أحد بأن آدم إله؛ لأن الله نفخ فيه من روحه[٢] .

وفي قوله تعالى (وروح منه) إضافة الروح إلى الله هي إضافة أعيان منفصلة عن الله ، فهي إضافة مخلوق إلى خالقه ، ومصنوع إلى صانعه ، لكنها تقتضي

---

(١) أحمد شلبي ، المسيحية: مقارنة الأديان ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٨ ، ١٩٨٤ ، ص ٤٤ .

(٢) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٧٣٩ .

تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره ، بمعنى أنها روح خَيْرِيَّة مطيعة لله تعالى[١] .

ولم يقتصر القرآن الكريم على إضافة المسيح فقط إلى الله ، بل إنه أضاف إلى الله الأمور الآتية ، وكلها إضافات إليه تعالى إضافة تشريف :

ـ روح آدم عليه السلام في قوله للملائكة عنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ ـ ٢٩] .

ـ الناقة معجزة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس : ١١ ـ ١٣] .

ـ بيت الله الحرام ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

ـ عبد الله وهذا في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] .

ـ ما سخره الله لبني آدم مما في السماء والأرض وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] [٢] .

ويتبين إذن أن المقصود بالكلمة والروح غير ما قصده النصارى ، المسيح بأمرٍ من الله (كن) خلق بنفخ الملك المعبّر عنه بالروح ، وأن ذلك ليس ميزة خصَّ بها المسيح ـ كما يدعي النصارى ـ ترفعه إلى رتبة الألوهية قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] [٣] .

---

(١) الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق ، ص ١٨٤ .
(٢) الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق ، ص ١٨٥ .
(٣) عبد القادر بخوش ، أديان العالم المقارن ، ص ١٩٦ .

فما صحَّ وما استقام أن المسيح وهو بشر اصطفاه الله لتبليغ الرسالة إلى قومه الإسرائيليين وأعطاه الكتاب الذي يرشدهم إلى عبادة ربهم ، وأعطاه الحكمة وحسن التصرف في الأمور ، وأعطاه الله النبوة العاصمة من الخطأ ، ثم يتنكر لربه الذي اختاره للهداية ، فيقول للناس: كونوا عباداً لي إشراكاً مع الله أو إفراداً ، ولكن يقول لهم كونوا علماء عاملين كاملين في العلم والعمل ، لأنكم تُعلِّمون الناس الكتاب وتدرسونه فأولى بكم أن تتبعوه ولا تحيدوا عنه .

كما أنه ما صح وما استقام أن يأمرهم أن يتخذوا الملائكة ـ ومنها روح القدس ـ والنبيين أرباباً ، فلا يليق به وهو رسول من عند الله أن يأمرهم بالكفر إذ هم مسلمون ، أي مخلصون ومنقادون لربهم ، ولكن نتج كل ذلك بخلطهم الحق بالباطل ، وتحريفهم آيات التوراة والإنجيل وسوء تأويلها[١] .

قال تعالى مُؤنِّباً لهم : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩ ـ ٨٠] .

إنَّ إضافة الروح إلى الله في قوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ ، هي إضافة تشريف وتكريم وتفضيل ، ولما كان من معاني الروح الرحمة والنعمة من الله على عباده ، لذلك كان المسيح رحمة من الله لقومه ونعمة عظيمة منه عليهم إذ كان يرشدهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، فسمّي روحاً من الله[٢]قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] .

---

(١) الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق ، ص ١٧٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٧١ .

١١ ـ مريم تلد عيسى عليه السلام :

قابل جبريل عليه السلام مريم ، وهي منفردة عن أهلها منتبذة منهم مكاناً شرقياً ، ونفخ فيها نفخة بأمر الله وكان في النفخة كلمة الله الأزلية (كن) وفيها روح من عند الله ، وشاء الله أن يتخلق الجنين في رحمها بتلك النفخة ، فحملت بعيسى عليه السلام .

وقد أشارت آيات القرآن بإيجاز إلى مشهد ولادة مريم الفتاة العذراء لابنها عيسى عليه السلام قال تعالى : ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٢ : ٢٦] .

أ ـ ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ :

أي مكاناً بعيداً عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء ، أي : تنحّت بالحمل إلى مكان بعيد وذهبت إلى ذلك المكان القصيّ ، رغبة منها في المبالغة في الابتعاد عن أهلها ، لأنها خشيت الفضيحة ، وخافت من كلامهم ونظراتهم واتهامهم ، وتوقعت استغرابهم ودهشتهم .

وهذا الاستغراب أمر طبيعي ، فهي فتاة عذراء بتول طاهرة صالحة يعرف أهلها صلاحها وطهارتها وها هي تحمل في بطنها جنينها ، فمن أين جاءها؟ وهل يصدقون روايتها بأنه نفخة من الله ، وأنه لم يمسّها رجل؟ فلعلّها أحبَّت أن تبتعد عن قومها وأن تنفرد بجنينها إلى ذلك المكان القصيّ ، لتسلم من اتهامات البشر وتنجو من نظراتهم[١] .

وهذا المكان القصيّ هو شرقي بيت لحم ، حيث ولد المسيح عليه السلام

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٤٠ .

فيه ، كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام النسائي في «السنن» ، والبيهقي في «دلائل النبوة» عن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث الإسراء ، وفيه يقول: «فقالَ لي جِبريلُ انزِلْ فصَلِّ فصَلَّيتُ ، فقالَ: أتدَرِي أينَ صَلَّيتَ؟ صَلَّيتَ بِبَيتِ لَحمٍ ، حيثُ وُلِدَ عيسى ابنُ مَريَمَ» (١).

إن المكان القصيّ المذكور في قوله تعالى ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ هو المكان الذي وَلدت فيه مريم عليها السلام ابنَها عيسى عليه السلام ، وهذا المكان هو ببيت لحم ، كما ورد في الحديث النبوي الشريف(٢).

قال العلامة ابن كثير: وهذا هو المشهور ، الذي تلقّاه الناس بعضهم عن بعض ، ولا يشك فيه النصارى أنه ببيت لحم ، وقد تلقّاه الناس ، وقد ورد فيه الحديث إن صحّ(٣)

و(بيت لحم): مكان قصيّ بالنسبة إلى القدس لأنها تبعد عن القدس حوالي تسعة أميال(٤).

والظاهر المتبادر من سياق الآيات أنها وضعته في المكان القصيّ الذي تنحّت إليه أو قريباً منه ، وقد كانت في هذا المكان وحيدةً فريدة.

وأما ما ورد أنها فرّت مع يوسف النجار إلى مصر بعد أن علم بأمرها ، وقيل إنه حاول قتلها ، حيث ظن بها السوء بعد أن رآها حاملاً ، فجاءه روح القدس وأخبره بأنها حملت من روح القدس ، فإنه منقول عن الإنجيل ، وأخبار الإنجيل عن يوسف النجار متناقضة ومتضاربة تشهد ببطلانها وتهافتها ، وحين نقارن بين رواية الميلاد في إنجيل متى وفي إنجيل لوقا نجد التضارب والاختلاف

---

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٩٢.
(٢) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٤٢.
(٣) تفسير ابن كثير ، ٣/ ١١٤.
(٤) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ٤/ ٢٤٢.

حول يوسف النجار ، هل كان خطيباً لمريم حيث ولد عيسى أم كان زوجها؟ ومتى علم بحملها؟ وما موقفه من الحمل؟ وهل ظهر له الملك وأخبره عن حقيقة الحمل؟ أم لم يظهر؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي تدل على وجود التحريف والتزييف في الأناجيل .

والذي أراه والله أعلم أن يوسف النجار لم تكن له أدنى صلة بمريم عليها السلام ، وأنه لم يختلِ بها ، أو يسافر معها ، أو يتولى أمرها ، أو يخدمها ، حاشاها ـ وهي الطاهرة العفيفة الحيية الشريفة ـ أن تكون لها أدنى صلةٍ برجل أجنبي عنها .

والقرآن الكريم والسنة النبوية لم يرد فيهما أي ذكر ليوسف النجار ، وما ورد في كتب التفسير فإنه من الإسرائيليات التي مردّها إلى أهل الكتاب ، وقد نقلوها عن الأناجيل المحرفة التي تضاربت وتناقضت تضارباً وتناقضاً يدل على ضعفها وزيفها(١) .

ب ـ مجيء المخاض لها :

ولما ذهبت مريم إلى المكان القصيّ في بيت لحم ، منتبذة بابنها من أهلها ، أحسّت هناك بآلام المخاض والطلق والوضع ، قال تعالى : ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم : ٢٣] .

وقد اختلف العلماء بمدة حملها بعيسى ، فهل حملته حملاً طبيعياً ، استمر مدة تسعة أشهر ، كما تحمل النساء ، أم كان حملاً خاصاً لم يستمر أكثر من ساعات؟ وممن ذهب إلى أن حملها استمر تسعة أشهر ابن كثير ، وحملَ (الفاء) الدالة على التعقيب على ترتيب وتعقيب مراحل الحمل التي يمر بها الجنين ، على التفاوت الزمني بينها(٢) .

---

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٩٣ .

(٢) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ، ٤/ ٢٤٢ .

قال ابن كثير: الفاء ـ وإن كانت للتعقيب ـ لكنه تعقيب على كل شيء يحسبه، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]. فالمشهور الظاهر ـ والله على كل شيء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن(١).

وذهب آخرون إلى أن مدة حملها كانت سريعة، وهذا قول منسوب لابن عباس رضي الله عنهما، روى الإمام الطبري ونقل ذلك ابن كثير أيضاً أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما هو إلا أن حملت وولدت، فليس بين حملها وولادتها زمن(٢).

إن الله عز وجل يقول عن سيدنا عيسى عليه السلام ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، أي هو آية في كل شيء، ومن ضمنه مدة حمله، بل إن المعجزة هي في عدم وجود مدة لحمله، وليس كما جرت العادة، وكذلك فإن العقل يؤيد هذا؛ نظراً لكون الحمل الذي يتطلب زمناً هو الحمل المعروف لدى الناس، أي الذي ينشأ عن علوق النطفة، ثم بتحوُّل النطفة علقة، والعلقة مضغة وهكذا، أما الحمل الخارق فلا يقاس على الحمل المعتاد، وكذلك فمن مرجحات هذا القول: أنه لو ثبت حمل مريم لدى قومها فلربّما كانوا رجموها قبل أن تضع حملها؛ لأن تبرئة السيدة مريم ما كانت إلا بنطق وليدها كما أخبر القرآن(٣).

إنَّ الحديث القرآني لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته، فهل كان حملاً

(١) تفسير ابن كثير، ٣/ ١١٤.
(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب، ٥/ ٢٢٧.
(٣) المرجع السابق، ٣/ ١١٤.

عادياً كما تحمل النساء ، وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة ، فإذا هي علقة فمضغة فعظام ، ثم تكسى العظام باللحم ، ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟

إن هذا جائز ، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية ، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية ، كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة ألا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية ، فتختصر المراحل اختصاراً ، ويعقبها تكوّن الجنين ونموّه واكتماله في فترة وجيزة.

وليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين ، فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سند لها[١].

وقد مال الدكتور صلاح الخالدي إلى ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، من أن الحمل بعيسى لم يستمرّ أكثر من ساعات ، وأنها ما أن حملت به وهي في «المكان الشرقي» حتى انتبذت به إلى «المكان القصي» ـ بيت لحم ـ وهناك ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

ومما يقوّي ميلنا إلى هذا الرأي التعبير بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب الفوري ، والتي ترتب المراحل ترتيباً سريعاً فورياً[٢].

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ في المكان القصي ـ بيت لحم ـ الذي ذهبت إليه نخلة ولما أحست بآلام المخاض اضطرت أن تلجأ إلى تلك النخلة ، وما كان هناك أحد عندها ، وعبر القرآن عن هذه الحالة المثيرة العجيبة بقوله (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) ، أي: جاء المخاض بمريم إلى جذع النخلة واضطرها إلى القدوم إليها ، وأكرهها على

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٠٦ ـ ٢٣٠٧.

(٢) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٤٤.

ذلك ، والمخاض: ما تشعر به الحامل إذا ضربها الطلق وهذا على معنى التشبيه ، كأن الذي في جوفها شيء مائع يتمخض ويتحرك ويضطرب[١] .

وكأن الجنين في رحم الأم يضطرب ويتحرك قبل نزوله وكأنه يسبح فيما حوله من السائل الذي تضمن المشيمة ، وإضافة الجذع إلى النخلة يشير إلى أنها نخلة حية خضراء نامية ، وليس الجذع ساق نخلة يابساً مقطوعاً ملقى على الأرض[٢] ، وهذا تصوير قرآني معجز رفيع بديع .

ج ـ آلام مريم عند الوضع وتمنّيها الموت :

وهناك عند جذع النخلة أخذها الطلق ، واشتدّت بها آلام المخاض وأطلقت زفرة شديدة موجعة قائلة ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ ، وهذه الآية الكريمة تصور لنا من خلال الكلمات الواصفة والكاشفة عن مشهد آخر من مشاهد قصة السيدة مريم ، وإننا نكاد نرى من خلال تلك الكلمات المصورة السيدة مريم البتول وهي تواجه آلامها الجسدية والنفسية ، فها هي ذي تشق طريقها بحملها لتتوارى بعيداً عن أعين الناس وعن أهلها خوفاً من المواجهة التي باتت وشيكة بينها وبينهم ؛ خوفاً من وصمها بما لم تقترفه ولم تتصف به أصلاً في لحظة من لحظات حياتها ، تلك كانت آلامها النفسية ، لأنها تتيقن أن الناس لن يُصدِّقوا أن مولودها جاء من غير أب .

أما آلامها الجسدية فتتمثل في تلك الآلام التي تشعر بها المرأة عند مخاضها ، إنها تواجه طلق الولادة وحدها في مكان قصي بعيدة عن أهلها ، ولا علم لها ولا خبرة بمثل هذه الأمور ، ولا معين لها في شيء ولا تملك من مقومات الحياة شيئاً ، لذا فإنها تمنت الموت ، فقالت ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا

---

(١) ابن فارس ، مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ، ص ٩٧٧ .

(٢) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٤٨ .

﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ ، لقد تمنت الموت خوف العار والفضيحة ، وهي الطاهرة البتول التي اصطفاها الله لتكون موضع آية عظيمة من آياته ، أو أمناً من خوض الناس في معصية بما افتروا عليها حتى لا تكون سبباً في عذابهم وسخط الله عليهم(١) .

﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ : لم أُخلَقْ ، ولم أك شيئاً ، ولا يعرف ولا يذكر ولا يُدرى من أنا ، فعندما قالت : (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) ، فإننا لنكاد نرى ملامحها ونحسّ اضطراب خواطرها ونلمس موقع الألم فيها ، وهي تتمنى لو كانت نسياً منسيا(٢) .

وما هي إلا فترة قصيرة عانت فيها مريم ما عانت من آلام المخاض وهي وحيدة فريدة ، وهي مستندة إلى جذع النخلة حتى وضعت مولودها عيسى عليه السلام ، ومرت فترة قصيرة تستعيد عافيتها وتعود تدريجياً إلى حالتها الطبيعية ، وكانت ما زالت على نفس جلستها بجانب جذع النخلة ، وما زالت أسيرة هواجسها وأفكارها ، وما زالت قلقة منفعلة حزينة مكروبة ، وفجأة سمعت من يناديها من تحتها(٣) .

د ـ ابنها يناديها من تحتها وما صاحب ذلك من نفحات وبركات :

قال تعالى : ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم : ٢٤ : ٢٦] .

في هذه الحالة الأليمة التي ألمت بمريم عليها السلام ، وفي تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض والوحدة والوحشة والترقّب

---

(١) عادل الرويني ، تأملات في سورة مريم ، ص ١٢٨ ـ ١٣٠ .
(٢) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٠٧ .
(٣) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ، ٤/ ٢٥٠ .

لما ينتظرها من قومها حين يجدون معها هذا الوليد في غمرة هذه الآلام الحسية والنفسية تدركها رحمة الله تعالى وجميل ألطافه فيتحول العسر إلى يسر ، والضيق إلى سعة ، ويولد عيسى وينطقه المولى عز وجل[١] . ويقول لها كما أخبر القرآن ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ .

والراجح أنَّ الذي ناداها هو عيسى وليس جبريل عليهما السلام ، وذلك أن الكلام فيما سبق كله عن عيسى وليس عن جبريل ، والضمائر السابقة تعود عليه ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى ﴾ ، ودليل ترجيح هذا القول أيضاً أنها لما ذهبت إلى أهلها وهي تحمله ، واستغربوا أمرها أشارت إليه ، وهي لم تشر إليه إلا ليتكلم نيابة عنها ، وهي لم تفعل ذلك إلا لأنه ناطق ، وأنه قد تكلم معها من قبل وقد جرّبت ذلك منه[٢] .

ثم إن كون المتكلم معها ابنها الذي ولدته قبل لحظة أبلغ وأظهر في المعجزة ؛ لأن كلامه مع أمه ثم مع أهلها بعد ذلك ليس مألوفاً ولا معتاداً ، وإنما هو بأمرٍ من الله ، ولنتصور مدى مفاجأة مريم الكبرى وهي تسمع ابنها ـ ابن لحظة ـ يُناديها ويُكلمها ويشدُّ أعصابها ويرفع معنوياتها[٣] .

إن الله تعالى هو الذي ألهم عيسى عليه السلام أن يقول لأمه هذا القول ، وأنطقه بهذا الكلام ، وإلا فما أدراه بهذه الخطة العلمية الحكيمة ، ولم تمضِ على ولادته إلا لحظات ، ففي قوله ﴿ أَلَّا تَحْزَنِى ﴾ : (أن) حرف تفسير ، وما بعدها جملة تفسيرية تفسر لنا نداءه ، وتخبرنا بما قاله لها ، (ولا تحزني) : نهاها عن الحزن ودعاها إلى إزالة ما اعتراها من همّ وكرب ، ودعاها إلى الهدوء والطمأنينة وعدم التوتر والقلق والانفعال ، فلا تحزني مما حصل ، فإن الله

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٦٩٦ .
(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ، ٥/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .
(٣) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ، ٤/ ٢٥٢ .

معك ، يحفظك ويرعاك فها هو الطعام والشراب عندك قدمه الله لك بمعجزة من معجزاته ، ولا تحزني في التفكير بمواجهة أهلك فإن الله سيقدم لهم معجزة أيضاً ، يعلمون منها براءتك ويوقنون أن الأمر من الله[١] .

هـ ـ أنبع الله لها جدول ماء آية وكرامة :

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ : هذا من كلام عيسى لأمه يرشدها إلى (السريّ) الذي جعله الله تحتها ، وقد اختلف العلماء في المراد بالسري الذي جعله الله تحتها ، فقال بعضهم : السري هو عيسى عليه السلام : أي مرتفع القدر ، عالي المنزلة ، أي : لا تحزني ، فإن مولودك الذي تحتك الآن سيكون سرياً عندما يكبر ، ويجعله الله رجلاً له منزلة ومكانة[٢] .

وقيل : السري : هو الجدول ـ النهر الصغير الجاري ـ سُمّي بذلك ؛ لأن الماء يسري فيه ، وعلى هذا القول عامة المفسرين[٣] .

ويشير هذا إلى أنه لم يكن في المكان سري ـ جدول ماء ـ من قبل ، وإنما فجّر الله لها الماء وأنبعه عندما لجأت إلى جذع النخلة ، وجعله يمر من تحتها ، ويتابع سريانه وجريانه ، وكان هذا خارقة من الخوارق المتتابعة والمعجزات التي أجراها الله ، وصاحبت خلق عيسى والحمل به وولادته[٤] .

و ـ أثمر الله لها النخلة في غير الموسم آية وكرامة :

بعدما أشار عيسى إلى سري الماء الجاري تحتها ، أرشدها إلى النخلة التي تستند إليها قال تعالى : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ٢٥] .

---

(١) المرجع نفسه ، ٤/ ٢٥٣ .
(٢) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٥٤ .
(٣) الطبري ، جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ١٦/ ٢٤ . وانظر : تفسير ابن كثير ، ٣/ ١١٧ .
(٤) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٥٤ .

إن النخلة التي أُلجئت إليها والتي ولدت تحتها والتي أُمرت أن تهز بجذعها إليها ، كانت نخلة نامية خضراء حية ، ولم يكن إثمار النخلة إثماراً عادياً طبيعياً ، ولو كان كذلك لكان ميلاد عيسى عليه السلام في الصيف؛ لأن وقت نضوج التمر يكون في الصيف وهو موسم جني التمر ، ويذهب النصارى إلى أن ولادته كانت في الشتاء في الخامس والعشرين من كانون الأول[١] .

ولا تكون النخلة مثمرة في هذا الوقت ، ولا يكون البلح رطباً جنياً ، إن إثمارها كان إثماراً خاصاً ، معجزة من الله سبحانه ، حيث أمر النخلة أن تثمر البلح ، وأن ينضج البلح ليصبح تمراً ، وأن يتحول رُطَبًا جنياً ، وجرى هذا كله في لحظات ، وطالما الأمر أمر الله ، فلا غرابة في ذلك ، لأنه فعال لما يريد ، ويقول للشيء كن فيكون ، كما أراده ، وإن كل ما أحاط بعيسى عليه السلام كان معجزات خارقة ، وليس من الأمور المعروفة .

وإذا كنا قد رجحنا أن إنباع السري كان معجزة من الله ، وأنه لم يكن الماء جارياً من قبل ، فإن هذا يؤكد أن إثمار النخلة كان معجزة أيضاً ، ليتكامل الطعام مع الشراب ، فتأكل من الرطب الجني ، وتشرب من ماء السَّري[٢] .

وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] . وتنكير كلمة (آية) للتعظيم؛ لأنها آية تحتوي على آيات ، ولما كان مجموعها دالاً على صدق عيسى في رسالته جعل مجموعها آية عظيمة على صدقه[٣] .

وقوله (وآويناهما إلى ربوة) فهو تنويه بهما ، إذ جعلهما الله محل عنايته

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ، ص ٨٦٤ .
(٢) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٥٦ .
(٣) محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤م ، ص ٢١٣ ـ ٢١٥ .

ومظهر قدرته ولطفه ، والإيواء: جعل الشيء أوياً ، أي ساكناً ، و(الربوة): المكان المرتفع من الأرض ، والمراد بهذا الإيواء: وحي الله لمريم أن تنفرد بربوة حين اقترب مخاضها لتلد عيسى في معزل من الناس ، حفظاً لعيسى من أذاهم ، و(ذات قرار): أي مستوية يستقرّ عليها ، وقيل: ذات ثمار ، والقرار: المكث في المكان ، أي صالحة لأن تكون قراراً لاشتمالها على النخيل المثمر ، فتكون في ظله ، ولا تحتاج إلى طلب قوتها ، و(معين): المعين هو الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض ، أي: ماء معين[١].

ورعاية الأم لوليدها فطرة الله تعالى ، وشرعة الله للبشرية منذ آدم عليه السلام إلى يومنا هذا[٢].

ز ـ سنة الله في الأخذ بالأسباب:

أمر عيسى أمه أن تهزّ جذع النخلة ، وأن تميلها إليها ، ليتساقط عليها الرطب الجني منها قال تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥].

لقد أوجد الله لمريم عدة معجزات خوارق ، بدون جهد منها ، منذ أن كانت مُتبتِّلة في المحراب حيث أتاها الرزق المُنوَّع ، إلى أن أنبع لها سري الماء وأثمر لها النخلة بالرطب ، لقد كان الله قادراً على إنزال الرطب عليها دون جهد ولا حركة منها ، ولكنه أراد أن تتحرك هي بحركة مادية خفيفة ، أن تلمس جذع النخلة بيديها ، والباقي ليس عليها ، بل على الله.

هي لم تهز جذع النخلة في الحقيقة؛ لأنها ضعيفة وإنما الله هو هزها وحركها في الحقيقة ، هي كانت سبباً مباشراً في تحريك النخلة ، عندما وضعت يديها عليها ، والله هو المُسبِّب والمُقدِّر ، أوجد في النخلة التحريك وأمرها أن

---

(١) تفسير الطبري ، ١٥/ ٤٧ ـ ٤٩.

(٢) محمد مصطفى الزحيلي ، شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة ، ص ٦٠٨.

تُسقط الرُّطبَ الجنيَّ ، فتحركت ، وأسقطت .

وهذا درس إيماني عقيدي لها ، لتربط بين التوكل على الله ، وبين الأخذ بالأسباب ، والأهم من هذا أنه درس إيمانيّ عقيدي لنا ، لنربط بين الأسباب والمسببات وننسق بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ، فكل مؤمن يعتقد جازماً أن الله هو الضار والنافع ، وأنه لا مانع لما أعطى الله ، ومعطي لما منع الله ، ومن ثم يتوكل على الله ، ويفوض أمره إليه ، ويوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وهذا التوكل والتفويض يوجب عليه أن يأخذ بالأسباب ، ويبذل الجهود ، ليأتيه ما قدره الله له ، وحركة مريم رضي الله عنها دليل على وجوب الأخذ بالأسباب ، لتأتي المقادير والأرزاق[١] .

ح ـ تغيُّر في الحالة النفسية لمريم عليها السلام :

وبعدما أمر عيسى عليه السلام أمه أن تهز جذع النخلة أمرها أن تأكل وتشرب : ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ ، كلي من الرطب الجني الناضج الطيب الذي تساقطه عليها النخلة ، واشربي ماء من الجدول السَّري الذي أجراه الله تحتك ، ولا تخشَي جوعاً ولا عطشاً .

إن قوله تعالى ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ فيه إسناد القرار والرضا والسعادة إلى مريم ، فقد جعل (عيناً) تمييزاً لكون العين أبرز عضو في الإنسان ، تنعكس عليه علامات وآثار الرضا والسعادة ، ولهذا يقال : هو قرير العين ، أي : هو هادئ ساكن سعيد مطمئن ، إن قوله تعالى ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ يدل على الحالة النفسية العالية التي نقل الله مريم رضي الله عنها إليها ، فقد كانت قبل الولادة في غاية التوتر والانفعال والقلق ، وتجلى هذا في قولها ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ .

أما بعد الولادة وخروجها منها بسلامة وسماعها مخاطبة وليدها لها ، فقد

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٥٧ .

رأت علامات عناية الله بها ، وحفظه لها ، وهي تعيش في ظلال معجزاته التي قدمها لها ، فها هي تأكل الرطب وتشرب الماء من السري ، وتأنس برؤية وليدها وتسعد بمخاطبته لها ، ولذلك عاشت حالة نفسية عالية متألقة من قرارة النفس ، ومن الرضا والسرور والسعادة والطمأنينة ، وانعكس هذا كله على كيانها ، لكنه كان أبرز ما يكون انعكاساً على عينها[١] .

وهكذا أرشد المولود عيسى عليه السلام أمه إلى التعرف السليم السريع وهي ما تزال تحت النخلة : أن لا تحزن وتقرَّ عيناً ، وتهزّ إليها جذع النخلة ، وتأكل من الرطب الجني ، وتشرب من ماء السري ، ونفذت مريم ما سمعته من وليدها وأخذت حاجتها من الطعام والشراب ، وزال حزنها وقلقها ، وكانت قريرة العين مسرورة النفس[٢] .

ط ـ فوائد الرطب للنفساء :

في أكل مريم عليها السلام من الرطب إشارة إلى ما أثبت الطب من أهمية الرطب للمرأة النفساء ، حيث أثبتت الأبحاث العلمية أن الرطب يحتوي على مادة تقوي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة للحمل ، فتساعد على الولادة من جهة ، كما تقلل كمية نزف الدم الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى ، ويحتوي الرطب على نسب عالية من السكريات هي مصدر الطاقة الأساسي وهي الغذاء المفضل للعضلات ، وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم ، وتقوم بدور كبير أثناء الولادة ، وإذا كان علماء التوليد يقدمون للحامل في حالة المخاض الماء والسكر ، فإن الآية الكريمة قد نصت على إعطاء السوائل ﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي ﴾ ، كما أن الرطب يخفض ضغط الدم عند الحوامل فترة ليست طويلة ، ثم يعود لطبيعته ، وبانخفاض ضغط الدم تقل كمية الدم النازفة ،

---

(١) المرجع نفسه ، ٤/ ٢٦١ .

(٢) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٦٢ .

والرطب أيضاً من المواد الملينة للقولون ، ومن المعلوم طبياً أن المليِّنات النباتية تفيد في تسهيل وتأمين الولادة[١] .

ي ـ ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ :

تابع وليدها عيسى عليه السلام إرشادها إلى التصرف المناسب عندما تواجه أهلها ، فقال لها : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ .

قال عيسى عليه السلام لأمه : اذهبي إلى أهلك أنت تحملينني ، فإن شاهدت أحداً من البشر سواء كان من أهلك أو من غيرهم ، واستغرب منك لأنك تحملين على حضنك ولداً ، وسألك عن سر الأمر فلا تجاوبيه ولا تكلميه ، وأعطيه إشارة يفهم منها أنك صائمة عن الكلام ، وناذرة ألا تكلمي أي إنسان ، وأحيلي عليّ ، وأنا سأتولى الكلام والشرح .

هذا هو المعنى المفهوم من هذه الجملة الشرطية القرآنية : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ ، فمعنى : (فقولي) : أشيري لمن يكلمك ويسألك إشارات باليد أو غيرها ، يفهم منها أنك صائمة عن الكلام ، ممتنعة عن مخاطبة الناس ، واعتبرت الآية هذه الإشارات قولاً ؛ لأنها تسد مسدّ القول ، وتُفهم الشخص المقابل المراد ، فكأنها قول خارج من الفم ، وبعض الإشارات باليدين والعينين واللسان وغيرها قد تعبر عمّا في النفس ، وتفهم الشخص المقابل مثل الكلام الخارجي من الفم أو أكثر ، ولغة الصم والبكم تقوم على الإشارات باليدين ، ولتلك الإشارات قاموس خاص ، ولكل إشارة رمز جمل معدودة ، تشير لمن يسألونها وتُفهِمُهم أنها نذرت للرحمن صوماً .

والنذر هو قربة وعبادة يتقرب بها الناذر إلى الله بأداء المنذور ، وذكر النذر

---

(١) الشرقاوي ، المرأة في القصص القرآني ، ٢/ ٧٤٥ .

في قصة مريم رضي الله عنها دليل على أنه كان عبادة يعرفها المؤمنون السابقون ويتقربون بها إلى الله.

وقوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ عني به الإمساك عن الكلام، بدلالة قوله بعده: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾. والمعنى: أن كل من أمسك عن شيءٍ، وامتنع عن فعله فهو صائم عنه، ومعنى الصوم هو الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً، فهناك من صام عن الطعام وهناك من صام عن الكلام وهكذا، فالمقصود بالصوم في الآية المذكورة الإمساك عن الكلام، وعلى مريم أن تشير لكل من سألها أنها صائمة عن الكلام، ولذلك لا تكلم أحداً من البشر الإنس (فلن أكلم اليوم إنسيا). (والإنسيُّ): هو الشخص المنسوب إلى الإنس، عكس الجني، المنسوب إلى الجن[١].

لقد جعل الله صوم مريم وصمتها عن الكلام آية لها ودليلاً على براءتها وطهارتها، فبينما صامت هي عن الكلام، وهي القادرة عليه، فقد أنطق الله وليدها عيسى عليه السلام الذي لم تمض على ولادته إلا فترة يسيرة وهو في المهد، فكان كلامه أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، كما أن السكوت عن السفهاء وعدم الرد عليهم من أخلاق الصديقة البتول العفيفة الطاهرة المطهرة.

رابعاً: عيسى عليه السلام يكلم الناس في المهد:

أخذت مريم عليها السلام بإرشادات وليدها عيسى عليه السلام، فأكلت من الرطب وشربت من الماء، وبعدما رجعت لها قوتها حملت ابنها معها وتوجّهت إلى أهلها.

١ ـ مريم تحمل ابنها وتتجه إلى قومها:

وهناك كانت الدهشة والمفاجأة لهم وقد صورت الآيات بعض ما جرى:

---

(١) المعجم الوسيط، ص ٣٠. وانظر: الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، ، ٤/ ٢٦٥.

قال تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٣٣].

ـ ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ ﴾:

أتت مريم رضي الله عنها قومها وأهلها المقربين، وكانت تحمل ابنها عيسى عليه السلام، وكانت في غاية القوة والشجاعة والثقة والطمأنينة؛ لأنها توقن أن الله معها، وتعلم أنها لم ترتكب خطأً، والله هو الذي خلق في رحمها عيسى فلماذا تخشى مواجهتهم، وقد وصلت مريم أهلها، ونظروا إليها وقد سيطرت الدهشة عليهم، إن ابنتهم طاهرة عذراء عفيفة، وهم يعلمون هذا عن يقين، فماذا الذي يرونه منها؟ لقد أنطقتهم الدهشة والمفاجأة بعبارة ساخرة مُتَّهِميها[1].

ـ ﴿ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾:

كان في عبارتهم اتهام غير صريحٍ لمريم، والذي دفعهم إلى عدم اتهامها بصراحة ـ فلم يقولوا لها: لقد ارتكبتِ فاحشة الزِّنى ـ هو إيمانهم بالله وتقواهم لله، وتحرّجهم من قذف الصالحة بالفاحشة، ثم ما عرفت به مريم من صلاح وعبادة وعفاف وطهارة، وهذا يجعلها بعيدة عن الفاحشة، لكنهم رأوا وليداً على حضنها، وهو أمر غريب مريب يدعو إلى الريبة، فكيف يوفقون بين ما يعرفونه عنها من عفة وطهارة وبين ما يشاهدونه بين يديها؟

اكتفوا بقولهم لها بأنها جاءت بأمر عظيم فظيع، لا يتفق مع ماضيها الذي

(١) الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٢٦٨.

عهدوه منها ، ولا مع أسرتها التي نشأت فيها ، بين والدين صالحين وأخ صالح[١] .

ومعنى قولهم لها ﴿ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴾ : لقد جئت بشيء عظيم ، وأحدثت حدثاً عجيباً ، وهو الوليد الذي تحملينه ، فمن أين لك به؟[٢] .

٢ ـ استقامة أسرتها وهارون شقيق لها :

وقد أشار قومها إلى طهارة منبتها ، وعفة أفراد أسرتها واستقامة أخيها ووالدَيها ، فقالوا : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٨] ، فأبوها رجل صالح عفيف ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ ، ما كان سيئاً يأتي بالفواحش ، وأمها امرأة صالحة عفيفة ﴿ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ : ما كانت بَغِيًّا زانية .

وتوافقت شهادة قومها لأمها بطهارتها وعفتها عندما نفوا عنها البغاء ﴿ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ ، مع شهادتها هي لنفسها ، عندما جاء جبريل عليه السلام لينفخ فيها بعيسى ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٠] . فأمّها ما كانت بغياً زانياً ، وهي ما كانت بغياً زانياً .

وقد اختلف العلماء في قولهم (يا أخت هارون) ، فذهب بعضهم إلى أنه لا يُراد بها الأُخوَّة الحقيقية ، وإنما الأخوة (التشبيهية) ، فأرادوا تشبيهها بهارون شقيق موسى عليهما السلام ، تشبيهها به في العبادة والعفة والصلاح ، والمعنى : يا شبيهة هارون النبي في العبادة من أين هذا الوليد؟

وذهب الجمهور إلى أن الأخوة هنا أخوة حقيقية ، وأنها شقيقة لهارون ، وهارون المذكور هنا ، ليس النبي الكريم شقيق موسى عليهما السلام ، فبينهما عدة قرون ، وإنما هو هارون آخر .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٦٨ .
(٢) المرجع نفسه ، ٤/ ٢٦٩ .

والراجح هو قول الجمهور؛ لأنه ورد فيه حديث صحيح عن رسول الله ﷺ، روى مسلم والترمذي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: ألستم تقرؤون (يا أخت هارون)؟ قلت: بلى. قالوا: وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» (١).

فهذا الحديث الصحيح صريح في أن هارون أخ شقيق لمريم سماه أبواه باسم هارون النبي عليه السلام(٢).

٣ـ استغراب قومها من إشارتها إلى وليدها:

ولما سمعت مريم كلام قومها، عزّ عليها اتهامهم الضمني لها، ولو تكلمت فقد لا يسمعون لها ثم هي ناذرة للرحمن صوماً عن الكلام. وبما أنها سمعت كلام وليدها لها فور ولادته، فإنها أحالت الجواب عليه.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: أشارت إلى عيسى، وكأنها تقول لهم لا تسألوني أنا، بل اسألوه وكلموه. ولم ترد الإشارة في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع من القرآن، والإشارة قد تكون باليد أو العين أو الرأس أو غيرها، لتدلَّ على معنى من المعاني.

وفهم القوم إشارتها، إنها تدعوهم لسؤاله هو فزاد استغرابهم وتعجبهم وغيظهم، إنهم يسألونها مستنكرين، وهي تسخر منهم وتقابل سؤالهم بصمت، وتشير إلى وليد لم تمض على ولادته إلا ساعات ليتولى هو الكلام معهم، ولهذا سألوها مستنكرين ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟ كيف نسأل طفلاً وهل يفهم سؤالنا؟ وإذا فهم سؤالنا هل يقدر أن يجيبنا؟ وما عُهِدَ عن طفل في المهد وُلِد قبل ساعات أو أيام الكلامُ الواضح المفهم. و(كان) هنا تامة

(١) أخرجه مسلم، رقم ٢١٣٥، والترمذي (٣١٥٥).
(٢) الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٢٧١.

بمعنى (وجد) وفاعلها: ضمير مستتر يعود على ابنها و(صبياً) حال.

والمعنى: كيف نُكلِّم من وجد في المهد صبياً؟ والمراد بالمهد هنا حِجْر أمه، لأنهم يشاهدونها وهي تحمله. والمهد والمهاد: المكان المُمهَّد المُوطَّأ[١]. وأما (المهد) فقد ورد في القرآن ثلاث مرات، في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام.

وكان عيسى عليه السلام وهو في حضن أمه لم تمض على ولادته إلا عدة ساعات يعي ما يجري حوله، ويسمع كلام القوم مع أمه، وكان هذا الوعي والسماع معجزة من الله.

ولما سمع سؤالهم لأمه (كيف نكلم من كان في المهد صبياً)؟ كان يعلم أن أمه لن تجيب على السؤال؛ لأنه هو الذي أمرها ألا تجيب عن أيّ سؤال، فتطوع هو للإجابة، وقدم نفسه إلى القوم وعَرَّفهم على نفسه وعلى ما سيكون منه في المستقبل.

وفتح القوم عيونهم مبهورين مما يشاهدون وأصغوا سمعهم مشدوهين مما يسمعون، وسيطرت المفاجأة على كيانهم كله، أهذه حقيقة أم خيال؟ أحقاً يشاهدون طفلاً يتكلم؟ أحقاً هذا صوت طفل عمره ساعات يدخل آذانهم ومسامعهم؟ أم هم متخيلون واهمون؟

إنها حقيقة قاطعة، وإن كلام هذا الطفل معجزة، يسمعه هؤلاء القوم المؤمنون، فيزداد إيمانهم بالله عزَّ وجل[٢].

٤ ـ البداية الإيمانية في بيان الوليد عيسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا

(١) الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٢٧٢.
(٢) المرجع السابق، ٤/ ٢٧٢.

شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

بدأ عيسى عليه السلام كلامه بأن الله وحده هو الإله الرب، لا يشاركه أحد في ألوهيته وربوبيته، وأنه عبد الله، عبد مخلوق، خلقه الله خلقاً خاصاً بمعجزة خارقة، بدون أب، وأنه عبد الله وليس شريكاً له ولا ابناً له[١].

قال الإمام ابن كثير: «أول شيء تكلم به أن نزّه جناب ربه تعالى وبرّأه عن الولد وأثبت لنفسه العبودية لربه»[٢].

فالله وحده هو الرب الإله، وكل ما سواه له عبد، وأي خلط بين الإله والعبد يُعتبَر كفراً بالله وشركاً به، فإذا ما رفع قوم عبداً من عبيد الله وجعلوه ندّاً لله صاروا كفاراً مشركين بالله.

وهذه البداية الإيمانية لعيسى عليه السلام التي بدأ بها وهو طفل في المهد يقرر فيها أنه عبد الله، وأن الله وحده هو الرب، تكذيب مبكر لما سيقوم به ـ بعض الناس ـ فيما بعد عندما ادّعوا أنه ابن الله، وبعدما نصَّ على عبوديته لله تحدث عما سيعطيه الله في المستقبل فقال ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، وهذا على تقدير المستقبل: سيؤتيني الكتاب، ويجعلني نبياً، والمراد بالكتاب هنا الإنجيل، الذي سيؤتيه الله إياه ويجعله مصدقاً للتوراة قبله.

لم يتكلم عيسى الوليد بهذا الكلام من نفسه وإنما كان بإلهام من الله، ألهمه أن يقول هذا القول، وأخبره أن سينزل عليه الإنجيل، وسيجعله نبياً رسولاً.

وإذا كان قوله (إني عبد الله) تكذيباً مبكراً لما سيزعمه ـ بعض الناس ـ من بُنوَّته لله من بعض فرق النصارى، فإن قوله (وجعلني نبياً) تكذيب مبكر لما سيزعمه اليهود، حيث سيكفرون به وينكرون نبوته ويحاولون قتله.

وقول عيسى عليه السلام بعد ولادته ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي

(١) الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٢٧٣.
(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ١١٧.

﴿نَبِيًّا﴾ ، هو تطبيق عملي للوعد الذي بشر به جبريل عليه السلام مريم قبل فترة من حملها بعيسى ووضعها له وهو الذي ذُكر في قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩].

أ ـ معنى كون عيسى مباركاً:

تابع عيسى عليه السلام تقديم نفسه بكلامه الواضح المُبين ، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾: الله بارك وأفاض بركته عليه ، فصرت مباركاً أينما كنت ووُجدت ، و(كنت) هنا: فعل ماض تام ، بمعنى (وجدت) ، والتاء: ضمير متصل في محل رفع فاعل. و(كنت) فعل الشرط ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. والتقدير: أينما كنت ووجدت فقد جعلني الله مباركاً.

و(مباركاً): اسم مفعول لأنه حلَّت به البركة من الله. ومع أنها عامة في معناها ، شاملة لجميع صور البركة ، إلا أن بعض السلف ذكر بعض مظاهر هذه البركة. قال مجاهد: (مباركاً): جعلني نفّاعاً ، وقال سفيان الثوري: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾: جعلني معلماً للخير حيثما كنت. (وجعلني مباركاً أينما كنت: على أن بركته: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان) [(١)].

ب ـ ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيًّا﴾:

هذا على ما سيكون في المستقبل: أي سيُوصيني بالصلاة والزكاة طيلة حياتي ، أي: أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة ، وحقوق عباده التي من أجلِّها الزكاة ، مدة حياتي أي: فأنا ممتثل لوصية ربي ، عامل عليها منفذ

(١) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٧٥.

لها. وفي ذلك إشارة إلى أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حياً عاقلاً.

ج ـ عيسى بارٌّ بأمه:

﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي ﴾: وجعلني الله برّاً بوالدتي مريم، والواو: حرف عطف. (وبرّاً): معطوف على (مباركاً). والمعنى: جعلني الله نبياً وجعلني مباركاً، وجعلني برّاً بوالدتي. ومعنى ذلك: التوسع في الإحسان إلى الوالدة ووصلها. أي: لم يجعلني مستكبراً على الله فيما أمرني به ونهاني عنه، ولكنه جعلني متواضعاً له متذللاً في طاعته.

وتشير الآية إلى جانبين: ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٣٢]، الجانب الإيجابي في شخصية عيسى السوية عليه السلام، وهو برُّه بوالدته، والجانب السلبي الذي نزَّه الله شخصيته السويّة، فلم يجعله جباراً شقياً.

ومن كان عاقّاً لوالديه كان جباراً شقياً عصياً؛ لأنه إذا لم يكن بارّاً بوالديه، فكيف يكون رحيماً بالآخرين؟ ومن لا خير فيه لوالديه لا خير فيه للآخرين، قال بعض أهل العلم: لا تجد عاقّاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٣٢]. ولا تجد سيِّئ الملكة والمعاملة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وإذا وردت كلمة (جباراً) في القرآن وصفاً للإنسان، فإنها لا تكون إلا للذمّ؛ لأنه لا يكون جباراً إلا من كان مختالاً متكبراً وشقياً عاصياً، والإنسان الصالح لا يتجبَّر، لأنه يعلم أن العظمة والجبروت لله، فيتواضع بين يدي الله ويرحم الآخرين من عباد الله.

ولأن وصف الإنسان بأنه جبار ذمٌّ له، فقد نزَّه الله نبيَّه عيسى عليه السلام عنه، ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾، ونزَّه أيضاً معاصره يحيى عليه السلام عنه،

حيث أخبره عنه بقوله (وبرَّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً) ، وعيسى عليه السلام ليس جباراً شقياً[١] .

د ـ السلام على عيسى دليل على بشريته :

قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم : ٣٣] . وقد أخبر عيسى عليه السلام قوم مريم أن الله أضفى عليه السلام والأمان في المواضع الثلاثة الحرجة الخطيرة في حياته : يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه حياً يوم القيامة .

ومعنى الآية : الأمنة من الله عليَّ من الشيطان وجنده يوم ولدت ، فلا ينالون مني ما ينالون من المواليد عند ولادتهم . وأمنة من الله عليَّ يوم أموت ، من هول المُطَّلَعِ . وأمنة من الله عليَّ يوم أبعث حياً يوم القيامة فلا ينالني الفزع الذي ينال الناس عندما يعاينون أهوال يوم القيامة[٢] .

قال الإمام ابن كثير : «هذا إثبات منه لعبوديته لله ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويُبعث ، كسائر الخلائق ، ولكن له السلامة في هذه الأحوال الثلاثة التي هي أشقُّ ما يكون على العباد» [٣] .

وحكمة تعريف السلام وتمييزه في قوله (والسلام عليَّ) وتخصيصه ؛ لأن الله تعالى يعلم أن اليهود سيكذبون عيسى عليه السلام ، ويكفرون به ، ولن يكتفوا بذلك ، بل سيحرصون على قتله وصلبه وهذا ما فعلوه به فيما بعد ، ولقد حماه الله منهم ، ولم يجعل لهم سلطاناً عليه ، ولذلك رفعه إليه ، ولهذه الحوادث التي وقعت له خصَّه الله عزّ وجل بالسلام الخاصّ ، فسلَّمه من اليهود ومكائدهم ومؤامرتهم[٤] .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٧٧ .
(٢) المرجع نفسه ، ٤/ ٢٧٨ .
(٣) المرجع نفسه ، ٤/ ٢٧٨ . وتفسير ابن كثير ٥/ ٢٣٠ .
(٤) المرجع السابق ، ٤/ ٢٧٩ .

وهكذا أنهى عيسى عليه السلام بيانه وقدم نفسه إلى قوم أمه ، وذكر عبوديته لله الواحد ، وذكر ما سيؤتيه الله من النبوة والكتاب ، ومن السمات والمزايا الإيجابية القائمة على برِّه بأمه وتواضعه ، وعدم تجبُّره وتكبُّره ، وما سيضفيه عليه من السلام والأمان في حياته .

وتوقَّف عرض القرآن لقصة ميلاد عيسى عليه السلام عند هذا الحدّ ، ولم يتحدَّث عن ردَّة فعل القوم لما سمعوا بيانه وكلامه ، ولا عمَّا جرى لمريم رضي الله عنها بعد ذلك[١] .

٥ ـ تعقيب القرآن على عرض مشهد ولادة عيسى :

وقد عقَّبت آيات سورة مريم على ذلك بتقرير الحقيقة الإيمانية بشأن عيسى عليه السلام ، وتقرير وحدانية الله ، وتكذيب النصارى في مزاعمهم ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٣٤ ـ ٤٠] .

إنَّ هذا التعقيب هو الهدف من ذكر الحمل بعيسى وولادته وكلامه في المهد ؛ لأن موضوع هذا التعقيب ثمرة لما قبله[٢] .

الله قال القول الحقّ بشأن عيسى :

أخبرنا الله في هذا التقرير والتعقيب ، أنَّ هذا هو الحقُّ في قصَّة عيسى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : ٣٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ٤/ ٢٧٩ .
(٢) المرجع نفسه ، ٤/ ٢٨٠ .

الحقُّ في عيسى عليه السلام هو ما قاله الله ، أما أهل الكتاب فقد كانوا يمترون ويختصمون ويختلفون فيه وامترت فيه اليهود والنصارى ، فأمَّا اليهود فزعموا أنَّه ساحر كذَّاب ، وأمَّا النَّصارى ففرقة زعمت أنَّه إله ، وأخرى أنَّه ثالث ثلاثة ، وهناك من قال إنَّه ابن الله ، وبقيت طائفة على الحقّ وقالت هو عبد الله ورسوله(١) .

وقد كذَّب الله من قال من النصارى بأنه ابنُ الله بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم : ٣٥] ، فكيف يكون عيسى ابناً لله؟ وما ينبغي ولا يصلح لله أن يتخذ ولداً ، وهو لا يحتاج إلى الولد سبحانه وتعالى عمَّا يقول النَّصارى علوَّاً كبيراً ، ولا غرابة في خلق عيسى عليه السلام من غير أب؛ لأنه أراد خلقه ، وإذا أراد الله إيجاد شيءٍ ، فإنه يُوجده بكلمة (كن) فيكون ذلك الشيء ويوجد كما أراد الله .

وبما أن السياق في تكذيب مزاعم وادّعاءات النصارى حول تأليه عيسى عليه السلام ، فقد أخبر الله تعالى عن بعض ما قاله عيسى لهم ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم : ٣٦] .

قال عيسى للنصارى عندما كان بينهم قبل أن يرفعه الله إليه : الله هو ربي وربكم ، لا شريك له ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنا عبده ورسوله ، ولست ابناً له ، وأنا مأمور بعبادته ، فاعبدوه ، كما أعبده أنا ، وهذا هو الصراط المستقيم ، ولكن هناك من النصارى من لم يأخذوا بقوله ، وإنما انقسموا إلى أحزاب مختلفة فيه ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧] (٢) .

ويلٌ لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٨٢ .
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ٢٨٣ .

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٨ ـ ٣٩] ، وويلٌ لهم من ذلك المشهد في يومٍ عظيم ، هذا التنكير للتفخيم والتهويل. والمشهد هو الذي يشهده الثقلان من الجنِّ والإنس ، وتشهده الملائكة في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار. ثم يأخذ السياق في التهكُّم بهم ، وبإعراضهم عن دلائل الهدى في الدنيا ، وهم في ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. فما أعجب حالهم ، لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلةً للهدى والنجاة ، وهم أسمع شيءٍ وأبصر شيءٍ يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يومٍ عظيم(١).

لقد أنذرهم عذاب يوم القيامة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] ، حيث سيُحاسَبون فيه ، ثم يحكم الله فيهم بالعذاب الأبدي في جهنم فيتحسَّرون حسرةً شديدةً ، وأنذرَهُم وهم في الدنيا حتى تزول الغفلة التي يعيشونها ، وحتى يصحوا ويستيقظوا ، فيتخلوا عن كفرهم ويؤمنوا بالله(٢).

أنذرهم ذلك اليوم الذي لا شكَّ فيه ، فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] (٣).

وهذه حقيقة إيمانية قاطعة ختم الله بها التعقيب على قصة ميلاد عيسى عليه السلام ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

---

(١) في ظلال القرآن ، ، ٤/ ٢٣٠٩.
(٢) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٨٤.
(٣) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٠٩.

وهذا تأكيد لوحدانيّته وأنه لا شريك له ، فهو الخالق ، وكل ما سواه مخلوق ، وعيسى مخلوق من المخلوقين ، والله وحده هو المالك للسموات والأرض ، والدنيا والآخرة ، وهو الذي يرث الأرض ومن عليها من البشر ، وهو الذي يُفني هذه الدنيا ويأتي بالآخرة ، وهو الذي يبعث الناس يوم القيامة ويحاسبهم ويُثيبهم أو يُعاقبهم[١] .

إن القرآن الكريم ذكر قصة عبد الله ورسوله المسيح عيسى ابن مريم بقدْرٍ هائلٍ من الدقّة المتناهية ، بعد أن كانت كل من سيرته الشريفة ودعوته الكريمة قد شابها الكثير من التحريف والتشويه ، ويعتبر ذلك بحقٍّ وجهاً من أوجه الإعجاز التاريخيّ في هذا الكتاب العزيز ، يشهد له بأنه كلام الله الخالق ويشهد للرسول الذي تلقّاه بالنبوة والرسالة[٢] .

إن المواقف المحدَّدة التي سردها القرآن الكريم والتي نُبيِّنها في هذا الكتاب بإذن الله تعالى تشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية ، بل هو كلام الله الخالق كما تشهد لرسول الله ﷺ بأنه لا يمكن أن يكون قد استقى هذه الحقائق من كتب (العهدين القديم والجديد) ، وذلك للاختلاف الكبير بين ما جاء عن حقيقة هذا العبد الصالح في تلك المصادر ، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن هناك من الوقائع القرآنية ما لم يرد له ذكر في أيٍّ من كتب (العهدين القديم والجديد) .

وذلك مثل معجزة كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد ، ونُطقِه بالعبودية الكاملة لله تعالى ، وتنزيهِهِ الخالق العظيم عن جميع صفات خلقه ، وعن كل وصفٍ لا يليق بجلاله ، ومعجزة المائدة التي أنزلها الله تعالى على الحواريين من السماء استجابة لطلبهم ، ولدعاء المسيح عليه السلام بذلك ، ثم معجزة

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٨٤ .
(٢) زغلول النجار ، الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم ، ٢/ ٨٩٤ .

إنقاذه هو من بين أيدي اليهود الذين لم يمكِّنهم الله تعالى من تعذيبه أو إهانته أو إذلاله وإهدار كرامته ، كما تصف الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى اليوم ، فالقرآن الكريم يؤكد أن الله تعالى رفع عبده عيسى إليه[١] ، كما سيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى .

وبعد رفع المسيح عليه السلام اختلف الناس فيما بينهم عليه اختلافاً كبيراً ، وظلَّت اختلافاتهم كامنة زمن الاضطهادات الرومانية ، ولكن عندما تنصَّر الإمبراطور قسطنطين أدرك وجود الاختلافات الشديدة على حقيقة المسيح عليه السلام بين الكنائس ، فدعا إلى مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م ، من أجل استجلاء هذا الأمر .

وفي المؤتمر ظهر من نادى بتوحيد الله الخالق منكِراً فكرة التثليث ، ومنهم من نادى بالشرك بالله وادّعى ألوهية المسيح ونادى بالتثليث ، وكان على رأس الموحِّدين (آريوس) الذي تبعته كنيسة آسيوط برئاسة (ميليتوس) ، وكنيسة القسطنطينية برئاسة (أوسانيوس) ، وكنيسة كل من أنطاكية ومقدونية ، وبابل ، وفلسطين وغيرها ، ولم يعارض الإيمان بوحدانية الله إلا بطريرك الإسكندرية ومن وقف بجانبه من مشركي النصارى ، وكان عدد المجتمعين من البطاركة والأساقفة في مؤتمر نيقية أكثر من ألفين وثمانية وأربعين ، وكانوا على مذاهب متفرقة ، وعجب الإمبراطور قسطنطين مما رأى وسمع ثم جنح إلى الادعاء بألوهية المسيح لخلفيته الوثنية ، على الرغم من أن آريوس رمى إلى بشريَّة المسيح ونبوته ، وذلك بأغلبية سبعمائة صوت من أصوات الأساقفة الحضور ، وكانت الآريوسية هي أعلى نسبة حازتها نِحْلة من النِّحَل التي عرضت في مؤتمر نيقية على كثرة النِّحَل التي عرضت .

وانطلاقاً من ذلك أقرَّ المجمع الأناجيل الأربعةَ المتداولة بين أيدي نصارى

(١) المرجع السابق ، ٢/ ٨٩٤ .

اليوم من بين سبعين إنجيلاً مختلفاً عُرضت على المُؤتَمرين ، واعتُبر الباقي من تلك الأناجيل نسخاً محرفةً ، وتم الأمر بإحراقها . وهذا الاختلاف الذي استمرّ إلى اليوم وتعدّدت بسببه فرق النصارى ، ويصفه القرآن الكريم :

ـ يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٣٤ ـ ٤٠] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٦٣ : ٦٥] .

وهذه الآيات تمثل وجهاً من أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي في عرض القرآن الكريم لعدد من المواقف المهمة في سيرة عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، وهذه المواقف تناقض كل ما جاء عن هذا العبد الصالح في العهد الجديد ، وأما الإعجاز العلمي فيتجسَّد فيما أعطى ربنا تبارك وتعالى عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم من قدرة على إبراء كل من الأكمه والأبرص من الأمراض التي أعيت الأطباء وأعجزتهم ، وأما الإعجاز التربوي فيتضح في التأكيد عن فضل التوجه إلى الله تعالى بالدعاء والرجاء مع اليقين بقدرة الله المطلقة على الإجابة ، ويتجلى ذلك في ميلاد كل من مريم ابنة عمران . . . وكان ميلادها استجابة لدعاء أمها الذي لم يتوقَّف ، ويتَّضح فضل الإيمان بالله وجميل التوكل عليه كذلك في التسليم بأن الدنيا هي دار ابتلاء واختبار وامتحان ، وأن الصراع بين الحق والباطل هو سنة من سنن الوجود في هذه الحياة ، وأن الحق

لا ينتصر لمجرد كونه حقًّا ، ولكنه يحتاج إلى رجال ونساء يؤمنون به ، ويجاهدون من أجل نصرته ويبذلون النفس والنفيس في سبيل تحقيق ذلك ، وهكذا كانت حياة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، وحياة كل من أمه والذين آمنوا به واتبعوه على الإسلام العظيم[١] .

٦ ـ موقف النجاشي من سماعه آيات سورة مريم :

وهذا ما حصل من النجاشي ملك الحبشة لما سمع هذه الآيات من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، روى الإمام أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها قصة الهجرة إلى الحبشة ، ومما جاء في القصَّة . . . . لما انتهى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من بيانه قال له النجاشي : هل معك شيء مما أنزل على نبيّكم؟

قال جعفر : نعم . قال النجاشي : اقرأ . فقرأ جعفر مطلع سورة مريم . فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبلَّلها بدموعه ، وبكى البطاركة والأساقفة حتى بلَّلوا مصاحفهم بدموعهم ، متأثرين بما سمعوا من آيات القرآن .

بعد ذلك قال النجاشي : هذا القرآن الذي سمعناه والذي جاء به موسى يخرجان من مشكاة واحدة ، ثم خاطب النجاشي عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة قائلاً : انطلقا من هنا ، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً .

ولما خرج الموفدان القرشيان من مجلس النجاشي قال عمرو بن العاص لابن أبي ربيعة : والله لآتِيَنَّ النجاشيَ غداً ، أعيب المسلمين عنده وأهيّجه عليهم ، وأستأصلهم من عنده . فقال له ابن أبي ربيعة ـ وكان أهدأ الرجلين ـ : لا تفعل ذلك ، فإن للمسلمين أرحاماً فينا ، وإن كانوا خالفونا في ديننا . فقال ابن العاص : لا بدَّ أن أفعل ، وسأقول للنجاشي : يزعم المسلمون أن عيسى ابن مريم عبد .

وفي اليوم التالي غدا عمرو بن العاص على النجاشي فقال له : أيُّها الملك :

---

(١) زغلول النجار ، الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم ، ٢/ ٨٩٦ .

هؤلاء المسلمون يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل أيُّها الملك إليهم واسألهم عمَّا يقولون فيه .

أرسل النجاشي إلى المسلمين ودعاهم إلى الاجتماع به مرة ثانية ، ليسمع منهم ما يقولون في عيسى ابن مريم عليه السلام . ولما علم المسلمون بذلك خافوا ، ونزل بهم من الغمِّ ما الله به عليم ، وقال بعضهم لبعض : ما تقولون للنجاشي بشأن عيسى ابن مريم؟

فقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : والله لا نقول فيه إلا ما جاءنا من رسول الله ﷺ ، هو عبد الله ورسوله ، وروحه وكلمته ، ألقاها إلى مريم العذراء البتول . وفي الغد قابل المسلمون النجاشي ، فقال لهم : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : والله لا نقول فيه إلا ما جاءنا من رسول الله ﷺ ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

ولما سمع النجاشي كلام جعفر ، تناول بيده عوداً من الأرض ، ثم قال لمن حوله : والله ما تجاوز عيسى ابن مريم شيئاً مما يقوله المسلمون إلا بمقدار هذا العود . فنَخر البطاركة وغضبوا من كلام النجاشي ، ولكنهم لم يجرؤوا على معارضته . فقال لهم : انخَروا ما شئتم فهذا هو الحق[١] .

وأنزل الله في النجاشي وأمثاله قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ وَنَطْمَعُ أَن

(١) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢١٦ .

﴿يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

إن موقف النجاشي الرائع من سماعه آيات سورة مريم، وما نزل فيه من الآيات، هو دليل على أن النصارى الصادقين يتأثرون عندما يسمعون الآيات ويؤمنون بها ويعتبرونها دليلاً على إثبات نبوة محمد ﷺ. ولهذا أمر الله محمداً ﷺ أن يذكر هذه الآيات للآخرين ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ (١).

٧ ـ مريم عليها السلام ودورها في تاريخ الإنسانية:

كان لسيدة نساء العالمين الدور البارز في تفاعل الأحداث بتفاعل عواطفها وانفعالاتها حتى حقَّقت الهدف والمغزى والعبرة التي كانت درساً مهماً في تاريخ الإنسانية، فكانت عوناً وسنداً لنبي الله عيسى عليه السلام، الذي حمل الرسالة ومضى يطوف البلاد يدعو إلى الله بالمحبة والتسامح والسلام، والمتأمل في القرآن الكريم يلحظ الآتي في سيرة مريم عليها السلام:

ـ ليس في القرآن الكريم سورة باسم امرأة سوى سورة مريم عليها السلام، لا آمنة أمِّ رسول الله ﷺ (محمد)، ولا خديجة زوجه، ولا فاطمة ابنته.

ـ ذكرت مريم (٣٤) مرة في القرآن الكريم(٢).

ـ مريم مكفولة من قبل الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

ـ مريم مصطفاة، مرة لإنجاب عيسى، ومرة على نساء العالمين، وهي مطهَّرةٌ من كل عيب قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ

(١) المرجع السابق، ٤/ ٢١٦.
(٢) أكرم كسّاب، علاقة الإسلام بالنصرانية في القرآن والسنة عبر التاريخ، مركز التنوير الإسلامي للخدمات المعرفية والنشر، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ١٧.

وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

ـ مريم عفيفة شريفة، قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وقد شرَّف الله تعالى مريم بنت عمران تشريفاً عظيماً وتكريماً جليلاً؛ لأنها اعتصمت بالعفاف والطهر طوال حياتها، فاستحقت ذلك، وبهذا نرى أن من خضع لله تعالى رفعه، ومن كان مع الله تعالى طاعةً، كان الله معه عزّاً وكرامةً[١].

ـ مريم وابنها من آيات الله تعالى الدالَّة على قدرته العظيمة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، لذا فإن الله تعالى تكريماً ورعايةً لهما آواهما إلى جهة مرتفعة من الأرض، وهذا يدلُّ على أنَّ من سلك طريق الطاعة فهو في رفعة وسموّ، ومن سلك طريق المعاصي فهو في انحطاط ودنو[٢].

ـ مريم من أفضل نساء العالمين، قال ﷺ: «حسبُكَ من نِساءِ العالَمِينَ مَريَمُ بنتُ عِمرانَ، وخَديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وفاطمةُ بنتُ مُحمَّدٍ، وآسيةُ امرأةُ فِرعَونَ» [٣]، وفي رواية أخرى، قال ﷺ: «خَيرُ نِساءِ العالَمِينَ أربعٌ: مَريَمُ بنتُ عِمرانَ، وخَديجةُ بِنتُ خُوَيلِدٍ، وفاطمةُ بِنتُ مُحمَّدٍ، وآسيةُ امرأةُ فِرعَونَ» [٤].

ـ مريم من أفضل نساء أهل الجنة، قال ﷺ «أفضلُ نِساءِ أهلِ الجَنَّةِ خَديجةُ

(١) هدى عبد اللطيف عريان، الشخصية النسائية في القصة القرآنية، دار غار حراء للطباعة والنشر، دمشق. سوريا، ط١، ٢٠٠٥م، ص ٢١٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٦.
(٣) سنن الترمذي، رقم ٣٨٨٨.
(٤) مسلم، في فضائل الصحابة، رقم ٢٤٣٠.

بنتُ خُوَيلِدٍ ، وفاطمةُ بنتُ مُحمَّدٍ ، ومَريَمُ بنتُ عِمرانَ ، وآسيةُ بنتُ مُزاحِمٍ امرأةُ فِرعَونَ» (١) .

ـ مريم سيدة كاملة ، قال ﷺ : «كَمُلَ من الرِّجالِ كَثيرٌ ، ولم يَكمُلْ مِنَ النِّساءِ إلا : مَريَمُ بنتُ عِمرانَ ، وآسِيةُ امرأةُ فِرعَونَ ، وفَضْلُ عائِشةَ على النِّساءِ كفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائرِ الطَّعامِ» (٢) .

ـ مريم لم يمسَّها الشيطان ، قال ﷺ : «كُلُّ بني آدمَ يَطعَنُ الشَّيطانُ في جَبِينِهِ بإصبَعِهِ حينَ يُولَدُ ، غيرَ عيسى ابنِ مَريَمَ ، ذهبَ يَطعَنُ فَطَعَنَ في الحِجابِ» (٣) . وفي رواية : «كلُّ بني آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيطانُ يومَ ولدَتهُ أمُّه إلا مريمَ وابنَها» (٤) .

ـ مريم نذر مقبول ، قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

ـ مريم يأتيها رزقها رغداً في كل وقت وآن ، قال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

ـ مريم مؤيَّدة بالمعجزات : قال تعالى : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٤ ـ ٢٥] .

ويكفي أن نتدبّر في الآيات التي ذكرها الله في سورة مريم وآل عمران ؛ لندرك قيمة مريم البتول عليها السلام ، نحن المسلمون ، فدورها عظيم وأساسي وهادف في القصص القرآني ، وقد منحها الله هذه المكانة ليمنحنا قصة هادفة ، لها بُعد إنساني وعقائدي وإعجازي مليئة بالدروس والعبر العظيمة .

---

(١) رواه النسائي في الكبرى ، رقم: ٨٢٩٧ ، والحاكم في المستدرك ، رقم: ٣٨٣٦ ، والطبراني في الكبير ، رقم: ١١٩٢٨ .
(٢) البخاري ، رقم ٣٤١١ ؛ ومسلم ، رقم ٢٤٣١ .
(٣) البخاري ، رقم ٣٢٨٦ .
(٤) البخاري ، رقم ٣٤٣١ .

فمن مريم تعلمنا أهمية النذر والطاعة لله تعالى ، وألا نقنط من رحمة الله ، ونلجأ لوجهه الكريم في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء .

ومن مريم تعلَّمنا الصبر والعفة والطاعة وحمل المسؤولية والعمل والسعي لرعاية ابن حمل رسالة سماوية واجهت معه قومها ومجتمعها ، فكانت خير نساء العالمين[١] .

ومن قصتها تتعلم الإنسانية كيفية مواجهة الصدمات النفسية من خلال تدبُّر قصتها التي جاءت في القرآن الكريم ، وذلك باستلهام الدروس والعبر :

- كالاستسلام لقضاء الله وقدره .
- أهمية العزلة المؤقتة .
- الصبر بصدقٍ مع الله على البلاء والمصيبة .
- الخروج من دائرة الحزن ، ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى ﴾ .
- تذكُّر نعم الله تعالى وأنها لا تعدُّ ولا تحصى ، ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ .
- المحافظة على القوة وعدم الاستسلام للضعف ، ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ .

- استدراك الآثار سريعاً ، فللصدمات النفسية آثار ينبغي استدراكها سريعاً ، أحدها جسدي ويتمثل بأعراض كثيرة منها : اضطرابات الأكل وفقدان الشهيَّة ، والآخر معنوي ومنها : الحزن وفقدان السكينة والاطمئنان . وإذا تدبرنا قوله تعالى ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ نجد أن الله الحكيم العليم وجَّه مريم إلى علاج الأمرين : الآثار الجسدية ، والآثار المعنوية ، فكان لعلاج الآثار الجسدية (فكلي واشربي) ، وكان العلاج للآثار المعنوية (وقري عيناً) أي : لا تغتمِّي ، واتركي عنك ما أحزنك وأهمك ، وكوني سعيدة باصطفاء الله لك ، مسرورة بما

---

(١) هدى عبد اللطيف عريان ، الشخصية النسائية في القصة القرآنية ، ص ٢١٩ .

أعطاك فما تهتمِّين به وتحزنين هو عين النِّعمة التي ليست لأحد غيرك من نساء العالمين.

ـ الاستعانة بعد الله بالصمت وتفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى[١].

ـ اليقين بأن مع العسر يسراً، وبعد الضيق فرجاً، فها هي سيِّدة نساء العالمين مريم الطاهرة تباعدت عن الذِّكر حينما اعتزلت وتنحَّت للعبادة، فخلَّد الله ذكرها، وبعدما صدمت بذلك الأمر العظيم، وهو طفل بلا أب، وتمنَّت أن تنسى فلا تذكر قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

خلَّد الله ذكرها في كتابه، وأعلى شأنها، وبيَّن براءتها وجعلها مثالاً يُحتذى، وقدوةً لنساء العالمين، ثم بعد ذلك يصبح ابنها نبيّاً رسولاً يُجري الله على يديه النور والصلاح، ويُؤيِّده بالكثير من المعجزات، ويحقق العبودية الخالصة لله، ويتصدّى لمن يشكك في دعوة الله تعالى للمحبَّة والسلام والتسامح والرفق والرحمة، بالحُجَّةِ والبرهان والدليل[٢].

لقد كان للسيدة مريم عليها السلام مكانة خاصَّة رفيعة في القرآن الكريم، فقد اصطفاها الله بالتطهُّر، لتقوم بأنبل وأعظم مهمة، وهي مهمة الأمومة في سياق المعجزة الإلهية، فكان لها الدور العظيم والأساسي في محور الأحداث المتعلقة بسيرة عائلتها وابنها، ورسالته التوحيدية الخالصة لله عزَّ وجل.

خامساً: عيسى عليه السلام رسول إلى بني إسرائيل:

شبَّ عيسى عليه السلام وعاش صباه وشبابه طاهراً تقياً، يحفظه الله ويحميه، ويرعاه ويُبعد عنه الشيطان ووساوسه، حتى أنزل عليه الوحي وجعله نبيّاً رسولاً، وبعثه إلى بني إسرائيل وأنزل عليه كتابه الإنجيل.

---

(١) فوزية صالح الخليفي، مواجهة الصدمات النفسية من خلال تدبر قصة مريم عليها السلام، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ٢٠١٥م، ص ٢٠ـ٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.

وكانت بعثة عيسى عليه السلام وإنزال الإنجيل تحقيقاً للبُشرى التي قدَّمها الله إلى أمه قبل حملها به ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩] ، وهي تحقيق لما أخبر هو عن نفسه عندما كلَّم قومه وهو في المهد قائلاً ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ .

لقد بعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط ، وورد هذا في صريح آيات القرآن الكريم :

ـ قال تعالى : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] .

ـ وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] .

خاطب عيسى عليه السلام بني إسرائيل وصارحهم بقوله ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ . وأخبرهم أنه مصدق لما سبقه من التوراة ، وأنه يبشِّرهم بالنبي الخاتم الذي سيُبعث من بعده وهو (محمد بن عبد الله) ﷺ .

وبعثة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل فقط ؛ لأن كل نبيّ كان يبعث إلى قومه خاصَّة إلا رسولنا محمد ﷺ الذي بعثه الله إلى الناس كافَّة ، فكل نبي كان يقول لقومه ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ ، أما رسولنا ﷺ فقد قال : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وهذا ما ورد في صريح حديث رسول الله ﷺ ، حيث روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي ، كان كل نبيٍّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحِلَّت لي الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً ، فإيُّما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرُّعب

بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة» [١] . والشاهد فيه قوله: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود» .

ومن لطائف التعبير القرآني أن عيسى بلَّغ رسالته إلى بني إسرائيل بقوله ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ، ولم يقل (يا قوم) ، بينما أخبر القرآن في الآية السابقة من سورة الصف أن موسى عليه السلام قال لهم: (يا قوم) .

ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ ﴾ [الصف: ٥] .

موسى عليه السلام يقول لبني إسرائيل: (يا قوم) ، وعيسى عليه السلام يقول لهم: (يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم) ، ولم يقل: (يا قوم) .

والحكمة في هذا أن الرجل يُنسب إلى قوم أبيه ، فيقال: هو من بني فلان ويخاطبهم هو قائلاً يا قوم. وهذا متحقق في موسى عليه السلام خلافاً للمسيح عيسى عليه السلام؛ لأنه ابن عمران وأبوه عمران من بني إسرائيل ، وأما عيسى فليسوا قومه ، بل لا قوم له من البشر ، لأنه ليس له أب[٢] .

والخلاصة: أن عيسى عليه السلام كان مُرسَلاً ومُكلَّفاً بتبليغ رسالة ربه إلى بني إسرائيل ، وقد قام عيسى بواجب الدعوة إلى الله على الوجه الأكمل في مدن بني إسرائيل وقراهم .

إن قيام عيسى عليه السلام بدعوة بني إسرائيل وقصر دعوته إليهم ليس فيه أيُّ انتقاص من شأنه أو تقليل لرسالته ، فإن دعوة جميع الأنبياء عليهم السلام كانت خاصة إلى أقوامهم وليس في القرآن الكريم ولا في أحاديث النبي ﷺ ما يشير أو يدل على أن رسالة الأنبياء أو أحد منهم كانت عامة ، وإنما كل نبي أو رسول كان

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ٥٢١ .
(٢) الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٨٦ .

يدعو قومه فقط ، باستثناء محمد ﷺ الذي كانت رسالته عامة للناس جميعاً[١] .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

وكون الأنبياء خصُّوا بأقوامهم لا مجال للاجتهاد فيه ، أو الاعتراض عليه لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

فهو أعلم بأحوال الناس والبيئات ، قد كانت رسالات الأنبياء ـ ومنهم أنبياء بني إسرائيل ـ متناسبة مع الزمن والمكان آنذاك ، ولهذا وجدنا جميع أنبيائهم لم تتجاوز دعوتهم بلاد العراق أو بلاد الشام أو بلاد مصر ، أي أنهم لم يخرجوا من الأرض التي يسكنونها ، ولم يُوجِّهوا دعوتهم إلا لأمتهم من بني إسرائيل[٢] ، لعلم الله أن شرائع الأنبياء ستُنسخ بعد بعثة محمد ﷺ ، وبالنسبة لعيسى عليه السلام فقد بلَّغَ رسالة ربه ، ودعا بني إسرائيل إلى وحدانية الله ، وعدم الإشراك به بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] [٣] .

١ ـ وجوب الإيمان بأن عيسى عبد الله ورسوله :

إن عيسى عبد الله ونبيه ورسوله عليه السلام ، ويجب الإيمان بنبوَّته ورسالته إلى بني إسرائيل ، ومن أنكر كونه نبياً رسولاً فقد كفر ، ولهذا كان من أسباب كفر اليهود إنكارهم نبوَّة ورسالة عيسى عليه السلام .

---

(١) فرج الله عبد الباري ، نقض دعوى عالمية النصرانية ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، ص١٨ .
(٢) المرجع نفسه ، ص١٨ .
(٣) الخالدي ، القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث ، ص١٩ .

قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وأخبر الله نبيه محمداً ﷺ أنه أخذ الميثاق منه كما أخذه من أولى العزم من قبله، ومنهم عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب: ٧].

وهذا ما قرَّره رسولنا ﷺ حيث روى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل»[(١)].

والإيمان بنبوة عيسى عليه السلام يجب أن يكون إيماناً بالأمور التي ذكرها رسول الله ﷺ من أنه: عبد الله ورسوله، وكلمة الله تعالى ألقاها إلى مريم عليها السلام، وروح من الله خلقها في رحم مريم. وقد بينا معنى كونه كلمة وروحاً من الله فيما مضى ولله الحمد[(٢)].

٢ ـ عيسى مقفًّى وخاتم أنبياء بني إسرائيل:

صرَّح القرآن الكريم في أكثر من موضع بأن عيسى عليه السلام «مقفًّى»؛ قفَّى الله به على آثار الأنبياء السابقين وبعثه بعدهم، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ٨٧].

---

(١) المرجع نفسه، ٤/ ٢٨٦.
(٢) الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٢٨٦.

وقال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الحديد: ٢٦ ـ ٢٧].

ومعنى ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا ﴾: أتبعنا على آثار الرسل السابقين ـ كنوح وإبراهيم ـ برسلٍ لاحقين جاؤوا بعدهم كموسى وهارون. ومعنى ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾: أتبعنا الرسل اللاحقين كموسى وهارون عليهما السلام برسولنا عيسى ابن مريم عليه السلام، وآتيناه الإنجيل، وجعلناه آخر أنبياء بني إسرائيل.

وهكذا جعل الله عيسى عليه السلام خاتم أنبياء بني إسرائيل، ولم يبعث بعده رسولاً إلا خاتم الأنبياء والمرسلين والرحمة لجميع العالمين، محمداً ﷺ[1].

سادساً: دعوة عيسى عليه السلام إلى التوحيد:

بعث الله عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل نبياً ورسولاً، وقامت رسالته على توحيد الله وإفراد الألوهية والربوبية، ودعوة بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، ومطالبتهم بالإيمان بأنه عبد الله ورسوله، وأنه ابن مريم، فهو رسول بَشَرٌ عليه الصلاة والسلام.

هذه هي خلاصة دعوة عيسى عليه السلام ورسالته، وهذه هي النصرانية الموحِّدة التي دعا إليها عيسى عليه السلام، وعلى هذا الأساس آمن به الحواريون، واتَّبعه النصارى الموحدون[2].

---

(١) المرجع نفسه، ٤/ ٢٨٧.

(٢) الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٣٨٧.

وبما أن نبوّة عيسى عليه السلام جاءت متممة مكمِّلة لنبوة موسى عليه السلام ، فمن البديهي أن تكون قائمة على التوحيد ، فالنصرانية الحقَّة لا تقول بوجود إله آخر غير الواحد الأحد ، وما يناقض ذلك إنما هو انحراف عن حقيقة دعوة المسيح عليه السلام التي بيَّنها القرآن الكريم(١) .

إن توحيد الله عزَّ وجل كان غاية الأنبياء العظمى ، كما كان الركيزة الأولى في دعوة عيسى عليه السلام ، وقد نصَّ القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح عليه السلام هي التوحيد الكامل ، فلا يعبد إلا الله ، فالله خالق السماء والأرض وما بينهما فلا شريك له ، هذا ما أعلنه المسيح منذ اللحظة الأولى لولادته ، فلم يشذَّ عيسى عليه السلام عن القاعدة العامة التي جاء بها الأنبياء ومن أجلها . فقد دعا قومه إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة ، وكان ذلك أول ما نطق به وهو في المهد قال تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠] .

وفي هذا القول من عيسى إشارة واضحة إلى أن الذات الوحيدة التي تستحق العبادة هي ذات الله تعالى وإلا ما اعترف بعبوديته له ، ولما كان البعض قد يتوهم من قول عيسى عليه السلام أن هذا الإله مخصوص له لا لأحد سواه ، نفى القرآن ذلك وأخبر عمَّا جاء على لسانه قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم : ٣٦] .

كما أكّد القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام كان دائم القول والتكرار لهذه الحقيقة بين قومه والتذكير بها فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

---

(١) سرين محمد صعيدي ، إنصاف غير المسلمين ومن أسلم من أهل الكتاب للإسلام وعقيدته وأثره على المجتمعات الغربية ، دار الفتح للنشر ، عمان. الأردن ، ط١ ، ٢٠١٧م ، ص ١١٧ .

ويذكر الشيخ رشيد رضا عند تفسيره لهذه الآية أن المسيح عليه السلام أمرهم بالتوحيد الخالص ودعاهم إليه ، وحذَّر من الوقوع في الشرك ، وتوعَّدهم عليه ببيان أن الحال والشأن الثابت عند الله تعالى هو أن كل من يشرك بالله شيئاً من ملك أو بشر أو كوكب ، أو شجر ، أو حجر ، أو غير ذلك ، فإن الله يحرِّم عليه الجنة في الآخرة ، فلا يكون له مأوى ولا ملجأ يأوي إليه إلا النار(١) .

ومن النظر في الآيات الكريمة السابقة المتعلقة بدعوة عيسى عليه السلام ورسالته ، تتبيَّن لنا الأمور الآتية :

- أنَّه رسول الله إلى بني إسرائيل .
- دعاهم إلى عبادة الله وحذَّرهم من الشرك وبيَّن لهم أن الجنة مُحرَّمة على المشركين .
- جاء مصدّقاً لما بين يديه من التوراة .
- آتاه الله الإنجيل ، وفيه الهدى والنور والحكمة .
- آتاه الله البينات على صدقه وأيَّده بروح القدس .
- بيَّن لبني إسرائيل بعض الذي اختلفوا فيه .
- أحلَّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم .
- بشَّر بمحمد ﷺ .

وتجدر الإشارة إلى بعض ما ورد في الآيات السابقة ، ففي آية البقرة ورد قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ والمختار أنه جبريل عليه السلام ، أيده الله به ، لإظهار حجته وأمر دينه(٢) .

---

(١) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار تفسير القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ٤/ ٤٠٠ .

(٢) أحمد الأميري ، فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم ، دار السلام للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٢م ، ص٥٠٨ .

وفي سورة آل عمران: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، فأحلَّها عيسى عليه السلام بأمر الله له. وفي الزخرف ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ ، فقد كان بينهم اختلاف في أمر دينهم ودنياهم ، فبيَّن لهم أمر دينهم وأحكام التوراة[١].

١ ـ بشرية عيسى عليه السلام:

جلَّى القرآن الكريم هذه النقطة أوضح تجلية ، وبيَّنها أحسن بيان ، وقطع حجَّة النصارى ، بالاستدلال السليم ، والنظر القويم ، والمنطق الواضح ، والدليل الساطع.

أ ـ عيسى كآدم في خلق الله لهما:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وسبب نزول هذه الآية مخاصمة وفد نجران من النصارى للنبي ﷺ ، في أمر عيسى عليه السلام ، فإنهم سألوا عن أب عيسى ، فصمت رسول الله ﷺ فلم يُجِبْهم ، فأنزل الله تعالى في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها هذه الآية: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في قدرة الله ، حيث خلقه من غير أب (كمثل آدم) ، خلقه من غير أب ولا أم ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾. فالذي خلق آدم من غير أبوين قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأَولى والأحرى ، وإن جاز ادّعاء البنوَّة في عيسى ، لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك من آدم بطريق الأَولى ، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل ، فالدعوى في عيسى أشدُّ بطلاناً وأظهر فساداً[٢].

إنَّ ولادة عيسى عليه السلام عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر ، ولكن أية

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٠٨.
(٢) تفسير ابن كثير ، ١/ ٣٥٧.

غرابة فيها حين تُقاس إلى خلق آدم أبي البشر؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى ـ بسبب مولده ـ ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ بغير أب ، أهل الكتاب هؤلاء كانوا يُقرُّون بنشأة آدم من تراب وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنسانيّ ، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى ، ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتيَّة ، على أن العنصر الذي به صار آدم إنساناً هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب ، عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك ، وإن هي إلا الكلمة (كن) ، تُنشئُ ما تُراد له النشأة (فيكون).

وهكذا تتجلّى بساطة هذه الحقيقة ، حقيقة عيسى ، وحقيقة الخلق كلِّه ، وتدخل إلى النفس في يسر وفي وضوح حتى ليعجب الإنسان كيف ثار الجدل حول هذا الحادث وهو جارٍ وَفق السنة الكبرى ، سنة الخلق والنشأة جميعاً.

وهذه هي طريقة (الذكر الحكيم) في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري الواقعي البسيط ، في أعقد القضايا التي تبدو بعد هذا الخطاب وهي اليسر الميسور[1].

ب ـ كونوا ربانيين:

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

جاء هذا رداً على نصارى نجران الذين زعموا أن عيسى أمرهم أن يتخذوه ربّاً ، فقال لهم سبحانه: ما ينبغي لبشر اختاره الله للنبوة وآتاه الكتاب والحكمة ، والعلم والفهم ، أن يكذب على الله ويأمر الناس بعبادته من دون الله ، ولكن جائز أن يقول لهم: كونوا ربانيِّين أي: علماء مُعلِّمين: بسبب

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٠٥.

مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته[١].

والآية الكريمة تُبين أن النبي عبد وأن الله وحده هو الرب ، الذي يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم، فما يمكن أن يدَّعي لنفسه صفة الألوهية التي تقتضي من الناس العبودية ، فلن يقول نبي للناس ﴿ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ .

ولكن قوله لهم ﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ منتسبين إلى الرب ، عباداً له وعبيداً ، توجَّهوا إليه وحده بالعبادة ، وخذوا عنه وحده منهج حياتكم حتى تخلصوا له وحده فتكونوا (ربانيين) ، كونوا (ربانيين) بحكم علمكم بالكتاب وتدارسكم له ، فهذا مقتضى الكتاب ودراسته[٢].

ج ـ النهي عن الغلو في الدين :

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾ [النساء : ١٧١ ـ ١٧٢] .

في الآيتين الكريمتين السابقتين يخاطب القرآن الكريم النصارى من أهل الكتاب ، وينهاهم عن الغلو وتجاوز الحدّ في دينهم ، وذلك بإسباغ صفة الألوهية على عيسى ابن مريم عليه السلام ، إذ هو عبد مُجتبىً لرسالة ربه ، خلقه بكلمة (كن) ، فكان ، وهو روحٌ من عند الله ؛ لأن الله تعالى أرسل به جبريل عليه السلام إلى مريم ، ثمَّ يأتي القرآن لتصحيح إحدى أهمِّ عقائد أهل الكتاب ، وهي عقيدة التثليث[٣].

---

(١) زاد المسير ، ١/ ٤١٣ . وانظر : تفسير ابن كثير ، ١/ ٣٨٥ .
(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٤١٩ .
(٣) أحمد الأميري ، فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم ، ص ٤٧٧ .

والثابت من التتبُّع التاريخي لأطوار العقيدة النصرانية أن عقيدة التثليث لم تصاحب النصرانية الأولى ، إنما دخلت عليها على فترات متفاوتة التاريخ ، مع الوثنيين الذين دخلوا في النصرانية ، وهم لم يبرؤوا بعدُ من التصورات الوثنية ، والآلهة المتعددة ، والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الوثنيات القديمة(١) .

وما تزال فكرة التثليث تصدم عقول المثقفين من النصارى ، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق ، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات ، لا ينكشف سرُّها للبشر إلا يوم يتكشَّف سرُّ الأسرار ، على كل ما في السماوات وما في الأرض(٢) .

إن عقيدة التثليث سرّ من الأسرار ، بل هي أمر مناقض للعقل يحاول النصارى إثبات أنه فوق العقل ، فهم يقولون : إن الله تعالى ذو طبيعة ثلاثية لكنه واحد ، وإنه ثلاثة «أشخاص» ، لهم نفس الطبيعة ونفس الرتبة ، ومع ذلك فهم متحدو الذات لا يقبلون التقسيم ، وفي الوقت نفسه فإن الإله الابن نجم عن الإله الأب ، وعنهما نجم روح القدس(٣) .

وتمضي الآيات الكريمة لتقدير حقيقة الوحدانية ، وتبيين أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق ، فعيسى عليه السلام ليس ابن الله ، ولن يأنف ويستكبر أن يكون عبداً لله ، ومثله الملائكة المقربون ، ومن يأنف ويستكبر فإن مصيره إلى الله وسيحاسبه على كفره وعصيانه(٤) .

إن الغلو وتجاوز الحدّ والحق هو ما يدعو أهل الكتاب إلى أن يقولوا على الله

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٧٧ .
(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨١٥ـ٨١٨ ، بتصرف .
(٣) في ظلال القرآن ، ، ٢/ ٨١٧ .
(٤) المرجع السابق ، ٢/ ٨١٨ .

غير الحق ، فيزعمون له ولداً ـ سبحانه ـ كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة وقد تطورت عندهم فكرة البُنوّة وفكرة التثليث حسب رقيّ التفكير وانحطاطه ، ولكنهم اضطروا ـ أمام الاشمئزاز الفطري من نسبة الولد لله والذي ترفضه الثقافة العقلية ـ أن يفسروا الإله الواحد في ثلاثة ، بأنها صفات لله تعالى في حالات مختلفة ، وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشري ، فهم يحيلونها إلى معمَّيات غيبية لا تنكشف إلا بانكشاف حجاب السماوات والأرض ، والله سبحانه تعالى عن الشراكة ، وتعالى عن المشابهة ، ومقتضى كونه خالقاً يستتبع بذاته أن يكون غير الخلق ، وما يملك الإدراك أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخالق والخلق ، والمالك والملك ، وإلى هذا يشير النص القرآني ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النساء: ١٧١].

وإذا كان مولد عيسى عليه السلام من غير أب عجيباً في عرف البشر ، خارقاً لما ألفوه فهذا العجب إنما تنشئه مخالفة المألوف ، والمألوف للبشر ليس هو كل الوجود ، والقوانين الكونية التي يعرفونها ليست هي كل سنة الله ، والله يخلق السنة ويجريها ، ويعرفها حسب مشيئته ولا حدَّ لمشيئته والله سبحانه يقول ـ وقوله الحق ـ في المسيح ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١].

ـ فهو على وجه القصد والتحديد (رسول الله) شأنه في هذا الشأن بقية الرسل ، شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد ، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمن.

ـ ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ : وأقرب تفسير لهذه العبارة ، أنه سبحانه ، خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر ، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن إنه ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾.

فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب ـ كما

هو المألوف في حياة البشر غير آدم ـ والكلمة التي تخلق كل شيء من العدم ، لا عجب في أن تخلق عيسى عليه السلام في بطن مريم من النفخة التي يعبر عنها بقوله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ .

(وروح منه) وقد نفخ الله في طينة آدم من قبل من روحه فكان إنساناً .

كما يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ ـ ٧٢] والروح هنا هو الروح هناك .

ولم يقل أحد من أهل الكتاب ـ وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله ـ إن آدم إله ، ولا أقنوم من أقانيم الإله ـ كما قالوا عن عيسى مع تشابه الحال من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الخلقة كذلك[١] ، بل إن آدم خلق من غير أب وأم ، وعيسى خلق مع وجود أم .

وكذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

ويشهد بذلك العقل البشري ذاته ، فالقضية في حدود إدراكه ، فالعقل لا يتصور خالقاً يشبه مخلوقاته ، ولا ثلاثة في واحد ، ولا واحداً في ثلاثة . والولادة امتداد للفاني ومحاولة للبقاء في صورة النسل ، والله الباقي غنيٌّ عن الامتداد في صورة الفانين ، وكل ما في السماوات وما في الأرض ملك له سبحانه .

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ :

ويكفي البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية بالمعبود ، وهو يرعاهم أجمعين ، ولا حاجة لافتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم ، فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة .

---

(١) في ظلال القرآن ، ، ٢/ ٨١٧ .

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ :

وهكذا لا يكتفي القرآن ببيان الحقيقة وتقريرها في شأن العقيدة ، إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم ، وقيامه ـ سبحانه ـ عليهم ، وعلى حوائجهم ومصالحهم ، ليوكلوا إليه أمرهم كله في طمأنينة .

ويصحح القرآن هنا عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بُنُوَّةً كبُنُوّةِ عيسى أو شرعاً في الألوهية كشرعته في الألوهية ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٧٢ ـ ١٧٣] .

لقد عُني ـ الرسل والأنبياء ـ ومنهم عيسى عليه السلام بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه ، وحدانية لا تلتبس بشبهة شرك ، أو مشابهة لصورة من الصور ، وعُنوا بتقرير أن الله سبحانه ليس كمثله شيء ، فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ، ولا خاصيَّة .

وهذه الحقيقة جاء بها الرسل أجمعون ، فقررها في سيرة كل رسول وفي دعوة كل نبي ، وجعلها محور الرسالة في عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد خاتم النبيين ﷺ ، تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية ـ وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة ـ يكون منهم من يعرف هذه الحقيقة ، وينسب لله سبحانه البنين والبنات ، أو ينسب لله سبحانه الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم ، وهذه كلُّها اقتباسات من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات[١] .

إنه لا تستقيم تصورات الناس ، ولا تستقر مشاعرهم إلا حين يستيقنون

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨١٨ .

حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم ، هو إلههم ، وهم عبيده ، هو خالقُهم ، وهم مخلوقون ، هو مالِكُهم ، وهم مماليك ، وهم كلهم سواء في هذه الصلة ، لا بنوة لأحد ، ولا امتزاج بأحد ، ومن ثمَّ لا قرب لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ، ويوجه إرادته إليه فيبلغه : (التقوى والعمل الصالح) . وهذا في مستطاع كل أحد أن يحاوله ، فأما البنوة والامتزاج فأنى بهما لكل أحد؟

ولا تستقيم حياتهم وارتباطهم ووظائفهم في الحياة إلا حين تستقرُّ في أخلادهم تلك الحقيقة : أنهم كلهم عبيد لرب واحد ، ومن ثم موقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد ، أما القربى إليه ففي متناول الجميع ، عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان[١] .

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام ، ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد ، بالعبودية لرب العباد ، ومن ثمَّ لم تقم في تاريخ الإسلام كنيسة تستذلُّ رقاب الناس ، بوصفها الممثلة لابن الله ، أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم .

ولم يقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم (بالحق الإلهي) زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله ، وقد ظلَّ (الحق المقدس) للكنيسة والبابوات في جانب ، والأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقاً مقدساً كحق الكنيسة في جانب .

ظل هذا الحق أو ذاك قائماً في أوربا باسم الابن أو مركب الأقانيم[٢] ، حتى جاء الصليبيون إلى أرض الإسلام مغيرين ، فلما ارتدُّوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على (الحق المقدس) ، كانت فيما بعد ثورات «مارتن لوثر» و«كالفن» و«زنجلي» المسمَّاة بحركة الإصلاح على أساس من تأثير الإسلام

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨١٩ .

(٢) مُركب العناصر ، وهو قول أصحاب الثالوث ، بأن الإله مركب من ثلاثة عناصر .

ووضوح التصور الإسلامي ، ونفي القداسة عن بني الإنسان ، ونفي التفويض في السلطان ؛ لأنه ليست هناك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام .

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبُنُوّتِه ، وألوهية روح القدس «أحد الأقانيم» ، وفي كل أسطورة عن بُنُوّةِ أحد لله ، أو ألوهية أحد مع الله ، في أيِّ شكل من الأشكال .

يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى ابن مريم عبد الله ، وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله ، وأن الملائكة المقربين عبيد لله ، وأن جميع خلائقه ستُحشر إليه ، وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم ، وأن الذين يقرُّون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم[١] .

ـ قال تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٧٢ ـ ١٧٣] .

إنَّ المسيح ابن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبداً لله ؛ لأنه ـ عليه السلام ـ وهو نبي الله ورسوله خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان ، وهو خير من يعرف أنه من خلق الله ، فلا يكون خلق الله كالله ، أو بعضاً من الله ، وهو خير من يعرف أن العبودية لله ـ فضلاً على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة ـ لا تنقص من قدره ، فالعبودية لله مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء .

وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله ، وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده ، وكذلك الملائكة المقربون ، وفيهم روح القدس جبريل ، شأنهم شأن

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨١٩ .

عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء ، فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ، ويعرف حقَّ المعرفة؟

﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ :

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر الله لهم بسلطانه ، سلطان الألوهية على العباد ، شأنهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين لله . فأما الذين عرفوا الحق ، فأقرُّوا بعبوديتهم لله ، وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار ـ فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله[١] .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ :

وما يريد الله من عباده أن يُقرُّوا له بالعبودية ، وأن يعبدوه وحده ، لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم ، ولا أنها تزيد في ملكه تعالى ، أو تنقص من شيء ، ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لتصحَّ تصوراتهم ومشاعرهم ، كما تصح حياتهم وأوضاعهم ، فما يمكن أن تستقرَّ التصورات والمشاعر ، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع ، على أساسٍ سليم قويم إلا بهذه المعرفة ، وما يتبعها من إقرارٍ وما يتبع الإقرار من آثار[٢] .

يريد الله سبحانه أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بيناها في نفوس الناس ، وفي حياتهم ، ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون ، وفي هذه الأرض ، فلا يخضعوا إلا له ، ولمنهجه وشريعته للحياة ، وإلا لمن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه ، يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد ، ليرفعوا جباههم أمام كل من عداه ، حين

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٢٠ .
(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٢٠ .

تعنو له وحده الوجوه والجباه ، يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة حين يخرون له راكعين ساجدين ، يذكرون الله ولا يذكرون أحداً إلا الله ، يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب ، ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح ، فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى الله ، يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية .

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة ، وتحليق أنظار البشر لله وحده ، وتعليق قلوبهم برضاه ، وأعمالهم بتقواه ، ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه . إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية ، وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به الأرض في هذه الحياة ، فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات في الآخرة فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر وفيض من عطاء الله[١] .

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام ، وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها ودعوة الرسل جميعاً ، قبل أن يحرفها الأتباع ، وتشوهها الأجيال ، يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلاداً جديداً للإنسان ، تتوافر له معه الكرامة والحرية ، والعدل والصلاح ، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده في الشعائر ، وفي نظام الحياة سواء .

والذين يستنكفون من العبودية لله ، يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي ، يذلون لعبودية الهوى والشهوة ، أو عبودية الوهم والخرافة ، ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم ، ويحنون لهم الجباه ، ويحكِّمون في حياتهم ، وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر ، وهم سواء أمام الله ، ولكنهم يتخذونهم آلهة من دون الله ، هذا في

(١) المرجع نفسه ، ٢/ ٨٢١ .

الدنيا ، أما في الآخرة ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية في هذا السياق في مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان ، وفي مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان(١) .

٢ ـ الله ليس المسيح ولا ثالث ثلاثة :

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٧٢ ـ ٧٧] .

لقد تسربت المقولات المنحرفة من المجامع الكنسية إلى العقيدة النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام رسولاً من عند الله ، كإخوانه الرسل الذين جاؤوا بكلمة التوحيد خالصة لا يشوبها ظِلٌّ من الشرك ، لأن الرسالات كلها جاءت لتقرير كلمة التوحيد في الأرض وإبطال كلمة الشرك .

ونذكر باختصار ما انتهت إليه تلك المجامع من الاتفاق على التثليث

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٣٦ .

وألوهية المسيح والخلاف فيما بينها بعد ذلك .

ـ جاء في كتاب (سوسنة سليمان) لنومل بن نعمة الله بن جرجس النصراني : أن عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس وهي أصل الدستور الذي بيّنه المجمع النيقاوي هي الإيمان بإله واحد: أب واحد ضابط الكل ، خالق السماوات والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد يسوع ، الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، والذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسَّد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس، وصُلب عنا على عهد بيلاطس ، وتألَّم وقُبر ، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في الكتب وصعد إلى السماء ، وجلس على يمين الرب ، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه ، والإيمان بروح القدس ، الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الابن يسجد له ويمجّده ، الناطق بالأنبياء، وقد قال الدكتور «بوست» في «تاريخ الكتاب المقدس»: طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الأب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير[١] .

ونظراً لصعوبة تصور الأقانيم الثلاثة في واحد ، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث، فإن الكُتَّاب النصارى عن اللاهوت حاولوا تأجيل النظر العقلي في هذه القضية التي يرفضها العقل ابتداء ، ومن ذلك ما كتبه القس «بوطر» في رسالة «الأصول والفروع» حيث يقول: قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض ، أما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية[٢] .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٤٤ .
(٢) المرجع نفسه ، ٢/ ٩٤٤ .

والله سبحانه وتعالى يقول: إن هذه المقالات كلها كفر ، وهي تتضمن ـ كما رأينا ـ القول بألوهية المسيح عليه السلام ، والقول بأن الله ثالث ثلاثة ، وليس بعد قول الله ـ سبحانه ـ قول: والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ـ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٧٢: ٧٤].

هكذا حذَّرَهم المسيح عليه السلام فلم يحذروا ، ووقعوا ـ بعد أن رفعه الله إليه ـ فيما حذرهم من الوقوع فيه ، وما أنذرهم عليه من الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار ، ونسوا قول المسيح عليه السلام ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ ﴾ ، حيث أعلن لهم أنه هو وهم في العبودية سواء لربوبية الله الواحد ، الذي ليس له شركاء.

ويستوفي القرآن الكريم على سائر مقولاتهم الكافرة ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ ﴾ ، ويقرر الحقيقة التي تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ ﴾.

ويُهدِّدهم عاقبة الكفر الذي ينطقون به ويعتقدونه (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم). والكافرون هم الذين لا ينتهون عن هذه المقولات التي حكم عليها الله بالكفر الصراح.

ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) ليبقى لهم باب التوبة مفتوحاً ، وليطمعهم في مغفرة الله ورحمته قبل فوات الأوان ، ثم واجههم بالمنطق الواقعي القويم ،

لعله يردُّ فطرتهم إلى الإدراك السليم مع التعجب في أمرهم في الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح[١].

ـ ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

ـ ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾: ليرد على اليهود في تكذيبهم رسالته، وعلى النصارى في ادّعائهم إلهيَّته.

ـ ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾: رداً على من نسبها إلى الفاحشة، فالصِّدِّيقةُ المُبالِغةُ في الصدق، فكيف يُتصوَّر من النقية التقية العابدة المُخبتة أن ترتكب الفاحشة؟ ثم إنه مولود وله أم، فكيف يكون المولود إلهاً؟

ـ ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾: دليل حسيٌّ مشاهد لا سبيل لإنكاره من قِبَلهم على أنه بشر يحتاج إلى الطعام، والمحتاج لا يكون رباً بل مربوباً[٢].

وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح عليه السلام، وأمه الصديقة، وهي خصيصة من خصائص الأحياء المحدَثين، ودليل على بشرية المسيح وأمه ـ أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتي ـ فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها، ولا يكون إلهاً من يحتاج إلى الطعام ليعيش، فالله حيٌّ بذاته، قائم بذاته، باقٍ بذاته، لا يحتاج ولا يدخل إلى ذاته سبحانه، أو يخرج منها شيء حادث كالطعام.

ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعي ونصاعته التي لا يجادل فيها إنسان بعقل، فإنه يعقب عليه، باستنكار موقفهم والتعجُّب من انصرافهم عن ذلك المنطق البيِّن ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ٩٤٥.

(٢) أحمد الأميري، فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٤٧٩.

ولقد كانت هذه الحياة البشرية الواقعية للمسيح عليه السلام ، مصدر تعب لمن أرادوا تأليهه ـ على الرغم من تعاليمه ـ فقد احتاجوا إلى كثير من الجدل والخلاف حول لاهوتيّة المسيح عليه السلام وناسوتيّته .

ـ ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة : ٧٦] .

واستطراداً في ذلك المنطق القرآني المبين في زاوية أخرى يجيء هذا الاستنكار ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾؟

ويختار التعبير بكلمة (ما) بدل كلمة (من) في هذا الموضوع قصداً ليدرج المخلوقات التي تُعبد كلَّها ـ بما فيها من العقلاء ـ في سلك واحد ، لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقة الألوهية ، فيدخل عيسى ويدخل روح القدس وتدخل مريم ، كلهم في (ما) لأنهم بماهيتهم من خلق الله ، ويُلقي هذا التعبير ظلَّه كذلك في هذا المقام ، فيبعد أن يكون أحدٌ من خلق الله مستحقاً للعبادة وهو لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً .

﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ : فالله الذي يسمع ويعلم ، ومن ثم يضر وينفع ، كما أنه هو الذي يسمع دعاء عبيده وعبادتهم إياه ، ويعلم ما تكنُّ صدورهم وما يكمن وراء الدعاء والعبادة ، فأما ما سواه فلا يسمع ولا يعلم ، ولا يستجيب الدعاء .

ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٧٧] .

يُنهي هذا كلَّه بدعوة جامعة ، يكلِّفُ رسولَ الله ﷺ أن يوجهها إلى أهل الكتاب في الآية السابقة ، فمن الغلو في تعظيم عيسى عليه السلام جاءت كل الانحرافات ومن أهواء الحكام الرومان ، الذين دخلوا النصرانية بوثنيتهم ، ومن

أهواء المجامع المتناحرة كذلك ، دخلت كل تلك المقولات على دين الله الذي أرسُل به المسيح عليه السلام ، فبلَّغَه بأمانة الرسول وهو يقول لهم ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ لأهل الكتاب ، ليخرجوا بها من خضمِّ الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات الذي خاض فيه أولئك الذين ضلُّوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضَلُّوا عن سواء السبيل[١].

إن المسيح عليه السلام عبد الله ورسوله ، وخَلقٌ من خلقه ، قال له (كن) فكان ، وخلقه بالكلمة التي أُرسل بها جبريل إلى مريم ، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه. ولم يأنف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يترفَّع عن عبادة الله يعذبه الله يوم القيامة ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يُعطِه من الثواب على قدر عمله ويزيده من فضله وإحسانه. وكيف يكون المسيح إلهاً وهو عبد مخلوق كسائر العباد تَنفُذ فيه قدرة الله ومشيئته ، ويخضع لقهره وسلطانه[٢].

قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [المائدة: ١٧].

٣ـ لعن كفار بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم:

قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ٩٤٦.
(٢) المرجع السابق، ٢/ ٩٤٦.

مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ـ٨١].

هذا تقرير شامل عن موقف أنبياء بني إسرائيل على مدى التاريخ ، ممثَّلاً في موقف داود وعيسى عليهما السلام ، وكلاهما لعن كفار بني إسرائيل ، واستجاب الله له ، بسبب عصيانهم وعدوانهم ، وبسبب انحلالهم الاجتماعي ، وسكوتهم عن المنكر ، يفشو فيهم فلا يتناهون عنه ، وبسبب تَولِّيهم الكافرينَ فباؤوا بالسخط واللعنة ، وكُتب عليهم الخلود في العذاب ، وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق ، وأن أنبياءهم الذين أُرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم ، هم في النهاية الذين تَولَّوا لعنتهم وطردهم من هداية الله ، فسمع الله دعاءهم ، وكُتب السخط واللعنة على بني إسرائيل. والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حرَّفوا كتبَهم المنزلة وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله كما مر في المواضع القرآنية المتعددة في هذه السورة وفي السور غيرها ، وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لَيَنصُرُنَّ كل رسول ويُعزِّرونَه.

ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾:

هي المعصية والاعتداء ، يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء ، وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء كما فصّل الله في كتابه الكريم. ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها وأن يسكت عنها المجتمع ولا يقابلها بالتناهي والنكير.

ـ ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين ، فالأرض لا تخلو من الشر ، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ ،

ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفاً مصطلحاً عليه ، وأن يصبحا سهلاً يجترئُ عليه كل من يهمُّ به ، وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات ، ويصبح الجزاء على الشر رادعاً وجماعياً تقف الجماعة كلها دونه وتُوقع العقوبة الرادعة عليه ، عندئذ ينزوي الشر وتنحسر دوافعه ، وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه ، وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع ، ولا يسمح لها بالسيطرة ، وعندئذ لا تشيع الفاحشة ولا تصبح هي الطابع العام[١] .

ويبين القرآن الكريم موقف الأنبياء من بني إسرائيل من الفساد المستشري في بني إسرائيل ، وكيف وقف نبي الله داود ونبي الله عيسى ضد المنكر ، ويبين القرآن الكريم خطورة تولي الذين كفروا عندما قال تعالى ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠ ـ ٨١] .

٤ ـ الله تعالى منزّه عن الولد والشريك :

ـ قال تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١ ـ ٩٢] .

لو قدِّر تعدد الآلهة لانفرد كل واحد منهم بما خلق ، واستبدَّ به ، ولتميز ملك كل واحد عن الآخر ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه ، فيعلو بعضهم على بعض ، فلا ينتظم الكون بذلك ، وبما أن الوجود متّسق منتظم ، لا نرى فيه أثراً لتمايز الممالك والتغالب ، فإن الله واحد لا شريك له[٢] .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٤٨ .

(٢) عمر أحمد عمر ، رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى ، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٧م ، ٢/ ٢٨٥ .

ـ قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٠١] .

إن الذي يُبدِع في هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلق؟

والخلق هم امتداد الفانين وعون الضعفاء ، ولذّةُ من لا يُبدعون ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر ، أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه ، فكيف يكون لله ولد ، ليس كمثله شيء ، فأنى يكون النسل بلا تزاوج؟

وهي حقيقة ولكنها تواجه مستواهم التصوري ، وتخاطبهم بالأمثلة القريبة من حياتهم ومشاهداتهم ، فالمخلوق لا يكون أبداً شريكاً للخالق ، وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق ، كما يواجههم بعلم الله المطلق الذي لا يقابله منهم إلا أوهام وظنون ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

فالذي يُعبد ويُطاع ويُعتَرف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء ، فلا إله إذن غيره ، ولا رب إذن سواه ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

ـ وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وكل شيء تحت قهره وتدبيره ، وهو الذي هيأ كل شيء لما يُصلحُ له بلا خلل فيه ، وقدَّر حجمَه وشكله ووظيفته وعمله وزمانه ومكانه وتناسقه مع غيره من هذا الوجود الكبير .

وخلق الإنسان على هذا الشكل الذي نراه فقدَّره للتكاليف والمصالح المنوطة به في الدين والدنيا ، وقدَّرَه للبقاء إلى أمدٍ معلوم ، وجعله يتناسل لامتداد الحياة إلى أجلٍ مسمًّى ، وهو سبحانه باقٍ لا يفنى قادر لا يحتاج وكل ما في السماوات والأرض منقادون له ، يقرُّون له بالطاعة ويشهدون له

بالوحدانية ، ولا يمتنع منهم شيء على تكوينه وتقديره[١] .

ـ وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٦ ـ ١١٧] .

كلُّ ما قدره من الأمور وأراد كونه يتكوَّن ، ويوجد على وَفق ما أراد من غير امتناع ولا توقف ، ومن كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام ، فأنى يُتصوّر التوالد ، ثم والذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصلٍ وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته[٢] .

ـ وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٨٨ ـ ٩٥] .

إن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ والمساس بقداسته ـ الذات العلية ـ كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقِّره .

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال ، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف ، وما تكاد الكلمة النابية تنطلق حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ ، ثم يهتزُّ كل ساكن من حولهم ويرتجُّ كل مستقر ، ويغضب الكون كله لبارئه سبحانه وتعالى ، وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته وتجافي ما وقر في ضميره

---

(١) عمر أحمد عمر ، رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى ، ٢/ ٢٨٦ .
(٢) المرجع نفسه ، ٢/ ٢٨٦ .

وما استقرَّ في كيانه ، وتهزُّ القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ ، وفي وسط القضية الكونية يصدر البيان الوحيد ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ .

إن كل من في السماوات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً ، فلا ولد ولا شريك ، إنما خلق وعبيد ، وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ .

فعين الله على كل فرد ، وكل فرد يَقدُم وحيداً ، لا يأنس بأحد ولا يعتزُّ بأحد ، حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يُجَرَّد منها ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديَّان في وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبة إذ المؤمنون في ظلال نديَّة من الودِّ السامي : ودِّ الرحمن ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (١) .

ـ وقال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٨ ـ ٧٠] .

إن عقيدة أن لله سبحانه وتعالى ولداً ، هي عقيدة ساذجة منشؤها قصور من التصور ، يعجز عن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية ، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية ، والقصور كذلك عن إدراك حكمة السنة التي جرت بتوالد أبناء الفناء هو التكملة الطبيعية لما فيهم من نقص وقصور لا يكونان لله .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ٢٣٢١ .

فالبشر يموتون والحياة باقية إلى أجل معلوم ، فإلى أن ينقضي هذا الأجل فحكمة الخالق تقتضي امتداد البشر ، والولد وسيلة لهذا الامتداد ، والبشر يهرمون ويشيخون فيضعفون ، والولد تعويض عن القوة الشائخة بقوة فتية ، تؤدي دورها في عمارة الأرض ـ كما شاء الله ـ وتعين الضعفاء والشيوخ على بقية الحياة .

والبشر يكافحون فيما يحيط بهم ، ويكافحون أعداءهم من الحيوان والناس ، فهم في حاجة إلى التساند ، والولد أقرب ما يكون إلى العون في هذه الأحوال .

والبشر يستكثرون من المال الذي يجلبونه لأنفسهم بالجهد الذي يبذلونه والولد يُعين على الجهد الذي يجلب المال ، وهكذا إلى سائر ما اقتضته حكمة الخالق لعمارة هذه الأرض ، حتى ينقضي الأجل ، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وليس شيء من ذلك كله متعلقاً بالذات الإلهية ، فلا الحاجة إلى الامتداد ولا الحاجة إلى العون عند الشيخوخة ولا الحاجة إلى النصير ولا الحاجة إلى المال ولا الحاجة إلى شيء ما مما يخطر أو لا يخطر على البال متعلقة بذات الله تعالى .

ومن ثم تنتفي حكمة الولد؛ لأن الطبيعة الإلهية لا يتعلق بها غرض خارج عن ذاتها ، يتحقق بالولد وما قضت حكمة الله أن يتوالد البشر إلا لأن طبيعتهم قاصرة تحتاج إلى هذا النوع من التكملة ، فهي تقتضي الولد اقتضاءً وليست المسألة جزافاً .

ومن ثم كان الرّدّ على فرية : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴾ هو : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ . (سبحانه) : تنزيهاً لذاته العليّة عن مستوى هذا الظن أو الفهم والتصور : (هو الغني) بكل معاني الغنى عن الحاجات التي أسلفنا وعن سواها مما يخطر على البال ، مما يقتضي وجود الولد والمقتضيات

هي التي تسمح بوجود المقتضيات فلا يوجد شيء عبثاً بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فكل شيء ملكه ولا حاجة به ـ سبحانه ـ لأن يملك شيئاً بمساعدة الولد ، فالولد إذن عبث ، تعالى الله سبحانه عن العبث .

ولا يدخل القرآن الكريم في جدل نظري حول الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية ، مما جدَّ عند المتكلمين وفي الفلسفات الأخرى لأنه يلمس الموضوعات في واقعها القريب إلى الفطرة ، ويتعامل مع الموضوع ذاته لا مع فروض جدلية قد تترك الموضوع الحاضر نهائياً وتصبح غرضاً في ذاتها .

فيكتفي هنا بهذه اللمسة التي تمسُّ واقعهم ، وحاجاتهم إلى الولد وتصورهم بهذه الحاجة ، وانتفاء وجودها بالقياس إلى الله الغني الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض ، ليبلغ في نفوسهم موضوع الاقتناع أن موضوع الإفحام ، بلا جدل نظري يضعف أثر اللمسة النفسية التي تستجيب لها الفطرة ، هي يسر وهوادة ، ثم يجابههم بالواقع ، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على ما يدّعون ، ويسمى البرهان سلطاناً ؛ لأن البرهان قوة ، وصاحب البرهان قوي ذو سلطان ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ ، ما عندكم من حجة ولا برهان على ما تقولون ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

وقول الإنسان ما لا يعلم منقصة لا تليق فكيف إذا كان هذا القول بلا علم على الله سبحانه .

إنه جريمة إذن أكبر من كل جريمة ، فهو أولاً يُنافي ما يستحقه من عباده ، من تنزيه وتعظيم ، لأنه وصف له بمقتضيات الحدوث والعجز والنقص والقصور ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولأنه ضلال في تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق ينشأ عنه ضلال في تصور كل علاقات الحياة والناس والمعاملات ، فكلها فرع من تصور هذه العلاقة وكل ما ابتدعه الكهنة لأنفسهم

في الوثنيات من سلطان ، وكل ما ابتدعته الكنيسة لها من سلطان إنما نشأ عن تصور العلاقة بين الله تعالى وبناته الملائكة ، أو بين الله تعالى وعيسى ابن مريم من صلة الأبوة والبنوة ، وحكاية الخطيئة ، ومنها نشأت مسألة الاعتراف ، ومسألة قيام كنيسة المسيح بتوصيل الناس بأبي المسيح بزعمهم إلى نهاية السلسلة التي بدأت الحلقة الأولى فيها بفساد تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق ، فسدت الحلقات التالية كلها في كل ضروب الحياة ، فليست المسألة مجرد فساد في التصور الاعتقادي ، ولكنه مسألة الحياة برمَّتها ، وكل ما وقع بين الكنيسة وبين العلم والعقل من عداء ، انتهى إلى تخلُّص المجتمع من سلطان الكنيسة بتخلُّصه من سلطان الدين نفسه ، إن ما نشأ في هذه اللحظة ، حلقة فساد تصور العلاقة بين الله وخلقه وجرَّ في ذيوله شراً كثيراً تعاني منه البشرية كلها ويلاته في التيارات المادية وما وراءها من بلايا وأرزاء .

ومن ثم كان حرص العقيدة الإسلامية على تجلية هذه العلاقة تجلية كاملة لا لبس فيها ولا إبهام ، فالله خالق أزليّ باقٍ ، لا يحتاج إلى الولد ، والعلاقة بينه وبين الناس جميعاً هي علاقة الخالق بخلقه دون استثناء ، وللكون والحياة والأحياء سُنَنٌ ماضية لا تتخلف ولا تُحابي ، فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز ، ومن حاد عنها ضلَّ وخسر .

الناس في هذا كلُّهم سواء ، وكلهم مرجعهم إلى الله وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ، ولكل نفسٍ ما عملت ، ولا يظلم ربك أحداً . عقيدة بسيطة واضحة لا تدع مجالاً لتأويل فاسد، ولا تنحني أو تنحرف بالقلب في دروب ومنحنيات، ولا في سحب وضباب ، ومن ثم يقف المجتمع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشريعة ، وكلهم مكلف بها ، وكلهم حفيظ عليها ، وبذلك تستقيم العلاقة بين الناس بعضهم وبعض نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الناس .

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾: لا يفلحون أيَّ فلاح ، لا يفلحون في شعب ولا طريق ، لا يفلحون في الدنيا ولا في

الأخرى ، والفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع وتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام ، وليس هو مجرد الإنتاج المادي في تحطيم القيم الإنسانية ، ومع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية ، فذلك فلاح ظاهري موقوت منحرف عن خط الرقيّ الذي يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال .

﴿ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ : مجرد متاع ، وهو متاع قصير الأمد ، وهو متاع مقطوع ؛ لأنه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية في الدنيا والآخرة ، إنما يعقبه (العذاب الشديد) ، ثمرة للانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالي اللائق ببني الإنسان[1] .

ـ قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠ـ٣١] .

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾ : وهذه المقالة وإن لم تكن لعامتهم ، فقد قالتها فرقة منهم ، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرؤوا فيها على الله ، وتُنقِص عظمتَه وجلاله .

وقد قيل : إن سبب ادّعائهم في عزير أنه ابن الله أنه لما تسلط الملوك على بني إسرائيل ومزَّقوهم كل ممزَّق ، وقتلوا حملة التوراة وجدوا عزيراً بعد ذلك حافظاً لها أو أكثر ، فأملاها عليهم من حفظه واستنسخوها فادَّعوا فيه هذه الدعوة الشنيعة ،

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٨٠٧ .

وقالت النصارى: عيسى ابن مريم (ابن الله) ، قال تعالى (ذلك) القول الذي قالوه ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً ، ومن كان لا يبالي بما يقول لا يُستغرب عليه أي قول يقوله ، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام ، ولهذا قال ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي يشابهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي قول المشركين الذي يقولون الملائكة بنات ، تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم في البطلان ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أيْ: كيف يُصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين إلى القول الباطل المبين؟

وهذا وإن كان يُستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول يدل على بطلانه أدنى تفكير وتسليط للعقل عليه ، فإن لذلك سبباً وهو أنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾ ، وهم علماؤهم ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ أي: العباد المتجردين للعبادة ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ، يحلُّون لهم ما حرَّم الله فيحلُّونه ، ويحرِّمون لهم ما أحلَّ الله فيحرِّمونه ، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل ، فيتبعونهم عليها ، وكانوا أيضاً يغلون في مشايخهم وعُبادهم ويعظمونهم ويتخذون قبورهم أوثاناً تُعبد من دون الله ، وتُقصد بالدعاء والذبائح والاستغاثة .

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه إلهاً من دون الله ، والحال أنهم خالفوا بذلك أمر الله لهم على ألسنة رسله ، فما ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة ، ويَخصُّونه بالمحبة والدعاء ، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً (سبحانه) وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس وتعالت عظمته عن شركهم وافتراءاتهم ، فإنهم ينتقصونه في ذلك ويصفونه بما لا يليق بجلاله ، والله تعالى في أوصافه وأفعاله عن كل ما نُسب إليه مما ينافي كماله المقدس[1] .

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه ولا برهاناً لما أضَّلوه ، وإنما هو مجرد

(١) السعدي ، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ٢/ ٦٤٨ .

قول قالوه ، وافتراء افتروه ، أخبر سبحانه تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ . ونور الله دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب وسماه الله نوراً، لأنه ستُنار به ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق وعمل بالحق، وما عداه فإنه يصدُّه ، فهؤلاء اليهود والنصارى ومن يُشابههم من المشركين يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم التي ليس عليها دليل أصلاً ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ ؛ لأنه النور الباهر ، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده ، وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، ولو سعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله ، فإن سعيهم لا يُغيِّر الحق شيئاً .

ثم بيَّن تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ الذي هو العلم النافع ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ الذي هو العمل الصالح ، فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتملاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله ، وفي أحكامه وأخباره ، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان ، من إخلاص الدين لله وحده ومحبة الله وعبادته والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال الصالحة والآداب النافعة ، والنهي عن كل ما يضادُّ ذلك ويُناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المُفتِّرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة .

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ ، أي: ليعليه على سائر الأديان ، بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، وإن كره المشركون ذلك وبغوا له الغوائل ، ومكروا مكرهم ، فإن المكر السَّيِّئ لا يضر إلا صاحبه ، فوعد الله تعالى لا بدَّ أن ينجزه ، وما ضمنه لا بدَّ أن يقوم به[١] .

---

(١) السعدي ، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ٢/ ٦٤٩ .

إن الواجب هو أن نعبد إلهاً واحداً ، وأن نتبع شريعته ، ونعمل بكتابه ، وأن نتلقى منه العقيدة والقيم والنظم ، وأن نتصور الوجود وحقائق الأشياء ، والارتباطات فيما بينها على هديه وأن نعبده بالكيفية التي بيَّنها بدون غلوٍّ وتفريط ، وألا نتجاوز الحقيقة في عيسى عليه السلام ، وإذا أردنا أن ننسبه إلى أمه دون غيرها ، كما يقول القرآن الكريم ، إذ نسبه إليها ثلاثاً وعشرين مرة ، بينما تضمَّن أسماء غيره من الرسل مجردة عن النسب في غالب الأحوال ، فهو إنسان وليس ابن الإنسان ، وهو رسول الله وليس ابن الله سبحانه وتعالى ، وطبيعته بشرية وليست إلهية[١] .

٥ ـ الاستجواب العظيم من الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١٢٠] .

إنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم ماذا قال عيسى للناس ، ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب ، الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول ولكن في صورته هذه ، وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلِّهين لهذا العبد الصالح الكريم ، إنها الكبيرة التي لا يُطيق بشرٌ عادي أن يُقذف بها أن يدَّعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد .

---

(١) عمر أحمد عمر ، رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى ، ٢/ ٢٩٤ .

فكيف برسول من أولي العزم؟ كيف بعيسى ابن مريم ، وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعدما اصطفاه بالرسالة ، وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجواباً عن ادّعاء الألوهية ، وهو العبد الصالح المستقيم؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب يبدأ بالتسبيح والتنزيه[١] .

﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ :

تنزيه لله تعالى عن مضمون تلك المقالة وكانت مبادرة المسيح بتنزيه الله تعالى عن تلك المقالة أهم من تبرئة نفسه على أنها مقدمة للتبرِّي؛ لأنه إذا كان ينزّه الله عن ذلك فلا جرم أنه لا يأمر به أحداً[٢] .

﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾ :

يسرع إلى التبرُّؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً . ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته ، وخصائص ألوهية ربه .

ـ ﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ :

إنَّ الله عز وجل الذي يعبده عيسى عليه السلام :

ـ علمه شامل لكل شيء في السماوات وفي الأرض .

ـ علمه شامل لكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٥٤٧ .

(٢) إبراهيم زيد الكيلاني ، خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبيّنها سورة المائدة ، جمعية المحافظة على القرآن الكريم ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، ص١٨٧ .

ـ علمه المحيط بكل شيء واختصاصه بمفاتيح الغيب وما يحدث من صغير أو كبير في البرِّ والبحر.

ـ علمه المحيط بمكونات القلوب وما تُخفيه الصدور.

ـ علمه الشامل لما في الأرحام لكل أنثى.

ـ علمه سبحانه لكل الأشياء قبل وقوعها ، وإن ذلك في كتاب وله الحكمة البالغة في تقديرها.

ـ علمه سبحانه لأحوال عباده تقيّهم من فاجرهم ، وغنيّهم من فقيرهم ، وغير ذلك من الفوارق.

ـ علمه المحيط الدقيق لكل مناجاة بين اثنين فأكثر مهما أسرُّوا النجوى.

ـ علمه الشامل لما ينزل من الشرائع على رسله وأنه سبحانه أعلم بما ينزل ، وأعلم بما يَصلُح لعباده وينتهي بهم إلى السعادة الخَيِّرة في الدارين.

ـ هذا العلم الذي يعلمه الإنسان المحدود من علوم الدنيا والدين إنما هو من تعليم الله تعالى له ، واختصاصه له بالعقل وقابليته للتعليم.

واختصَّ الله سبحانه بعلوم الغيب ، إن الله سبحانه لكمال علمه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، أي أنه سبحانه يعلم الأمور الماضية التي وقعت ، والأمور المستقبلية التي لم تقع بعد ، ويعلم الأمور التي لم تقع لو فرض أنها تقع كيف تقع ، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور[1].

وهذه بعض الأمور التي يُستدَلَّ عليها من قول عيسى عليه السلام لربه (إنك أنت علاَّم الغيوب) وعندئذٍ فقط وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير بما قاله وفيما لم يقله ، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته.

---

(١) عبد العزيز ناصر ، ولله الأسماء الحسنى ، ص ٣٣٥ ـ ٣٤١.

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ :

فأنا عبد مُتبَّع لأمرك لا مُتجرِّئٌ على عظمتك وما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له المتضمن للنهي عن اتخاذيَ وأمِّيَ إلهين من دون الله ، وبيان أني عبد مربوب ، فكما أنّه ربكم فهو ربي(١) .

﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ :

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ : أي المُطِّلعَ على سرائرهم وضمائرهم ، ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ علماً وسمعاً وبصراً ، فعلمك قد أحاط بالمعلومات ، وسمعك بالمسموعات ، وبصرك بالمُبصَرات ، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

والرقيب والشهيد من أسماء الله الحسنى وهما مترادفان ، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات وبصره بالمُبصَرات وعلمه بجميع المعلومات الجليَّة والخفيَّة ، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر وما تحركت به اللواحظ ، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان(٢) .

وفي قوله تعالى ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ يدل على مراقبة في القلب من عيسى عليه السلام عظيمة في سرّه وعلنه في ليله ونهاره ، في خلواته وجلواته ، وكان على يقين في حياته الدينا أن الله لا تخفى عليه خافية يسمع كلامه ويرى مكانه ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور ، فكان قلبه وسمعه وبصره ولسانه وجوارحه كلها في طاعة الله وعبادته سبحانه وتعالى .

﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فالله عز وجل شهيد على كل شيء يسمع جميع

---

(١) الكيلاني ، المرجع السابق ، ص١٨٨ .
(٢) السعدي ، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ، ص ٢/ ٤٥٩ .

الأصوات خفيَّها وجَلِيَّها ، ويبصر جميع المخلوقات دقيقها وجلِيلَها ، ويحيط علمه بكل شيء .

إن اليقين بهذه المعاني يثمر في القلب اليقظة والحذر والخوف من الله عز وجل بحيث لا يصدر من العبد إلا ما يحبه الله عز وجل ويرضاه من الأقوال والأعمال لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في ليل أو نهار ، في سر أو جهار .

والله شهيد على الخلق يوم القيامة بما عملوا وما كان بينهم من خصومات في الدنيا ، وهذا يجعل الإنسان السويّ على حذر من ظلم العباد والتعدي على حقوقهم فإن الله عز وجل شاهد على ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] ، وكذلك يجعل العبد يتحرى الإخلاص والتقوى في أقواله وأعماله؛ لأن الله عز وجل مشاهد على ما في القلوب من النوايا والمقاصد ولا يقبل سبحانه إلا ما كان لله خالصاً صواباً .

والإيمان بأن شهادة الله عز وجل أعظم شهادة ، فالله سبحانه هو الأعظم والأعلى والأجل والأرفع ، وشهادته شهادة حضور ومعاينة ، وهو لا يخفى عليه شيء من جوانب الحقيقة كما يحدث للبشر ، فمن شهد الله له فهو حسيبه ولا يحتاج إلى شهادة غيره .

وقد شهد الله عز وجل لنفسه بالتوحيد ، وشهد له به ملائكته وأنبياؤه ورسله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] (١) .

كان إيمان عيسى عليه السلام بالله عظيماً وباسمه الرقيب والشهيد وعلَّام الغيوب ، فكان جوابه في قمة العبودية لله مع تواضع رفيع ، وتذلل منقطع النظير ، ومعرفة عميقة بخصائص العبودية لله ، والألوهية لخالقه ، وينتهي عيسى عليه السلام إلى التفويض المطلق في أمرهم مع تقرير عبوديتهم لله

(١) السعدي ، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ، ص ٦٣٥ .

وحده ، وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب .

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ :

فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب ، وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة ، والتي يتبرأ منها العبد الصالح البريء ذلك التبرُّؤَ الواجف ، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟ أين هم في هذا الموقف ، في هذا المشهد؟

إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة ، فلعلهم يتذاوبون خزياً وندماً ، فلندعهم حيث تركهم السياق لنشهد ختام المشهد العجيب .

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ :

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، إنه التَّعقيبُ المناسب على كذب الكاذبين الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم ، في أعظم القضايا كافة ، قضية الألوهية والعبودية ، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ ﴾ إنها كلمة رب العالمين في ختام الاستجواب الهائل على مشهدٍ من العالمين .

وهي الكلمة الأخيرة في المشهد ، وهي الكلمة الحاكمة في القضية ، ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾ درجات بعد درجات ، الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١) .

في مواجهة الفرية ، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها ، يجيء الإيقاع الأخير في السورة ، يعلن تفرُّد الله سبحانه بملك السماوات والأرض وما فيهن ، وقدرته سبحانه على كل شيء بلا حدود .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٠٢ .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ :

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة ، ومع ذلك المشهد العظيم الذي ينفرد الله فيه بالعلم ويتفرد بالألوهية ويتفرد بالقدرة . . . ويُفوِّض فيه عيسى ابنُ مريم أمرَه وأمر من اتخذه وأمه آلهةً من دون الله إلى العزيز الحكيم ، الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير[1] .

٦ ـ عيسى ابن مريم عبد أنعم الله عليه ، وداعية إلى التوحيد وعبادة الله :

قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف : ٥٧ ـ ٦٦] .

يستطرد القرآن الكريم في هذه الآيات ، ويبين لنا ما دار بين كفار مكة ورسول الله ﷺ من جدل وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية لا بقصد الوصول إلى الحق ، ولكن عناداً ومراءً وجحوداً .

فلما قيل لهم إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، وكان القصد هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة التي عبدوها بذاتها وقيل لهم : إن كل عابد وما يعبد من دون الله في النار ، ولما قيل لهم هذا ، ضرب بعضهم المثل

(١) المرجع نفسه ، ٢/ ١٠٠٢ .

بعيسى ابن مريم ـ وقد عبده المنحرف من قومه ـ أهو في النار؟

وكان هذا مجرَّدَ جدلٍ ومجرَّدَ مِراء ، ثم قالوا: إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر فنحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ، وكان هذا باطلاً يقوم على باطل ، وبهذه المناسبة ، يذكر السياق طرفاً من قصة عيسى ابن مريم ، يكشف عن حقيقته وحقيقة دعوته ، واختلاف قومه من قبله ومن بعده.

ثم يُهدِّد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعاً بمجيء الساعة بغتة ، وهنا يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد يوم القيامة ، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين ، وينفي أساطيرهم عن الملائكة ويُنزِّه الله سبحانه عما يصفون ، ويُعرِّفه لعباده ببعض صفاته ومُلكِيّته المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة وإليه ترجعون[1].

ـ في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾

إنَّ رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير ، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم وما تقول في محمد ، فقالوا: يا محمد ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً ، فإن كنت صادقاً فإنه كان آلهتَهم لا كما تقولون؟

فأنزل الله تعالى ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾ ، ومعنى (يَصدُّون) يُعرِضون أو يَعدِلون ، وفي قوله تعالى ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾ يعني عيسى ، أي: إن آلهتنا ليست خيراً من عيسى ، فإن كان في النار لأنه عُبد من دون الله ، فقد رضينا أن تكون آلهتنا بمنزلته ، وهم ما ضربوا عيسى عليه السلام مثلاً إلا للمجادلة فحسب ، فهم يعلمون أن المراد بـ (حصب جهنم) ما اتخذوه آلهة من الأصنام والأحجار[2].

---

(١) في ظلال القرآن ، ٥/ ٣١٩٦.

(٢) أحمد الأميري ، فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم ، المرجع السابق ، ص ٤٩٧.

في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

فليس إلهاً يعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه، إنما هو عبد أنعم الله عليه ولا جريرة له في عبادتهم إياه، فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلاً لبني إسرائيل ينظرون إليه ويتأسَّون به، فنسوا المثل، وضلوا السبيل[١].

وقد أنعم الله على عيسى عليه السلام بالنبوة والحكمة والعلم والعمل[٢].

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾

أي: لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن تُرسَل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلاً من جنسكم، تتمكَّنون من الأخذ عنهم.

وفي قوله ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

أي: وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة، إن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو: وإن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان ويكون نزوله علامة من علامات الساعة. وفي قوله تعالى ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكُّنَّ في قيام الساعة فإن الشك فيها كفر. وفي قوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ بامتثال ما أمرتكم به، واجتناب ما نهيتكم عنه (هذا صراط مستقيم) موصول إلى الله عز وجل[٣].

في قوله تعالى ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

القرآن لا يفتأ يذكِّر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٣١٩٨.
(٢) السعدي، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ٤/ ١٦١٦.
(٣) السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٤/ ١٦١٦.

آدم ، ومنذ المعركة الأولى في الجنة ، وأغفلُ الغافلين من يعلم أن له عدواً يقعد له بالمرصاد ، عن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ثم لا يأخذ حذره ، ثم يزيد فيصبح تابعاً لهذا العدو الصريح[١] .

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى عليه السلام وحقيقة ما جاء به ، وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده .

في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ :

جاء قوم عيسى عليه السلام بالبينات والواضحات سواء من الخوارق التي أجراها الله على يديه ، أو من الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم ، وقد قال لقومه ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وأمِنَ الزَّلَلَ والشَّطَط أمْنَهُ للتفريط والتقصير ، واطمأن إلى خطوته في الطريق على اتزانٍ وعلى نور ، وجاء ليُبيِّن لهم بعضَ الذي يختلفون فيه ، وقد اختلفوا في كثير من شريعة موسى عليه السلام وانقسموا فرقاً وشيعاً ، ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله ، وجهر بكلمة التوحيد خالصة لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ ﴾ ولم يقل إنه إله ، ولم يقل إنه ابن الله ، ولم يُشِرْ من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه ، والربوبية من جانب الله رب الجميع ، وقال لهم: إن هذا صراط مستقيم لا التواء فيه ولا اعوجاج ولا زلل فيه ولا ضلال ، ولكن الذين جاؤوا من بعده اختلفوا أحزاباً كما كان الذين من قبله مختلفين أحزاباً ، اختلفوا ظالمين لا حجة لهم ولا شبهة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٥/ ٣١٩٩ .

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ، وكانوا ينتظرونه ليخلِّصهم مما كانوا فيه من الذل تحت حكم الرومان ، وقد طال انتظارهم له ، فلما جاءهم نكروه وشاقُّوه وهموا أن يصلبوه(١) .

ثم ذهب المسيح إلى ربه فاختلف أتباعه من بعده ، اختلفوا شيعاً وأحزاباً بعضها يؤلِّهه ، وبعضها ينسب لله سبحانه بُنُوّتَه ، وبعضها يجعل اللهَ ثالث ثلاثة ، أحدها المسيح ابن مريم ، وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى عليه السلام وضاعت دعوته للناس ، ليلجؤوا إلى ربهم ويعبدوه مخلصين له الدين (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) ، ثم جاء مشركو العرب يحاجُّون رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام بما فعلته الأحزاب المختلفة من بعده ، وما أحدثته حوله الأساطير .

وحين يصل السياق القرآني إلى الحديث عن الظالمين ، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى عليه السلام مع المحاجِّين لرسول الله ﷺ بفعل هذه الأحزاب ، ويصور رجالهم يوم القيامة في مشهد رائع طويل ، يحتوي كذلك صفحة المتقين المكرمين في جنات النعيم قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٦ ـ ٧٨] .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٥/ ٣٢٠٠ .

يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها لا يشعرون بمَقدَمِها .

ـ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ :

هذه المفاجأة تحدث حدثاً غريباً ، يَقلِب كل ما كانوا يألفونه في الحياة الدنيا(١) .

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ :

إن عداء الأخلاء ينبع من معين ودادهم ، لقد كانوا في الحياة الدنيا يجتمعون على الشر ، ويُملي بعضهم لبعض في الضلال ، فاليوم يتلاومون ، اليوم يُلقي بعضُهم على بعض تبعة الضلال ، وعاقبة الشر ، واليوم يُنقَلُون إلى خصوم يتلاحَون ، من حيث كانوا أخلاء يتناجَون ، (إلا المتقين) فهؤلاء مودتهم باقية ، فقد كان اجتماعهم على الهدى ، وتناصحهم على الخير ، وعاقبتهم إلى النجاة ، وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون ، يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوي الكريم للمتقين .

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ :

أي : تسرون سروراً يشيع في أعطافكم وقسماتكم فيبدو عليكم الحبور ، ثم يُطاف عليهم بصحائف من ذهب وأكواب، وإذا لهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس، وفوق شهوة النفوس والتذاذ العيون، كمالٌ وجمالٌ في التكريم ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ ﴾ ، ومع هذا النعيم ما هو أكبر منه وأفضل ، التكريم بالخطاب من العلي الكريم ﴿ وَتِلْكَ

(١) في ظلال القرآن ، ٥/ ٣٢٠١ .

﴿ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾:

فما بال المجرمين الذين تركناهم هنيهة يتلاحون ويختصمون ، وهم في عذاب جهنم وهو عذاب دائم وفي درجة عصيبة ، لا يفتر لحظة ، ولا يبرد هنيهة ، ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد ، فهم فيه يائسون قانطون.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾:

كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا الورود الموبق ، ظالمين غير مظلومين.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

ثم تتناوح في الجوّ صيحة من بعيد ، صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾:

إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق من هناك من وراء الأبواب المؤصدة في الجحيم ، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين ، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث ، فهم مبلسون يائسون. إنما يصيحون في طلب الهلاك ، الهلاك السريع الذي يريح ، وحسب المنايا أن يكن أمانيا.

وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق ، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب ، وأجساماً تجاوز بها الألم حدَّ الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

وفي ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق ،

المعرضين عن الهدى ، الصائرين إلى هذا المصير ، ويعجب من أمرهم على رؤوس الأشهاد في أنسب جوٍّ للتحذير والتعجُّب .

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ :

وكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه ، لا عدم إدراك أنه حق ، ولا الشك في صدق الرسول الكريم ، فما عهدوا عليه كذباً قط في الناس ، فكيف يكذب على الله ويدَّعي عليه ما يدّعيه؟

والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه ، لأنه يصادم أهواءهم ويقف في طريق شهواتهم ، وهم أضعف أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ، ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته ، فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق ، والاجتراء على الدعاة. لهذا يُهدِّدهم صاحب القوة والجبروت ، العليم بما يسرون وما يمكرون[1] .

قال تعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٧٩ـ ٨٠] .

فإصرارهم على الباطل في وجه الحق يقابله أمر الله الجازم وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته ، وتدبيرهم ومكرهم في الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى ، والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون أمام الخالق العزيز العليم .

سابعاً: عيسى عليه السلام في موكب الأنبياء والمرسلين:

عرض القرآن الكريم موكب الإيمان الجليل يقوده ذلك الرهط من الرسل؛ من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يعرض السياق هذا الموكب ممتداً موصولاً ، وبخاصة منذ إبراهيم وبنيه من

(١) في ظلال القرآن ، ٥/ ٣٢٠٣.

النبيين ، ولا يراعي التسلسل التاريخي في هذا العرض ـ كما يلاحظ في مواضع أخرى ـ لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته ، لا تسلسله التاريخي .

ومن جملة مَن ذُكر في هذا الموكب من الأنبياء والمرسلين عيسى عليه السلام حتى يُعلَم أنه نبي كباقي الأنبياء ، وليس هو الله ، أو ثالث ثلاثة ، فهو نبي مرسل .

قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤ ـ ٩٠] .

وكانت التعقيبات على هذا الموكب المبارك :

ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ـ ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

ـ ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وكلها تعقيبات تُقرِّر إحسانَ هذا الرهط الكريم واصطفاءَه من الله وهدايته إلى الطريق المستقيم .

وذِكْرُ هذا الرهط على هذا النحو ، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة كله تمهيد للتقريرات التي تليه :

ـ ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، وهذا تقرير لينابيع الهدى في الأرض ، فهدي الله للبشر يتمثل فيما

جاءت به الرسل ، وينحصر المُستيقَنُ منه والذي يجب اتّباعُه في هذا المصدر الواحد ، الذي يقرر الله سبحانه أنه هو هدى الله ، وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده .

ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه ، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي ، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم : أي أن يذهب ضياعاً ، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً ، فتنتفخ ثم تموت ، وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ وهذ التقرير الثاني ، فقرَّر في الأول مصدر الهدى وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل ، وقرَّر في الثَّاني أن الرُّسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوَّة .

(والحكم) يجيء بمعنى الحكمة كما يجيء بمعنى السلطان كذلك ـ وكلا المعنيين محتمل في الآية ـ فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى والزبور مع داود والإنجيل مع عيسى وبعضهم آتاهم الله الحكمة كداود وسليمان، وكلهم أوتي السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله، وأن الدين الذي جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور، فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا ، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط ، كما جاء في الآيات الأخرى ، وكلُّهم أوتي الحكمة وأوتي النبوَّة ، وأولئك هم الذين وكَّلهم الله بدينه ، يحملونه إلى الناس ، ويقومون عليه ويؤمنون به ويحفظونه ، فإذا كفر بالكتاب والحكمة والنبوَّة مشركو العرب : (هؤلاء) ، فإن دين الله غنيٌّ عنهم ، وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين[1] .

إنها حقيقة قديمة امتدَّت شجرتها ، وموكب موصول تماسكت حلقاته ،

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١١٤٤ .

ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول وآمن بها ، ويؤمن من يقسم الله له الهداية ، لما يعلمه من استحقاقه للهداية ، وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن وفي قلوب العصبة المسلمة ـ أياً كان عددها ـ إن هذه العصبة ليست وحدها ، ليست مقطوعة من شجرة ، إنها فرع منبثقٌ من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وحلقة في موكب جليل موصول ، موصولة أسبابه بالله وهداه . . . إن المؤمن الفرد ، في أيِّ أرض وفي أيِّ جبل قويٌّ قويٌّ ، وكبيرٌ كبيرٌ ، إنه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية وفي أعماق التاريخ الإنسانيِّ ، وعضوٌ في ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور[١] .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ :

وهو التقرير الثالث : فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان هم الذين هداهم الله ، وهُداهم الذي جاءهم من عند الله فيه القدوة لرسول الله تعالى ومن آمن به .

فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه ، وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه ، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويبشر به قائلاً لمن يدعوهم : ﴿ لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، للعالمين : لا يختصُّ به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد ، إنه هدى الله لتذكير البشر كافَّة ، ومن ثمَّ فلا أجر عليه يتقاضاه وإنما أجره على الله[٢] .

١ ـ تعاليم عيسى ابن مريم عليه السلام من عند الله تعالى :

تشمل هذه التعاليم رسالة المسيح ، كذلك الإيمان بالوحي ، فطبيعيٌّ أن

---

(١) المرجع نفسه ، ٢/ ١١٤٤ .
(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ١١٤٥ .

يخبر المسيح أنه يوحى إليه من عند الله وأن التعاليم التي يُبلِّغها لهم ليست من عنده ، وإنما يوحى بها إليه من ربه ، وذكر الله المسيح في القرآن الكريم في جملة من يوحى إليهم من النبيين(١) .

قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

وهذا السياق القرآني يتحدث عن موكب واحد يتراءى عن طريق التاريخ البشري الموصول ، ورسالة واحدة بهدْيٍ واحدٍ للإنذار والتبشير ، وموكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من البشر : نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود وموسى وغيرهم ممن قصَّهم الله على نبيه ﷺ في القرآن الكريم ، وممن لم يقصَّ عليه ، موكب من شتى الأقوام والأجناس ، وشتى البقاع والأرضين في شتى الآونة والأزمان ، لا يُفرِّقهم نسب ولا جنس ولا أرض ولا وطن ، ولا زمن ولا بيئة ، كلهم آت من ذلك المصدر الكريم ، وكلهم يحمل ذلك النور الهادي ، وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير ، وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة إلى ذلك النور ، سواء منهم من جاء لعشيرة ومن جاء لقوم ومن جاء لمدينة ومن جاء لقُطْر ، ثم من جاء للناس أجمعين محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين .

كلهم تلقّى الوحي من الله فما جاء بشيء من عنده ، أولئك الرسل ـ من قصّ الله على رسوله منهم ومن لم يقص ـ اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى

---

(١) محمد وصفي ، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل ، دار ابن حزم ، ط١ ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م ، ص ٣١٥ .

عباده يبشرونهم بما أعدَّه الله للمؤمنين الطائعين من نعيمٍ ورضوان ، وينذرونهم ما أعدَّه الله للكافرين العصاة من جحيمٍ وغضب كل ذلك ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق: وقد أعطى الله البشر من العقل ما يَتدبَّرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق. ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ رحمة منه بعباده ، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم ـ أداة العقل ـ اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين يُذكِّرونَهم ويُبصِّرونَهم: ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات ، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ عزيزاً: قادراً على أخذ العباد بما كسبوا ، حكيماً: يدبرّ الأمر كلَّه بالحكمة ، ويضع كل أمر في نصابه[1].

ونقف أمام عظمة العدل الذي يرتِّب للناس حجة على الله سبحانه لو لم يرسل إليهم الرسل مُبشِّرينَ ومُنذِرينَ ، هذا ما احتشد كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون بالآيات والشواهد على الخالق ووحدانيته وتدبيره وتقديره وقدرته وعلمه.

ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له ، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس ، ومع هبة العقل الذي يملك أن يُحصيَ الشواهد ويستنبط النتائج ، ولكن الله سبحانه بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلها ، فتعطّلها ، أو تفسدها ، أو تطمسها ، أو تُدخل في حكمها الخطأ والشطط ، قد أعفى الناس من حجية الكون وحجية الفطرة ، وحجية العقل ما لم يرسل إليهم الرسل ، ليستنقذوا هذه الأجهزة كلها مما قد يرين عليها ، وليضبطوا بموازين

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٥ـ٨٠٦.

الحق الإلهي الممثَّل في الرسالة ، هذه الأجهزة فتصحُّ أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي. وعندئذٍ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والاتباع ، أو تسقط حجيَّتها وتستحق العقاب[١].

وخطأ وضلال ـ إن لم يكن هو الخداع والتضليل ـ كل زعم يقول: إن العقول الكبيرة كانت حِرِيّةً أن تَبلُغَ بدون الرسالة ما بَلَغتهُ بالرسالة ، فالعقل ينضبط مع الرسالة بمنهج النظر الصحيح ، وآية أن ما يتمُّ بالرسالة ـ عن طريق العقل نفسه ـ لا يمكن أن يتمَّ بغيرها ، فلا يغني العقل البشري عنها.

إن تاريخ البشرية لم يسجل أن عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية والمتوسطة بالرسالة.

ـ لا في تصور اعتقادي.

ـ ولا في خُلُق نفسي.

ـ ولا في نظام حياة.

ـ ولا في تشريع واحد لهذا النظام.

إن عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعاً ، بل إنهم ليقولون: إن عقل أرسطو هو أكبر عقلٍ عرفته البشرية ـ بعيداً عن رسالة الله وهداه ـ فإذا نحن راجعنا تصوُّرَه لإلهه ـ كما وصفه ـ رأينا المسافة التي تفصله عن تَصوُّر المسلم العادي لإلهه مهتدياً بهدي الرسالة[٢].

فسبحان الله الذي قال في كتابه الكريم: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨١١.
(٢) المرجع السابق ، ٢/ ٨١١.

٢ ـ عيسى عليه السلام من أولي العزم:

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأما أولو العزم من الرسل فهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم جميعاً، وقد كانت وصية الله تعالى لعيسى وأولي العزم من الرسل عليهم السلام ما ذكره الله تعالى في سورة الشورى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فعيسى عليه السلام من أولي العزم الذين أقاموا الدين الذي أمر الله به الأنبياء والمرسلين، وهذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ يقول لهم فيه:

ـ ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ارتضى ونهج وأوضح لكم هذا الدين.

ـ ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ الذي ارتضاه ووصَّى به لنوح.

ـ ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فهذا الدين هو نفسه الذي ارتضاه إليك يا محمد وارتضاه لعباده.

ـ ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ ارتضى هذا الدين ـ أي الإسلام ـ لإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله، بعد أن ارتضاه لنوح أبي البشر بعد آدم، ومحمد آخر رسول وخاتم النبيين، وهم أولو العزم من الرسل.

ـ ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ أوصاهم جميعاً بإقامة هذا الدين والتمسك به، ونهاهم عن ترك هذا التوحيد والإسلام.

ـ ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ شقَّ على المشركين دعوتهم إلى الإسلام، وإلى توحيد الله، وقولهم لا إله إلا الله ونبذ الوثنية وعبادة الله وحده لا شريك له، والإسلام والانقياد والطاعة له سبحانه وتعالى.

ـ ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ يعلم الله الصالح من عباده فيهديه إلى طريق الرشاد ، ويجتبيه من بين الناس جميعاً ، أي أَمَرَتْهم رُسلُهم بتوحيد الله والإيمان بملائكته واليوم الآخر ، وبالبعث والنشور ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج والتقرب إلى الله بصالح الأعمال من الصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم القتل والكفر والزِّنَى والأذية للخلق والاعتداء على الحيوان واقتحام الدناءات فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملَّة متحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم ، وأما تفصيل العبادات فهذا يختلف باختلاف الشرائع[١] .

وما شرعه الله لأولي العزم صادر عن كمال العمل والحكمة كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم السلام تنبيه على كونه ديناً قديماً أجمع عليه الرسل والخطاب لأمته عليه السلام ، أي شرع لكم من الدين ما وَصَّى به نوحاً ، ومَن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم السلام ، وأمرهم به أمراً مُؤكَّداً ، وتخصيص المذكورين بالذكر أشير عليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعيسى عليه السلام[٢] .

كما أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أخذ على النبيين جميعهم الميثاق وخصَّ بالذكر أُولي العزم من الرسل ، وقد أخذ الله ميثاق النبيين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام أجمعين في حمل أمانة هذا المنهج ، والاستقامة عليه وتبليغه للناس والقيام عليه في الأمم التي أُرسلوا إليها ، وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم بعد انقطاع

(١) منصور تميم نتشة ، حقيقة المسيح والتثليث ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ .
(٢) ليلى بلخير ، قصص أولي العزم ، دار طيبة ، دمشق. سوريا ، ط١ ، ١٤٣٢هـ ، ص ٤٢ .

الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٧ـ٨] .

إنه ميثاق واحد مُطَّرِدٌ من لدن نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد ﷺ ميثاق واحد ومنهج واحد ، وأمانة واحدة يتسَّلمها كل منهم حتى يُسلِّمَها ، وقد عمَّم النص أولاً :

ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ ، ثم خصَّصَ صاحبَ القرآن الكريم وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين .

ـ ﴿وَمِنكَ﴾ ثم عاد إلى أولي العزم من الرسل ، وهم أصحاب أكبر الرسالات ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ ، وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه .

ـ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ ، ووَصْفُ الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوي للفظ ميثاق ـ وهو الحبل المفتول ـ الذي استُعير للعهد والرابطة ، وفيه من جانب آخر تجسيم للمعنوي يزيد إيحاؤهُ للمشاعر ، وإنه لميثاق غليظ متين ، ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده ، ليتلقوا وحيه ، ويُبلِّغوا عنه ، ويقوموا على منهجه في أمانة واستقامة .

ـ ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ﴾ والصادقون هم المؤمنون ، فهم الذين قالوا كلمة الصدق واعتنقوا عقيدة الصدق ومن سواهم كاذب ، لأنه يعتقد بالباطل ويقول كلمة الباطل ومن ثم كان لهذا الوصف دلالته وإيحاؤه .

وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ النجيب الناجح عن إجابته التي استحق بها النجاح والتفوق أمام المَدعوِّين بحفل النتائج ، سؤال للتكريم وللإعلان والإعلام على رؤوس الأشهاد وبيان الاستحقاق ، والثناء على المستحقين للتكريم في يوم الحشر العظيم ، فأما غير الصادقين ، الذين

دانوا بعقيدة الباطل وقالوا كلمة الكذب في أكبر قضية يقال فيها الصدق أو يقال فيها الكذب ، قضية العقيدة ، فأما هؤلاء فلهم جزاء آخر حاضر مهيَّأ ، يقف لهم في الانتظار وأعدَّ للكافرين عذاباً أليماً[١] .

٣ ـ أصول الشرائع :

إنَّ وحدة الدين عند الله حقيقة ، وقد دلَّت عليها النصوص كما قال تعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى : ١٣] .

وقد اتفقت الشرائع في أصول التشريع غالباً؛ لأن مصدر التشريع واحد ، فقد شرع الله لعباده ما يُصلِح شأنَهم على امتداد رحلة البشرية ، وأرسل الله في كل أمة رسولاً وبشيراً ونذيراً ، ليجدِّد ما اندرس من معالم أصول الدين ، ويضيف بأمر الله ما يناسب كل قوم من شرائع في فروع الدين ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

إذن الاختلاف في فروع الشرائع وفي ميادين التطبيق العملية في كثير من الأصول ، ولكن يبقى الجوهر واحداً في رسالات الأنبياء ، فكل شريعة تصدِّق ما قبلها من الشرائع ، وتمهِّد لما بعدها ، وجاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة ، ومُهيمِناً عليها بما يشتمل عليه من استيعاب لجوانب الكون والحياة كلها ، وما يُصلح البشرية إلى قيام الساعة ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

ـ لنأخذ أمثلة من اتفاق أصول الشرائع :

أ ـ الصلاة :

ـ قال تعالى على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٤٠] .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٥/ ٢٨٣٠ .

ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ [المائدة: ١٢].

ـ وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

ـ وقال تعالى عن هذه الأمة المحمدية: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣]. فالاتفاق حاصل في أصل مشروعية الصلاة، ولكن الكيفيات والمواقيت ربما كانت مختلفة في الصُّوَر وميادين التطبيق(١).

ب ـ الزكاة:

ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤ ـ ٥].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥].

ـ وقال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

يلاحظ مدى ارتباط الزكاة بالصلاة في مواضع عدة من كتاب الله تعالى،

---

(١) زاهر بن عوض الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، مطبعة النرجس، السعودية، ط٢، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص ٣٧.

فالصلاة عبادة روحية بدنية ، والزكاة عبادة مالية ، وهما لازمتان لصلة العبد بربِّه وتزكية النفس والمال وتكافل المجتمع(١) .

ج ـ الصيام :

ـ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٨٣] . فالصيام فريضة قديمة على المؤمنين في الأمم السابقة ، كما تنصُّ عليه الآية(٢) .

د ـ القصاص :

ـ قال تعالى : ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة : ٤٥] .

ـ وجاء الإسلام ، فقال الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٨ ـ ١٧٩] .

فالقصاص عقوبة مُقرَّرة في جميع الشرائع الإلهية المتقدمة لضرورة حماية الأنفس وصيانة المجتمعات من الفوضى وانتهاك الحرمات(٣) .

هـ ـ الجهاد :

ـ قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

والمقاتلة دفاعاً عن النفس أو الدين أمر مشروع في الشرائع السابقة حسب

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٨ .
(٣) زاهر بن عوض الألمعي ، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ص ٣٩ .

مقتضيات الأحوال والظروف[١] ، وهذه بعض أصول الشرائع بين الأنبياء والمرسلين .

٤ ـ أصـول الإيمان :

اتفقت جميع الرسالات السماوية على أصول الإيمان على امتداد دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان قبل أن ينال منها التحريف والتبديل ، لأنها تتحدث كلها عن مُقرَّرات ثابتة لا يقوم الإيمان إلا بها ، فهي حقائق ثابتة لا تتطور ولا تتغير ولا يدخلها النسخ كما يدخل فروع الشرائع وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكد هذه الحقيقة .

ـ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

ـ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥ ـ ٦٦] .

ـ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

ولقد وجه الله النداء العام لبني آدم محذراً إياهم الشيطان ومهالك الغواية ، ومذكراً إياهم بأصل النشأة والمعاد فقال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٧ ـ ٢٩] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

وعقيدة الإيمان التي أمر الله بها الأنبياء والمرسلين ، ودَعَوا إليها مُخلِصينَ ، تشمل عناصر أساسية ، تُطهِّر القلبَ من بذور الشرك والوثنية ، وتربطه بالله عقيدة صافية نقية وهي :

ـ ما يجب الإيمان به من جانب الله تعالى : الإقرارُ بوجوده وخلقه وتدبيره وقضائه وقدره ، وإفرادُه بالوحدانية والعبادة ، ووَصفهُ بصفات الكمال والجلال مع الإقرار الكامل بكل ما وَصَفَ به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ(١) .

ـ إن أول ما دعا إليه المسيح عليه السلام هو الإيمان بالربوبية ووحدانية الخالق ، والإيمان برسالة الأنبياء والمرسلين ، وكانت هذه الدعوة أول ما نطق به في المهد، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠]، وكان كل هَمِّه بعد ذلك أن يدعو الناس إلى طاعة الله وعبادته له دون سواه .

ـ كان يُبيِّن لقومه أن الله هو ربه وربُّهم ، وأن الله هو رب الناس وملكهم وإلههم ، وكان يذكر لهم أن الاعتراف بالربوبية والألوهية هو السبيل القويم الذي يؤدِّي إلى النَّجاة ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف : ٦٣ ـ ٦٤] .

ـ من المعجزات التي حقَّقَها الله على يد المسيح لإثبات رسالته وصدقه في الدعوة إلى الإيمان بالله وبيان قدرة الله وقوته معجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمَهِ والأبرص وغير ذلك ، وبيَّن المسيح بأنه يفعل ذلك بإذن الله تعالى ، وسيأتي تفصيل ذلك في محلِّه بإذن الله تعالى ، والدليل على أن عيسى كان يحمل في رسالته وجوب الإيمان بجميع الرسل والنبيين ، دعوته إلى التصديق برسالة موسى والتصديق برسالة محمد ﷺ خاتم النبيين ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ

(١) الألمعي ، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ص ٣٢ .

هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

أ ـ أصول الإيمان «الإيمان بالبعث والقيامة والجنَّة والنَّار»:

جاءت عقيدة البعث في رسالة المسيح وفي رسالات غيره من النبيين، فقد أعلن هذه العقيدة منذ كان في المهد صبياً، إذ قال: ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

إن هذه الآية الكريمة تُبيِّن أن الله يوجِد الإنسان عامَّة في هذه الحياة الدنيا بطريق التناسل والولادة، وأن المسيح خاصَّة وُجد بطريق الولادة من غير أَبٍ، وأن عناصر تكوينه هي عناصر تكوين كل الناس، وكان كلامه في المهد هو الحجَّة على براءة أمه مريم من البغاء، وأن الله كما أوجده في هذه الدنيا في جسمٍ بشريٍّ، فإنه سوف يُميته كسائر البشر، وأنه سيُبعَث مثلهم، وأن مولده الخارق للعادة بقدرة الله تعالى، لا يعني خروجه مستقلاً عن القدر الذي قدَّره على البشرية جميعاً، وما جرى على فم عيسى في المهد في هذه الآية الكريمة هو إعلان لحقيقة البعث التي لا شكَّ فيها أنه قد آمن بها كل من سمع عيسى حينئذٍ من قوم مريم، ولا شكَّ أن هؤلاء نقلوا كلام المسيح الذي تفوَّه به في المهد إلى كل ما يلوذ بهم، وطبيعيٌّ أن لفظ البعث كان مفهوماً للمخاطَبين، أو لبعضهم، فلا يخلو هذا البعض من أنه سمع شيئاً عن البعث ممَّن كان مؤمناً برسالة النبيين من قبل، كيحيى وزكريا.

والمسيح عيسى ابن مريم فسَّرَ كلَّ ما يتعلق بعقيدة البعث بعد تكليفه بالرسالة، وبهذا شملت رسالته الجنة والنار، فمن آمن بالله واتبع رسوله وآمن برسالته دخل الجنة، وأما من كفر بذلك دخل النار، ولا شكَّ أن الإيمان بأن هناك جنَّة وناراً في دار الجزاء أصلٌ من أصول العقائد التي بُعث النبيون لبيانها، حتى يعلم كل فردٍ من الناس ما سوف ينتظره من الحياة الآخرة، فلا يستطيع أن يدَّعي عدم علمه بذلك وقتئذٍ، وحتى يحذر المؤمنون فيعبدون الله رغبة في ثوابه

ورهبة من عقابه ، ويُخلِصون في عبادته ولا يشركون بعبادة ربهم أحداً ، والدليل على أن المسيح عيسى ابن مريم أدَّى ما عليه من تبليغ كل هذا قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

ولقد ذكر الله لنا في القرآن الكريم أن كلاً من التوراة والإنجيل جاء فيهما ذكر الجنة ، كما جاء ذكرها فيما بعد في القرآن الكريم ، وأنه جاء في هذه الكتب المنزلة أن الله تعالى وعد المقاتلين في سبيل الله جنَّة الخلد ، وأنهم إذا فقدوا حياتهم في هذه الدنيا وأموالهم فإنهم سيحيون الحياة الحقيقية في الجنة ، وسينالون فيها ما لا يخطر على قلب بشر من النعيم الدائم .

وجاء هذا في قول الله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

ولقد ذكَّر المسيح الناس قُبيل تَوَفِّيه بكل ما يتعلَّق بيوم القيامة والحساب والجنة والنار ، وحذَّرهم من الخروج على طاعة الله وأكَّد لهم ما ذكره لهم طوال حياته معهم : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٥ ـ ٥٧] .

إن هذه الآيات الكريمة التي خاطب الله بها عيسى رسوله حملت بين ثناياها عقائد الآخرة والحساب والثواب والعقاب ، وخشية الله ورحمته ، ولهذا نحن على يقينٍ ، كما قدمنا ، أن المسيح تلا هذه الآيات باللغة التي كان يوحي الله بها

إليه ، إلى قومه بمجرد نزولها عليه[١] .

ب ـ من جملة العقائد التي جاءت في رسالة المسيح: الإيمان بوجود الملائكة والجِنّ:

جاء في قصةِ المسيح أن الملائكة مخلوقات خاصَّة لا تعصي الله ، وإذا كلَّفها الله بأمرٍ نفذته من غير تردُّد ، وأن الشياطين ـ وهم العُصاة من الجنّ ـ توسوس في صدور الناس .

أما ما جاء عن الملائكة في رسالة المسيح ، فهو أنه نفسه كان البُشرى التي بشّرت بها الملائكة أمَّه مريم ، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢] .

وأما ما جاء عن الشيطان في رسالة المسيح ، فهو ما جاء من دعاء امرأة عمران أن يُجنِّب الله ابنتها مريم وذُرِّيّتَها من وسوسة الشيطان ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦] .

إن قصَّة امرأة عمران وولادتها وولادة المسيح عيسى ابن مريم بما شملته من ذكر الملائكة والشيطان دليل على إيمان المسيحية الحقَّة وعيسى عليه السلام بوجود الملائكة والشياطين وكونهم من خلق الله تعالى .

والإيمان بوجود الملائكة عقيدة واجبة ، إذ لولاها لما آمن أحد بالوحي ولا آمن بملك الموت وبالوظائف المختلفة التي يكلَّف الملائكة بأدائها ، ولَمَا آمن بقصَّة آدم وسجود الملائكة له .

---

(١) الألمعي ، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ص ٣١٥ .

وكذلك الإيمان بوجود الجنِّ والشياطين أمرٌ ضروريٌّ لكل موحِّدٍ مؤمنٍ بالله تعالى سار على هدايات الأنبياء والمرسلين ، فإيمانُه بما يقوم به الشيطان من تضليل ووسوسة فرصة له للتزوُّد بالطاعات التي تقوِّي عزيمته وتمكِّنه من التغلُّب عليه ، فإن المرء إذا عرف عدوَّه أخذ حذره منه ، وكان دائماً على قدم من الاستعداد لمقاومته ، والتخلُّص من مكائده وحيله وغواياته ، والإيمان بوجود الشيطان واجب ، ليكون المؤمن على علمٍ بقصَّة الخلق الأول ، ونحن على يقينٍ أنه ما من نبيٍّ أو رسولٍ إلا عرَّف قومه بقصة آدم وزوجه وسجود الملائكة له ، وعصيان إبليس وتوعُّده بإضلال الناس أجمعين إلا عباد الله المخلصين[1] .

٥ ـ أصول الأخلاق والفضائل :

اتّصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل ، وفي مقدمتها؛ الصدق ، والأمانة ، والفطانة ، والبيان وغيرها ، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن أصول الدين وشرائعه الجامعة ، التي اتفقت عليها الرسل وهي مُتَّفَقٌ عليها في كل الديانات السماوية ومقرَّرة في كل الشرائع العادلة كالوصايا العشر المذكورة في سورة الأنعام ، قال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١ ـ ١٥٣] .

---

(١) الألمعي ، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ص ٣١٧ .

فهذه الوصايا العشر هي وصايا الله تعالى لبناء مجتمع إنسانيٍّ كامل يُبنى على أساس التعاون الإنسانيّ ، والمودَّة ودفع الأذى ووقاية المجتمع من الآفات ورعاية الضعفاء .

وفي الحق أن هذه الوصايا الإلهية التي هي وصايا النبي ﷺ يقوم عليها بناء المجتمع الإنساني السليم ، وبها تُحارَب الآفات الاجتماعية التي تتردَّى بها الجماعات في مهاوي التفرُّق والانحلال ، وفيها تطهير النفس والعقول من آفات الفكر ، وتطهير المجتمع من التقاطع والتنابذ ومنع الاعتداء بأيِّ نوعٍ من أنواعه ، وفيها التعاون على حماية الضعفاء ، وفيها إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه ، وفيها إقامة العدل في كل ضروبه الذي هو ميزان الحقوق والواجبات ، وفيها الوفاء بالعهود الذي هو رباط الجماعات الإنسانية مهما تختلف أجناسها وشعوبها وقبائلها وإن شئت أن تقول : إنّ فيها أكثر التكليفات الاجتماعية البانية والواقية وهي مُتَّفَقٌ عليها في كل الديانات السماوية ومقرَّرة في كل الشرائع العادلة ، وإن لم تكن فيها على هذا السموّ الرفيع كما جاء في القرآن[1] .

ـ الوصية الأولى : النهي عن الشرك :

قال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ .

ألا تشركوا به شيئاً هذا هو الأمر الأول الذي حرَّمه الله تعالى ، وهو أعظم الأمور وأقواها أثراً لأنه يتعلق بخالق الكون ومُنشِئِ الوجود وأصل الاعتقاد الديني ، وهو أول الشريعة وعليه اجتمعت كل الرسالات ، فالوحدانية لبُّ الإيمان والله يجعل كل السيئات قابلة للغفران إلا الشرك .

وإن الوحدانية فيها تطهير للعقول من رجس الأوثان ، والإذعان للإنسان

(١) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٥/ ٢٧٢٨ .

والأوثان ، وهي تربِّي العزَّة في المرء فلا يخضع إلا للواحد الأحد ، الفرد الصمد[١] .

ـ الوصية الثانية : الإحسان إلى الوالدين :

قال تعالى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ .

إن الإحسان إلى الوالدين برٌّ ممن جعلهم الله سبباً مادياً في وجود الولد ، ولذا قال تعالى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ، فهذا هو الأمر الثاني وهو الوصية بالوالدين ، والوصية بهما هي الإحسان إليهما ، والإحسان مرتبة أعلى من العدل ، إذ هو فوق العدل في الرحمة والرأفة ، فهو عدل ورأفة ووفاء وبرٌّ ، ولذلك كان الأمر بالإحسان بجوار الأمر بالعدل ، قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وقال تعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وإن الأمر بالإحسان يتضمن النهي عن الإساءة ، إذ هو نهيٌ عن الإساءة ، وأمرٌ بفضل العاطفة والمواساة والقرب وإحسان الصحبة .

وإن الله تعالى أمر بالإحسان إلى الوالدين مقترناً بالنهي عن الشرك في كثير من الآيات في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

وقرن الله تعالى شكر الوالدين بشكر الله وجمعهما معاً ، قال تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٤ ـ ١٥] .

---

(١) أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٥/ ٢٧٢٩ .

والإحسان إلى الوالدين شريعة النبيين أجمعين قد كُلِّفها بَنو إسرائيل ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣] ، فمن يعقُّ الوالدين فهو فاسق عن أمر الله ونهيه(١) .

ـ الوصية الثالثة : النهي عن قتل الأولاد :

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ .

هذه الوصية الثالثة ، وقد نزل سبحانه من إكرام الأصول والإحسان إلى الأولاد؛ لأنه أمرٌ فطريٌّ تتقاضاه المحافظة على النفس ، فالولد امتداد أبيه ، وما جاء القرآن بالأمر بالإحسان إلى الأولاد ، ولكن أمر الإسلام بالقيام على تربيتهم ورعاية شؤونهم ورزق أمهاتهم ، ولكن كان في وحشية الجاهلية من يئد بناته بغياً بغير علم ، وكان من يفعل ذلك وغيره لإملاقهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ .

وقد نهى الله تعالى عن ذلك الإثم الجاهليّ وهو من إغواء الشياطين ، ولعلَّه كان يسهُل على الذين يفعلونه كونُ الولدِ بعد في المهد أو عقب ولادته ، فلم يكونوا تعلقوا به تعلُّق الآباء بالأولاد ، وكانوا يفعلون ذلك سفهاً بغير علم ، ولم يكونوا قد ذاقوا محبتهم بالإلف والتودُّد ، وقد قال تعالى في بيان أن الفقر والإملاق لا يُسوِّغُ قتل الأولاد ، لأنهم لا يرزقوهم ولكن يرزقهم الله ، ولذلك قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أي نحن نرزقكم معهم كما رزقناكم أنتم ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] .

وقد قرَّر مجمع البحوث الإسلامية المنعقد في الأزهر سنة (١٩٦٥م) أن الإسلام يرغِّب في النسل؛ لأنه يقوِّي الأمة اجتماعياً واقتصادياً وحربياً ،

---

(١) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٥/ ٢٧٣٠ .

ويربِّي في الأمة روح العزة والمنعة ، وقرَّر أن تنظيم النَّسل حَقٌّ للزوجين دون غيرهما يستعملانه للضرورة ، ومسؤوليتهما عن الضرورة أمام الله وحده[١] .

ـ الوصية الرابعة : الابتعاد عن الفواحش وعدم الاقتراب منها ما ظهر منها وما بطن :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ .

هذه الوصية الرابعة ، وهي تتصل بالنهي عن الفواحش ، والفواحش هي المعاصي؛ لأن فيها انحرافاً ، والأصل في الفحش الزيادة عن المعقول والفطرة ، والخروج عن مناهجها ، وعن الطريق المستقيم ، وما ظهر : ما يُعلَن ويُجهَر به ، والجهر بالمعصية في ذاته حرام ، وما بطن : أي ما استُتر ولم يُجهر به وهو إثم ، ولكنه دون إثم المجاهرة ، ومن يجهر بالمعاصي فإنَّ ما يفعله إثمان ، إثم الفعل وإثم المجاهرة[٢] .

ومن المعاصي ما يستتر استتاراً؛ لأنه من خلجات القلوب ، ولم يظهر إلا لعدول صاحبه ، ولكنه فوجئ بما فوَّت عليه مقصده ، كمن بيَّت الاعتداء أو الزنى واتجه إلى الفعل ، ولكن فات عليه ارتكابها لأمرٍ خارجٍ عن إرادته ، فإنه يكون أبطن معصيته ولكن لم يمكَّن من ارتكابها رغماً عنه ، لا مريداً ، فإن من الآثام ما يكون باطناً ، وعليه الإثم ، وكمن يهاجر إلى مكانٍ لا يريد الهجرة لله أو لعملٍ صالح ، ولكن يريد الفسق والفجور أو البغي ، فإن هذا يكون فاحشة مما بطن ، وهذا النصُّ مثل قول الله تعالى : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ [الأنعام : ١٢٠] [٣] .

---

(١) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٥/ ٢٧٣٢ .
(٢) المرجع السابق ، ٥/ ٢٧٣٢ .
(٣) المرجع نفسه ، ٥/ ٢٧٣٣ .

ـ الوصية الخامسة : النهي عن قتل النفس بغير حقّ :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ .

هذه الوصية الخامسة التي أوصى بها ربُّ العالمين وهي النهي عن قتل النفس التي حرَّم الله تعالى قتلها إلا بالحق ، فيكون القتل بحق ـ أي بسببٍ ـ يوجب القتل .

وهذا النصُّ يفيد تحريم قتل النفس أساساً ، فهي على أصل المنع إلا أن يكون ثمَّة موجب لذلك ، فإن ذلك يكون لحماية النفوس العامة ، وقد قتل قابيل أخاه هابيل حسداً وبغياً ، قال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا . . . ﴾ [المائدة : ٣٢] .

فالقتل حرام إلا إذا كان ما يبرِّره فيكون بحق ، ومن الحق الذي يُوجب القتلَ ويُحِلُّ النفسَ أن يقتل غيرَه أو أن يبغي ، أو أن يحارب الله ورسوله وهم قطَّاع الطريق وأهل الحرابة ، وإن النهي عن قتل النفس عام ، لأن الله تعالى حرم قتلها فقوله تعالى التي حرَّم قتلها فيه الصلة ، وهي علَّة النهي ، فقتلها منهيٌّ عنه ، لأن الله حرمها(١) .

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الإشارة إلى المذكور من النهي عن الشرك والأمر بالإحسان إلى الوالدين ، والنهي عن قرب الفواحش وهو نهي عن المقاربة لا عن الوقوع ، لأنه نهي عن أن يدنوَ منها ، فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه ، والنهي عن القرب يدل على النهي عن الوقوع ، والإشارة تشمل النهي عن قتل النفس ، فهذا كله من وصايا الله سبحانه وتعالى ، ووصايا الله جديرة بالاتباع ، وقوله ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي لكي تكونوا متذكرين ، والتوصية هي الطلب المُؤكَّد من العباد(٢) .

---

(١) المرجع نفسه ، ٥/ ٢٧٣٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ٥/ ٢٧٣٥ .

ـ الوصية السادسة : تحريم أكل مال اليتيم :

قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ .

نهى الله تعالى أن يقربوا مال اليتيم أو يأخذوه إلا بما يحفظه وينميه ، لأنه فقد من يحميه ، فقد الأب الحامي الذي يأخذ بيده إلى مدارج الحياة ، فنهى الله عن التعدي على مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، كما أن المال أمانة في يد وصيِّه وفي رعاية الأمة مجتمعة ممثَّلة في قاضيها حتى يبلغ أشدَّه ، أي يبلغ السن التي يقدِر فيها على المحافظة على ماله والقيام على شؤونه في خاصة نفسه وفي معاملته ، وقد شدَّد الله تعالى في الوصية باليتامى في أموالهم وأشخاصهم لأنهم ضعاف[١] .

ـ الوصية السابعة : الإيفاء بالكيل والميزان بالقسط :

قال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ .

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ أي بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع والشراء ، والقسط : العدل ، ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ أي طاقتها في إيفاء الكيل والوزن . وهذا يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز وما لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين ، ولا يدخل تحت قدرة البشر فمَعفُوٌّ عنه . وقيل : الكيل بمعنى المكيال . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنكم معشر الأعاجم قد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم : الكيل والميزان .

ولقد أوصى الله تعالى بالإيفاء بالكيل والوفاء بالوزن في الموزون بالقسط ، من غير بخسٍ ولا شطط ، ولا زيادة ولا نقصان ، بل للناس من وفاء الكيل بمقدار ما تطلب وتعطيهم من الوزن بمقدار ما تطلب ، لو كنت طالب الكيل

---

(١) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٥/ ٢٧٣٦ .

والميزان وذلك على حسب الطاقة في تحرِّي الحق في مكيل غير منقوص ، وموزون غير مبخوس ، وكان الأمر بالوفاء ، لأنه المطلوب ، فالزيادة غير مطلوبة إلا من أهل السماحة ، والنقص مُحرَّم ممنوع ، وإن الوفاء في الكيل والميزان يرمز إلى حسن التعامل بين الناس ومنع أكل أموالهم بالباطل(١) .

ـ **الوصية الثامنة : العدل وقول الحق :**

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ .

أمر الله تعالى بالعدل في القول ، وألا نقول إلا عدلاً ، ولذا قال : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ ﴾ ، والعدل في القول تحرِّي الحق فيه ، فلا ينطق بأمر لا يكون حقاً .

والعدل في القول يشمل الحكم بين المُتخاصِمينَ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ [النساء : ٥٨] ، ويشمل الفصل في الخلافات بين الناس ، فلا يقول إلا الحق ، لأن الحقَّ يحسم النزاع ، ويقطع دابر الخلاف ، ويشمل القول في الشهادة ، فلا ينطق إلا بما رأى وعاين ، فإن الشهادة حكم أو هي طريق الحكم ودليله ، وإذا قلت في مباراة فكن عادلاً ، وإذا قلت في امتحانٍ فكن عادلاً ، لأن الامتحان تقدير كفاية فهي حكم .

والعدل ميزان الحق في معاملات الناس وأحوالهم ، والإسلام دين العدل ، وإذا كان لكل دين سِمة ، فسِمة الإسلام هي العدل ولذا قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] ، لذا كان العدل رابطة الجماعة وميزانها ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ، أي ولو كان الذي يقوم عليه العدل في القول في حكم أو شهادة أو فصل في خصومة ، أو مباراة أو امتحان ، فإنَّما العدل حيث تتنازع العواطف ، وتَمَلُّكُ النفوس هو فعل الأبرار ، وهو

---

(١) المرجع نفسه ، ٥/ ٢٧٣٧ .

المقياس الذي تتفاوت به مراتب العُدول ، وإذ كان العدل ميزان الترابط بين الجماعات في الأمة ، فالوفاء بالعهد ميزان العدالة في الأمم(١) .

ـ الوصية التاسعة : الوفاء بالعهد :

قال تعالى : ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ .

تطلب هذه الوصية من الناس أجمعين الوفاء بالعهد ، وقوله تعالى : ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ قدم فيه (بعهد الله)؛ لأهمية الوفاء بعهد الله ، ولمعنى الاختصاص ؛ أي احرصوا على الوفاء بعهد الله دون غيره .

وعهد الله تعالى الذي يتجه إليه ما عهده إلى بني آدم من فطرة مستقيمة أنشأهم عليها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ وإن تكليفات الله تعالى للعِباد عهودٌ عليهم .

والعهود بين العباد عهود الله تعالى عليهم؛ لأنهم عادة يوثقونها بأيمانهم ، وقد قرر سبحانه وتعالى ذلك وقال : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، فهذه الآية تحث على الوفاء بما يكون من العهود بين الآحاد والجماعات ، وهي تدل على ثلاثة أمور :

* **أولها** : أن من وَثَّقَ عهدَه بالله فقد جعل الله تعالى كفيلاً بالوفاء ، والخيانة أو خفر العهد خيانة لله تعالى .

* **ثانيها** : أن الوفاء بالعهد يُقوِّي الأمةَ فيجعل الناس يثقون بها ، وتلك قوة ، ولذلك شبه الله تعالى من ينقض عهده بالحمقاء التي تنقض ما فتلته من غزل ، فتجعله أنكاثاً شعراً متفرقاً .

---

(١) أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٥/ ٢٧٣٩ .

* **ثالثها**: أنه لا يصح أن تكون الرغبة في زيادة الأرض والسلطان سبباً لخيانة العهد; لأن ذلك ظلم وطغيان ، وفَقْدٌ لقوّةٍ أكبر وأعزَّ من النكث في العهد والخيانة ، وصدق ما قاله ابن عباس فيما نقلنا: (ما خفرَ قومٌ في العهد إلا سلَّطَ الله تعالى عليهم عَدوَّهم) [١].

ـ الوصية العاشرة: اتباع الصراط المستقيم:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم; فإنه لما نهى الله وأمر حذَّر هنا عن اتّباع غير سبيله ، فأمر فيها باتباع طريقه ، فكل الوصايا أو جماعها هي طريق الله تعالى ، وهي طريق مستقيم ، وقوله ﴿صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ فالصراط: الطريق وهو دين الإسلام ، ومستقيماً: حال من اسم الإشارة ، ومعناه مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه ، فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد ﷺ وشرعه ونهايته الجنة ، وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار ، إذن الطريق المستقيم هو صراط الله ، وهو الخط الذي بيَّنه الله تعالى لعباده يجيء بجواره سُبُلٌ مختلفة هي مثارات الشيطان يُضِلُّ بها عباد الله تعالى عن الطريق المثلى ، والمنهاج السويّ الهادي.

إن هذا الصراط هو جماع التوصيات ، لذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي رجاء أن تمتلئ قلوبكم بتقوى الله تعالى ، وأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية ، ولعلكم ترجونَ رحمته بعد خوف عقابه ، فإن الله غفار لمن تاب وأمن وعمل صالحاً ثم اهتدى[٢].

إن هذه الوصايا مُجمَع عليها في الأديان ، وهي الأساس النفسي والعملي

---

(١) أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٥/ ٢٧٤٠ ـ ٢٧٤١.
(٢) أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٥/ ٢٧٤٣.

لتكوين الجماعات الفاضلة ، وقد جاءت بها الأديان كلها ورضيتها الشرائع الوضعية المستقيمة[١] .

٦ ـ التفاضل بين الرسل :

قال تعالى : ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. في قوله: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ ﴾ ، فالمراد به موسى عليه السلام ، إذ هو المشتهر بين الأنبياء صلوات الله عليهم بالتكليم ، حيث قال تعالى له: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وقال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال تعالى في حق عيسى ابن مريم: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال تعالى في حق عيسى: ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وروح القدس هو جبريل في أظهر الأقوال ، فمن كان تأييد الله تعالى له من الأنبياء بالملائكة أكثر وأظهر كان أفضل ، وعند بعض العلماء: وأيده بروح القدس أي: بروح الإيمان ، فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره ، فحصل له القوة والتأييد ، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عامّاً لكل مؤمن بحسب إيمانه ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، ولكن ما لعيسى أعظم ممَّا لغيره ، لهذه خصَّه بالذكر ، وعليه فكلٌّ من كان تأييد الله له من الأنبياء بالإيمان أعظم وأقوى كان أفضل[٢] .

وحين يذكر الله تكليمه لأحد ينصرف الذهن إلى موسى عليه السلام ، ومن ثم لم يذكره باسمه في هذه الآية ، وذكر عيسى ابن مريم عليه السلام ، وهكذا

---

(١) المرجع نفسه ، ٥/ ٢٧٤٠ .

(٢) علي محمد الصّلابيّ ، الإيمان بالرسل والرسالات ، ص ٢٠٩ .

يرد اسمه منسوباً إلى أمه في أغلب المواضع القرآنية ، والحكمة في هذا واضحة ، فقد نزل القرآن وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى عليه السلام وبُنُوّتِه لله سبحانه وتعالى ، أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة في الكأس إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي أغرقت الكنائس والمجامع في الجدل حولها ، وجرت حولها الدماء أنهاراً في الدولة الرومانية ، ومن ثم كان هذا التوكيد الدائم على بشرية عيسى عليه السلام ، وذكره في معظم المواضيع منسوباً إلى أمه مريم .

وأما روح القدس فالقرآن الكريم يعني به جبريل عليه السلام ، فهو حامل الوحي إلى الرسل ، وهذا أعظم تأييد وأكبره ، وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذّ العظيم ، وهو الذي يُثَبِّتُهم على المضيِّ في الطريق الشاقِّ الطويل ، وهو الذي يتنزَّل عليهم بالسكينة والتثبيتِ والنصر في مواقع الهول والشدَّة في ثنايا الطريق ، وهذا كلُّه التأييد .

أما البيانات التي أتاها عيسى عليه السلام ، فتشمل الإنجيل الذي نزل عليه كما تشمل الخوارق التي أجراها على يديه والتي سيرد ذكرها مفصلة بإذن الله تعالى تصديقاً لرسالته في مواجهة بني إسرائيل المعاندين[١] .

وأفضل الرسل أولو العزم ، فقد امتدحهم الله عز وجل بالعزم وخصَّهم بالذكر من بين رسله ، وأمر نبيه محمّداً ﷺ ، وقد فضله على جميع خلقه ، أن يقتدي بهم قال تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

فأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين هم أولو العزم ، وأولو العزم هم خمسة كما مرَّ معنا : محمد ،

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٨٣ .

ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وهم الخمسة المذكورون نصّاً في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب : ٧] .

وفي قوله سبحانه : ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى : ١٣] ، فقد خصَّهم الله عز وجل بالذكر في هاتين من بين الأنبياء ، وهو تنبيه إلى فضلهم بين سائر الأنبياء ، وقد خصَّهم سبحانه بالذكر في ذكره أعظم الأمور وأفضلها وأغلظها وهو الميثاق الذي قال فيه : ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء : ١٥٤] .

والوصايا التي شرعها لخلقه وذلك ما أخذ على جميع النبيِّين ، وبعث به جميعَ النبيِّين ، وهو العهد الذي بين الله وخلقه ، وهو إقامة الدين وعدم التفرق فيه ، وإسلام الوجه له ، والدعوة إلى ذلك ، والمجاهدة فيه ، والموالاة فيه والبراءة فيه . وهؤلاء الخمسةُ ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أكمل وأعظم من قام بهذا الميثاق ، ولذا خصُّوا بالذكر[١] .

ثامناً: الإسلام دين الأنبياء والمرسلين وأتباعهم المخلصين:

إنَّ الإسلام هو دين الله الخالد الذي لا يقبل الله سواه ، وهو الذي فرضه الله على البشر ، منذ خلقهم ، جاء به آدم ، وإدريس ونوح وإبراهيم وآل إبراهيم وآل عمران ، وأنه تمَّ برسالة خاتم النبيين ، وأن هذا الدين جاء به النبيون لأنه هو الدين الوحيد الذي يدعو إلى الوحدانية الخالصة التي لا يشوبها أدنى شرك .

وهو الدين الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام العامة التي لا تتغير بتغيُّر الزمان أو المكان أو بتغير أحوال الناس في سلسلة حياتهم الإنسانية على وجه

---

(١) الصّلابيّ ، الإيمان بالرسل والرسالات ، ص ٢١٣ .

الأرض مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم ، ومهما تغيرت مهنهم وحرفهم وثقافتهم في الحياة الدنيا(١) .

إن جميع الأنبياء والمرسلين قد بعثهم الله بعقيدة الإسلام التي كانت تتلاءم مع البشرية والإنسانية على مرِّ القرون والعصور مع اختلاف البيئات ، وبالرغم من تقلُّبات الزمان وتغير عقليات الناس قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل .

ولم يشأ الله تعالى بفضله ورحمته وكرمه أن يترك خلقه في ظلامات الجهل ، تعبث بهم الأهواء وتضلُّهم المطامع والأغراض ، فأرسل إليهم الأنبياء والمرسلين على توالي القرون والعصور ، يبيِّنون لهم سُبلَ الرشاد ، ويمدُّونهم بالتعاليم التي تقوِّي عزيمتَهم ، ويزوِّدونهم بالأفكار الصالحة التي يستطيعون أن يهتدوا بهديها والتي تساعدهم على التمييز بين الظلام والنور ، وبين الهداية والضلال ، وبين الطريق المستقيم والطريق المعوجّ الذي يؤدي إلى الهلاك والفشل والدمار(٢) .

١ ـ نوح عليه السلام والرسل من قبله كانوا على الإسلام :

بيَّن الله تعالى في كتابه الكريم أن نوحاً والرسل والنبيين عليهم السلام من قبله كانوا يعتنقون الدين الإسلامي ، وأن هذا مصرَّحٌ به في قوله تعالى للرسول الكريم خاتم النبيين ﷺ : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧١ ـ ٧٢] .

وإن في قول نوح ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، لدليل على أن الإسلام

---

(١) محمد وصفي ، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨ه ، ١٩٩٧م . ص ٣١٨ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢١٩ .

كان دين من كان قبله ، وأن ما قاله نوح هو عين ما قاله محمد رسول الله ﷺ ، خاتم النبيين إذ قال : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٩١] ، فقد أمر خاتم النبيين أن يكون من المسلمين ، كالذين سبقوه من المؤمنين برسالة الدين الإسلامي ، كنوح والنبيين من قبل نوح ، والنبيين من بعد نوح ، كما سنبين بإذن الله تعالى .

٢ ـ إبراهيم عليه السلام كان ممن حمل رسالة الإسلام بعد نوح :

لقد كان إبراهيم ممن حمل رسالة الدين الإسلامي من بعد نوح ، فقد قال تعالى بعد أن ذكر في سورة الصافات قصة نوح ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات : ٨٣] .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ ـ ١٣١] .

٣ ـ إسماعيل عليه السلام يحمل رسالة الإسلام مع إبراهيم :

ولقد حمل إسماعيل رسالة الإسلام مع أبيه إبراهيم وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٨] [(١)] .

٤ ـ دين لوط عليه السلام هو الإسلام :

ذكر الله أن لوطاً عليه السلام آمن بالإسلام الذي آمن به إبراهيم قال تعالى : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٦] ، وصرَّح الله تعالى بأن دين لوط هو الإسلام في قوله تعالى في مناسبة إهلاك قريته : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات : ٣٥ ـ ٣٦] .

---

(١) محمد وصفي ، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل ، ص ٣٢٠ .

٥ ـ إسحاق ويعقوب والأسباط مسلمون:

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢ ـ ١٣٣].

٦ ـ يوسف كان مسلماً:

وكان يوسف عليه السلام مسلماً يدعو ربه أن يميته على الإسلام قال تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

٧ ـ موسى يدعو قومه إلى الإسلام:

وكان موسى عليه السلام يعتنق الإسلام ويدعو قومه إليه، قال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٣ ـ ٨٤].

ولقد بين الله أن سحرة فرعون آمنوا برسالة الإسلام التي جاء بها رسول الله ﷺ، إذ قالوا لفرعون حين هدَّدهم بالتقتيل ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٥ ـ ١٢٦] (١).

٨ ـ أنبياء بني إسرائيل يدعون إلى الإسلام:

وذكر الله أن أنبياء بني إسرائيل يدينون بالإسلام وهو قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ

(١) محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص ٣٢٢.

وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وتبين الآية الكريمة أن الربانيين والأحبار كانوا كذلك مسلمين.

٩ ـ داود وسليمان يدعوان إلى الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أن سليمان عليه السلام بُعث إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، دين التوحيد الخالص وذلك في رسالة أرسلها إلى ملكتهم ملكة سبأ، إذ كانت هي وقومها: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

وأخبر الله تعالى أن بلقيس ملكة سبأ تلت هذه الدعوة على قومها، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣١].

وذكر الله تعالى أن ملكة سبأ اعتنقت الإسلامَ، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

١٠ ـ المسيح عيسى ابن مريم يدعو إلى اعتناق الإسلام:

وأرسل الله تعالى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام برسالة الإسلام فكان يدعو قومه إلى اعتناق هذا الدين، المؤسَّس على الاعتراف بالخالق ووحدانيته، قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣].

وذكر الله تعالى أنه هو الذي أوحى إلى الحواريين، باعتناق الإسلام، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وطبيعيٌّ أن الحواريين ظلوا يدعون الناس إلى الإسلام بعد المسيح، فآمن

منهم من آمن وكفر منهم من كفر ، وظل المؤمنون منهم معتنقين للإسلام مؤمنين بالله الذي لا إله إلا هو ، لا يحيدون عن دين التوحيد الحقيقي ، يتوارثون هذه العقيدة الصحيحة جيلاً بعد جيل حتى أدركوا زمن خاتم النبيين(١) .

١١ ـ استمرار الإسلام حتى نزول القرآن الكريم :

إن استمرار الإسلام حتى نزول القرآن الكريم ، وبقاء قوم يؤمنون بالدين الذي اعتنقه المسيح من قبلُ والحواريون ودعوا إليه ، واستمرار ذلك حتى الزمن الذي بدأت فيه دعوة خاتم النبيين ، يدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص : ٥١ ـ ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٤ ـ ٥٥] .

١٢ ـ محمد عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الإسلام :

نزل القرآن الكريم على الرسول الكريم ﷺ حامل رسالة الإسلام ، فكان هو أول من آمن به ، وهو قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

ومن الطبيعي أن يؤمن الرسول بما أنزل إليه من ربه قبل أن يدعو الناس إلى الإيمان به ، ولهذا أمره الله تعالى أن يؤمن بالإسلام أولاً ثم يدعو الناس بعد ذلك أن يسلموا ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الزمر : ١١ ـ ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ

(١) محمد وصفي ، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل ، ص ٣٢٣ .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

لقد كان الرسول الكريم محمد ﷺ أول المسلمين بالنسبة للوقت الذي كلف فيه بحمل رسالة الإسلام ، وإلا فهو بالنسبة لاعتناق الإسلام على وجه عام ليس بسابقٍ للنبيين والمرسَلِين في اعتناقه ، فقد نطق بنفس اللفظ الذي نطق به نوح عليه السلام من قبل كما قدمنا وقال: ﴿. . . وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

والرسول الكريم محمد ﷺ مع أنه أول المسلمين في قومه إلا أنه بالنسبة للعلاقة الدينية بينه وبين جدِّه إبراهيم كان معتنقاً للدين الذي كان يعتنقه كذلك إبراهيم من قبل ، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣] ، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣] (١).

والرسول الكريم محمد ﷺ مع أنه خاتم النبيين ، وأنه الرسول الذي أكمل الله برسالته الدين ، إلا أنه حسب العلاقة الدينية بينه وبين جميع النبيين والمرسلين من قبله يتميَّزُ عنهم بالنسبة لعمل رسالة الإسلام واعتناقها والدعوة إليها ، فالإسلام هو دين الله الذي فرضه على الجنس البشري في سلسلة حياته الإنسانية ، منذ خلق الإنسان على وجه الأرض ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولهذا يقول الله جل شأنه لخاتم النبيين ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ

(١) محمد وصفي ، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل ، ص ٣٢٥.

أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤] (١).

لقد أخبر الله متَّبعي رسالة خاتم النبيين أنهم سمُّوا مسلمين حسب تسمية إبراهيم لهم من قبل، قال جل شأنه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٨].

ونرى الحكمة من تسمية أتباع محمد بالمسلمين؛ أنَّ محمداً ﷺ هو خاتم النبيين، وأنه به تمَّت رسالة الإسلام، وأن أتباع محمد ﷺ هم الذين سيحملون لواء الإسلام إلى آخر الزمان، ليبقى اسم الإسلام هو الإسلام الباقي الخالد، الذي يحمل في معناه حقائق الدين والعقائد الصحيحة التي تُوجِّه الناس إلى سعادة الدَّارين.

وليكن لفظ الإسلام هو اللفظ الذي يضم بين طيَّاته جميع العقائد التي أتى بها المرسلون والنبيون عبر التاريخ، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ومن نعم الله على البشر أن أرسل إليهم الرسل عبر التاريخ الإنساني متعاقبين ومتواترين، يحملون رسالة الإسلام، ويذكِّرونهم بدينهم قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل. قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٥] (٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٢٦.
(٢) محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص ٣٢٨.

تاسعاً: تصديق عيسى عليه السلام لما بين يديه من التوراة:

أخبر الله بأن عيسى عليه السلام مصدَّقٌ لما بين يديه من التوراة في مواضع مختلفة من كتابه العزيز ، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦] ، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

إذن فدعوة عيسى مكمِّلة لشريعة موسى عليه السلام ، وموضِّحة لها وامتداد لها ومصحِّحة لما طرأ عليها من انحرافات وضلالات مع توالي الحقب والأزمان ، كما أنه عليه السلام قد أتى ببعض التخفيفات والتسهيلات لبني إسرائيل ، قال تعالى حكاية لقول عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ، ولهذا كان المفهوم الطبيعي للنصرانية أن تحكم بشريعة التوراة مع مراعاة التعديلات الواردة في الإنجيل(١).

١ ـ التوراة:

هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام ، وتتضمن التوراة ـ على الأرجح ـ الصحف التي أنزلت على موسى عليه السلام ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصحف بقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩] ، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦].

كما يتضمن الألواح التي جاء بها موسى بعد مناجاته لربه في جانب الطور ، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

---

(١) عبد الرزاق بن عبد المجيد ، مصادر النصرانية ، دار التوحيد ، الرياض ، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م ، ١/ ٦١.

ولفظ (التوراة) لفظ عبراني معناه (التعليم أو الشريعة) ، والقرآن الكريم جاء مصدقاً للكتب السماوية السابقة ، ومهيمناً عليها ، ومنها التوراة والإنجيل ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٤] ، فالإيمان بالتوراة التي أنزلها الله على موسى أصل من أصول الإيمان؛ لأنها من كتب الله المنزلة التي ذكرها القرآن الكريم وأمرنا بالإيمان بها(١) .

٢ ـ أوصاف التوراة في القرآن الكريم :

وصف القرآن الكريم التوراة بصفاتٍ إيجابية ، حيث مدحها وأثنى عليها ، واعترف بفضلها ، وهذا أمر طبيعيٌّ لأن القرآن من عند الله ، والتوراة أيضاً من عند الله ، أنزلها على عبده موسى عليه السلام ، ولذلك أثنى كلام الله اللاحق على كلام الله السابق ، وجاء القرآن مصدقاً للتوراة بهذا الاعتبار ، وننظر فيما يلي في الآيات القرآنية التي وصفت التوراة بصفات إيجابية :

أ ـ أوصاف التوراة في سورة الأعراف :

قال تعالى : ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٥] .

تثني هذه الآية على التوراة التي كتبها الله لموسى عليه السلام ، حيث أخبر الله فيها أنه كتب لموسى عليه السلام في الألواح ﴿ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ، وجعلها ﴿ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ، وطالب قومه أن يأخذوا بأحسنها ، وهذه صفات ثلاث للتوراة ، موعظة ، وتفصيل لكل شيء ، وأنها حسنة(٢) .

---

(١) الألمعي ، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ص ٢٦٢ .

(٢) صلاح الدين الخالدي ، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل ، دار النفائس ، عمَّان ، الأردن ، ط١ ، ١٤٣٨هـ ، ٢٠١٧م . ص ٦١ .

ب أوصاف التوراة في سورة الأنبياء :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٨ ـ ٤٩] .

وصف الله التوراة بصفات ثلاث :

* **الوصف الأول** : أنها فرقان ، والفرقان : من التفريق بين الحق والباطل ، وكل كتب الله النازلة على رسله فرقان بهذا المعنى .

* **الوصف الثاني** : أنها ضياء ، والضياء هو النور والإشراق ، ووصفت التوراة بأنها (ضياء) ؛ لأنها يستضيء بها المُتَّقون ، ويبدِّدون بها الظلام الذي حولهم ، ويعرفون الحق من الباطل ، ويكونون على بصيرة .

* **الوصف الثالث** : أنها ذكر ، والذكر من التذكير وهي ذكر للمؤمنين ، لأنها تذكرهم بما أوجب الله عليهم من الواجبات ، ومانهاهم عنه من المَنهيّات ، يتذكرونها عندما ينظرون في التوراة ، فيلتزمون بها ، ويطيعون الله من خلالها ، وهي ذكر من وجهٍ آخر : فبها يذكرون الله سبحانه وأفضل أنواع ذكر الله قراءة كتابه والتدبُّر فيه[1] .

ت ـ أوصاف التوراة في سورة الأنعام :

قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

وقد وصفت التوراة في الآية بثلاث صفات :

* **الصفة الأولى** : أنها كتاب : وذلك من جملة ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ ، وهي كتاب ؛ لأن الله كتبها على الألواح ، وأنزلها على موسى عليه

(١) صلاح الدين الخالدي ، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل ، ص ٦٣ .

السلام ، وهي أحد كتب الله الأربعة التي يجب الإيمان بها مفصلاً: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

* **الصفة الثانية**: أنها نور: أنارَت لبني إسرائيل طريقهم وجعلتهم يسيرون على بينة وبصيرة في طريق الإيمان.

* **الصفة الثالثة**: أنها هدى: فالله جعلها هدى للناس ، يهتدون بها للحق ، وهي تأخذ بأيديهم وترشدهم ، وتدلُّهم وتقودهم إلى الخير ، وتحذِّرهم من الخطر والشر ، وتبيِّن لهم الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى مرضاة الله[١].

ث ـ التوراة تامَّة ومفصَّلة وهدى ورحمة:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

آتى الله رسوله موسى عليه السلام التوراة ، وجعلها (تماماً) أي: تامة في أحكامها وشريعتها ، تُلبِّي حاجات بني إسرائيل ، وهي كافية لهم بهذا الاعتبار ، والذين يستفيدون منها هم المحسنون الذين يريدون أن يُحسنوا في عبادتهم لله ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ ، وفسَّر كلمة (تماماً) بقوله بعدها ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي: أن معنى كونها (تماماً) أنها تفصيل لكل شيء يحتاجه بنو إسرائيل في حياتهم ، وجعلها الله هدى يهتدي به بنو إسرائيل ، كما جعلها رحمة لهم رحمهم بها عندما أنزلها عليهم ، وبيَّن لهم فيها الأحكام[٢].

ج ـ التوراة إمام ورحمة:

قال تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

---

(١) الخالدي ، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل ، ص ٦٧.
(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٧.

وقد تحدثنا عن وصف التوراة بالرحمة فيما سبق ، والجديد في الآية وصفها بأنها إمام ، والإمام هو المرجع الذي يرجع الناس ويحتكمون إليه ، ويلتزمون به ويسيرون خلفه ، وقد يكون الإمام شخصاً يؤتمُّ به ، كالإمام الحاكم المسؤول القدوة ، والإمام الذي يؤمُّ الناس في الصلاة ، وقد يكون إماماً معنوياً ، كالكتاب الذي يتحاكمون إليه ويلتزمون بما فيه .

وكل كتاب أنزله الله فهو إمام يُرجَع إليه ويأتمُّ به الناس ، فالتوراة إمام والإنجيل إمام والقرآن إمام بهذا الاعتبار ، وجمعت الآية بين كون التوراة إماماً وكونها رحمةً لبني إسرائيل ، لأن إمام الهدى والخير رحمة للمأمومين يُقدِّم الخير لهم ويقودهم إليه[١] .

ح ـ التوراة كتاب حكم :

قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقد تحدثنا عن وصف التوراة بالنور والهدى والصفة الجديدة للتوراة في الآية أنها (كتاب حكم) أنزلها الله ليتحاكم إليها الناس ويُطبِّقوا ما فيها من أحكام وتشريعات ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ .

وتدل الآية على أن أنبياء بني إسرائيل كانوا مأمورين بالتزام التوراة وتطبيق أحكامها على بني إسرائيل ، لأن الله أنزل التوراة على موسى عليه السلام قبلهم ، وهذا معناه أن بني إسرائيل كانوا مطالبين بالتوراة عدَّة قرون ، وأنها كانت رسالة كل نبي بعثه الله إلى بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهم السلام[٢] .

---

(١) الخالدي ، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل ، ص ٦٩ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٧١ .

خ ـ القرآن مصدِّق للتوراة الربانية :

صفات المدح المذكورة في القرآن الكريم هي للتوراة الربانية التي نؤمن أنها من عند الله ، وأنها كتابه الذي أنزله على موسى عليه السلام ، فالتوراة الربانية هي الضياء والنور ، والهدى والرشاد ، والفرقان والبركة ، وهي التي فيها أحكام الله لبني إسرائيل ، وهي التي حكم بها النبيون اليهود ، ونفَّذوا أحكامها فيهم ، والتوراة الربانية هي التي جاء القرآن مصدقاً لها ، وكان الإنجيل قبله مصدقاً ومكمِّلاً لها ، والتي كان عيسى ابن مريم مصدِّقاً لها وجاء الرسول الخاتم محمد ﷺ مصدقاً لها .

ـ قال تعالى عن تصديق عيسى للتوراة الربانية : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠] ، ومعنى (ما بين يدي من التوراة) ما سبقني من التوراة؛ لأن إنزال التوراة على موسى عليه السلام كان قبل بعثة عيسى عليه السلام بقرونٍ عديدة .

ـ وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦] .

واللافت للنظر أن كلمة (مصدقاً) مذكورة في الآية مرتين :

* جاءت في المرة الأولى إخباراً عن عيسى الرسول عليه السلام ، أنه جاء مصدِّقاً لما سبقه من التوراة ﴿ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ .

* جاءت في المرة الثانية إخباراً عن تصديق الإنجيل للتوراة ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ .

عيسى عليه السلام مُصَدِّقٌ لكتاب الله التوراة ، والإنجيل النازل عليه كتاب الله وهو مصدِّق لكتاب الله التوراة ، ورسولنا محمد ﷺ مصدِّق للتوراة الربانية

المباركة ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١].

ومعنى كونه ﷺ مصدقاً لما معهم من التوراة الربانية أنه مقرِّر لموضوعاتها ومؤكِّد لحقائقها ووجوده عملياً تفسير واقعي لوجودها وبشاراتها ، فقد وردت فيها البشارات بالرسول الخاتم ، وذُكرت فيها صفاته فكان وجوده تصديقاً لهذه البشارات وتحقيقاً لوقوعها .

وقد أخذ الله الميثاق على النبيين وطلب منهم أن يوصوا أتباعهم بالإيمان بالرسول الخاتم ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

والقرآن الكريم مصدِّق للتوراة في موضوعاتها وحقائقها ومصدِّق لها في العقيدة وأسسها ، وفي الآداب والأخلاق والفضائل ، وفي التاريخ والقصص ، وفي التوجيهات والتقريرات والترغيب والترهيب وغير ذلك(١) .

د ـ تعريف التوراة :

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن أحبار اليهود قد قاموا بتحريف التوراة ، وأنهم أضافوا إليها وأنقصوا منها الشيء الكثير ، وقد فضحهم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في مواضع عدَّة .

ـ قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

---

(١) الخالدي ، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل ، ص ١٣٥ ـ ١٣٧ .

ـ قال سبحانه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨ـ٧٩].

ـ وقال عز من قائل: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

ـ وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

ـ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ﴾ [المائدة: ٤١ ـ ٤٢].

ويفصِّل بعض العلماء في أنواع التحريف الذي قام به أحبار بني إسرائيل في التوراة، وبيَّنوا أن عناصر التحريف هي كالتالي:

ـ تحريف بالتبديل.

ـ تحريف بالزيادة.

ـ تحريف بالنقصان.

ـ تحريف بتغيير المعنى دون تغيير اللفظ[1].

ويأخذ ذلك أشكالاً كثيرة كالآتي:

---

(١) محمد البار، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠١١م، ص ١٢٠.

* **إلباس الحق بالباطل :**

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧١] ، لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب ، فقد كانوا يكتبون في التوراة ما ليس فيها ومثاله اتهام هارون عليه السلام بأنه الذي وضع لهم العجل وأمرهم بعبادته .

* **كتمان الحق :**

يرتبط كتمان الحق أيضاً بإلباس الحق بالباطل ، كما في الآية المذكورة أعلاه ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٤٢] .

ومن أهم أمثلة كتمانهم الحق إنكارهم لصفة محمد ﷺ في التوراة ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وقد روت صفية بنت زعيم اليهود حيي بن أخطب ، وزوج النبي ﷺ بعد أن أسلمت أن عمها سأل أباها عن النبي ﷺ عندما قدم المدينة قائلاً : أهو هو النبي الذي كنا ننتظر؟ فقال حيي بن أخطب والله إنه لهو النبي . . . ولكنا والله لا نؤمن به .

وقد كتموا أيضاً حكم رجم الزاني والزانية ، ولكن الله فضحهم على يد حَبرهم السابق الصحابي الجليل عبد الله بن سلام وأظهر حكم التوراة وهو الرجم .

* **إخفاء الحق :**

وهو شبيه إلى حد ما بالكتمان ، والعلماء يفرقون بينهما على اعتبار أن الكتمان للأمر العظيم مثل نبوة محمد ﷺ ، والإخفاء هو للأمر الذي فيه خزي لهم ، وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ﴾ [المائدة : ١٥] .

***تحريف الكلم عن موضعه:**

بوضع كلمة مكان كلمة أو جملة مكان جملة ، وهذا هو تحريف التبديل ، وقد يكون بإسقاط كلمة ، وهو تحريف بالنقص ، أو بزيادة كلمة أو جملة وهو تحريف بالزيادة ، وقد يكون بصرف المعنى إلى معنى آخر غير مقصود وهو تحريف المعنى ، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] ، وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١].

* **ليُّ اللسان**: وذلك أثناء قراءتهم للتوراة فيضعون كلاماً من عندهم بدلاً من آيات الله ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨] (١).

هذه باختصار أنواع التحريفات التي قام بها أحبار اليهود في كتاب الله المنزَّل على موسى عليه السلام ، ومع مضيِّ الأيام وضياع التوراة الأصلية؛ بسبب الحروب والسبي والشتات في الأرض ، وبسبب ترك بني إسرائيل مراتٍ عديدة دينهم ، وارتدادهم عنه حتى عبدوا الأصنام وخاصة البعليم وعشترون وملكوم وغيرها من الأوثان ، وذبحوا لها وعبدوها وأقاموا لها المعابد الضخمة(٢).

وأسفار العهد القديم مليئة بذكر ذلك كلِّه ، وفي عهد القضاة (١٤٠سنة) ارتدُّوا سبع مرات ، وعبدوا الأوثان ، بل وذبحوا أبناءهم وبناتهم قرباناً لها ثم ازدادت الردَّة في عهد الملكية ، حتى زعموا كذباً وبهتاناً أن سليمان عليه السلام عبد الأوثان ، وبنى لها المعابد.

لهذا كلِّه ضاعت التوراة الأصلية وبقي منها آيات يُذكِّرهم بها أنبياؤهم الذين

---

(١) محمد البار ، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم ، ص ١٢ ـ ١٢٢.
(٢) محمد البار ، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم ، ص ١٢٢.

أرسل الله إليهم تباعاً ليردُّوهم عن غيِّهم وكفرهم وضلالهم ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يقتلون الأنبياء بعد تكذيبهم والهزء بهم ، قال تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وبقيت شذرات من التوراة الأصلية يتوارثونها ، ثم قام أحبارهم بجمع تلك الأخبار والآيات وإضافة ما زَيَّنه لهم الشيطان ، فصاغوها في كتب وقدَّموها للناس على أساس أنها التوراة التي أنزلها الله ، ثم جاءت الأبحاث الحديثة في القرون الثلاثة الماضية لتؤكِّد أن التوراة الحالية قد كُتبت على مدى ألف عام بواسطة عشرات ومئات الكُتَّاب في أزمنة مختلفة متباينة ، وأن ذلك كله قد جمعه بعض الأحبار ، ونسَّقه في كتاب أسماه (التوراة) ، وأن ذلك ظهر بعد العودة من السَّبي في بابل ، أي في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد ، أي بعد وفاة موسى عليه السلام بما يقارب ألف عام[1].

فجميع أسفار التوراة التي لدى أهل الكتاب كُتبت بعد السبي ، كما كُتب غيرُها من أسفار العهد القديم ، ويدل على ذلك كثرة الألفاظ البابلية بها.

وقد اعترف علماء اللاهوت النصارى بفقد توراة موسى ـ التي هي أصل الدين وأساسه ـ قال صاحب كتاب (خلاصة الأدلة السنية على صدق أصول المسيحية): والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية في الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان من أمرها؟ والمرجَّح أنها فُقدت مع التابوت لما خرَّب ـ بختنصَّر ـ الهيكل ، وربما كان ذلك سبب الحديث الجاري بين اليهود على أن الكتب المقدسة فُقدت ، وأن عزرا ـ الكاتب الذي كان نبيّاً ـ جمع النسخ المتفرقة من هذه الكتب وأصلح غلطها ، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية ، وقال العلامة محمد رشيد رضا: نحن نعلم إجابتهم عندما يُسألون من أين جمع ـ عزرا ـ تلك الكتب بعد فقدها ، وعلى أيِّ شيءٍ اعتمد في إصلاح أغلاطها؟

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٢٣.

إنهم يقولون: كتب ما كتب بإلهام ، فما دليل هذا الإلهام؟ وهل مع الإلهام يحتاج الكاتب إلى جمع ما بأيدي الناس الذين لا ثقة بنقولهم؟ وليته كتب الشريعة مجردة من الأخبار التاريخية التي انضمت إليها .

إن الأخبار التي حوتها هذه الأسفار ، كانت الشاهد الأول على تسلل الكذب إليها من كل ناحية ، أكان نوحٌ عليه السلام رجلاً يسكر حتى يفقد وعيه؟ أكان لوطُ رجلاً يسكر حتى يزني بابنتيه في ليلتين متعاقبتين ، ليُنجِبَ من كل منهما أبناء وأحفاداً؟ وإن جملة من المفتريات تملأ سِير المصطفين الأخيار من أنبياء الله ، فهل هذا تأليف مقبول؟[1] ، وغير ذلك من الإفك والبهتان المبين .

ذ ـ القرآن الكريم لا يعترف بالتوراة المحرَّفة :

التوراة المحرَّفة هي التي ألقاها وصاغها أحبار اليهود وحاخاماتهم ، على مدار التاريخ اليهودي الطويل ، وأظهروها للناس وسمَّوها (العهد القديم) بأسفارها الكثيرة ، والتي فيها من الأخطاء والأكاذيب والأباطيل الشيء الكثير ، والصواب والصحيح فيها قليلٌ جداً لا يكاد يذكر ، وهذه التوراة المحرفة (العهد القديم) يكذبها القرآن في كثيرٍ مما فيها ويُبيِّن الأكاذيب والأخطاء والتحريف التي وقع فيها الأحبار وهم يكتبونها .

ولم يعترف القرآن أن هذه التوراة المحرَّفة كلام الله ، لأن التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام أضاعها اليهود وحرَّفوها وغيَّروها وبدَّلوها ، وجاء هذا في آيات صريحةٍ عدة ، تحدثنا عنها في فقرة (تحريف التوراة) ، كما أن إقرارنا أن التوراة المحرفة اليهودية المسمَّاة (العهد القديم) من صياغة وتأليف الأحبار على مدار التاريخ اليهودي الطويل ، لا يمنع وجود بقايا قليلة من التوراة الرَّبانيّة متفرقة في أسفارها ، لكنها لا تخرج عن كونها كلمات أو عبارات متناثرة

---

(١) محمد الغزالي ، صيحة تحذير من دعاة التنصير ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص ١١٦ .

هنا وهناك ، وهي قليلة جداً وسط ذلك الركام الكبير من تحريفات الأحبار[١] .

وقد ردَّ الله عز وجل في كتابه العزيز على كثيرٍ من التحاريف والأكاذيب والأباطيل التي جاءت في التوراة المحرفة ، وقد جاء تكذيبه لها في نماذج وأمثلة عديدة من أشهرها ما يلي :

ـ تكذيب الأحبار في نسبة التعب إلى الله :

نسب مؤلفو التوراة المحرفة التعبَ إلى الله ، عندما خلق السماوات والأرض ، حيث اضطره التعب إلى أن يستريح في اليوم السابع ، الذي كان في يوم السبت ، وقد ورد هذا في الفصل الثاني من سفر التكوين قالوا : (وهكذا أُكملت السماوات والأرض وجميع أقواتها ، وانتهى الله في اليوم السابع من عمله الذي عمله ، واستراح في اليوم السابع من كل عمله الذي عمله ، وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح من كل عمله الذي عمله) [سفر التكوين : الفصل الثاني : ١ ـ ٣] [٢] .

ونسبة الاستراحة إلى الله كفرٌ به ؛ لأنها تنسب النقص والتعب والإعياء إليه ، بسبب ما قام به من عمل ، مما اضطرَّه إلى أن يستريح ويزول عنه التعب ، وهذه عوارض تعترض الإنسان المخلوق الضعيف وينزَّه عنه الخالق ، ولقد كَذَّب اللهُ عز وجل في كتابه العزيز هذا القولَ في آية قصيرة موجزة قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] .

خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام وكان قادراً على خلقها في لحظة واحدة لأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، وهو سبحانه وتعالى لم يتعب من خلق السماوات والأرض ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ ، واللغوب هو التعب

---

(١) الخالدي ، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل ، ص ١٤٢ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤٤ .

والإعياء الذي يضطرُّ صاحبه إلى أن يستريح ، وهذا تكذيب صريح لمؤلفي التوراة اليهودية في قولهم السابق .

ـ تكذيبهم في زعمهم بحث الله عن آدم :

زعم الأحبار مؤلفو التوراة أن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة صارا عريانين ، فسمعا وقع خُطا الربِّ وهو يتمشَّى في الجنة ، فاستحيا منه ، واختبأ آدم خلف أشجارها ، فصار الرب يبحث عن آدم وهو لا يراه ولا يدري أنه أكل من الشجرة .

قال الأحبار في سفر التكوين : (سمعنا وقع خُطا الرب الإله وهو يتمشى في الجنة ، عند نسيم النهار ، فاختبأ الإنسان وامرأته من وجه الرب الإله فيما بين أشجار الجنة ، فنادى الربُّ الإلهُ الإنسانَ وقال له : أين أنت؟ قال : إني سمعت وقع خطاك في الجنة ، فخفت لأني عريان فاختبأت ، قال : فمن أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أمرتك ألا تأكل منها؟ فقال الإنسان : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت) [سفر التكوين ، الفصل الثالث : ٨/ ١٢] [(١)] .

وفي هذا النص مجموعة من الأباطيل والأكاذيب التي فيها نسبة ما لا يجوز إلى الله ، ومنها :

ـ تجسيم الإله الرب أن تكون له قدمان تسيران وتتحركان ويخرج من سيرهما صوت مسموع يسمعه الآخرون ، كما يسير أي إنسان ويسمع وقع خطاه ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

ـ وصف الإله الرب بالجهل وعدم العلم وأنه تخفى عليه الأشياء ، فعندما اختبأ آدم وزوجته بين أشجار الجنة وقف الإله الرب يبحث عن آدم ، ولما لم يشاهده ناداه قائلاً : أين أنت يا آدم؟

---

(١) الخالدي ، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل ، ص ١٤٥ .

وهل هذا إله يخفى عليه آدم ومكانه فيضطر إلى أن يناديه ليعرف مكانه؟ ومنها:

ـ وصف الإله الرب بالجهل وعدم العلم بما حصل ، فهو لا يعلم أن آدم أكل من الشجرة ، وهو لا يعلم أنه عريانَ ، ولذلك سأل آدم: من أعلمك أنك عريانَ؟ هل أكلت من الشجرة التي أمرتك ألا تأكل منها؟

وهذا التخفِّي والحوار بين الإله الرب وبين آدم كأنه (لعبة) هزيلة يلعبها الأولاد الصغار ، وقد كذَّبَ اللهُ عز وجل في القرآن الكريم هذا الكلامَ في قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وفرقٌ بين قول الأحبار: نادى الربُّ الإنسانَ أين أنت؟ وهل أكلت من الشجرة؟ وبيَّن قول القرآن ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾[1].

ـ تكذيبهم في زعمهم صنع هارون عليه السلام العجل:

زعم الأحبار مؤلفو التوراة اليهودية أن هارون النبي عليه السلام هو الذي أخذ حليَّ بني إسرائيل وصنع لهم العِجلَ الذَّهبيَّ ودعاهم إلى عبادته ، وورد في سفر الخروج قول الأحبار: (ورأى الشعب أن موسى قد تأخر في النزول من الجبل ، فاجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، فإن موسى ذلك الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر ، لا نعلم ماذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا حلقات الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم ، وائتوني بها ، فنزع كل الشعب حلقات الذهب التي في آذانهم ، وأتوا بها هارون ، فأخذها وصبَّها في قالب ، وصنعها عجلاً مسبوكاً ، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل ، التي أصعدتك من أرض مصر ، فلما رأى هارون ذلك بنى مذبحاً

(١) الخالدي ، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل ، ص ١٤٦.

أمام العجل ونادى قائلاً: غداً عيد للرب. . . فبكَّروا في الغد وأصعدوا مُحْرقات وقرَّبوا ذبائح سلاميَّة، وجلس الشعب يأكل ويشرب ثم قام يلعب. . .) [سفر الخروج: الفصل ٣٢: ١/ ٦] (١).

يَنسَبُ الأحبار في هذا النص إلى هارون النبي عليه السلام الكفرَ، فهو الذي أخذ الحليَّ من بني إسرائيل، وهو الذي صنع لهم العجل، ودعاهم إلى عبادتـه، وقد كذَّبهم الله في القرآن، حيث ذكر أن من صنع العجل هو السامري.

ـ قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

ـ وقال تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٧٨ـ٨٨].

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠ ـ ٩١].

ـ تكذيبهم في زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه:

إنَّ الأحبار مفترون كاذبون على الله، وهم عنصريون أنانيُّون، وقد أوهموا عامة اليهود أنهم أبناء الله، وأحِبّاؤه، وأن الله اصطفاهم وكان معهم، وأنه لن يتخلَّى عنهم، وأنهم هم المهتدون وأن الجنة لهم وحدهم، وقد كذَّبهم القرآن في هذه المزاعم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٧.

هم كاذبون في زعمهم أنهم أبناء الله وأحِبّاؤه ، لأن الله يُعذِّبهم بذنوبهم ، ولو كانوا أبناء الله لما عذَّبهم ، ثم إن الله سبحانه ليس له أبناء لأنه خالق كل شيء في السماوات والأرض ، وقد خلق البشر جميعاً ، وهم من هؤلاء البشر المخلوقين لا يميِّزهم عن شيء في الخلقة والصورة ، وأساس التفضيل عند الله هو العمل الصالح ، فالأكرم عند الله هو الأتقى ، ولا محاباة عند الله ، وكل إنسان مسؤول عن عمله ، والله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء[١] .

ـ تكذيبهم في زعمهم أنهم أولياء الله :

زعم اليهود أنهم أولياء الله من دون الناس ، وأن الجنة لهم وحدهم ، لأنهم وحدهم المؤمنون ، وغيرهم كافرون ، وقد كذبهم القرآن في هذا الزعم وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٦ ـ ٨] ، من أجل إظهار كذب اليهود في هذا الزعم ، يتحداهم الله بتمنِّي الموت بمعنى أن يقولوا : اللهم أمتنا ، فإذا كانوا أولياء لله وإذا كانت الجنة خالصة لهم فإنهم سيذهبون إلى الجنة بعد موتهم ، وموتهم راحة لهم ، وعليهم أن يتمنَّوا الموت لينالوا السعادة .

ولم يتمنَّ اليهود الموت ولم ينجحوا في التحدِّي وآثروا أن يوصفوا بالجبن لأنهم يعلمون كذبهم في مزاعمهم ، ويعلمون صدق رسول الله ﷺ ، ويعلمون أنهم لو تمنَّوا الموت لأماتهم الله ، ويعلمون أنهم لو ماتوا لذهبوا إلى النار ، وقد أكَّد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ

(١) الخالدي ، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل ، ص ١٤٨ .

أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ـ٩٦].

كيف يتمنَّى اليهود الموت وهم يعرفون ما قدَّمت أيديهم من الجرائم والقبائح والرذائل؟

إن ملفَّهم عند الله أسود، وينتظرهم عنده العذاب الأليم، فكيف يتمنَّون الموت وهذا مصيرهم ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، إنهم أحرص الناس على (حياة) وهدفهم هو أن يعيشوا حياتهم الدنيا مستمتعين بالأكل والشرب والشهوة، ولا يهمُّهم بعد ذلك أن يكونوا أعزَّاء أو أذلاء، أحراراً أو مُستعبَدين، وهم لا يفكرون في الآخرة[1].

ـ تكذيبهم في نسبة إبراهيم عليه السلام إلى اليهودية:

من مزاعم اليهود وأكاذيبهم زعمهم أن إبراهيم الخليل عليه السلام كان يهودياً، وقد نافسهم النصارى في هذه الأكذوبة، حيث زعموا أنه كان نصرانياً، وقد كذَّبهم الله في هذا، فبيَّن أنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ـ٦٨].

أبطلت الآيات احتجاج اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام، وفنَّدت مزاعمهم أنهم على دينه، فالتوراة والإنجيل أُنزلا من بعده، واليهود والنصارى كانوا من بعده، فكيف يزعم اليهود أنه كان يهودياً؟ وكيف يزعم النصارى أنه

(١) الخالدي، حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ص ١٥٠.

كان نصرانياً؟ وقد عاش ومات عليه السلام قبل أن يولد أوَّل يهوديٍّ وأوَّل نصرانيّ[١].

ونكتفي بهذه النماذج التي كذَّب فيها القرآن التوراة المحرّفة اليهودية ، فيما زعمه الأحبار الذين ألَّفوها ونسبوها إلى كاذبين مفترين.

إن التوراة اليهودية المحرفة ـ العهد القديم ـ مليئة بالأكاذيب والأباطيل ، مما يؤكد أنها ليست من التوراة الربانية ، وإنما هي من تأليف أحبار السوء[٢].

عاشراً: الإنجيل والأناجيل:

ورد لفظ الإنجيل في اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم ، وإليك بعض الآيات التي ورد فيها ذكر هذا اللفظ:

ـ قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۖ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ۖ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: ٣ـ٤].

ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦].

ـ وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٨].

---

(١) الخالدي ، المرجع نفسه ، ص ١٥١.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥١.

والإنجيل: لفظ معرَّب من الأصل اليوناني (انكليوس)، وجاء بمعنى البشارة والتعليم[١]. وفي الاصطلاح: الإنجيل هو كتاب الله المنزَّل على رسوله عيسى ابن مريم، هدىً ونوراً لبني إسرائيل، كما أخبر بذلك القرآن الكريم، وأما الإنجيل الآن فهو لفظ مختصٌّ بالأسفار الأربعة لدى النصارى: متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وقد يُطلق مجازاً على أسفار العهد الجديد[٢].

ولا يُعرف للأناجيل الحالية الموجودة عند أهل الكتاب سند متصل بصحيح نسبتها إلى عيسى عليه السلام، ومعظمها لا يصح بحال من الأحوال نسبته إليه، وأحسن ما يقال في هذه الأناجيل أنها مصنفات تاريخية حول سيرة المسيح، وبعض وصاياه ومواعظه ومعجزاته[٣].

ولم يكن حظُّ الإنجيل خيراً من حظِّ التوراة، فبعدما رُفع عيسى، اختفت معه صحائف الكتاب الذي أُنزل عليه، ولم يجد أحد أثراً لها إلى يومنا هذا، وإن الفوضى الواسعة التي أعقبت غيابه عليه الصلاة والسلام، ترجع إلى سطوة السلطة الرومانية، وإلى أثر اليهود بين طبقات الشعب، فقد تعاون الفريقان على مطاردة من آمن بعيسى ومصادرة ما يشير إلى تعاليمه، وظل هذا الاضطهاد أكثرَ من ثلاثة قرون، اختلف المسيحيون خلالها اختلافاً كبيراً، وظهر هذا الاختلاف في الكتب التي قيل إن تلاميذ عيسى ألفوها، متضمنةً تعاليمه.

وقد سُمِّيت هذه الكتب كلُّها أناجيل؛ لأن مؤلِّفيها شرحوا حياة عيسى عليه السلام، وسجَّلوا ما وعَوا من عظاته وتعاليمه، على أنه خلاصة الإنجيل الذي بَشَّرَ به، وهذه تسمية تدعو إلى التساؤل، بل إلى الإنكار، وقد اختلفت فيما

---

(١) رحمة الله الهندي العثماني، إظهار الحق، تحقيق: أحمد حجازي السقا، طبعة دار التراث، الطبعة القطرية، ١/ ٧٩ـ ٨٠.

(٢) سارة العبادي، التحريف والتناقض في الأناجيل، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ص٢٣.

(٣) زاهر بن عوض الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص ٢٦٧.

بينها اختلافاً واسعاً بلغ حدَّ التناقض ، والمرويّ أنها بلغت سبعين إنجيلاً[١] .

وهناك من يرى أنها أربت على المائة[٢] ، بعضها يقوم على التوحيد ، وبعضها يقوم على التثليث ، وتبع ذلك اختلاف النصارى في أصل العقيدة ، وقد ظلَّ هذا الانقسام إلى مؤتمر (نيقية) سنة ٣٢٥م ، حتى نصر قسطنطين مبدأ التثليث ، ومهَّد لذلك بجعل المسيح ابناً لله ـ مع أنه رأيُ قلَّة المؤتمرين ـ ثم جاء مؤتمر آخر فألَّه روح القدس ، واعتُبرت الأناجيل الموحِّدة كاذبة ، وبدأ عصر مصادرتها الشاملة .

ويذكر الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار رأياً لبعض مؤرخي الكنيسة ، بأن عدد الأناجيل الكاذبة خمسة وثلاثون ، كما ذكر رأياً آخر لصاحب كتاب (ذخيرة الألباب) الماروني ، ينكر القول بكثرة الأناجيل ، ويزعم أن سبب القول بكثرتها تسمية الإنجيل الواحد بعدة أسماء ، ويؤكد أن الخمسة والثلاثين إنجيلاً لا تكاد تبلغ العشرين ، وعدَّها كلها ، وذكر أن بعضها مُكرَّر الاسم ، وذكر منها إنجيل برنابا ، ولنفرض جدلاً أنها عشرون إنجيلاً فقط ، فأين ما فوق الأربعة المعتمدة؟

الواقع أن الأناجيل التي قامت على التوحيد كانت أغلب ، وأن الأقدار حفظت إنجيل برنابا ، ليكون نموذجاً لها ، وأن الاستبداد السياسي الذي عُرف به الرومان أتى عليها ، وأن الأربعة المعتمدة لا تنهض على نقل صحيح ، وأن أصولها وترجماتها معلقة لا يكاد يُعرف لها صاحب .

ولو فرضنا جدلاً أن بها خيراً ، فليست هي يقيناً إنجيل عيسى ، الذي كان يقول للناس : توبوا وآمنوا بالإنجيل ، والذي وردت تسميته تارةً بأنه إنجيل الله ، وتارةً إنجيل المسيح ، ومعروف ـ كما قال صاحب (المنار) ـ أن الكتاب الإلهي

---

(١) محمد الغزالي ، صيحة تحذير من دعاة التنصير ، ص ١١٩ .

(٢) محمود عبد الحميد ، مع الأنبياء وجهادهم ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ص٣٤٩ .

يُنسب إلى الله لأنه مُنزِلُه ، وينسب إلى الرسول ، لأنه تلقاه عن ربه ، فيقال: إنجيل عيسى ، كما يقال: توراة موسى[١] .

إن النصارى في انتمائهم إلى عيسى لا يعتمدون على شيء ذي بال ، ولعل ذلك السرّ في مجيء العبارة القرآنية عنهم ، وبها رائحة الدعوى ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤] .

ما أبعدهم عن عيسى وما أجرأهم عليه ، قال صاحب المنار: وقد اشتد اليهود في عداوتهم ومطاردتهم ، فلم تكن لهم هيئة اجتماعية ذات قوة وعلم ، تدوِّن ما حفظوه من إنجيل المسيح وتحفظه .

ويظهر من تاريخهم وكتبهم المقدسة أن كثيراً من الدعاة كانوا ينشرون بين الناس في عصرهم تعاليم باطلة عن المسيح عيسى ابن مريم، ومنهم من كتب ذلك حتى أن الذين كتبوا كتباً سمَّوها الأناجيل كثيرون جداً ، كما صرَّحوا في كتبهم المقدسة، وتواريخ الكنيسة، وما ظهرت هذه الأناجيل الأربعة المعتمدة عندهم الآن إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح ، وعندما صار للنصارى دولة بدخول الملك قسطنطين في النصرانية وإدخاله إياها في طور جديد من الوثنية ، وهذه الأناجيل عبارة عن تاريخ ناقص للمسيح، وهي متعارضة متناقضة مجهولة الأصل والتاريخ ، بل وقع الخلاف بينهم في مؤلفيها ، واللُّغات التي ألَّفوها بها[٢] .

وقد أورد الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) مائة شاهد من الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى على وقوع التحريف اللفظي والمعنوي فيها ، إن القدامى والمحدثين من علماء الإسلام ومقارنة الأديان نقدوا النصرانية

(١) محمد الغزالي ، صيحة تحذير من دعاة التنصير ، ص ١٢٠ .
(٢) محمد الغزالي ، صيحة تحذير من دعاة التنصير ، ص ١٢٠ .

سنداً ومتناً ، وكشفوا عن كثيرٍ مما يكتنف عقائدها من رِيب ، واليوم ونحن في القرن العشرين للميلاد نقرأ للمحققين المسيحيين ما يؤكد رأينا ، ويصدِّق علماءنا ، لقد ألَّف اللواء المهندس أحمد عبد الوهاب كتاباً أسماه (اختلاف في تراجم الكتاب المقدس) ، اعتمد فيه على وثائق أثبتها لمحققين مسيحيين ، تشير إلى تفاوتٍ رهيب في هذه التراجم ، تمسُّ صميم العقائد المسيحية[١] .

إنَّ العقائد المتوارثة بين النصارى نبتت في الأرض ، ولم تنزل من السماء ، وهي وليدة مؤتمرات بشرية ، أشرفت عليها سلطات وثنية ، ولو افترضنا كذباً أن لها أسانيد قائمة ، فإن متونها تصادم العقل والمنطق ، وتجعل الدين مرادفاً للأساطير والخرافات ، وهذا سرُّ الصراع بين الدين والعلم ، وسرُّ الشقَّة الواسعة بين الحضارة المنشودة ، وما يصبو إليه رجال الكهنوت ، وإنَّ تَخلُّفَ الدين الحق فسح الطريق للأوهام والخرافات[٢] .

إنَّ الأناجيل الحالية عبارة عن مصنفات تاريخية حول قصة حياة مريم ، وابنها المسيح عيسى ، وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الأرض ، حسب معتقداتهم ، ولم يُكتب شيء من هذه الأناجيل في حياة عيسى عليه السلام ، وإنما كُتبت بعد رفعه إلى السماء[٣] ، وهذه الأناجيل هي :

١ ـ إنجيل (متى) :

هو أقدم الأناجيل عندهم ، وأوَّلها ، كُتب بعد رفع المسيح بأربع سنوات ، وقد كُتب باللغة العبرية ، والموجودة الآن ترجمته ، ولكن من هو المترجم؟ وأين الأصل المترجَم؟ حتى تتم المقارنة بينهما؟ كل ذلك ليس له جواب ، فأية قيمة علمية إذاً لوثيقة لا يُعرف أصلُها ولا مترجمها ، وليس لها سند متصل إلى السيد المسيح ، أو تلاميذه؟

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٢٢ .
(٢) محمد الغزالي ، صيحة تحذير من دعاة التنصير ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

٢ ـ إنجيل (مرقس) :

كتب باللغة اليونانية ، بعد رفع المسيح بثلاث وعشرين سنة ، وقد اختلف النصارى فيمن ألف هذا الإنجيل ، فقال فريق : إن الذي كتبه هو (بطرس) رئيس الحواريين ، وقال آخرون : إن (مرقس) كتب إنجيله بعد موت بطرس ، وبعد موت بولس أيضاً ، وجاء في كتاب (مرشد الطالبين) أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان تنصُّرُهم بخدمته ، وهذا الإنجيل يُنكر ألوهية المسيح ، فلماذا نرى أن الشك قد وقع عند مؤرخي النصرانية في تعيين كاتب هذا المصنف بشكل حازم ، كما ثبت أن عيسى عليه السلام لم يكتب هذا المصنف ولم يملِه ، فكيف تطمئن إليه النفس؟

٣ ـ إنجيل (لوقا) :

كتب باتفاق مؤرخي النصارى بعد عشرين سنة من رفع عيسى عليه السلام ، وهو ليس من تلاميذ المسيح اتفاقاً ، ولا من تلاميذ تلاميذه ، وإنما هو تلميذ (بولس) ، وبولس هذا كان يهودياً متعصباً على المسيحية ، ولم يرَ المسيح في حياته ، وكان يسيء إلى النصارى إساءات بالغة ، ولما رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يُجدي ، عمد عن طريق الحيلة إلى الدخول فيها ، وأظهر الاعتقاد بالمسيح ، وادعى أنه صُرع ، وفي حالة صرعه لمسه المسيح وزجره عن الإساءة لأتباعه، ومن ذلك الوقت آمن ، وأرسله المسيح ليُبشِّر بإنجيله ، وانطلت حيلته على الكنيسة ، وأباح لهم أكل الميتة ، وشرب الخمر ، وقد أتى لوقا في إنجيله بزيادات كثيرة عما ذكره (متى) و(مرقس) بشكل واضح يرتاب له القارئ[١] . وهنا يقف البحث العلمي شاكّاً في لوقا ، ومتهماً أستاذه بولس بتحريف الديانة النصرانية في أصول عقيدتها ، ومثبتاً أن هذا المصنف لا صلة له بعيسى عليه السلام ، لا كتابة ولا إملاء .

---

(١) عبد الوهاب النجار ، قصص الأنبياء ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٩م ، ص٤٠٠ .

٤ ـ إنجيل (يوحنا) :

كُتب بعد رفع المسيح بـ (٣٢ سنة) ، وتزعم الكنيسة أن هذا المصنف من كتابة (يوحنا بن زبدي) أحد تلاميذ المسيح عليه السلام ، وقد أنكر جمهور كبير من محققي النصارى نسبة هذا المصنف إليه ، وبينوا أنه تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي ، وجاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك فيها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه : (أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزوّر ، أراد صاحبه مضادَّة اثنين من الحواريين وهما القديسان يوحنا ومتَّى ، وقد ادعى هذا الكاتب المزوِّر في متن الكتاب أنه الحواريُّ الذي يحبه المسيح . . .) [١] .

وقد انفرد هذا الإنجيل بفقراتٍ تدلُّ على ألوهية المسيح ، والعجب في الأمر أن الكنيسة تعتمد عليه في معتقدها المخالف لأصول الديانة التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام ، مع علمها اليقين بعدم صحَّة نسبة هذا الإنجيل إلى (يوحنا) أحد تلامذة السيد المسيح ، وقد ذكر الشيخ النجار في كتابه «قصص الأنبياء» صوراً من تناقض هذه الأناجيل الحالية اضطرابها واختلافها ، بشكل يلمِس فيه الإنسان عدم الوثوق بما كتب فيها ، فارجع إليه إن شئت ، فإنه دقيق ونفيس [٢] .

ويتضح لكل عاقل متبصِّر أن الأناجيل الموجودة الآن مُحرَّفة ، وأنها غير الإنجيل الذي أنزله الله ، وأنها منقطعة الإسناد ، ومضطربة المتن ، ويكفي هذا لعدم الاطمئنان والوثوق بما فيها من أخبار وأحكام [٣] .

* وقد قامت **الدكتورة سارة حامد محمد العبادي** بدراسة مستفيضة قيِّمة في

---

(١) محمود عبد الحميد ، مع الأنبياء وجهادهم ، ص٣٥٢ .
(٢) عبد الوهاب النجار ، قصص الأنبياء ، ص ٤٠٢ .
(٣) محمود عبد الحميد ، مع الأنبياء وجهادهم ، ص٣٥٢ .

كتابها (التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة)، وخرجت بهذه النتائج العلمية:

ـ شكوك وظنون كثيرة تدور حول أهم النقاط في أناجيل النصارى المعتمدة من تعريف بمُؤلِّفيها، ومدى صحة نسبة كل إنجيل إلى مؤلفه، ومن تاريخ تدوينها.

ـ اعتمادها دون غيرها من أناجيل النصارى الكثيرة، كان من قِبل حاكم وثنيّ رومانيّ (قسطنطين) استطاع بقوة سلطانه إرغام الموحدين على قبولها، وحرق جميع ما عداها من الأناجيل.

ـ إن هذه الأناجيل منقطعة السند تماماً عن واضعيها.

ـ اتفاق الباحثين المُنصفِينَ على وجود إنجيل أصلي للمسيح عليه السلام كما ذكر القرآن الكريم، وأنه مفقود.

ـ وجود التحريف في الأناجيل الأربعة واضحٌ بأنواعه الثلاثة، تحريف بالتبديل، وتحريف بالزيادة، وتحريف بالنقصان، كما ورد الإخبار بتحريفها في آيات كثيرة في الذكر الحكيم.

ـ رفض المسيحيين المتعصبين لإنجيل برنابا رفضاً باتّاً، لأنه كشف التحريف في الأناجيل الأربعة، وخاصة التحريف في مجال العقيدة.

ـ وجود التناقض ظاهراً في كل إنجيل من الأناجيل الأربعة على حدة، ووجوده كذلك واضحاً فيما بين هذه الأناجيل.

ـ إن الأناجيل الأربعة قد تَضمَّنت ذكر حوادث تاريخية غير صحيحة، وهي أقرب ما تكون إلى الخيال منه إلى الحقيقة.

ـ الأناجيل الأربعة لا تصلح أن تكون حجة للنصارى في عقائدهم، لتحريفها وتناقضها وبطلان دعوى الإلهام لكتّابها[1].

---

(١) سارة العبادي، التحريف والتناقض في الأناجيل، ص ٣٠٨ـ٣٠٩.

وقد أورد العلامة الكبير رحمة الله الهندي في كتابه النفيس (إظهار الحق) مائة شاهد من الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى على وقوع التحريف اللفظي والمعنوي فيها[١].

* قدمت **الدكتورة عزية علي طه** دراسة وافية حول منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل في كتابها (منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل) دراسة مقارنة ، وخرجت بمجموعة من النتائج من أهمها :

ـ إن النصارى في أسفار العهد الجديد لم يلتزموا منهجاً ثابتاً ومعروفاً عند جمع تلك الأسفار .

ـ إن تلك الأسفار كُتبت بلغة مغايرة للّغة الأصلية التي كانت سائدة في فلسطين في الزمن الذي أُنزل فيه الإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام .

ـ إن جميع كتَّاب أسفار العهد الجديد لم يلتقوا بالسيد المسيح ، بل إن بعضهم تقمَّص شخصية الحواريين ، وكتب على لسانهم دون توضيح ذلك ، كما أن كتابة تلك الأسفار وزمان كتابتها متنازعٌ فيه .

ـ كانت هناك الكثير من الأناجيل ولكنها أُحرقت ، كما أن الناس كانوا في صراع ونزاع حول حقيقة المسيح عليه السلام .

ـ تدخلت العوامل السياسية في القرن الرابع الميلادي في تشكيل المسيحية ، وبنائها على الصورة التي تُعرف بها اليوم ، فالإمبراطور قسطنطين حاول توحيد كلمة النصارى تحت سلطانه خشية على إمبراطوريته من الانقسام والفرقة ، فجمع القساوسة في مؤتمر نيقية ، وتآمر هو وبطريق الإسكندرية واتفقا على القول بوجود ثلاثة آلهة ، وحاربت السلطات الحاكمة كل من كان يقول بغير تلك المقالة ، كما أن الإمبراطور قسطنطين كان وثنياً قبل أن يعتنق المسيحية

---

(١) محمد الغزالي ، صيحة تحذير من دعاة التنصير ، ص ١٢١ .

فلا غرابة أن يُؤيِّد المقالة التي تنادي بوجود ثلاثة آلهة ، لأن ذلك يتوافق مع هواه وعقيدته الوثنية السابقة .

ـ وبيَّنت الباحثة في كتابها صوراً من تضارب متن الأناجيل ، وكيف أن الرواة تناقضوا واختلفوا اختلافاً ظاهراً في سرد القصة التي تدور حول حادثة واحدة تُعتبر من أساسيات العقيدة النصرانية ، وهي حادثة الصلب وملحقاتها من محاكمة ودفن وقيام .

ـ واختلفوا في حقيقة الإله ، وتناقضت أقوالهم وتضاربت ، ورأينا كيف أنهم ألَّهوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وبالرغم من ذلك وصفوه بصفاتٍ لا تليق ببشر عاديّ ناهيك عن إله ، ولقد وصفوه بالجهل والكذب وعقوق والدته ، بل نسبوا لأمه ارتكاب الفاحشة عند نسبتهم عيسى ليوسف النجار الذي لم يكن زوجاً لها عندما حملت بعيسى ، بل كان خطيبها كما يدَّعون[١] .

ـ دخل رجال الدين المسيحي في تخبُّط وصراع مع العلوم التجريبية عند ظهور النهضة العلمية في أوربا ، وحاربت الكنيسة العلم والعلماء وتصدَّت لهم ، وقد ظهر طبقات الفلاسفة بين رجال الدين الذين عملوا جاهدين للتوفيق بين العلم ومبادئ المسيحية ، وحصلت هزة عنيفة للديانة المسيحية عندما حاول رجال الدين المسيحي أنفسهم تطبيق النظريات والوسائل العلمية الحديثة على المسيحية ، وظهرت مدارس النقد الألماني ومدارس البحث عن عيسى التاريخي في أوربا ، وخاصة في ألمانيا .

ـ وبيَّنت الباحثة : أن صموئيل ريموراس هو أول من تشجّع وبحث عن عيسى التاريخي ، رغم أن النتيجة التي توصل إليها كادت أن تؤدي إلى هدم المسيحية كليّاً .

---

(١) عزية علي طه ، منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل ، مؤسسة الرسالة ، لبنان ، ط٢ ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م ، ص٥٥٢ .

وقالت: ورأينا كيف ظهر علماء القرن التاسع عشر بنفس الأفكار ، ورأينا شبه إجماعهم على أن الأقوال التي تنبني عليها الديانة المسيحية اليوم ـ متمثلة في أسفار العهد الجديد ـ لا تمتُّ لعيسى التاريخي بصلةٍ ، ورأينا ما يشبه الإجماع بينهم على أن إنجيل عيسى الحقيقي شبه مفقود ، وأنهم لم يستطيعوا التوصّل لعيسى التاريخي ، لعدم وجود منهجٍ ثابتٍ ومعلوم اعتمد عليه المؤتمرون في نيقيّة لاعتماد الأناجيل ، واستمرَّ التخبُّط في القرن العشرين وبلغ قمته عندما زعم بعض النصارى بأن الإله قد مات ، وعندما زعم أصحاب مدرسة اللاهوت المتطور أن الإله ناقص وغير كامل ، وأنه محتاج للبشر لإكمال ذاته تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً[١] .

وسبحان الله القائل في محكم كتابه : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص] .

* قام الدكتور عبد الرزاق عبد الحميد بدراسة متميزة في رسالته العلمية للماجستير (مصادر النصرانية دراسة ونقد) وخرج بمجموعة قيمة من النتائج والتي من أهمها :

ـ إن أوثق مصدر لتجلية حقيقة دعوة عيسى عليه السلام هو القرآن الكريم ، وما صحَّ من الأحاديث النبوية الشريفة .

ـ إن معظم الجذور الحقيقية لمعظم ما عليه النصارى اليوم من عقائد وشرائع هي مبادئ الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، والتقاليد والمعتقدات الوثنية ، لذا فإن درجة ارتباط النصارى بأسفارهم المقدسة ضئيلة جداً .

ـ إن ثمة فرقاً بين مصطلح (التوراة والإنجيل) وبين مصطلح (العهد القديم والعهد الجديد) فالعهد القديم عبارة عن مجموعة أسفار (٤٦ أو ٣٩)من بينها

---

(١) عزية علي طه ، منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل ، ص ٥٥٣ .

خمسة أسفار تُنسب إلى موسى عليه السلام ، وتُسمَّى بالتوراة أو البنتاتوك ، وأما العهد الجديد ففيه سبعة وعشرون كتاباً أو سفراً من بينها أربعة أناجيل (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) وليس فيها إنجيل الله المنزل على المسيح عليه السلام .

ـ إن المصادر النصرانية منها ما هي عامة ، وهي ما يُسمَّى بالكتاب المقدس بعهديه القديم الجديد ، وقرارات المجامع ، ومنها ما هو خاص بطائفة دون أخرى ، وهو قرارات البابوية .

ـ إن نسبة كتب العهد القديم والعهد الجديد إلى مَن نسبت إليهم ، في الغالب إنما تكون نسبة وهمية أو دعائية لغرض الترويج حيث أن معظم هذه الكتب لم تكتب إلا بعد رحيل من نُسبت إليهم .

ـ إن الإنجيل المنزل على عبد الله ورسوله عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وإن اختفى اليوم وضاع ، فإن ثمة إشارات إليه باقية في بعض فقرات العهد الجديد .

ـ إن أيَّ قولٍ أو فعل ورد في الأناجيل أن المسيح عليه السلام قاله أو عمله لا يُجزم بنسبته إليه ، وذلك لأن شيئاً من ذلك لم يصل إلينا بإسناد صحيح متصل .

ـ إن لكلٍّ من العهد القديم والعهد الجديد مصادر وأصولاً قد تفرَّع عنها الروايات الشفهية ، وتقاليد وعادات الشعوب والأمم المختلفة ، وبعض القوانين البشرية الوضعية ، وأقوال بعض الحكماء ونحو ذلك .

ـ إن تناقضات أسفار النصارى المقدسة ليست فقط بين سفرٍ وآخر ، ولا بين إصحاحٍ وآخر ، فحسب ، بل وفي داخل الإصحاح الواحد أحياناً ، كما أن أخطاءها ليست منحصرة في الجانب الشرعي فقط ، وإنما تُوجد حتى في الجوانب التاريخية والعلمية ، والعرفية وغيرها .

ـ إن أسفار النصارى المقدسة ، لا سيّما كتب العهد القديم منها تُعتبر مثالاً حيّاً لأبشع أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته ، والنيل من كرامة ومكانة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام[١] .

ـ إن ما اشتهر لدى بعض المفسرين من تأويل قصة الخصم الذين تَسوَّروا محراب داود عليه السلام ، لتعني التعريض بأمر نساء داود عليه السلام : (تسع وتسعون نعجة) مع امرأة واحدة فقط لأوريا الحثي (نعجة واحدة) . . . إنما هو من الإسرائيليات ، ونتيجة التأثُّر برواية العهد القديم للقصة ، ولم يثبت في ذلك شيء عن المعصوم .

ـ إن الأناجيل الأربعة المُعترَفَ بها لدى النصارى إنما اختِيرت من بين العشرات من نوعها ، لأنها الأقرب إلى ما استقرت عليه النصرانية بعد تأثُّرها بالوثنية ، والفلسفات ، وابتعادها شيئاً فشيئاً عن الوحي السماويّ .

ـ إن جميع ما ينسب إلى حواريِّ المسيح عليه السلام أو تلاميذه من الأناجيل والرسائل لا يثبت منها شيء إليهم .

ـ إن الأرجح بثبوت علاقة التَّتلمُذ أو نحوها لكاتب الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل ببولس شاول اليهودي .

ـ إن بولس إنما تظاهر بالتحوّل إلى النصرانية لأغراض شخصية ، من أبرزها إشباع رغبته في الرئاسة والزعامة ، ومن ثمّ جاهر بمخالفته جميع تلاميذ المسيح وأقرب الناس إليه وأعلمهم بدعوته عليه السلام .

ـ إن بولس من واقع ما أعلنه ودعا إليه من المبادئ إذا قُورن ذلك بما عليه النصارى والنصرانية اليوم ، فإنه يَحِقُّ لنا أن نقول إنه (بولس) المؤسس الحقيقي للنصرانية الحديثة أو البولسية .

---

(١) عبد الرزاق بن عبد المجيد ، مصادر النصرانية ، ٢/ ٩٧٧ ـ ٩٧٩ .

ـ إن هناك فرقاً بين يوحنا الحواري التلميذ ويوحنا الشيخ اللاهوتي الفيلسوف ـ وهما متعاصران ـ ومن المرجَّح أن يكون الأخير هو كاتب الإنجيل الرابع .

ـ إن إنجيل لوقا ـ كما صرَّح كاتبه ـ بمثابة رسالة شخصية من صديق لصديقه ، وليس للإلهام ولا الوحي أي أشرفية ، وإنما كان مجرد جمع وتنسيق وترتيب للروايات الشفهية ، رأى الكاتب في نفسه أهلية وكفاءة للقيام بذلك كله[١] .

ـ إن للترجمة العربية لكتاب النصارى المقدس عدداً من مشكلات علمية وفنية من أظهرها ركاكة الأسلوب وكثرة الأخطاء النحوية والإملائية وانعدام الوحدة أو جودة التنسيق بين ما تكرَّر فيها من معلومات .

ـ إن من أهم ما يُعاني منه كتاب النصارى المقدس الاختلاف بين النُّسخ والإصدارات أو الطبعات والترجمات ، وإجراء عدة تعديلات من نصوصه بين الفينة والأخرى ، بدعوى مراجعةٍ أو تنقيحٍ أو تصحيح . . .

ـ إن المجامع النصرانية تُعتبر ذات أهمية كبرى بالنسبة للنصرانية المحرفة من حيث إسهامها في بناء عقائدها وشرائعها أو ترسيخها على الأقل ، وكذلك لما لهذه المجامع من دور في انقسام النصارى إلى طوائف وأحزاب كل حزب بما لديهم فرحون .

ـ إن ما انعقد من المجامع بعد المجمع المسكونيّ السابع في نيقية عام ٧٨٧م ، تُعتبر مجامع خاصة أو مكانية ، وإن ادّعى لها أربابها العالَمية أو العمومية .

ـ إن المسيح عليه السلام لم ينشئ كنيسة ولا فكَّر في إنشائها ، وكذلك تلاميذه الذين عاصروه ، وما ينقل في عكس هذا القول من نصوص لا تثبت ، أو لا يصحُّ الاحتجاج بها على المراد .

---

(١) عبد الرزاق بن عبد المجيد ، مصادر النصرانية ، ٢/ ٩٨٠ .

ـ إن ازدهار سلطة الكنيسة الغربية في القرون الوسطى في أوربا من أقوى عوامل سطوة هذه الكنيسة ، وهيمنة باباواتها على الشعوب ، ومن ثمَّ مصادرتها للشرائع والمعتقدات عندهم .

ـ إن القرون الوسطى وإن كانت تعدُّ الفترة التي شهدت نفوذ البابوية والبابوات وسلطتها ، لكنها تُعتبر كذلك الفترة نفسها التي شهدت بداية نفوذ هذه السلطة .

ـ إن دعوى العصمة للبابا دعوى عارية عن مستندٍ صحيح ، كما أنه لم يوجد في التاريخ ما يُؤيِّدها .

ـ لقد أضاف بابوات القرون الوسطى وغيرهم جملة أمور والتزامات وواجبات في دين النصارى على أتباعهم ، بعضها باقٍ حتى اليوم ، وبعضها ذهب أدراج الرياح نتيجة تغيُّر الظروف وتقلُّص الإمكانات[١] .

الحادي عشر: عيسى عليه السلام يبشر برسول الله محمد ﷺ:

محمد رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأخبر الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل بهذه الحقيقة ، وأخذ عليهم الميثاق والعهد أن يؤمنوا به .

ـ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ٨١ ـ ٨٢] .

وقد بيّن سبحانه وتعالى وحدة الشرائع السماوية ، وأنها يكمِّل بعضها بعضاً ، وأنها كالقصر المشيد ، كل لبنةٍ منه جزء من كيانه ، وهو جماع لبناته وأركانه وأشكاله ، وأكّد سبحانه تلك الوحدة ببيان ميثاق الله على الأنبياء ، وأن

(١) عبد الرزاق بن عبد المجيد ، مصادر النصرانية ، ٢/ ٩٨١ ـ ٩٨٢ .

الله سبحانه أخذ عليهم ليصدِّق بعضهم بعضاً . . . وكل نبيٍّ متمِّم ما بدأ به النبي الذي سبقه ، أو بالأحرى يُؤكِّد ما جاء به ويوثِّقه ويُقوِّيه حتى ختم الله أنبياءه بمحمد ﷺ، فكان خاتم النبيين، ولذلك كان حقاً على كل نبيٍّ أن يصدِّق ويؤمن بما يجيء به النبي الذي بعده ، والذي أعلمه الله به ، وإذا كان حقاً على النبي المبعوث أن يُؤمِن بمَن سبقه ومن يجيئون بعده ممَّن أخبره الله تعالى بمجيئهم ، فإنه بلا ريب حَقَّ على الذين يتَّبعونه أن يصدِّقوا ذلك النبي الذي يجيء بعده ، لأنهم يتبعونه في كل ما يؤمن به ، فحقَّ على اليهود والنصارى بمقتضى العهد الذي أخذه الله على النبيين ، وبمقتضى إيمان هؤلاء النبيين ، وتنفيذاً لهذا العهد ، أن يؤمنوا بالنبي ﷺ وإلا لما كانوا متَّبِعين لموسى وعيسى عليهما السلام[١] ، إنما يكونون متبعين لأهوائهم وشهواتهم ، ولذا يقول النبي ﷺ فيما رواه جابر : (لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتَّبعني) [٢] .

وقد بشّر الأنبياء السابقون بمحمد ﷺ ومن هؤلاء الأنبياء المبشِّرين بالنبي القادم ، النبي إبراهيم عليه السلام حيث دعا ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] .

وكانت البشارة بشكل أخصّ على لسان موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ، كما ذكر الله بعض صفات النبي الخاتم ﷺ في التوراة وفي الإنجيل ، وهذا معناه أن اليهود والنصارى كانوا يعرفون من هذه البشارات أن الله سيبعث النبي الخاتم ﷺ ، ولكن لما بعث الله محمداً رسولاً ﷺ كفروا به وكذبوه[٣] . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] .

---

(١) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٣/ ١٢٩٣ .
(٢) رواه أحمد ، رقم ١٤١٠٤ .
(٣) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، المرجع السابق ، ٤/ ٣٣٥ .

فلو لم تكن أوصافه باقية لما أمكنهم أن يعرفوه كما يعرفون أبنائهم ، فهو إذاً مكتوب عندهم قطعاً رغم تحريف اليهود والنصارى النصوص الدالّة عليه ﷺ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ أي يا أهل الكتاب ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أي علماء أهل الكتاب ، ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ أي أن الله عز وجل قد وعدنا بإرساله رسولاً وكتاباً ، وفعل كما وعد ، فهل يا ترى أن هؤلاء عادوا إلى أديرتهم وكنائسهم يرسمون شارة الصليب على صدورهم[1] .

١ ـ صفات محمد ﷺ في التوراة والإنجيل :

بَشَّر موسى عليه السلام قومه بمحمد ﷺ ، وبَشَّر عيسى عليه السلام كذلك بني إسرائيل ، ولهذا جاءت صفات رسولنا ﷺ مكتوبة في التوراة والإنجيل .

وقد ورد هذا صريحاً في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧ ـ ١٥٨] .

وإنه لنبأ عظيم ، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي

---

(١) محمد سليم القاضلي ، النصرانية في ميزان العقل والإسلام ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ، إربد ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م ، ص ٢١٠ .

الأمي ، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى عليهما السلام ، منذ أمدٍ بعيد ، جاءهم الخبر اليقين ببعثه وبصفاته وبمنهج رسالته وبخصائص ملَّته .

ـ فهو النبيّ الأميّ .

ـ وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

ـ وهو يُحلُّ لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث .

ـ وهو يضع عمَّن يؤمنون من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستُفرض عليهم بسبب معصيتهم ، فيرفعها عنهم النبي الأميّ حين يؤمنون به ، وأتباع هذا النبي يتقون ربهم ، ويُخرجون زكاة أموالهم ، ويؤمنون بآيات الله ، وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأميّ ، ويعظمونه ويوقِّرونه وينصرونه ويؤيدونه ويتبعون النور الهادي الذي معه أولئك هم المفلحون[١] .

وقد أمر عدد من اليهود الذين منَّ الله تعالى عليهم بالإسلام من أمثال (عبد الله بن سلام) بهذه الحقيقة التي كانوا يتواصَوْنَ بكتمانها ، وثابت من الروايات التاريخية أن جموع اليهود في الجزيرة العربية كانوا ينتظرون مبعث نبيٍّ قد أظلَّهم زمانه ، وكذلك كان عدد من الموحِّدين من كل من الأحناف وأحبار اليهود وأساقفة النصارى ، ولكن اليهود كانوا يتوقعون أن يُبعث الرسول الخاتم من بينهم ، فلمَّا كان من ذرية إسماعيل ـ عليه وعلى نبينا من الله السلام ـ فإنهم عارضوا نبوَّته ، وقاوموا دعوته ونقضوا جميع عهودهم ومواثيقهم معه ، وألَّبوا عليه القبائل الوثنية ، وحاولوا سمَّه وقتله ، ولكن الله تعالى حفظه من كيدهم ونصره عليهم[٢] .

ومع ذلك كلّه فقد بقيت إشاراتٌ إلى سيدنا محمد في الكتب المتداولة اليوم

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٧٨ .

(٢) زغلول النجار ، من آيات الإعجاز الأنبائي والتاريخي في القرآن الكريم ، دار المعرفة ، لبنان ، ١٤٣٤هـ ، ٢٠١٣م ، ٢/ ٣٠١ .

بأيدي كل من اليهود والنصارى على الرغم مما تعرضت له من الحذف والإضافة.

وقد روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: (أجل، والله إنه لموصوفٌ في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرًا﴾، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضَه الله حتى يُقيم به الملَّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، قال: ثم سألت كعب الأحبار عمّا قال ابن عمرو فما زاد عليه حرفاً[1].

ويدلُّ هذا الحديث على أن صفات الرسول ﷺ الموجودة في القرآن هي نفس صفاته الموجودة في التوراة والإنجيل[2].

٢ ـ عيسى عليه السلام يبشر بمحمد ﷺ:

صرَّح القرآن الكريم بأن عيسى ـ عليه السلام ـ قد بشَّر بالنبي الخاتم ﷺ.

ـ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٦ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٦ ـ ٧].

وجاء عيسى ـ عليه السلام ـ ليقول لبني إسرائيل ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾، فلم يقل: إنه الله، ولا إنه ابن الله، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله، ﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ في هذه الصيغة التي تصوّر حلقات

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٢١٢٥).

(٢) الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٣٣٧.

الرسالة المترابطة ، يُسلِّم بعضُها إلى بعض ، وهي متماسكة في حقيقتها واحدة في اتجاهها ، ممتدة من السماء إلى الأرض ، حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة ، وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه .

وإنَّ منهج الله عزَّ وجل واحد في أصله ، مُتعدِّد في صوره ، وَفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها ، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة ، حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري ، فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملةً شاملةً ، تخاطب العقل الراشد في ضوء تلك التجارب ، وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده داخل نطاق المنهج المحدد والمرسوم للإنسان في جملته ، المتفق مع طاقاته واستعداده .

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، سواء تضمَّنت الأناجيلُ المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمَّنْها ، فثابت أن الطريقة التي كُتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن ، وقد قُرئ القرآن الكريم على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ وأقرَّ بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا بهذه الحقيقة التي كانوا يتواصون بتكتمها[١] .

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبيّ قد أظلَّهم زمانه ، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين في أحبار النصارى في الجزيرة العربية ، ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم ، فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، كرهوا هذا فحاربوه ، وعلى أية حال فالنصُّ القرآنيُّ بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار ، وهو القول الأخير[٢] .

إنَّ عيسى ابن مريم عليهما السلام أعلن لبني إسرائيل أن الله بعثه لهم

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٧٨ .
(٢) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٥٥٧ .

رسولاً ، وجعله مصدقاً لما سبقه من التوراة ، وأمره أن يُبشِّر برسول الله محمد ﷺ الذي سيبعثه من بعده ، وأن يأخذ على النصارى العهد أن يؤمنوا به ويتبعوه. ومع ذلك ، فإن النصارى الذين أدركوا محمداً ﷺ نقضوا عهودهم مع عيسى وكذبوا محمداً ﷺ ، ولما شاهدوا ما معه من البينات قالوا إنها سحر ، فلمّا جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ، إلا القليل منهم كالنجاشي ملك الحبشة ، فقد آمن بالنبي ﷺ ، كما مرَّ معنا ، وقد شهد هرقل ملك الروم برسالته حين جاءه كتاب النبي ، فأرسل إلى رومية يسأل عن خبر النبي الخاتم ، فلما جاءه الرَّدُّ قال لقومه: يا معشر الروم: إني قد جمعتكم لخير ، إنه قد أتاني كتاب من هذا الرجل يدعوني إلى دينه ، وإنه والله للنبيّ الذي كنا ننتظره ، ونحن نجده في كتابنا ، فهلمُّوا نتبعه ونصدقه ، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا.

وفي رواية الإمام البخاري أنه قال: (يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال: ردوهم علي ، وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه) [١] ، ولم يدخل هرقل في الإسلام ونكل عن مقتضيات شهادته[٢].

وبما أن عيسى عليه السلام بشَّرَ به ، فقد أخبر محمد ﷺ أنه (بشرى عيسى عليه السلام) ، فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بتأويل ذلك ، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه ، ورؤيا أمي التي

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٧.

(٢) منقذ محمود السقار ، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد (ﷺ) ، دار الإسلام ، مصر ، ط١ ، ٢٠٠٧م ، ص٧.

رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام) [١].

أ ـ التوفيق بين اسميه (أحمد) و (محمد) عليه الصلاة والسلام:

ما يلفت النظر في التعبير القرآني عن بشارة عيسى بمحمد ﷺ أنه جاء فيه اسم (أحمد) مع أن اسمه هو (محمد) ﷺ ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، فلا فرق بين الاسمين (أحمد) و (محمد) لاشتقاقهما من مادة (الحمد)، والاسمان معروفان للنبي الخاتم ﷺ، (أحمد) أفعل تفضيل، (من حمد)، تقول: حمد، يحمد، فهو حامد، وهو أحمد أكثر حمداً من غيره، و(محمد) على وزن (مفعَّل) اسم مفعول من الرباعي حَمَّدَ. وتقول: حَمَّدَ يُحمِّدُ، والمفعول منه: مُحمَّد، ويقال: فلان محمود: إذا حُمِد. ومُحمَّد: إذا كثرت خصاله المحمودة.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، فأحمد إشارة إلى النبيّ ﷺ باسمه وفعله، تنبيهاً أنه كما وجد اسمه أحمد يوجد وهو محمود في أخلاقه وأحواله، وخصّ لفظُ أحمد فيما بشّر به عيسى عليه السلام تنبيهاً أنه أحمد منه ومن الذين قبله، أي أكثر حمداً منهم لله، وقوله تعالى: (محمد رسول الله) فمحمد هنا: وإن كان من وجه اسماً علماً له ـ ففيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه[٢].

إن اسمَيْ (أحمد) و (محمد) مشتقان من (الحمد)، فهما من مادة اشتقاقية واحدة، فلا تناقض بين الاسمين الكريمين.

ولعل من حكمة التعبير بأفعل التفضيل (أحمد) في بشارة عيسى عليه السلام، اعتراف عيسى ابن مريم عليه السلام بفضل محمد بن عبد الله عليه وعلى كل من سبقه، وكان عيسى عليه السلام يقول: النبي الخاتم الذي يأتي من بعدي

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل، رقم (١٧٢٠٣).
(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٢٥٦.

هو أكثر حمداً مني لله ، وأكثر حمداً من كل من سبقني لله ، فهو (أحمدنا) لله وأكثرنا له ذكراً وشكراً وثناءً ومدحاً ، وفي هذا تواضع من عيسى عليه السلام أمام محمد ﷺ[١] .

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن له أسماء عديدة ، فقد روى البخاري ومسلم عن جُبير بنِ مُطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لي خَمسةُ أسماءٍ: أنا مُحَمَّدٌ ، وأحمَدُ ، وأنا الماحِي الذي يَمحُو اللهُ بي الكُفرَ ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَرُ النّاسُ على قَدَمي ، وأنا العاقبُ الذي ليس بعدَهُ نَبِيٌّ) [٢] .

إن هذه الأسماء الخمسة للنبي ﷺ تدل بصراحة على أن (أحمد) المذكور في الآية اسم من أسمائه ، فلا تعارض بين أحمد ومحمد ، وبشارة عيسى بمحمد ﷺ بأنه خاتم النبيين الذي ختم الله به هذا الموكب النبوي الكريم فقد قال رسول الله ﷺ: (إن مَثَلِي وَمَثَلَ الأنبياءِ من قَبلي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بيتاً فأحسَنَهُ وأجمَلَهُ ، إلا مَوضِعَ لَبِنةٍ من زاويةٍ ، فجَعَلَ النّاسُ يَطوفُونَ به ، ويَعجَبُونَ له ، ويَقولون: هلاّ وُضِعَت هذِهِ اللَّبِنةُ؟!) .

ب ـ سطوع البشارة في كتب أهل الكتاب :

أَكَّدَ سطوعَ البشارة بمحمد ﷺ في كتب أهل الكتاب إسلامُ العشرات المُعتَبرينَ من أهل الكتاب كالحسن بن أيوب والترجمان وزيادة النصب الراسي ، والقس عبد الأحد داود ، وإبراهيم خليل ، وموريس بوكاي ، وغيرهم كثير[٣] .

وتُظهر لنا كتبُ الدلائل والكتب التي جادلت أهل الكتاب أن اسم محمد كان مذكوراً بصراحة في كتب أهل الكتاب إلى عصرٍ متأخر ، ومنهم :

ـ ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٣٩ .

(٢) البخاري ، رقم (٣٥٣٢)؛ مسلم ، رقم (٢٣٥٤) .

(٣) منقذ محمود السقار ، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد (ﷺ)؟ ، ص ٧ .

ـ الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ.

ـ الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ.

ـ القرافي المتوفى سنة ٦٨٤هـ.

ـ ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ.

ـ ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ.

ونقل غيرهم نصوصاً كثيرة من كتب أهل الكتاب في عصرهم ، فيها صريح اسم (محمد) وجادلوهم بها ، ولكن بمرور الزمن بدؤوا يُخفون ذلك ، ويمحونه من كتبهم ، حتى لم يُبقوا له اسماً ، وذلك من عادتهم كما رأينا .

قال ابن تيمية : (وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر ذلك فيها ، وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ما ليس في أخرى) [١] .

ونقل ابن تيمية نصّاً من سفر دانيال من نعت النبي ﷺ وقال دانيال النبي عليه السلام أيضاً : (فلا يزالونَ ملعونين (بني إسرائيل) ، عليهم الذِّلةُ والمَسكنةُ ، حتى أبعثَ نبيَّ بني إسماعيل ، الذي بشّرتُ به هاجرَ ، وأرسلتُ إليها ملاكي فبشَّرها ، فأُوحي إلى ذلك النبيِّ ، وأُعلِّمَه الأسماء ، وأزَيِّنُه بالتقوى ، وأجعل البِرَّ شعارَه ، والتقوى ضميرَه ، والصِّدقَ قولَه ، والوفاءَ طبيعتَهُ ، والقَصْدَ سيرتَه ، والرَّشَدَ سنَّتَه ، أخُصُّهُ بكتابٍ مُصدِّقٍ لما بين يديه من الكتب ، وناسخٍ لبعض ما فيها ، أُسري به إليَّ ، وأرقيه من سماءٍ إلى سماء حتى يعلو ، فأُدنيهِ وأُسَلِّم عليه ، وأُوحي إليه ، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة ، حافظاً لما استُودِع ، صادعاً بما أمُر ، يدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي ويخبرهم بما رأى من آياتي فيُكذِّبونَه ويُؤذونَه ، ثم سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ بما أملاه عليه

---

(١) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تحقيق: سفر الحوالي ، مجلة البيان ، ط١ ، ١٤٣٢ه ، ٢/ ٢٧ .

الملك ، حتى وصل آخر أيام أمَّتِه بالنفخة وانقضاء الدنيا) [١].

ومن النصوص التي ورد فيها اسم الرسول ﷺ صراحة في سفر أشعيا: (إنّا سمعنا في أطراف الجبال صوتَ محمَّدٍ فصرح باسمه عليه السلام ومكانه تصريحاً لا يحتمل التأويل) [٢].

وقال دانيال عليه السلام: (وستَنْزِعُ في قِسِيِّكَ إغراقاً ، وتَرتوي السِّهامُ بأمركَ يا محمدُ ارتواءً) ، ونقل هذا النص الفخر الرازي والإمام القرافي وابن تيمية وابن قيم الجوزية ، وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي أوردها المُستدِلُّون ، والذي يبدو أن اسم الرسول ﷺ كان في بعض النسخ إلى عصرٍ متأخر جداً.

وقال الفاضل حيدر علي القرشي في كتابه المسمى (خلاصة سيف المسلمين) الذي هو في لسان الأوردو ـ أي الهندي ـ في الصفحة الثالثة والستين منه: إن القسيس أوسكان الأرمني ترجم كتاب إشعيا باللسان الأرمني في سنة ألف وستمائة وست وستين وطبع في سنة ١٧٣٣م ، وفي الباب الثاني والأربعين هذه الفقرة ، ونصُّها (سبِّحوا الله تسبيحاً جديداً ، وأثَرُ سلطنتِهِ على ظَهرِهِ ، واسمُهُ أحمدُ) انتهت. وهذه الترجمة موجودة عند الأرمن ، فانظروا فيها ، انتهى كلامه.

ونقل الدكتور فاضل صالح السامرائي في كتابه: (نبوة محمد من الشك إلى اليقين) طائفة من بشارات أهل الكتاب المتعلقة بنبوة محمد ﷺ ، وقد وصلت إلى ثلاثٍ وعشرون بشارة ، ومن أراد التوسع فليرجع إليه[٣].

---

(١) فاضل السامرائي ، نبوة محمد بين الشك واليقين ، مكتبة القدس ، بغداد ـ دار البشائر ، عمان ، ١٩٧١م ، ص ٣٠١.

(٢) القرافي ، الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ، شركة سعيد رأفت للطباعة ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ، ص ٢٥٥.

(٣) فاضل السامرائي ، نبوة محمد بين الشك واليقين ، ص ٣٠٥ ـ ٣٧٢.

ج ـ بشارات من إنجيل برنابا :

يُعدُّ برنابا قديساً ، تجلُّه الكنيسة وتعظِّمه ، وهو مذكور في (أعمال الرسل) بالتجلَّة والإكبار ، ولهذا القديس إنجيل ينسب إليه ، ورد اسمه في طائفة الأناجيل الممنوعة قبل الإسلام .

وجاء في كتاب (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) إنجيل برنابا ، ويقال : إن البابا جلاسيوس قد حرَّم قراءة هذا الإنجيل سنة ٤٩٢م ، وأعلن الدكتور تشارلس فرنسيس بوتر في كتابه : السنون المفقودة من عيسى تكشف أن إنجيلاً يدعى إنجيل برنابا استبعدته الكنيسة في عهدها الأول ، والمخطوطات التي اكتُشفت حديثاً في منطقة البحر الميت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل .

وتوالت بعد ذلك الاكتشافات التي لم يسمع عنها الجمهور لدينا كثيراً ، وهذا هو سر التعجب ، فالمصادر التي تذكر هذه الأمور وكلها أجنبية غربية ، قد ذكرت مخطوطاً آخر في الفيوم ، وآخر في مصر العليا[١] .

وجاء فيه : إن الأمر البابوي الذي أصدره البابا جلاسيوس الذي جلس على الأريكة البابوية ٤٩٢م ، يُبيِّن أسماء الكتب المَنهِيِّ عن مطالعتها ، وفي عدادها كتاب يسمى (إنجيل برنابا) . وفي هذا دليل قاطع على أن الإنجيل كان موجوداً قبل ظهور الإسلام ، ومشهوراً بين خاصة العلماء[٢] .

وقد وجِدت نسخة من إنجيل برنابا في جوّ مسيحي خالص ، فإن النسخة الوحيدة المعروفة الآن في العالم التي نقل عنها هذا الإنجيل إنما هي نسخة إيطالية في مكتبة بلاط فينا . . . وأول من عثر على النسخة الإيطالية هو كريمر أحد مستشاري ملك روسيا . . . ثم انتقلت إلى كريمر طولند ، ثم أهداها الأخير

---

(١) إبراهيم خليل أحمد ، محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، دار المنار ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ، ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

إلى البرنس أوجين سافوي ، وقد وجد النسخة الإيطالية راهب لاتيني يسمى (فرامرينو) ، وذلك أن هذا الراهب عثر على رسائل لـ أريناويوس ، وفي عدادها رسالة يُندِّد فيها بالقديس بولس الرسول ، وإن أريناويوس أسند تنديده هذا إلى إنجيل القديس برنابا ، فأصبح من ذلك الحين الراهب (مرينو) المشار إليه شديد الشغف بالعثور على هذا الإنجيل .

واتفق أنه أصبح حيناً من الدهر مقرباً من البابا سكتس الخامس ، فحدث يوماً أنهما دخلا معاً مكتبة البابا ، فدخل النوم على أحضان قداسته ، فأحب (مرينو) أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يفيق البابا ، فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو هذا الإنجيل نفسه ، فكاد أن يطير فرحاً من هذا الاكتشاف ، فخبأ هذه الذخيرة الثمينة في أحد ردنيه ، ولبث إلى أن استفاق البابا ، فاستأذنه بالانصراف حاملاً ذلك الكنز معه ، فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم ، فاعتنق على إثر ذلك الدين الإسلامي .

ثم إنه لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في كتابات مشاهير الكتاب المسلمين ، سواء في الأعصر القديمة أو الحديثة ، حتى ولا في مؤلفات من انقطع منهم إلى الأبحاث والمجادلات الدينية مع أن إنجيل برنابا أمضى سلاحاً لهم في مثل تلك المناقشات ، وليس ذلك فقط ، بل لم يرد ذكرٌ لهذا الإنجيل في فهارس الكتب العربية القديمة عند الأعارب أو الأعاجم أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربية من قديمة وحديثة[١] .

وتُحَرِّم الكنيسة قراءة هذا الإنجيل ولا تعترف به لأنه يقوم على أسس تخالف عقائد الكنيسة تماماً ، فهو يُنكر ألوهية المسيح وأنه ابن الله ، ويقول هو عبد الله ورسوله ، ويُنكر الصليب ، ويورد اسم محمد ﷺ صراحة في كثير من المواطن ، ومن ذلك على سبيل المثال :

---

(١) مقدمة الدكتور خليل سعادة لإنجيل برنابا .

ـ ما جاء في (١٤ : ٣٩) فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصّها : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ـ وجاء في الإصحاح الحادي والأربعين : (٢٩) : فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس (٣٠) فلما التفت آدم رآى مكتوباً فوق الباب : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ـ وفي الإصحاح الرابع والخمسين يتكلم عن يوم الحشر إلى أن يقول . . . ثم يُحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون : اذكرنا يا محمد .

ـ وفي (١٤ : ٩٧) أجاب يسوع أن اسم منسيًّاً عجيب . . . إلى أن يقول : قال الله : اصبر يا محمد . . . (٩٧ : ١٧) ، إن اسمه المبارك محمد .

ـ وفي (١٧ : ١٢) ولكني متى جاء محمد رسول الله المقدس تُزال عني هذه الوصمة .

ـ وفي (٧ : ١١٣) أجاب التلاميذ : يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه ، الذي سيأتي إلى العالم؟

ـ وفي (١١٣ : ٨) أجاب يسوع بابتهاج قلب : إنه محمد رسول الله . إلى غير ذلك من البشارات المبثوثة في هذا الإنجيل[١] .

د ـ عبد الأحد داود وكتابه (محمد في الكتاب المقدس) :

ألّف البروفيسور عبد الأحد داود كتابه (محمد في الكتاب المقدس) ، وكان داود قسيساً كبيراً للكلدانيين التابعين للروم الكاثوليك ، وكان اسمه (دافيد بنجامين كلداني) ، وقد درس الكتاب المقدس بقسميه العهد القديم والعهد الجديد ، دراسة متأنية ، واستخرج منها بشارات أنبياء بني إسرائيل بالنبي الخاتم محمد ﷺ ، وبشارة عيسى عليه السلام الصريحة به ، ووقف على

(١) فاضل السامرائي ، نبوة محمد بين الشك واليقين ، ص٣٠٥ ، ص٣٧٦ .

تحريف النصارى لهذه البشارات ، ودفعه ذلك البحث إلى الاقتناع بأن محمداً ﷺ هو رسول الله وخاتم النبيين ، فتخلّى عن النصرانية ، ودخل في الإسلام ، وألف نتيجة بحثه في كتاب بالإنجليزية ، وقد ترجم كتابه إلى العربية فهمي شما ، وطبعته رئاسة المحاكم الشرعية في قطر عام ١٩٨٥م ـ ١٤٠٥هـ.

قال البروفيسور عبد الأحد داود : وردت بشارة عيسى بأحمد ـ عليهما السلام ـ في إنجيل يوحنا في الإصحاحات الرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر.

وسجل تحريفات رهبان النصارى لتلك البشارات ، ويهمُّنا هنا أن نقف مع جملةٍ واحدة وردت في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا ، تتوافق تلك الجملة الأصلية غير المحرّفة مع الآية القرآنية تماماً : ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾.

والعبارة الأصلية الصحيحة في إنجيل يوحنا ، كما وقف عليها البروفيسور عبد الأحد داود هي : وسوف أذهب إلى الأب ، وسيُرسِل لك رسولاً سيكون اسمه (البرقليطوس) ؛ لكي يبقى معكم إلى الأبد ، و(البرقليطوس) هو أحمد ، ولكن النصارى حرفوا هذه العبارة إلى العبارة التالية (وسوف أسأل الأب ، وسوف يعطيكم (برقليطوس آخر) ، يبقى معكم إلى الأبد.

وفرق بعيد ـ يقول عبد الأحد داود ـ بين العبارة الأصلية (البرقليطوس) بالتعريف والتحديد ، وبين (برقليطوس آخر) في العبارة المحرفة ، الذي يدل على أن عيسى عليه السلام عنده مجموعة من (البرقليطيسيين) ، وكلمة (برقليطوس آخر) دلَّت على أن المراد بها عند النصارى (المعزِّي) أو (الوسيط) أو (المعين) وليس الرسول الخاتم[١].

---

(١) عبد الأحد داود ، محمد في الكتاب المقدس ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر ، ط٤ ، ٢٠٠٠م ، ص٢١٩ ـ ٢٢٠.

إنَّ (البرقليطوس) كلمة يونانية إغريقية معناها بالعربية ـ بالضبط ـ (الأمجد والأشهر) المشتق من التمجيد والثناء وهو (أحمد) المذكور في القرآن ، والصيغة الآرامية ـ التي كان يتلكم بها عيسى عليه السلام ـ الواردة في بشارة عيسى عليه السلام هي (محامداً أو حميداً) ، وهي متناسقة مع الصيغة العربية (محمد) أو (أحمد) تماماً[١] .

وقد خرج البروفيسور عبد الأحد داود ـ رحمه الله ـ في بحثه بنتيجة قاطعة قال فيها : إنَّ التنزيل القرآني القائل بأن عيسى ابن مريم عليهما السلام أعلن لبني إسرائيل أنه كان ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ واحد من أقوى البراهين على أن محمداً ﷺ كان حقيقة نبيّاً ، وإنَّ القرآن تنزيل إلهي فعلاً .

إذ لم يكن في وسعه أبداً أن يعرف أن كلمة (البرقليطوس) كانت تعني (أحمد) إلا من خلال الوحي والتنزيل الإلهي ، وحجة القرآن قاطعة ونهائية ، بأن الدلالة الحرفية للاسم اليوناني تعادل بالدقة ودون شك كلمة (أحمد ومحمد) ، ومن المدهش أن هذا الاسم الفريد ، الذي لم يُعط لأحد من قبل ، كان «محجوزاً» بصورة معجزة لأشهر رسل الله ، وأجدرهم بالثناء ، ونحن لا نجد أبداً أيَّ يونانيّ كان يحمل اسم «برقليطوس» ولا أيَّ عربي كان يحمل اسم (أحمد) [٢] .

وإذا كان عبد الأحد داود قد وقف على تحريف الأناجيل لمعنى كلمة (البرقليطوس) إلى كلمة (برقليطوس آخر) وفرق بعيد بين الكلمتين ، فإن ترجمات إنجيل يوحنا إلى العربية جعلت الكلمة بمعنى (المعزّي) وبمعنى (المعين) . وأمامي ترجمتان للكتاب المقدس ولإنجيل يوحنا :

الأولى: ترجمة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، والمطبوعة في

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢٣ .

القدس عام ١٩٨٤م. وقد ترجمت كلمة (برقليطوس) إلى (مُعزِّي). والعبارة السابقة التي أوردها عبد الأحد داود من الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا ، نصُّها في هذه الترجمة هكذا (إن كنتم تحبوني ، فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب ، فيعطيكم مُعَزِّياً آخر ، ليمكث معكم إلى الأبد).

الثانية: الكتاب المقدس: كتاب الحياة: ترجمة تفسيرية: وقد طبع في مصر عام ١٩٨٨م. والعبارة السابقة في هذه الترجمة التفسيرية هكذا (إن كنتم تحبوني فاعملوا بوصاياي ، وسوف أطلب من الأب مُعيناً آخر ، يبقى معكم إلى الأبد). وهذا مثال واضح على التحريف المُتعمَّد[١].

فبشارة عيسى عليه السلام بالنبي الخاتم كانت باللغة الآرامية (محامدا) أو (حمدا) ، وهي نفس كلمة (محمد) أو (أحمد) بالعربية ، ولما كتب يوحنا إنجيله كتبه باللغة اليونانية ، فترجم كلمة (محامدا) الآرامية إلى كلمة (البرقليطوس) ، ومعناها: الأشهر والأمجد ، والأكثر حمداً وثناءً ، وهذا لا غبار عليه.

لكن الرهبان الذين كتبوا إنجيل يوحنا بعد ذلك حرفوا كلمة (البرقليطوس) التي تعني التحميد ، إلى (برقليطوس آخر) التي تعني التعدد والتعويم ، ولما ترجموا هذه الكلمة إلى العربية حولوها من معناها الصحيح: الأمجد والأشهر والأحمد ، إلى (المُعزِّي) ، و(المُعاوِن).

إن العودة إلى الأصل الآرامي لإنجيل يوحنا ، بل والترجمة اليونانية الأصلية لبشارة عيسى ـ عليه السلام ـ فيه ، تعطينا توافقاً وتناسقاً وانسجاماً بين الكلمات الثلاث: (محامدا) الآرامية ، و(البرقليطوس) اليونانية ، و(أحمد) العربية القرآنية[٢].

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٤٤.
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ٣٤٥.

هـ ـ اعتراف علماء لاهوت بأن (البرقليطوس) هو أحمد:

إنَّ المُنصِفينَ من علماء اللاهوت النصارى يعترفون بأن الكلمة اليونانية الأصلية من إنجيل يوحنا ، هي بمعنى الكلمة العربية القرآنية (أحمد).

وقد روى الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب قصص الأنبياء حادثة طريفة جرت بينه وبين المستشرق الطلياني الدكتور (كارلو نلينو) تؤكد هذه الحقيقة ، حيث كان الشيخ النجار طالباً في كلية دار العلوم عام ١٨٩٣م ـ ١٨٩٤م ، وكان يدرس معهم المستشرق كارلو نلينو ، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة التي كُتبت بها الأناجيل ، وجاء إلى القاهرة ، ليتعلم اللغة العربية ، وقد انعقدت صداقة بين عبد الوهاب النجار وكارلو نلينو.

وذات يوم سأل النجارُ المستشرق قائلاً: ما معنى (بيريكلتوس)؟ وهي (برقليطوس) التي مرَّت معنا من قبل ، فأجابني بقوله: إن القسيسين يقولون: إن هذه الكلمة معناها (المعزّي) ، فقلت: إني أسأل الدكتور (كارلو نلينو) الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ، ولست أسأل قسيساً ، فقال: إن معناها (الذي له حمد كثير)، فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل (أحمد)؟ قال: نعم. قلت: إن رسولنا من أسمائه أحمد. قال: يا أخي أنت تحفظ كثيراً[١].

وهكذا توافقت الأناجيل الأصلية على النصّ ، وذلك على بشارة عيسى ـ عليه السلام ـ بمحمد ﷺ ، واعترف المنصفون من النصارى بهذه الحقيقة رغم تحريف مترجمي ومؤلفي الأناجيل المتأخرين لها[٢].

٣ ـ بعض صفات المؤمنين بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل:

ـ قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى

(١) المرجع السابق ، ٤/ ٣٤٦.
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ٣٤٦.

ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

تبدأ الآية الكريمة بإثبات صفة محمد ﷺ الوضيئة بذلك الأسلوب البديع، وفيها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه الجميل، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمُضمَرة.

- لقطة تُصوِّر حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

- ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

- ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

- ولقطة تصور أثر العبادة والتوجّه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾، ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، وهذه صفتهم فيها.

- ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل... ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾، ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ (١).

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة، إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثمّ فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، وصفتهم التي عرَّفهم الله بها في كتاب موسى، وبشّر الأرض بهم قبل أن يجيئوا إليها، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه، أنهم: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فهو زرع نام قويّ، يخرج فرخه من قوته وخصوبته، ولكن العود آزر فرخه فشده ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ الزرع، وضخمت ساقه

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٣٣١.

وامتلأت ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ لا معوجاً ولا محنيّاً ، ولكن مستقيماً قوياً سوياً. وهذه صورته في ذاته ، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع العارفين بالنامي منه والذابل ، المثمر منه والبائر ، فهو وقع البهجة والإعجاب ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس ، فهو وقع الغيظ والكمد ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزراعة هي زرعة الله ، أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار القدرة وأداة لإغاظة أعداء الله ، وهذا المثل كذلك ليس مستحدثاً ، فهو ثابت في صفحة القدر ، ومن ثمّ ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ومن معه إلى هذه الأرض ، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه ، حين يجيئون(١).

وتحدث الله عز وجل عن المجاهدين في كتبه الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن ، وبيّن بأنّهم باعوا أنفسهم وأموالهم لله ، فاشتراها الله منهم ، وجعل ثمن ذلك الجنة ، وطريقة التسليم هي الجهاد والقتال في سبيل الله ، وعندما يجاهد هؤلاء المؤمنون فسيقتلون بعض الأعداء ، ومقابل ذلك سيُقتَلُ أناسٌ منهم شهداءَ ، ووعد الله الفريقين من المؤمنين المجاهدين الشهداء والمنتصرين السعداء الجنة وهذا وعدٌ قاطع منه ورد في التوراة والإنجيل والقرآن ، وإنه منجِزٌ لهم ما وعد؛ لأنه سبحانه لا يُخلِف الميعاد ، وذِكْرُ هذه الحقيقة الجهادية في الإنجيل دليلٌ على أن الإنجيل الرباني الأصيل فيه أبعاد وتوجيهات جهادية(٢).

قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٣٣٣.
(٢) صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٩٣.

وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

إن وعد الله سبحانه وتعالى: بالجنة لمن يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون ، ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن ، كما أن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن منذ كانت الرسل ، ومنذ كان دين الله[١].

٤ ـ الرهبانية المبتدعة الباطلة:

قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

لقد بعث الله تعالى عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ رسولاً وأنزل عليه الإنجيل ، وآمن به صالحون من بني إسرائيل وغيرهم.

ـ ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾

ذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى ابن مريم وهي الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح ـ عليه السلام ـ ورُوحِها السَّمْحةِ وتَطهُّرِها الروحيِّ ، وشفافيتها الوضيئة ، والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ، ممن أحسنوا اتباعه. وقد أشارت إليها آيات أخرى في القرآن الكريم، كما حفظ منها التاريخ صوراً يرويها الرواة عن النجاشي وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين في الإسلام ، بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق ، مذ كانوا أتباع عيسى ابن مريم بحق ، كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عُرفت في تاريخ أتباع المسيح عيسى ابن مريم.

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٧١٩.

ـ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾

والراجح في تفسير الآية أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من بعض أتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، وابتعاداً عن أوضار الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء .

ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تَطهُّرٍ وتَرفُّعٍ ، وقناعة وعِفّة ، وذكر وعبادة . . . مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله ، التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية التي ابتدعوها .

ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً وشعائر خالية من الروح ، وأن يتخذها الكثيرون مظهراً عارياً من الحقيقة . فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل .

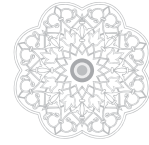
ـ ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال ، ولا بالطقوس والمسوح . إنما يأخذهم بالعمل والنية ، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك . وهو الذي يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور[١] .

لقد اعتزلوا الناس وصاروا في الصوامع ، فلم يزالوا كذلك حتى غيَّرت طائفة منهم ، فتركوا دين الله وأمره وعهده الذي عهِد به إليهم ، وأخذوا البدع[٢] .

* * *

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٤٩٦ .
(٢) صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٩١؛ تفسير الطبري ، تقريب وتهذيب ، ٧/ ٢٣٩ .



المبحث الثالث

معجزات عيسى عليه السلام والحواريون ورفعه إلى السماء

أولاً: المدخل لتعريف المعجزة وشروطها:

١ ـ تعريف المعجزة:

هي أمرٌ خارق للعادة ، مقرونٌ بالتَّحدِّي ، سالم عن المعارضة ، يُظهره الله على يد رسله[١] . فالمعجزة أمر خارق للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون ، ولا تخضع للأسباب والمسبِّبات ، ولا يمكن لأحد أن يصل إليها عن طريق الجهد الشخصي، والكسب الذاتي، وإنما هي هبة من الله سبحانه وتعالى، يختار نوعها وزمانها ليُبرهِن بها على صدق رسوله الذي أكرمه بالرسالة .

وإنّ السحر والأعمال الدقيقة التي يمارسها بعض أهل الرياضات البدنية أو الروحية لا تدخل تحت مُسمَّى الخارق؛ لأن الكل من تلك الأمور أساليب ووسائل يمكن لأيّ إنسانٍ أن يتعلَّمها ويُتقِنَها ويُمارسها ، فإذا اتبع الأسباب والأساليب المؤدية إلى نتائجها أمكنه بواسطة الجهد الشخصي والمران والممارسة أن يَتوصَّل إلى تلك النتائج . أما الأمور الخارقة فلا تدخل تحت طاقة البشر ، وليست لها أسباب تُؤدِّي إليها[٢] .

---

(١) مصطفى مسلم ، مباحث في إعجاز القرآن ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م ، ص١٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص١٤ .

٢ ـ شروط المعجزة :

من التعريف السابق للمعجزة نستطيع أن نلتمس شروطها :

ـ أن تكون من الأمور الخارقة للعادة .

ـ أن يكون الخارق من صنع الله وإنجازه .

ـ سلامتها من المعارضة .

ـ أن تقع على مقتضى قول من يدّعيها .

ـ التحدّي بها : وهذا شرط أساس في المعجزة لإثبات عجز الجاحدين وإقامة الحجة عليهم .

ـ أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على الله عزّ وجلّ .

ـ تأخّر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة[١] .

٣ ـ المعجزة قرينة الرسالة :

لولا المعجزة لأشكل الأمر على الناس والتبس أمر الصادق بغيره ، ولما سلمت الدعوات من مدّعين كاذبين ، وتأييد الرسول بآية صِدقٍ سُنّةٌ إلهيةٌ في رسالات الأنبياء جميعاً ، والقرآن الكريم يوضح هذه السنة ويقررها كما ورد في قصص الأنبياء والأمم السابقة . ولم يؤاخذ الأقوام عند ما طالبوا رسلهم بالآيات الدالة على صدقهم ، إنما آخذهم عند ما عطلوا ملكاتهم العقلية ولم يتدبروا أثر الحكمة والتدبير فيما حولهم ، أو أصرّوا على نوع معيّن من الآيات من قبل العناد والجمود على العادات الجاهلية الموروثة من الآباء الذين لم يكونوا على هدى من ربهم[٢] .

---

(١) مصطفى مسلم ، مباحث في إعجاز القرآن ، ص١٧ ـ ١٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٢٤ .

٤ ـ سنة الله سبحانه وتعالى في معجزات الأنبياء :

نلاحظ عند استعراض معجزات الأنبياء السابقين ، ومعجزات خاتمهم ـ عليهم الصلاة والسلام أجمعين ـ أن المعجزة تُختار من بيئة القوم الذين يرسَل الرسول إليهم ، ومن نوع المشهور من عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكري ، ورقيّهم الحضاري ، لتكون الحجة أقوى .

أ ـ الأنبياء الذين عاشوا في البلاد العربية كانت معجزاتهم مناسبة لبيئة العرب الصحراوية ، فمعجزة صالح عليه السلام كانت ناقة غريبة المنشأ والمولد بين نوق أهل البادية .

ب ـ كان السحر منتشراً بين المصريين عامتهم وخاصتهم ، استرهبهم به فرعون وجنوده ، فجاءت معجزات موسى عليه السلام من جنس المشهور بين قومه ، فمن معجزاته الرئيسية العصا واليد ، فظاهر هاتين المعجزتين لا يختلف عما كان متداولاً بين سحرة فرعون[١] ، ولكن أهل الدراية بالسحر كانوا يُميِّزونَ بين السحر ، وبين ما هو خارج قوى السحر ، بل من صنع الله ، لذا كانوا أول المؤمنين به[٢] .

ج ـ بعد عصر موسى عليه السلام انتشرت الفلسفة اليونانية وهي أساس الفلسفة الأوربية فيما بعد ، وكانت تقوم على الأخذ بالأسباب والمُسبَّبات ، وتَولُّدِ المعلول من العّلة في انتظام قائم لا يتخلَّف ، فجاءت معجزات أنبياء بني إسرائيل في هذا العصر خارقة للأسباب والمُسبَّبات لتثبتَ أنَّ الكونَ كلّه بإرادةِ مُريدٍ مختارٍ لا يفعل إلّا ما يريدُ ، ولا يصدر عنه بغير إرادته الثابتة شيءٌ[٣] .

---

(١) محمد أبو زهرة ، المعجزة الكبرى القرآن ، دار الفكر العربي ، مصر ، القاهرة ، د.ت ، ص٤٣٧ .
(٢) علي محمد الصّلابيّ ، الإيمان بالرسل والرسالات ، ص٢٤٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص٢٤٣ .

فمعجزات سليمان عليه السلام مثلاً جاءت مناهضة لتلك النظرية التي تقول: إن المخلوقات نشأت عن الموجود الأول نشوء العلّة من المعلول، فكانت حياة سليمان في ملكه تجري على هدم هذه النظرية، فمن معجزاته تسخير الجن والطير له، وتعليمه منطق الطير والحيوان، وتسخير الرياح له[١].

د ـ في عصر ازدهار الطب والفلسفة اليونانية المبنية على الأسباب أيضاً، كانت معجزات عيسى عليه السلام من جنس ما اشتهر به هذا العصر، فكانت ولادته إبطالاً صارخاً لهذه النظرية، فإن المعتاد في حياة الكائنات الحية أن المولود يولد من أبوين، فجاء عيسى عليه السلام من غير أب، فكان ذلك خارقاً للأسباب الطبيعية الجارية، وتحدُّثه في المهد حديث الحكماء وتصويره من الطين كهيئة الطير ثم نفْخه فيها فيكون طيراً بإذن الله يأتي بيانها بالتفصيل بإذن الله.

هـ ـ قبل بعثة خاتم النبين محمد ﷺ بلغت الفصاحة والبلاغة وفنون القول شأواً بعيداً، وأخذت الكلمة مكاناً من نفوس العرب من التقديس والتعظيم لم يبلغه شيءٌ آخر، مما حدا بهم أن يُعلّقوا المعلقات السبع في جوف الكعبة، وإذا علمنا أن الكعبة كانت تُعتَبر أقدسَ مكان عند العرب في جاهليتهم أدركنا مكانة الكلمة في نفوسهم فكانت معجزة سيدنا محمد ﷺ ـ القرآن الكريم ـ من جنس ما يقدسونه ويعظمونه.

والحكمة الإلهية من اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم أن الإنسان إذا أُتي من قبل ما يعتبره مفخرته ومجال إجادته واعتزازه تكون الحجة عليه أقوى، والمعجز أكثر فعلاً وأثراً[٢].

٥ ـ الفرق بين المعجزة والكرامة:

ـ إن الكرامة دون المعجزة في خرق العادة.

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٤٣.

(٢) علي محمد الصّلابيّ، الإيمان بالرسل والرسالات، ص٢٤٤.

ـ إن الكرامة معتادة من الصالحين ، بخلاف المعجزة فهي خارقة للبشر .

ـ إن الكرامة تابعة للمعجزة ، ودليل من دلائل النبوة ، فإن الولي لم تحصل له الكرمة إلا لاتباعه النبي ، ولو لم يتبعه لما وقعت له .

ـ إن الكرامة ينالها الوليُّ بفعله كعبادته ودعائه ، بخلاف المعجزة ، فإنها غير مكتسبة(١) .

ـ إن الكرامة أمر خارق للعادة، غير مقرونٍ بدعوة النبوة، ولا هو مقدمة لها، يظهرها الله على يد ولي ظاهر الصلاح ، ملتزم بمتابعة نبيه ، مصحوب بصحيح الاعتقاد ، والعمل الصالح ، وقد يكرّم الله تعالى من يشاء من عباده الصالحين بأمور غير خارقة للعادة ، ولا خارجة عن مألوف الناس ، وذلك كالاستقامة ، والتوفيق إلى طاعة الله ، والزيادة في العلم والعمل وهداية الخلق إلى الحق(٢) .

ـ إن الكرامة لا تقترن بدعوى النبوة ، ولا يُتحدَّى بها ، بل الأصل فيها الإخفاء والكتمان ، وهذا يخالف المعجزة؛ لأنها تقترن بدعوى النبي النبوة ، ويتحدَّى بها ، وإظهارها واجب ، ليتمّ بها المقصود من تبليغ الرسالة ، وتُقام بها حُجَّةُ الله على خلقه(٣) .

ـ ليست الكرامة دليلاً على تفضيل هذا المعطى على غيره ، فقد يعطي الله الكرامة لضعيف الإيمان لتقوية إيمانه ، وعندما يكون محتاجاً لسدّ حاجته ، ويكون الذي لم يُعطَ مثلَ ذلك أكملَ إيماناً وأعظم ولاية ، وهو لذلك مستغنٍ عن مثل ما أُعطي غيره ، ولذلك كانت الأمور الخارقة في التابعين أكثر منها في الصحابة(٤) .

---

(١) محمد بن عبد العزيز الشايع ، آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ، مكتبة دار المناهج ، ط١ ، ١٤٢٧ هـ ، ص٤٧٣ .
(٢) علي محمد الصّلابيّ ، الإيمان بالرسل والرسالات ، ص٢٥٦ .
(٣) المرجع نفسه ، ص٢٥٦ .
(٤) علي محمد الصّلابيّ ، الإيمان بالرسل والرسالات ، ص٢٥٦ .

٦ ـ الفرق بين الكرامة وخوارق السحر :

أما الفرق بين الكرامة والسحر ، فهو أن الخارق غير المقترن بتحدي النبوة إن ظهر على يد من ليس كذلك فهو السحر أو الاستدراج ، وتميُّز الصالح المذكور عن غيره بيِّنٌ لا خفاء فيه ، إذ ليست السّيما كالسّيما ، ولا الآداب كالآداب ، وغير الصالح لو لبَّس ما عسى أن يلبِّس لا بدَّ أن يرشح من نتن فعله أو قوله ما يميِّزه عن الصالح[١] .

إن بين كرامات الأولياء وبين ما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروقاً متعددة منها : أنَّ كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى ، والأحوال الشيطانية يكون سببها ما نهى الله ورسوله ﷺ عنه ، ويُستعان به على ما نهى الله عنه[٢] .

ثانياً: معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام:

شاء الله الحكيم أن يجعل عيسى عليه السلام آية ، ولذلك جعل معجزاته عديدة في حياته ، فقد كان حمل أمه به من غير زوج آية ، وإنزال عيسى عليه السلام من بطن أمه متكلماً آية ، وإنطاق عيسى أمام أهلها ، وتقديم نفسه إليهم آية ، وهذه آيات ومعجزات رافقت خَلْقَه وميلاده وطفولته[٣] .

ولما صار شاباً وبعثه الله نبياً ورسولاً ، قَدَّم الله له عدداً من الآيات والمعجزات لبني إسرائيل ، أقام عليهم بها الحجَّة ، وكذلك لما صمّم اليهود على صلبه وقتله حماه الله منهم ، ورفعه إلى السماء ، وجعل هذا آية ، وهو الآن حيٌّ في السماء بروحه وبدنه ، حياة غيبية لا نعرف كيفيتها ، وجعل الله هذه آية ، وسيُنزله الله في آخر الزمان إلى الأرض ، فسيكون إنزاله آية .

وهكذا صاحبت الآيات والمعجزات عيسى عليه السلام منذ خلقه إلى موته

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٥٦ .
(٢) المرجع نفسه ، ص٢٥٧ .
(٣) صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٩٥ .

قبل قيام الساعة ، ولهذا قال الله عنه وعن أمّه ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

حيث نصَّ على أنّه جعلهما آية للعالَمين ، والعالَمُون هنا هم الناس أجمعون ، جعلهما الله آية من آياته الدالَّة على وحدانيَّته وقدرته وحكمته ، واللطيف هو التعبير القرآنيّ أنه عبّر عن الاثنين عيسى وأمّه بالمفرد ، وذلك في قوله ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وحكمة الإفراد (آية) أنهما متلازمان لا ينفصلان ، فلا يُذكر عيسى عليه السلام إلا تُذكر أمّه معه ، ولا تُذكر مريم رضي الله عنها إلا بذكر ابنها معها ، فهما (آية) معاً.

وإن الآيات التي جعلها الله في مريم هي تمهيدٌ لآيات عيسى عليه السلام ، فقصة مريم هي قصة عيسى باعتبارها أمَّه ، فالمقصود من الآيات هو عيسى ، ولذلك عبّر بالمفرد (آية). وعيسى هو الآية ، وأمه جزء منه ، وآيتها هي آيته ، ويهمُّنا في هذا الموضوع الحديث عن آيات عيسى عليه السلام التي قدمها لبني إسرائيل ، فهو رسول بعثه الله إليهم ، وجعل الله معه آيات معجزات دالّة على صدقه ونبوَّته(١).

هذا وقد أيَّد الله عيسى عليه السلام بالروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وامتنَّ الله عليه بتأييده بروح القدس ، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ﴾ [المائدة: ١١٠].

وأُطلق على جبريل روح القدس؛ لأن أساس معنى الروح هو ما به حياة

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٩٧.

الإنسان سواء كانت حقيقية أو معنوية ، فالروح الحقيقية هي التي يجعلها الله في الإنسان ، وهي سرٌّ من أسراره سبحانه ، لا يعلم حقيقتها أحد من خلقه ، وهي أساس حياة الإنسان ، فإن خرجت الروح منه مات .

والروح المعنوية هي التي بها حياة القلوب والنفوس والأرواح ، وبهذا الاعتبار أُطلق على جبريل كما أُطلق على القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وأضاف الروح إلى القدس في قوله ﴿ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ ﴾ أي جبريل ، أي : هو الطاهر المطهر المبارك[١] .

وقد خلق الله تعالى : جبريل عليه السلام من طهارة محضة ، فهو ملك خلقه الله من النور ، وقيل : سُمِّي بذلك من حيث أنه ينزل من الله بالقدس ، أي : بما يطهِّر به نفوس عباده من القرآن والحكمة والفيض الإلهي[٢] .

و(روح القدس) ـ جبريل عليه السلام ـ ليس خاصّاً بعيسى ابن مريم عليه السلام ، فقد ورد في القرآن الكريم في سياق إنزال كتاب الله على عبده ورسوله محمد ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠١ ـ ١٠٢] ، والشاهد في الآية الثانية ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي : نزَّل عليك القرآن من ربك بواسطة جبريل وهو روح القدس .

---

(١) محمود صافي ، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ، دار الرشيد ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م ، ١/ ١٩٢ .

(٢) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٢٩٨ .

والخلاصة: أن الله تعالى آتى عيسى عليه السلام الآيات والمعجزات البينات، وأيَّده بجبريل تأييداً ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾.

وهذا معناه أن الله كان يُنزل عليه روحَ القدس جبريل وهو يقوم بالدعوة ويواجه بني إسرائيل، وكان جبريل عليه السلام يؤيده ويقوِّيه ويشجعه، وليس هذا خاصّاً بعيسى عليه السلام، فكل أنبياء الله ورسله أيَّدَهُم الله وقوّاهم ونصرهم بروح القدس جبريل عليه السلام، وكان لرسولنا ﷺ نصيب كبيرٌ من تأييده به، حيث كان ينزل عليه مُعلِّماً مُوجِّهاً، وفي المعارك مع الكفار كان ينزل يقود الملائكة مدداً مُساعِداً مُعيناً، بأمر الله، كما حصل في بدرٍ وأُحد والأحزاب[1].

هذا وقد تحدث العلماء ـ حديثاً وقديماً ـ عن معجزات عيسى عليه السلام، التي أعطاها الله تعالى له شهادة له على نبوته ورسالته، وعبوديته لله عز وجل منها:

١ ـ ميلاده من أمٍّ بلا أب:

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢١].

٢ ـ تأييده بروح القدس:

روح القدس هو جبريل عليه السلام.

٣ ـ نطقه ببيان دقيق وهو لم يزل في المهد:

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾

(١) الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٢٩٩.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

٤ ـ تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل:

بعد فقدان جميع الكتب السماوية السابقة، وفي مقدمتها (التوراة) و(الزبور) التي كان غلاة اليهود قد قاموا بتحريفها بعد ضياع أصولها، كما كانوا قد أجرَوا العديد من الحذف والإضافة لما كان قد بقي عندهم من ذكريات عن هاتين الرسالتين[١].

٥ ـ إبراء الأكمه والأبرص:

الأكمه هو الذي ولد أعمى، أي: لم يطرأ عليه العمى بعد ولادته، فالعمى نوعان: عمىً أصليّ، وعمىً عَرَضيّ، فالعَمَى العَرَضِيُّ يُمكن علاجه، حيث إن العمى قد طرأ على المُبصر لعلّة، فربما إذا زالت عاد البصر كما كان، وأما العمى الأصلي وهو الكَمَهُ فصاحبه من المستحيل علاجه في عالم الأسباب، ومن هنا صار الإعجاز أيضاً، فلو أن القوم استطاعوا علاج رجل أعمى أصابه العمى بعد أبصارٍ فإنهم لو اجتمعوا لا يستطيعون علاج رجل أكمه وولد أعمى بلا عينين ليجعلوه مبصراً.

وكذلك البرص، وهو بياض يظهر في الجلد في بقع متناثرة في الجسد، وهو مرض صعب لم يكن باستطاعتهم علاجه، ولكن عيسى عليه السلام ـ بإذن الله ـ يستطيع شفاء هذا الأبرص من مرضه[٢].

كانت هذه المعجزة في زمن اشتهر فيه الطبُّ وتقدَّمَ، فكان من معجزات عيسى عليه السلام هذه المعجزة (إبراء الأكمه والأبرص) معجزة فيما لم يقدر

---

(١) زغلول النجار، من آيات الإعجاز الأنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، المرجع السابق، ٢/ ٨٧٢.

(٢) خالد عبد العليم، وقفات في حياة الأنبياء، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص٢٠٣.

عليه البشر حتى الآن ، وكأي معجزة من معجزات الأنبياء ، تبقى هذه المعجزة خالدة أبد الدهر ، لا يقدر البشر على الإتيان بمثلها ، وحتى لو قدِّر للبشر معالجة الأكمه الذي ولد أعمى ولم يُصَبْ بداء فقدان بصره بأدوية يخترعونها ، فلن يستطيعوا علاجه بمسحة من اليد على عينيه ، فيقوم من لحظته مبصراً ، وحتى لو قدِّر للبشر معالجة الأبرص الذي ابيضَّ جلده بأدوية يخترعونها ، فلن يستطيعوا أن يعالجوه بمسحةٍ من اليد على جلده ، فيقوم من لحظته مُشافىً مُعافىً ، وكانت هاتان المعجزتان مُوجَّهتَينِ إلى أكثر الأمم نجاحاً في الطب ، وهي الأمة التي كان فيها أكثر أتباعه[١] .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ [آل عمران : ٤٩] . وقال تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ [المائدة : ١١٠] .

فقد كان عيسى عليه السلام يمسح بيده على الأكمه ، وهو الذي لم ير النور منذ ولادته ، فيُعيد الله له بصره ، ويزول عنه عماه ، ويكون مبصراً قويّ البصر ، وإبراء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص بإذن الله ، دليل على نبوته ، لأن الكمه والبرص لا علاج لهما من قبل الأطباء ، لأنه لا يقدر طبيب على علاجهما ، فكان علاج عيسى لهذين المرضين ، وإبراء المريضين بدون علاج ، وهو غير طبيب ، دليلٌ على أنه رسول الله ، وأن الله أيده بهذه الآية والمعجزة ، أن الله هو الذي أبرأ وشفى على يدي عيسى عليه السلام[٢] .

٦ ـ إحياء الموتى بإذن الله :

ـ قال تعالى : ﴿ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ

(١) عبد المجيد العرابلي ، أحبك أيُّها المسيح ، مطبعة أروى ، الأردن ، ط٢ ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٦م ، ص١٦٦ .

(٢) الخالدي ، تفسير الطبري ، تقريب وتهذيب ، ٢/ ٢٧٤ .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

إنَّ إحياء عيسى عليه السلام الموتى هو بإذن الله جَلَّت قدرتُه، والمُحيي في الحقيقة هو الله العلي القدير، ولكن أجرى الإحياء على يد المسيح عليه السلام؛ ليكون ذلك برهان نبوته، ودليل رسالته[1].

وظاهر هذه الآية الباهرة أن عيسى عليه السلام كان يمرُّ بالموتى فيدعو الله أن يُحيِيَهم، فيستجيب الله دعاءه ويُحييهم، فيخرجون من قبورهم أحياء.

إنَّ إحياء عيسى عليه السلام للموتى مظهر عمليّ لإرادة الله، فالله سبحانه هو الذي أحياهم في الحقيقة وهو المسبب والمقدّر والمريد، لأنه هو الذي يُحيي ويُميت، وما يفعله عيسى عليه السلام لإحيائهم هو سبب ظاهريّ، الله هو الذي مكّنه من ذلك وأقدره عليه، وجعل الحياة تدبُّ في ذلك الميت على يديه، فلا نقف عند السبب وننسى إرادة المُسبِّب سبحانه وتعالى.

وإنَّ إحياء الموتى آية بينة دالّة على نبوة عيسى عليه السلام؛ لأن البشر جميعاً لا يستطيعون إحياء ميت، فخروج الميت من قبره حيّاً بدعاء عيسى عليه السلام دليل على أن الله تعالى هو الذي أحياه وجعل حياته على يد عيسى عليه السلام ليكون ذلك آية بينة على أنه رسول من عند الله.

ومن لطائف تعبير القرآن الكريم عن آية إحياء عيسى للموتى أنه فيه نوع من التعاقب والمرحلية.

- في سورة آل عمران قال لبني إسرائيل: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.
- في سورة المائدة قال الله ممتنّاً عليه: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾.

---

(١) محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط٤، ١٤٠٤هـ ص٢٠.

فهو أولاً أحياهم بإذن الله ، فدبّت فيهم الحياة ، وصاروا أحياء ، وهذا ما تكفلت بالإشارة له آية سورة آل عمران .

وهو ثانياً أخرجهم من قبورهم أحياء ، فبعد أن دَبَّت فيهم الحياة دعاهم إلى الخروج من قبورهم ، فخرجوا منها بإذن الله ، وهذا ما تكفَّلَت بالإشارة له آية سورة المائدة .

فلا تكرار في إخبار القرآن عن الحالة الواحدة أكثر من مرة ، وإنما هو التنوع في العرض ، وإفادة جديد في كل مرة جديدة ، وسبحان من أنزل القرآن[١] .

إنَّ زمن عيسى قد سادَهُ إنكار الروح في أقوال بعضهم ، وأفعالِ جميعِهم ، فجاء عليه السلام بمعجزة هي في ذاتها أمر خارق للعادة ، مصدق لما يأتي به الرسول وهي في الوقت ذاته إعلان صادق للروح ، وبرهان قاطع على وجودها .

فهذا طين مُصوَّر على شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيكون حياً ، ما ذاك إلا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه ، فكانت معه الحياة ، وهذا ميت قد أكله البلى ، وأخذت أشلاؤه في التَّحلُّل ، وأوشكت أن تصير رميماً ، أو صارت يناديه المسيح عليه السلام ، فإذا هو حي يجيب نداء من ناداه ، وما ذاك إلا لأن روحاً غير الجسم الذي غَيَّره البِلى حَلَّت فيه بذلك النداء ، ففاضت عليه الحياة ، وهكذا .

لقد كانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته ، وتُناسب أخصَّ رسالته ، وهو الدعوة إلى تربية الروح ، والإيمان بالبعث والنشور ، وأن هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، إن خيرًا فخير ، وإن شراً فشر. وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار في إنكاره أو تسمح لجاحد البعث والنشور أن يستمر في جحوده. وقد أسلفنا لك القول إن اليهود كان يسود تفكيرَهم عدمُ الاعتراف بوجود

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٠٨ .

الآخرة. وعدم الإيمان باليوم الآخر. إن لم يكن بالقول فبالعمل. فكان إحياء الموتى صوتاً قوياً يحملهم على الإيمان حملاً. ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون(١).

٧ـ الخلق من الطين ونفخ الروح بإذن الله:

ـ قال تعالى: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

كان يصنع من الطين تمثالاً على شكل طائر، وبعدما يجفّ التمثال ويبيس، كان ينفخ فيه فيتحول هذا التمثال إلى طائر حيّ حقيقي، وكان هذا بإذن الله وإرادته.

وهذه المعجزة عبرت عنها سورة المائدة بلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

والخلق: أصله التقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع من غير أصل ولا احتذاء.

ـ قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. ودليل خلق السماوات والأرض بمعنى إبداعهما من غير أصل، هو قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١]. وهذا الخلق الذي هو الإبداع من لا شيء خاصٌّ بالله، ولهذا جعله الله فصلاً بينه وبين غيره سبحانه.

ـ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. ويُستعمل الخلق في إيجاد الشيء من الشيء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

---

(١) محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص٢٢.

ـ وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥]. وهذا الخلق الذي بمعنى التحويل قد جعله الله لغيره في بعض الأحوال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

فقد كان خَلقُ عيسى للطير خَلْقَ تَحويل، لا خَلْقَ إبداع، أي من النوع الثاني، إذن كان خلق عيسى عليه السلام، حيث أقدره الله عليه، وأَذِنَ له فيه فكان يصنع من التراب طيناً، ثم يحوِّل هذا الطين التمثال إلى طائر، بإذن الله سبحانه[١].

قال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي: تُصوِّره وتُشكِّله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك فيكون طائراً بإذني، أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكَّلتَها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح بإذن الله وخلقه[٢].

ـ ما الذي خلقه عيسى عليه السلام؟

أخذ عيسى عليه السلام تراباً، فجعله طيناً، ثم أخذ هذا الطين فجعل منه تمثالاً على شكل وهيئة طير، ثم نفخ فيه فصار طيراً حيّاً بإذن الله تعالى.

ليس هذا إيجاد من العدم، ولا إبداع من لا شيء، وإنما هو تحويل أشياء خلقها الله من العدم وأوجدها في الأرض، فأخذها عيسى عليه السلام فحوّلها من حالة إلى حالة: تراب خلقه الله، وماء خلقه الله، فأخذ عيسى هذين

---

(١) الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٣٠٢.
(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ١٠٩.

العنصرين ، فمزجهما معاً ، فصارا طيناً ثم جعلهما تمثالاً ، فهل أوجد عيسى شيئاً من العدم؟

ثم هذا الخلق المنسوب إلى عيسى ـ الذي هو بمعنى التحويل ـ فعله عيسى بإذن الله ، فالله هو المقدّر والمسبب والخالق في الحقيقة ، وعيسى عليه السلام هو السبب الخارجي والوسيلة العملية ، حقَّقَ الله على يده إرادته[1] .

ولقد جاء التعبير القرآني عن خلق عيسى للطير من الطين حيث قال تعالى : ﴿ . . . أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ . . . ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ ﴾ [المائدة : ١١٠] ، حيث ذكر المادة التي يَخلُق الطَّيرَ منها ، وهي (الطين) .

فهو لم يخلق الطين ، وإنما يخلق لهم من الطين ، وكان هذا الأمر بإذن الله ، فالله هو الذي أذن له بذلك ، وهو سبب مباشر مادي ، وهو التأكيد على إذن الله لتقرير الوحدانية وتفرُّد الله بالخلق ، وهو الإيجاد والإبداع .

ومعنى ﴿ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ﴾ على شكل صورة الطير ، والتقدير : أُوجد وأضع لكم من الطين تمثالاً ، وهذا التمثال يكون مُصوَّراً على شكل الطائر .

وقول عيسى ﴿ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ﴾ ، يدل على أنه كان ماهراً في صنع هذه التماثيل المُصوَّرة والمُجسَّمة ، يُتقن تشكيلَها ويُحسن إيجادَها .

وبعدما يُحسِنُ صنعَ التمثال كان ينفخ فيه فيتحول من تمثال جامد إلى طير حيٍّ ، بإذن الله ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾ . ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ ﴾ .

ـ فالله هو الذي أذن لعيسى عليه السلام في النفخ في تمثال الطير .

ـ والله هو الذي شاء أن يُوجِد الحياة في التمثال .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٠٢ .

ـ والله هو الذي جعله طيراً حيّاً وليس لعيسى عليه السلام دور في ذلك إلا النفخ فقط.

إنَّ نفخة عيسى في تمثال الطير هو سبب مباشر مادي ، جعل الله الحياة فيه مترتبة على النفخة ، فالمُسبِّب والمُقدِّر والمُريد هو الله.

فواهب الحياة للطير وخالقه هو الله عزَّ وجل ، وقد حرص القرآن الكريم على تأكيد هذه الحقيقة ، حيث صرّح بأن قيام تمثال الطير طيراً حيّاً قد كان بإذن الله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]. حيث جاءت (إذن الله) مكررة مرتين؛ مرة في وضع تمثال الطير ، ومرة في تحوُّل التمثال إلى طير حي بعد النفخة.

إن هذه المعجزة آية بينة لعيسى عليه السلام ، تدل على أنه رسول الله ، لأنها خارقة للعادة ، لا يستطيع أحد القيام بها ، إلا أن يكون نبياً أو رسولاً ، وإلا فمن يقدر على جعل الروح في تمثال مجسَّم جامد ، ويُحوِّله إلى طير حتى يطير ويتحرك بمجرد النفخ فيه؟ لا يفعل ذلك إلا نبيّ أجرى الله آيته على يديه[١].

٨ ـ إخباره عن الغيوب:

أخبر عيسى عليه السلام بالكثير من الأخبار والأمور الغائبة عن حسه ، والتي لم يسبق له معاينتها ، وذلك من مثل إخباره بما أكلوا وبما يدخرون في بيوتهم. قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

والمعنى في الآية الكريمة ، أي: أخبركم بما تأكلون مما لم أشاهده ولم أعاينه ولم أكن معكم وقت أكلكم ، وأنبِّئكم أيضاً بما ترفعونه وتُخبِّئُونه وتدّخرونه في بيوتكم من أصناف الطعام ، فإذا ما اجتمعت مجموعة على أصناف طعام ، وكان عيسى عليه السلام في مكان آخر لم يشاهدهم ، فإنه يخبر

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٠٥.

من معه بأصناف الطعام التي على مائدة المجموعة ، وكأنه جالس معهم يرى ما أمامهم ، وإذا جاءه مجموعة فإنه يخبر كل واحد منهم بما في بيته من أصناف الطعام بالتفصيل ، كأن يقول له : عندك من كذا وكذا كمية وعدد كذا وكذا ، وإخباره بهذين النوعين معجزة من الله له ، دالة على نبوته ، تضاف إلى معجزاته الأخرى؛ لأن العلم بما يأكلون وما يدّخرون من باب العلم بالغيب ، وهذه الأشياء من غيب الحاضر ، الذي هو غائب عن عين البشر ، مع أنه موجود في مكان آخر ، وعلم عيسى بأصناف الطعام المأكولة والمدَّخرة ، مما لم يشاهده ، دليل على أن الله هو الذي أخبره بذلك ، وأعلمه به ، فمن المعلوم عندنا أن الله اختَصّ بعلم الغيب ، وأنه يُعلِم منه من شاء من عباده[1] .

حرص القرآن الكريم على بيان أن ما قدمه عيسى عليه السلام من الآيات لهم هو آية من الله سبحانه ، ولذلك تكرَّرت كلمة (آية) في النص القرآني الذي أخبر عن تلك الآيات .

قال تعالى : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [آل عمران : ٤٩ ـ ٥١] .

لقد تكررت كلمة (آية) ثلاث مرات :

- ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ في البداية .
- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ في الوسط .
- ﴿جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ في النهاية .

---

(١) المرجع نفسه ، ٤/ ٣١٠ .

إنَّ التركيز القرآني على آيات عيسى عليه السلام دليل على أهمية الآيات للأنبياء ، ودليل على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله ، كان يتلقى الآيات من الله ، ويُقدِّمها لبني إسرائيل ، وبعدما قدّم عيسى عليه السلام آياته لبني إسرائيل أخبرهم أن رسالته استمرار لرسالة سلفه موسى عليه السلام، في أساسها وروحها ، ولهذا فهو مصدِّق للتوراة ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ . وقد تكلمنا عن هذا المعنى فيما مضى .

وكان عيسى عليه السلام حريصاً على التأكيد على الفصل بين الألوهية والعبودية ، وعلى أنه عبد الله ورسوله ، وأن الله ربُّه وربُّ العالمين ، وكان يخبر بني إسرائيل المدعوِّين بذلك ، ولذلك ختم دعوتَه إلى بني إسرائيل بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٥١] .

وهذا إبطال لما ادعته النصارى من تأليه عيسى عليه السلام ، حيث أخبرهم أن الله هو ربه وربهم، وأن الله أرسله برسالته، وأنهم مطالبون بعبادة الله، وطاعته، وأن هذا هو الطريق المستقيم ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ تبرّياً من الذي يقوله النصارى ، واحتجاجاً من الله عليهم ، ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (١) .

٩ ـ نزول المائدة من السماء لطلب حواريه :

تبقى الإشارة إلى معجزة المائدة النازلة من السماء في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٢ ـ ١١٥] .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣١٢ .

نلاحظ أن ما ذكره القرآن الكريم عن معجزات المسيح أنها كلها معجزات حسية؛ لتكون برهاناً علمياً على صدق نبوته ، ومناسبة لأهل زمانه الذين طبعت حياتهم نزعة مادية متطرفة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيَّداً من الله[١] .

ويكمن دور المعجزة أساساً في تأكيد الدعوة أو الرسالة عند المبلَّغ ، ومن ثمّ تصديق الناس لها وطاعتهم لله وعبادته ، ولا تكمن أهمّيّة المعجزة في الإبهار أو الإدهاش ، بل في تحوّل القلوب وتوبة الناس عند مشاهدتها ، وقد ساعدت المعجزات المُؤيَّدة من الله المسيح عيسى عليه السلام في إرشاده للناس ووعظهم وردهم إلى طاعة الله ، وإخلاص العبادة له ، وإفراده بالوحدانية ، والدلالة على عظمة الله وقدرته وحكمته وعلمه وسعة رحمته بخلقه .

ثالثًا: عيسى عليه السلام والحواريون والمائدة:

١ ـ الحواريون :

وردت كلمة الحواريِّين في القرآن خمس مرات ، وكلها وصف لأتباع عيسى عليه السلام المؤمنين به ، وكلها واردة بصيغة الجمع ، وتعددت الأقوال في سبب تسمية أنصار عيسى عليه السلام بالحواريين: والحواريون أنصار عيسى عليه السلام: كانوا قصّارين وقيل صيادين ، وقال بعض أهل العلم: إنما سمّوا حواريين لأنهم كانوا يُطهِّرون نفوس الناس ، بإفادتهم الدين والعلم ـ وحرصهم على تربية النفوس وتزكيتها ـ ، وقال بعض العلماء: إنما كانوا صيادين لاصطيادهم نفوس الناس من الحيرة وقيادتهم إلى الحق[٢] .

---

(١) عبد القادر نجوش ، أديان العالم المقارن ، دار الضياء ، الكويت ، ١٤٣٥هـ ، ٢٠١٤م ، ص١٩٨ .

(٢) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص٢٦٣؛ صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣١٣ .

وأورد الإمام الطبري ثلاثة أقوال في سبب تسميتهم بالحواريين ورجَّحَ الأول منها: اختلف أهل التأويل في سبب تسميتهم (الحواريين):

ـ فقال بعضهم: سُمّو بذلك لبياض ثيابهم.

ـ وقال آخرون: كانوا قصّارين يُبيِّضون الثيابَ.

ـ قال آخرون: هم خاصة أتباع الأنبياء وصفوتهم، والراجح هو القول الأول عند الطبري[١].

وأما الإمام ابن كثير فقد رجَّحَ أنهم سُمّوا حواريين لأنهم آمنوا بعيسى عليه السلام وأيّدوه ونصروه، وبيَّنَ أن الحواري هو الناصر[٢].

والراجح ما رجحه ابن كثير، ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب؟ فقال الزبير رضي الله عنه: أنا، ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟ قال الزبير: أنا، فقال النبي ﷺ: إن لكلّ نبيّ حواريًا وحواريّ الزبير[٣].

فقد أراد الرسول ﷺ أن يقوم واحد من أصحابه لينظر ما يفعل المشركون يوم الأحزاب، فندبهم وخبرهم وكان الزبير بن العوام رضي الله عنه هو الذي يقوم في المرات الثلاث، وعَلَّق رسول الله ﷺ على قيام الزبير في المرات الثلاث بأن الله جعل لكل نبي حواريًا يُؤيِّده وينصره، وإن حواريّه هو الزبير بن العوام رضي الله عنه، أي أن الزبير هو ناصر رسول الله ﷺ من البشر، ومُؤيِّدُه ومتابعه وليس معنى هذا قصر النصرة على الزبير وحده ونفيها عمن سواه من المهاجرين والأنصار، وإنما معناه أنه كان أبرز حواريٍّ وناصرٍ لرسول الله ﷺ في تلك الحادثة، وإلا فإن الصحابة كانوا جميعاً حواريّين لرسول الله ﷺ ونصروه

---

(١) تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، ٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٢) تفسير ابن كثير، ١/ ٣٤٥.
(٣) البخاري، رقم ٢٨٤٧، مسلم رقم ٢٤١٥.

واتّبعوه وأيَّدوه ، وكانوا أفضل من الحواريين أتباع عيسى عليه السلام .

إن هذا الحديث الصحيح يدل على أن (الحواريين) ليسوا خاصِّين بعيسى عليه السلام ، وأن لقب (الحواريين) ليس مقصورًا عليهم .

إن (الحواريين) هم أتباع كلِّ نبيٍّ وإن هذا اللقب يُطلق على كل من أيّدوا نبيًا ونصروه ، فأتباع موسى عليه السلام حواريون ، وأتباع عيسى عليه السلام حواريون ، وأتباع محمد ﷺ حواريون وهكذا[١] ، والحديث صريح في هذا المعنى ، وذلك في قوله : (إن لكلّ نبيّ حواريًا . . .) [٢] .

وإذا كان أتباع وأنصار كل نبي حواريّين له ، فإن هذا يَدلُّنا على أن سبب تسمية أنصار عيسى عليه السلام حواريِّين ، ليس لأنهم كانوا قصّارين أو صيادين ، أو ذوي ملابس بيضاء وإنما لأنهم آمنوا بعيسى عليه السلام وأيَّدوه ونصروه[٣] .

أ ـ عيسى عليه السلام يدعو الحواريين لنصرته :

وقد دعا عيسى عليه السلام أتباعه الحواريين إلى نصرته لما رأى كفر معظم بني إسرائيل قال الله تعالى : ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٢ ـ ٥٣] .

لقد أحسّ عيسى عليه السلام الكفر من بني إسرائيل بارزًا وواضحًا وظاهراً ، بعدما أراهم كل تلك المعجزات التي لا تتهيأ لبشر والتي تشهد بأن الله وراءها ، وأن قوة الله تُؤيِّدها وتؤيد من جاءت على يده ، مع أن المسيح جاء ليخفف عن بني إسرائيل بعض القيود والتكاليف ، عندئذ دعا دعوته :

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣١٥ .
(٢) البخاري ، رقم ٢٨٤٧ .
(٣) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣١٥ .

ـ ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: من أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه[1]؟ أي من الذين رضوا أن يكونوا أنصاري لأُواجِه بهم الذين يحاربون دعوتي على أن يكون أولئك الأنصار منصرفين متجهين إلى الله تعالى لا يبغون غير رضاه ، وهذا التخيير الكريم فيه إشارة إلى معان ثلاثة :

ـ **المعنى الأول**: أن الأكثرين لم يكونوا مؤمنين ولذلك عبر بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ فنسب الكفر إليهم وذلك لا يكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة ، والمؤمنون هم القلّة المغمورة ، حتى بحث عنهم السيد المسيح بقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

ـ **المعنى الثاني الذي يشير إليه النص الكريم**: أن السيد المسيح عليه السلام أحس بأنه أصبح مقصودًا بالأذى وأن الدعوة الحق أصبحت مُهاجَمة من تلك الكثرة الساحقة ، ولذلك طلب أن يكون له نصراء يكونون للحقِّ منعة وقوّة من جهة ، ويكونون مدرسة الدعاية له والخلية التي تُدرَس فيها حقائقهُ من جهة أخرى.

ـ **المعنى الثالث الذي يشير إليه النص هو**: أنّ النصرة الحقيقية في مثل هذا المقام أساسها إخلاص النية لله والاتجاه إليه وتفويض الأمور إليه ، فإنهم إن كانوا قليلاً فهم بمعونة الله كثيرون: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ـ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: الحواريون هنا هم أنصار عيسى عليه السلام أخلصوا له ولازموه ، وكانوا عونَه في الدعوة إلى الحق بعد الله تعالى الذي أمده بنور من عنده وكان الحواريون من خاصة عيسى عليه السلام ، وقد صفت نفوسهم وخلصت من أدران الدنيا وأهوائها بفضل الله ، ثم صُحْبتِهم

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٤٠١.

لعيسى عليه السلام ، وقد أجاب الحواريون عيسى عليه السلام عندما أخذ يبحث عن النصراء .

ـ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ﴾ : وهم بذلك بيّنوا اهتداءهم لأمرين :

١ ـ **الأمر الأول** : أنهم علموا أنه يتكلم عن الله وأنه رسول أمين ولذلك اعتبروا إجابة دعوته هي من إجابة دعوة الله وأنهم إذا كانوا نصراءه فهم نصراء الله تعالى ولذا قالوا : ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ولم يقولوا : أنصارك .

٢ ـ **الأمر الثاني** : أنهم فهموا أن نصرته تكون بإخلاص النية لله تعالى وتصفية نفوسهم من كل أدران الهوى حتى تكون خالصة لله تعالى ، ولذلك أردفوا قولهم هذا بما حكاه سبحانه وتعالى عنهم بقوله تعالى[١] :

ـ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ : فهذا النص الكريم يفيد مقدار إدراكهم لمعنى نصرة الله تعالى ونصرة رسوله عيسى عليه السلام ، قالوا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي : آمنا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، وأنه خلق الأشياء بإرادته المختارة وبقدرته الفعالة ، ولم توجد عنه الأشياء وجودَ المعلول عن العلة والمُسبَّب عن السبب ، كما يدَّعي بعض الفلاسفة في عصرهم ، وأردفوا قولهم بما يدلُّ على الإذعان المطلق لله تعالى وإخلاص نيتهم وقلوبهم له سبحانه بقولهم ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

إنَّ الشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة ، فهم يطلبون من سيدنا عيسى أن يعلم علم معاينة بأنهم مسلمون ، أي : مخلصون قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين وصاروا بتفكيرهم وقلوبهم وجوارحهم لله تعالى ، وإن ذلك فوق أنه إعلام لحقيقة نفوسهم هو إشهاد من قبلهم بما خلصت به أرواحهم ، وقد خاطبوا بهذا الخطاب نبي الله تعالى مُجيبين دعوتَه مُلبِّيين نداءه معلنين نصرته[٢] .

---

(١) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٣/ ١٢٣٧ .

(٢) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٣/ ١٢٣٨ .

وقد جهروا بإيمانهم بالله وطلبوا من نبيهم عيسى عليه السلام أن يشهد لهم أمام الله بأنهم مؤمنون مسلمون أنصار الله ، وقد طلبوا منه أن يشهد لأنهم يعلمون أن شهادته لهم عظيمة عند الله ، ثقيلة في ميزان الله ، لأنه رسول الله وتصريحهم بأنهم مسلمون ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ لأنهم آمنوا بعيسى عليه السلام ودخلوا في دينه وبذلك يكونون قد استسلموا وخضعوا لله ، لأن الإسلام ـ في معناه العام ـ هو الخضوع المطلق لله ، واعتبارهم مسلمين دليل على أن كل نبي جاء بالإسلام ، وأن دين كل نبي هو الإسلام ، وأن أتباع كل نبي مسلمون ، وهذه الآية صريحة بأن عيسى عليه السلام جاء بالإسلام ، وأن دينه هو الإسلام ، وأن أتباعه هم المسلمون فها هم الحواريون يصرّحون قائلين ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١).

ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الله تعالى ضارعين إليه قائلين :

ـ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ : وقد صدَّروا ضراعتهم إلى الله تعالى بالاعتراف الكامل بالربوبية ، وفي الاعتراف بالربوبية إحساس صادق بجلال النعم ، وتقديم شكر المُنعِم ، ثم الاعتراف بالربوبية الحق يطوي في ثناياه الاعتراف بالإلوهية الحق ، لأن كمال الخضوع لله لا يكون إلا بالإيمان بالربوبية ، ووراء هذا كله الإفراد بالعبودية ، ثم بعد الضراعة بلفظ الربوبية أعلنوا الخضوع والإذعان الكامل ، فقالوا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾؛ أي: صدَّقنا تصديق إذعان وتسليم هداية بما أنزلت ، وما أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام هو تكليفات ، فالإيمان الصادق يقتضي العمل ، لأن العمل يدل على كمال الإيمان ، ولأن المخالفة من غفوة الإيمان ، وقد تأكد ذلك المعنى وهو العمل بمقتضى ما أنزل لهم بعد ذلك في ضراعتهم: ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ وهو عيسى عليه السلام ، واتباع الرسول يكون بالعمل بهديه والأخذ بسنّته(٢).

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣١٩.

(٢) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٣/ ١٢٣٩.

وإذا كانوا قد ضرعوا إلى ربّهم بهذا الإيمان تلك الضراعة ، فقد اتجهوا مع ذلك إلى دعائه راجين بإجابته أن يقوي الله سبحانه وتعالى إيمانه وأن ينقلهم من الإيمان الغيبي إلى الإيمان الذي يصل إلى درجة تشبه المشاهدة ، ولذا قالوا :

ـ ﴿ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي : إذا كنا قد امتلأت قلوبنا بربوبيتك ، وألوهيتك وعبوديتك فارفعنا إلى مرتبة أعلى هي أن نُكتب مع الشاهدين ، ومن هم الشاهدون؟ هم الذين صفت نفوسهم وزكت مداركهم ، حتى وصلوا إلى درجة العلم الذي يكون كعلم المشاهدة والرؤية ، الذي قال في أمثالهم محمد ﷺ : اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فهذه مرتبة من الإيمان والمعرفة أعلى من مجرد الإيمان ، وإن النص الكريم يدل على وجود ذلك الصنف من العباد الأصفياء الأنقياء الأبرار ، وأنهم في أعلى درجات اليقين ، بدليل أن هؤلاء الأنقياء طلبوا أن يكونوا في هذا الصنف ، وحكى العلي القدير للأجيال طلبهم الذي رشَّحَهم له فرطُ ضراعتِهم وتقواهم ، وأولئك الشاهدون هم الأنبياء والصديقون والشهداء[١] .

أحسَّ عيسى عليه السلام بحدة كفر الكافرين ، وشدة نضالهم ، ولذلك اتجه إلى أن يكون له دُعاةٌ مناصرون أطهار ، تكون منهم مدرسة الحق ، وأخذ يبث تعاليمه في تلاميذه ، وينتقل في أراضي بيت المقدس وجبالها وآكامها هاديًا مرشدًا باعثًا الأرواح إلى الإيمان بالحق ، ولكنهم جحدوا بالحق بعد أن ظهرت أماراته وقامت بيناته ، ثم أخذوا يُحُولونَ بينه وبين هدايته ، ودعوة الحق التي يدعو بها ، ولما رؤوا أن نور الحق يزداد انتشارًا ، قرَّرُوا أنه لا بدَّ أن يقطعوا حركته نهائيًا بتدبير الشر لشخصه ، ويُستفاد من الإشارات القرآنية أنهم حاولوا قتله ، ولا يُستغرب على اليهود عمل فاجر ، فهم في ماضيهم كما نراهم اليوم في حاضرهم ، ولذا قال تعالى بعد أن بلغت دعوة الحق أقصاها وأعلاها .

---

(١) المرجع نفسه ، ٣/ ١٢٣٩ .

ـ ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ : أي أن هؤلاء الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر ، ورآه عيانًا منهم بعد أن كوّن فيهم مدرسة الهداية بالحواريين ، أخذوا يُدبِّرون التَّدبيرَ للقضاء عليه أو على دعوته ، والمكر كما يظهر من عبارات القرآن: هو التدبير الذي يجتهد صاحبه في إخفائه عمن يمكر به ، ولذا نسب المكر إلى الله تعالى ، ولا يمكن أن يكون عمل لله تعالى إلا خيِّرًا ، فمكر الفجار لإيذاء الأبرار لا يمكن أن يكون خيِّراً ، ومكر الله تعالى لإحباط تدبير الأشرار لا يُتصوَّر إلا أن يكون خيِّرًا. وقد دبَّرَ أولئك قتل عيسى عليه السلام ، والله دَبَّرَ حمايته ، وقد تمَّ ما أراد الله تعالى ولذا قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ والله من وراء كل من يدبر الشر للأطهار وهو الذي يحفظ بعلمه وقدرته الأبرار[١].

وفي قول الحواريين ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ دعاء من الأعماق أن يكتبهم الله مع الشاهدين لدينه ، أي أن يوفِّقَهم ويُعينَهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورة حياة لهذا الدين ، وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة ، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج ولو أدّوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من (الشهداء) على حق هذا الدين. وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعي لنفسه الإسلام ، فهذا هو الإسلام كما فهمه الحواريون وكما هو في ضمير المسلمين الحقيقين[٢].

لقد تحدثت الآيات الكريمة في القرآن الكريم عن **أهم صفات الحواريين** وهي:

ـ الإيمان بالله ورسوله.

ـ اعترفوا بالإسلام دينًا ورسالة إلى الناس.

---

(١) أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٣/ ١٢٤١.
(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٤٠٢.

ـ ثم إنهم كانوا مُسلمينَ مُستسلِمِينَ لله سبحانه مُطيعينَ تعليماتِه مُجيبينَ لنداءاته .

ـ ثم إنهم طلبوا من عيسى عليه السلام أن يكون لهم شاهدًا عند الله في يوم تشخص فيه الأبصار ويقوم الناس للحساب .

إن هذه الصفوة تتلمذت على يد السيد المسيح وعرفت منه أحكام التوراة التي نزلت على موسى ، وكذا تفاصيل ما جاء به الإنجيل ، كما انتهلوا منه عليه السلام التقوى والزهد والجهاد والصبر والعزم ، وانتشروا بين الناس لنشر أحكام دين الله تعالى والتبليغ بشريعته الغراء .

إنَّ عيسى عليه السلام قد أعدّ هؤلاء النخبة ورعاهم بتربية خاصة ، ومحّصهم وهيَّأهُم للمُهِمَّات الدَّعويّةِ ، وجعلهم ذراعًا يتحرك بهم ، وعينًا تسهر على رسالة الله سبحانه ، ولسانًا يحاور ويجادل في سبيل الحق ، ويدًا يضرب بها أعداءه وأيماناً ، ورجالاً ربّانيِّين يسيحون في الأرض ويتفقهون بحبل الله ومنهجه .

إنَّ بناء النخبة ضرورة رسالية وعدّة موضوعية لابد منها في كل زمان ومكان لقادة التغيير وأبطال الصراع من أجل المثل العليا ، فهم نواة الحق، وخميرة الهدى، وعدّة أهل الإيمان، وهذا ما سبق أن اتّخذه موسى عليه السلام منهجًا من قبل عيسى ، فقد كان الأصحاب في عهده ، وكذلك رسول الهدى محمد ﷺ ، فقد اتخذ الأنصار والأصحاب في عهده ، ذلك أن الأبرار من النُّخَب تعني المُنتَخَبِينَ من العامة وصفوتهم وعصارة المجتمع وأهل الرأي والتقوى والعزم والاجتهاد فيهم فضلاً عن الصلاح والاستقامة في كل المقاطع الدعوية ، وتمثل النخب ذراع القيادة الرسالية وأداتها الضاربة في عملية التغيير والتبليغ ، وحلقاتها الموصولة مع الأمة والعامة ، ولذلك فإنها تشكل أداة فاعلة وعونًا أساسيًا لحملة مبادى الحق في كافة المراحل ومختلف العصور .

إن من دواعي النجاح اعتمادُ هذا النهج قدوة ، ونعني به الاقتداء بأنبياء الله ورسله واقتفاءً بتجاربهم وتأسِّيًا بالقويم من الأساليب ، وكل أساليب رسل الله قويمة تهدي إلى الرشد وإلى صراط مستقيم(١) .

ب ـ الاقتداء بالحواريين :

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] .

والحواريون هم تلاميذ المسيح عليه السلام قيل: الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به، وينقطعون للتّلقِّي عنه، وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه، والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة، فنسير نحن معها في ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضوع من سورة الصف .

ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ : إن الله يدعو المؤمنين من أمة محمد ﷺ إلى الاقتداء بالحواريين في موقفهم الإيماني العظيم ، ويُطالبهم أن يكونوا أنصارًا له ، ينصرون دينه ، ويعاونون رسوله ، أن يفعلوا كما فعل الحواريون مع عيسى عليه السلام(٢) ، قالوا ﴿ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ .

ـ ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ : بسبب دعوة عيسى والحواريِّين ، ﴿ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ ﴾ منهم فلم ينقادوا لدعوتهم ، فجاهد المؤمنون الكافرين ﴿ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ ﴾ ، أي قوَّيناهم ونصرناهم عليهم ﴿ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ عليهم وقاهرين لهم ، فأنتم يا أمة محمد كونوا أنصار الله ودعاة دينه ينصركم كما نصر من قبلكم ويظهركم على عدوِّكم(٣) .

---

(١) عبود الراضي ، في رحاب قصص الأنبياء والرسل ، ٢/ ٥٥٦ـ٥٥٨ .
(٢) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣١٨ .
(٣) تفسير السعدي ، ٤/ ١٨٢٦ .

٢ ـ ذكر الله تعالى لنعمه على عيسى عليه السلام يوم القيامة ونزول المائدة:

قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٠٩ ـ ١١٠].

يُخبر الله تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام وأن الله يجمع فيه جميع الرسل، فيسألهم: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، أي ماذا أجابتكم به أُمَمُكم فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، وإنما العلم لك يا ربنا فأنت أعلم منا ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أي: اذكرها بقلبك ولسانك وقم بواجبها شكرًا لربك حيث أنعم عليك نعمًا ما أنعم بها على غيرك.

ـ ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: إذ قَوَّيتُك بالروح والوحي الذي طهّرك وزكّاك وصار لك قوّة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله، وقيل: إن المراد بروح القدس جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له، وتثبيته في المواطن المُشقِية.

ـ ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾: المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المُتكلِّمُ والمُخاطَبُ وهو الدعوة إلى الله، ولعيسى عليه السلام من ذلك ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكلُّم في حال الكهولة بالرسالة

والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر ، وامتاز عنهم بأنّه كلّم الناس في المهد فقال: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠ـ٣١].

ـ ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾: فالكتاب: يشمل الكتب السابقة وخصوصًا التوراة ، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل بعد موسى بها ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه. والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

ـ ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ . . . ﴾ أي: طيرًا مُصوَّرًا لا رُوحَ فيه ﴿ فَتَنفُخُ ﴾ فيه فيكون ﴿ طَيْرًا ﴾ بإذن الله ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ الذي لا بصر له ولا عين ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ ﴾، فهذه آيات بينات ومعجزات باهرات يعجز عنها الأطباء وغيرهم ، أيَّدَ الله بها عيسى وقوّى بها دعوتَه.

ـ ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ لما جاءهم الحق مؤيّدًا بالبينات الموجبة للإيمان به.

ـ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾: وهمّوا بعيسى أن يقتلوه وسعوا في ذلك فكَفَّ أيدِيَهُم عنه وحفظه منهم ، فهذه مِنَن أمتنَّ الله بها على عبده ورسوله عيسى بن مريم ودعاه إلى شكرها والقيام بها فقام بها عليه الصلاة والسلام أتمّ القيام وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم[1].

ـ الحواريون والمائدة ثم الاستجواب الكبير يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ

(١) تفسير السعدي ، ١/ ٤٥٦.

أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١١ : ١١٥].

أي: واذكر نعمتي عليك ـ يا عيسى ـ إذ يَسَّرتُ لك أتباعًا وأعوانًا فأوحيت إليهم على لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله فأجابوا لذلك وانقادوا وقالوا:

ـ ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، فجمعوا بين الإسلام الظاهر والانقياد بالأعمال الصالحة، والإيمان الباطن المُخرِج لصاحبه من النفاق، ومن ضعف الإيمان، والحواريون: هم الأنصار، كما قال تعالى، حكاية لقول عيسى ابن مريم للحواريين ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾، أي: مائدة فيها طعام وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله واستطاعته على ذلك، وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم، ولما كان سؤالُ الآياتِ الاقتراحَ للانقياد للحق وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، فإن عيسى عليه السلام وعظهم فقال:

ـ فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ممّا يكون بعدها شيئًا، فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فقالوا:

ـ ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾: وهذا دليل على أنهم محتاجون.

ـ ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾: بالإيمان، حين نرى الآيات العيانيّة، فيكون الإيمان عين اليقين، فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت.

ـ ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾، أي: نعلم صدق ما جئت به أنه حق وصدق.

ـ ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ : فتكون مصلحة لمن بعدنا نشهدها لك ، فتقوم الحجة ويحصل زيادة البرهان بذلك .

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك وعلم مقصودهم ، أجابهم إلى طلبهم في ذلك فقال : ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ أي : يكون وقت نزولها عيدًا وموسمًا نتذكر به هذه الآية العظيمة ، فتُحفظ ولا تُنسى على مرور الأوقات وتكرّر السنين ، كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مُذكِّرًا بآياته ، ومنبهًا على سنن المرسلين وطرقهم القويمة وفضله وإحسانه إليهم .

ـ ﴿ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أي : اجعلها لنا رزقنا ، فسأل عيسى عليه السلام نزولها لهاتين المصلحتين : مصلحة الدين بأن تكون آية باقية ، ومصلحة الدنيا ، وهي أن تكون رزقًا[1] .

وفي دعاء عيسى ابن مريم كما يُكرِّر السياق القرآني هذه المناسبة : أدب العبد المُجتبى مع إلهه ومعرفته بربّه ، فهو يناديه : يا الله ، يا ربّنا ، إنني أدعوك أن تُنزل علينا مائدةً من السماء ، تعمّنا بالخير والفرحة كالعيد فتكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا ، وأن هذا من رزقك فارزقنا أنت خير الرازقين ، فهو إذًا يعرف أنه عبد ، وأن الله ربّه ، وهذا الاعتراف يُعرَض على مشهد من العالَمين ، في مواجهة قومه ، يوم المشهد العظيم ، واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى بن مريم ، ولكن بالحد اللائق بجلاله سبحانه ، لقد طلبوا خارقة ، واستجاب الله ، على أن يُعذِّبَ مَن يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابًا شديدًا بالغًا في شدته لا يعذبه أحدًا من العالمين :

ـ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فهذا هو الحد اللائق بجلال الله ، حتى لا يصبح طلب الخوارق

(١) تفسير السعدي ، ١/ ٤٥٧ .

تسلية ولهوًا ، وحتى لا ينتهي الذين يكفرون بعد البرهان المُفحِم دون أن يلقوا جزاءًا رادعًا. ومن المعلوم بأنه قد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يُكذِّبون بالرسل بعد المعجزة ، فأما هنا فإن النص يُحمَل أن يكون هذا العذاب في الدنيا ، أو أن يكون في الآخرة[١].

بعد أن أخبر الله عز وجل عن جَمعِه للمرسلين وسؤالهم ، وعددّ نعماءَه على عبده ورسوله عيسى عليه السلام من معجزات وأتباع وأعوان وقبول الدعاء المتعلق بنزول مائدة من السماء ، يستمر القرآن الكريم في الحديث عن مسألة الألوهية المُدَّعاة لعيسى ابن مريم وأمه ، في استجواب يُوجَّه إلى عيسى عليه السلام في مواجهة الذين عبدوه ، ليسمعوه وهو يتبرَّأ إلى ربه في دهش وفزع من هذه الكبيرة التي افترَوها عليه وهو منها بريء[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١٢٠].

ـ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ هذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة ، فيقول الله هذا الكلام لعيسى ، فيتبرأ منه عيسى ويقول: (سُبحَنَكَ): عن هذا

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٠٠.
(٢) المرجع السابق ، ٢/ ١٠٠٠.

الكلام القبيح وعمّا لا يليق بك ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾ ، أي: ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئًا ليس من أوصافي ولا من حقوقي ، فإنه ليس أحد من المخلوقين لا الملائكة المقرّبون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية ، وإنما الجميع عبادٌ مُدبَّرونَ وخَلْق مُسخَّرونَ وفقراء عاجزون .

- ﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾ : فأنت أعلم بما صدر مني وأنت علاّم الغيوب ، وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه فلم يقل عليه السلام: لم أقل شيئًا من ذلك ، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تُنافي مَنصِبَه الشريف ، وأن هذه من الأمور المُحالة ، ونزّه ربَّه عن ذلك أتمّ تنزيه ، وردّ العلم إلى عالم الغيب والشهادة[1] ، ثم صرّح بذكر ما أمر به بني إسرائيل قال تعالى: ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ ﴾ ، فأنا عبد متبع لأمرك لا مُتَجرِّئٌ على عظمتك ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له المتضمِّن للنهي عن اتِّخاذي وأمي إلهين من دون الله ، وبيان أني عبد مربوب ، فكما أنه ربكم فهو ربي ﴿ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر ممّن لم يقم به .

- ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ أي: المُطَّلِعَ على سرائرهم وضمائرهم .

- ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾: علمًا وسمعًا وبصرًا فعِلْمُك قد أحاط بالمعلومات وسمعُك بالمسموعات وبصرك بالمُبصَرات ، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

- ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ ﴾ : وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم ،

---

(١) تفسير السعدي ، ١/ ٤٥٨ .

فلولا أنهم عباد تَمرَّدوا لم تعذبهم[١].

ـ ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا عن عجز وعدم قدرة.

ـ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

ـ ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: مبينًا حال عباده يوم القيامة، ومن الفائز فيهم ومَن الهالك ومن الشقي والسعيد.

ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾: والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونيّاتُهم على الصراط المستقيم والهدي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق إذا أحلّهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، والكاذبون بضدهم سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم وثمرة أعمالهم الفاسدة.

ـ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء مُنقادة لمشيئته ومُسخَّرةٌ بأمره[٢].

رابعًا: المكر بعيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء:

لم تَرُقْ تعاليمُ المسيح عليه السلام لكثير من اليهود الذين حقَّ عليهم قول الله تعالى في كتابه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ـ٧٩].

---

(١) المرجع نفسه، ١/ ٤٥٩.

(٢) تفسير السعدي، ١/ ٤٥٩.

ورأوا فيها خطرًا على مصالحهم وثرواتهم ، ولقد ضاق الكهنة والفرسيون من دعوته ـ التوحيد والإيمان الصحيح ، وعبادة الله عز وجل كما ينبغي ـ ودعوته إلى القناعة والعفة والزهد ، ومن نهيه عن الربا والرشوة والفساد والظلم ، فتمالؤوا عليه ووشوا به إلى الحاكم[١] .

لقد خافوا على مصالحهم واتَّخذوا من تَدَيُّنِهم المزعوم بدين موسى والأنبياء من بعده ، وزعموا أن لهم منزلة دينية لا يساميهم فيها أحد ـ اتخذوا من هذا ما يصحُّ أن يُسمَّى ارستقراطية دينية؟ فزعموا أن لهم المكانة السامية ، ولغيرهم المنزل الدُّون ، ولو اعتنقوا الديانة اليهودية وآمنوا برسالة موسى ، فكانت هناك طائفة يقال لها السامرة ، وكان الإسرائيليون يعاملون آحادها كأنهم المنبوذون ، فلما جاء عيسى عليه السلام وسوَّى بين بني البشر في دعايته أنكروا عليه ذلك وناصبوه العداوة .

ولقد كانوا يجعلون لأحبارهم وعلماء الدين فيهم المنزلة السامية والمكانة العالية بين الناس ، فجاء المسيح وجعل الناس جميعًا سواء أمام الخالق العظيم ولا فرق بينهم إلا بالتقوى وحسن العبادة وتحقيق الإيمان بالله ، لكلٍّ هذا تقدَّمَ اليهود لمناوأة المسيح ، وقليل منهم من اعتنق دينه وآمن به ، وأخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعوته ، فلما أعيتهم الحيلة ، ورأوا أن الضِّعافَ والفقراء يُجيبون نداءه ، ويلتفُّون حوله مُقتنعين بقوله أخذوا يكيدون له ويُوسوسِوُن للحكام بشأنه ويُحرِّضُونَ الرومان عليه[٢] .

وقالوا للحاكم : إن هنا رجلاً يُضِلُّ الناسَ ويَصدَّهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه ، وإنه ولد زنية ، إلى غير ذلك مما تَقلَّدوه في رقابهم ورَمَوه به من الكذب ، حتى تمكنوا من حمل الحاكم على أن يصدر الأمر

---

(١) عمر أحمد عمر ، رسائل الأنبياء ، ٢/ ٣١١ .
(٢) أبو زهرة ، محاضرات في النصرانية ، ص٥٣ .

بالقبض والحكم عليه بالإعدام صلبًا ، وأرسل جندًا ليقبضوا عليه ، فلما عثروا عليه وأحاطوا به واقتحموا بيته نجاه الله منهم ورفعه إليه ، وألقى شبهَه على من تقدَّمَهم إليه ، فلما دخلوا وراءه قبضوا عليه وهم يحسبون أنه عيسى ، فأخذوه وأهانوه وصلبوه ، ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم ، فإنه نَجَّى نَبيَّهُ ، ورفعه من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون ويعتقدون أنهم قد ظفروا به[١] .

قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ٥٤ ـ ٥٨] .

ـ ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ : اليهود الكافرون المجرمون ، مكروا بعيسى عليه السلام مكرًا خبيثًا وتآمروا عليه وأرادوا قتله .

ـ ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ ﴾ : أبطل الله مكرَ اليهود وخُبثَهم ، وأفشل كيدهم وحمى عيسى عليه السلام منهم .

ـ ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ : الله خير من ينصر أولياءه ضد أعدائه ، وخير من يُبطل كيدَ أعدائه ويُحبط مؤامراتهم[٢] .

لقد أسندت الآية إلى اليهود مكرًا خبيثًا مذمومًا ضد عيسى عليه السلام وأرادوا قتله ، ورسموا لذلك خطة دقيقة ومكروا به مكرًا شيطانيًا خبيثًا ، وأسندت الآية إلى الله مكرًا طيّبًا محمودًا وهو إبطال مكرهم السيِّئ ، وإنجاء

---

(١) عمر أحمد عمر ، رسائل الأنبياء ، ٢/ ٣١١ .

(٢) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٤٧ .

عيسى عليه السلام من كيدهم ، فأنقذه من بين أيديهم بأن ألقى شبهه على غيره فأخذوا شبهه وقتلوه ، ظانين أنهم قتلوا عيسى ، وبهذا مكر الله بهم وسَخِر منهم ، وأخرجه الله من وسطهم حيًا وحفظه بحفظه وحماه بحمايته(١) .

ـ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠] ، وهذه الآية تحدثت عن حماية الله له بإجمال ، فلما أراد اليهود إيذاءه وقتله كَفَّ الله أيديَهم عنه(٢) .

١ ـ ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

أبطل الله مكر اليهود ضدّ عيسى عليه السلام بأن توفّاه ورفعه إليه وطهَّره منهم ، وقد اتفق علماء المسلمين على نجاة عيسى من القتل والصلب ، واختلفوا في قوله تعالى ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ .

ـ فقال بعضهم في الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : إني رافعك إليّ ومظهرك من الذين كفروا ومُتوفِّيك وذلك بعد إنزالي إليك في آخر الزمان ، وعلى هذا يكون معنى ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ مُمِيتُكَ ، وإماتته له عند نزوله قُبيل قيام الساعة ، فالوفاة على هذا القول بمعنى الموت .

ـ وقال آخرون : إني قابضك من الأرض ، فرافعك إلي ، قالوا : ومعنى «الوفاة» القبض ، لما يقال : «توفيت من فلان ما لي عليه» ، بمعنى : قبضته واستوفيته . قالوا : فمعنى قوله : «إني متوفيك ورافعك» أي : قابضك من الأرض حيّاً إلى جواري ، وآخذك إلى ما عندي بغير موت ، ورافعك من بين المشركين

---

(١) المرجع السابق ، ٤/ ٣٤٧.
(٢) المرجع نفسه ، ٤/ ٣٤٨.

وأهل الكفر بك ، ورجّح هذا القول الإمام الطبري[١] .

ـ وقال آخرون: الوفاة هنا موت حقيقي ، فالآية على ظاهرها ، فالله أنقذ عيسى عليه السلام من اليهود عندما أرادوا قتله ، ثم توفاه بعد ذلك وقبض روحه وأماته ، ثم رفعه بعد موته[٢] .

ـ وقال آخرون: الوفاة هنا بمعنى النوم ، فالله ألقى النوم على عيسى عليه السلام ، ولما نام رفعه إليه ومعنى الآية: إني مُنيمك ورافعك إليّ في نومك .

ـ ورجح هذا القول ابن كثير إذ قال: رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به ، وخلَّصَه ممَّن كان أراد أذيَّتَه من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان[٣] .

٢ ـ معنيان للتَّوفِّي في القرآن: الموت والنوم:

أ ـ إنَّ إسناد التَّوفِّي إلى الله في القرآن أحيانًا **يراد به الموت** وقبض الروح ، والتَّوفِّي المراد به الموت ورد في موضعين من القرآن:

الأول: قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ [يونس: ١٠٤] ، أي: أعبد الله الذي يُميتكم ويقبض أرواحكم .

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٠] ، أي: الله هو الذي خلقكم وجعلكم أحياء تعيشون حياتكم على الدنيا ، ثم يَتوفّاكم عند انتهاء أعماركم ، ويقبض أرواحكم ويميتكم .

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٥٠. وتفسير الطبري ، تقريب وتهذيب ، ص٤٥٦ .

(٢) صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٥٠.

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، المرجع السابق ، ١٢/ ٩١ .

ب ـ أحيانًا يُراد به النوم ، حيث وردت آيات من القرآن تعتبر النوم توفِّيًا ، وتسنده إلى الله ، وهذا في موضعين في القرآن أيضًا :

الأول: قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠] ، والمعنى : الله الذي يجعلكم تنامون بالليل ويَتوفَّى أرواحكم أثناء نومكم ثم يُعيد أرواحكم إلى أجسادكم في النهار : ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ. . .﴾ ، وضمير الهاء في (فيه) يعود على النهار .

الثاني: قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]. وقد اعتبرت الآية النوم موتًا ، وقسّمت الناس بعد النوم إلى قسمين :

ـ فهناك أناس ينامون ويموتون أثناء النوم ، ويكون الله قد قدّر انتهاء آجالهم عند تلك (النومة) فَيَتوفّاهم ويقبض أرواحهم أثناء النوم ، ويُمسك أرواحهم عنده ولا يُعيدها إلى أجسادهم ويصبحون أمواتًا جثثًا هامدة ، وهؤلاء هم الذين قال عنهم ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ .

ـ وهناك أناس ينامون ، ويَتوفَّى الله أرواحهم أثناء النوم ، لكن تكون قد بقيت من أعمارهم بقية فيُعيد الله أرواحهم إلى أبدانهم عند الاستيقاظ من النوم ، ويصبحون أحياء يتحركون ، وهؤلاء هم الذين قال الله عنهم : ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ. . .﴾ .

وهذان الصنفان من الناس يَتوفَّى الله أرواحهم عند نومهم ، فالنوم موت ووفاة ، لكن يعقبه استيقاظ وبعث في الصباح ، ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ : الله يقبض أرواح الأنفس حين نومها ، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ : والله يَتوفَّى الأنفس التي لم تَمُتْ في منامها ، فيُخرج أرواحها من أجسادها عند

نومها ويُعيدها إلى الأجساد عند استيقاظها[١].

وهاتان الآيتان (الأنعام: ٦٠ ، والزمر: ٤٢) صريحتان في أن النوم وفاة صغرى ، وأن الله يَتوفَّى أرواح النائمين ، ويُخرجها من أجسادهم أثناء نومهم ، ثم يُعيدها لمن كتب لهم الحياة عند استيقاظهم ، وقد أكد هذا المعنى ـ النوم وفاة والاستيقاظ بعث ـ رسول الله ﷺ في أدعية النوم والاستيقاظ ، فقد كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: باسمك أحيا ، وباسمك أموت. وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور[٢].

والشاهد أنه توافق كلام رسول الله ﷺ مع الآية الكريمة ، في اعتبار النوم وفاة وموتاً ، والاستيقاظ بعثًا وحياة[٣].

والنصوص السابقة تُصرِّح بأن النوم موت ووفاة ، وأن الاستيقاظ بعث وحياة ، وهذا معناه أنّ التَّوفِّي والوفاة في القرآن الكريم ترد بمعنى الموت الحقيقي وخروج الروح من الجسد وقد تعني النوم وخروج الروح من الجسد أثناء النوم لتعود إليه عند الاستيقاظ[٤].

٣ـ توفّى الله عيسى مرتين: وفاة نوم ووفاة الموت:

بعد هذا الاستعراض الموجز لإسناد (التوفي) إلى الله في القرآن ، ننظر في حديث القرآن عن تَوفِّي الله لعيسى عليه السلام. وقد ورد هذا مرتين في القرآن:

المرة الأولى: عندما أراد اليهود صلبه وقتله ومكروا به فأنجاه الله منهم ، وذلك بأن توفّاه ورفعه إليه ، وقال له قبل تَوفِّيه ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ...﴾ ، وهو تَوفيَّ نوم ، وذلك بأن ألقى الله النوم على عيسى عليه السلام ،

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٥٤.
(٢) البخاري ، رقم ٦٣١٢ ، وانظر: مسلم رقم ٢٧١١.
(٣) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٥٥.
(٤) المرجع نفسه ، ٤/ ٣٥٥.

ولما نام رفعه إليه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ. . .﴾.

المرة الثانية: عندما سيُنزله الله قُبيل قيام الساعة ليستكمل باقي عمره الذي حدّده الله له، حيث سيتوفاه الوفاة الحقيقية بقبض روحه وخروجها من جسده وموته كما يموت الناس، وذلك التوفّي هو توفّي موت ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لما أمتني وقبضت روحي.

ولا يُمكن أن يكون التوفّي في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ توفّي موت، ثم رفعه الله إليه بعد موته لورود نصوص صحيحة صريحة في نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان وسنذكرها لاحقًا في محلها بإذن الله تعالى، فلو كان أماته من قبل، فلن يُنزله في آخر الزمان، لأن الله لن يجمع عليه موتتين في الدنيا[1].

٤ ـ ألقى الله النوم على عيسى ثم رفعه:

إنَّ الخلاصة في معنى آية سورة آل عمران: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ يا عيسى: إنّي سأتوفاك، بأن ألقي عليك النوم عندما يأتي اليهود لقتلك، وسأرفعك إليّ في السماء عند نومك، وبذلك سأُطهِّرك من اليهود الذين كفروا، فلن تمتد أيديهم المجرمة إليك، ولن يؤذوك.

لقد أخبر الله عيسى عليه السلام بهذا قبل أن يأتي إليه اليهود لقتله ووعده بإنجائه منهم؛ وذلك ليُطمْئنه ويُبشِّره ويُسلِّيه ويكون على يقين بأن الله معه.

وجاء الوعد بالنجاة في الآية بصيغة اسم الفاعل: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ. . .﴾، ففي الآية أربع كلمات كلها اسم فاعل: متوفيك، ورافعك، ومطهرك، وجاعل، والتعبير باسم الفاعل لتأكيد الوقوع وتحقيق الوعد،

---

(١) الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٣٥٧. وانظر: تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، ٢/ ٢٨٣.

ولهذا دخل عيسى عليه السلام المواجهة الأخيرة مع اليهود ، وواجه كيدهم ومكرهم ، وهو على يقين أن الله سيُنجيه منهم ، بأن يتوفاه ويُنيمه ثم يرفعه إليه أثناء نومه ، ولما هجم عليه اليهود مع الجنود: أنامَه الله ، ثم رفعه إلى السماء رفع روحه وجسده وهو حيّ ، بطريقة معجزة(١) .

لقد علمنا من الكتاب والسنة أن الله قد رفع رسولين كريمين إلى السماء وهما حيّان غير ميتين ، عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ ليلة المعراج ، فبينما لم يدم العروج بمحمد ﷺ أكثر من ساعات حيث أعاده الله إلى مكة قبل بزوغ فجر تلك الليلة ، فإن الله عز وجل الحكيم شاء أن يبقى عيسى عليه السلام في السماء حتى قبيل الساعة(٢) .

خامسًا: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾:

إنَّ القرآن الكريم تحدث عن محاولة اليهود قتل عيسى عليه السلام في ثلاثة مواضع بثلاث سور :

ـ إشارة سريعة إلى كفِّ بني إسرائيل عنه لما جاءهم بالبينات ، وذلك في سورة المائدة : ﴿ . . . وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠] .

ـ حديث مجمل عن حماية عيسى عليه السلام منهم ، بأن ألقى عليه النوم ثمَّ رفعه إليه وذلك في سورة آل عمران : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . . ﴾ [آل عمران: ٥٥] .

والحديث أكثر تفصيلاً ـ لكنه ما زال مجملاً ـ عن نفي قتل اليهود وصلبهم لعيسى عليه السلام ، لأن الله رفعه إليه وقيامهم بقتل وصلب شبيه له ، وذلك في آيات سورة النساء والتي سنشرحها بإذن الله تعالى .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٥٨.
(٢) المرجع نفسه ، ٤/ ٣٥٨.

ـ قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٣ : ١٥٩].

١ ـ من مسلسل جرائم اليهود:

تتحدث أول آيتين من هذه الآيات الثمانية عن بعض جرائم اليهود مع رسول الله ﷺ وبعض مخالفاتهم لنبيهم موسى عليه السلام.

ـ يذكر الله لرسوله محمد ﷺ سوء تعامل اليهود مع الأنبياء، فقد سألوه أن ينزل عليهم كتابًا من السماء ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ ويواسيه على ما يواجه من قبائح اليهود، مُخبرًا إياه بأن أسلافهم من بني إسرائيل قد سألوا موسى عليه السلام من قبل سؤالاً أكبر وأفظع، فقد طلبوا منه أن يروا الله جهرة عيانًا، وأن يقف أمامهم مجسّمًا ويقول أنا الله: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ وعاقبهم الله على ذلك السؤال القبيح، فأخذتهم الصاعقة بسبب ذلك الظلم الفاجر: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾.

ـ ومن جرائمهم مع موسى عليه السلام أيضًا أنهم اتخذوا العجل إلهًا لما غاب عنهم وذهب إلى جبل الطور لمناجاة الله ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾. وقد أخذ الله عليهم الميثاق الغليظ، لما رفع فوقهم جبل الطور في حياة موسى عليه السلام: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ

﴿ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ ، وأخذ عليهم الميثاق الغليظ بعد وفاة موسى عليه السلام ، عندما أمرهم أن يدخلوا باب الأرض المقدسة ساجدين شاكرين لله ﴿وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا . . .﴾ ، وأخذ عليهم الميثاق الغليظ بعد ذلك عندما نهاهم عن الاعتداء على حرمة يوم السبت ونهاهم عن صيد السمك فيه : ﴿وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ . . .﴾ ، ولم يلتزموا بالميثاق الغليظ الذي أخذه عليهم عند جبل الطور ، ولم يدخلوا باب الأرض المقدسة ساجدين ، وإنما دخلوا محرفين يزحفون على أسْتاهم ، ولم يلتزموا بحرمة يوم السبت فمسخهم الله قردة خاسئين[١] .

ـ وسجلت الآيات التالية (١٥٥ : ١٥٩) جرائم اليهود التي استحقوا بها لعنة الله وسخطه ، ومن أفظع هذه الجرائم تصميمهم على قتل وصلب عيسى عليه السلام ، ولولا أن الله رفعه إليه لقتلوه وصلبوه ، وبدأت الآيات بذكر نقضهم الميثاق الغليظ : ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾ [المائدة : ١٣] .

٢ ـ من أسباب لعنة الله لليهود :

تكفَّلَت الآيات الآنفة الذكر بتسجيل تلك الأسباب :

أ ـ ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾ : ونقض الميثاق الغليظ يقود إلى لعنة الله .

ب ـ ﴿وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ : كفروا بالحق لما جاءهم ، وهذا الكفر أوقع بهم **اللعنة** .

ج ـ ﴿وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ : اليهود قتلة الأنبياء ، وفعلوا ذلك بغيًا وعدوانًا بدون حق ، ولا يُمكن أن يُقتَل نبيٌّ بحق وهذا سبب في لعنتهم .

د ـ ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ : رفضوا قبول الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ ،

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٦٢ .

وزعموا أن قلوبهم عليها أغطية سميكة ، فلا تَفْقَهُ ولا تَعقِلُ ما يقوله عليه الصلاة والسلام .

وقد كذَّبَهم الله في قولهم هذا ، فأخبر أنه هو سبحانه الذي طبع وختم عليها بسبب كفرهم ، ولذلك لا تهتدي مهما جاءها من الهدى : ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ ، وبما أن الله طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ، فإنهم لم يؤمنوا الإيمان الصحيح الكامل الذي أوجبه الله عليهم ، وإنما آمنوا إيمانًا (قَلِيلاً) وهو إيمان مزاجي (تجزيئي) ، فهذا لا يُقبل في الإيمان ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وإيمانهم التجزيئي القليل تمثَّل في إيمانهم ببعض كتب الله كالتوراة ، لكنهم كفروا ببعض كتب الله كالإنجيل والقرآن .

كما تمثل ذلك الإيمان القليل المرفوض في إيمانهم ببعض رسل الله ، كموسى وهارون وداود وسليمان عليهم الصلاة والسلام ، لكنهم كفروا ببعض رسل الله ، كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . ومعلوم أن من كفر ببعض كتب الله فهو كافر بها كلها ، ومن كفر ببعض رسل الله فقد كفر بهم كلَّهم ، ولا ينفع في ذلك الإيمان التجزيئي القليل .

هـ ـ ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ لعن الله اليهود بسبب كفرهم ، وليس السبب الخامس هذا (بِكُفرِهِم) تكرارًا للسبب الثاني (وَكُفرِهِم بِآيَتِ اللَّهِ)؛ لأنه لا تكرار في العرض القرآني ، والسبب الثاني ذكر كفرهم مقيّدًا ، وهو كفرهم بآيات الله ، ومعلوم أن الكفر بآيات الله أو بعضها ، كفر بالله ، مخرج من دين الله .

وأما هذا السبب الخامس فقد أطلق كفرهم ولم يُقيِّده (وبِكُفرِهِم) لكن عندما نربطه مع ما بعده من مكرهم بعيسى عليه السلام ، فإنه يدل على أن المراد به كفرهم برسل الله ، لأنهم أرادوا قتل أحد رسله ، فكفر اليهود بآيات الله تسبَّب بلعنهم ، وكفرهم برسل الله سبب آخر خاصٌّ للعنتهم .

و ـ ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ : موقف اليهود المجرمين من مريم العفيفة البتول عليها السلام ، سبب مستقل من أسباب لعنتهم يضاف للأسباب

الأخرى[١]. والبهتان العظيم الذي قالوه عليها هو: فريتهم عليها واتهامها بالزّنى وهي الطاهرة العفيفة، وتصريحهم بأن ابنها عيسى عليه السلام ابن زِنًى لعائن الله عليهم.

ز - ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ . . .﴾ هذا القول الكبير الفاجر الذي قالوه يسجل جريمتهم الشنيعة التي أقدموا عليها، وهي تصميمهم على قتل عيسى عليه السلام، بل قتلهم شخصًا يظنونه المسيح عيسى ابن مريم، وقد لعنهم الله بسبب هذا القول الفظيع، وقد جمعوا في هذا القول بين التفاخر فيما صمّموا عليه من قتل عيسى عليه السلام والتباهي به وبين السخرية بعيسى عليه السلام والتَّهكُّم عليه، والسُّخرية في الصفات التي أطلقوها على عيسى عليه السلام.

﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ . . .﴾ لقد عرّفوه بالكلمات الأربع التي أطلقوها عليه، ومع أنها حقيقية في إطلاقها عليه، فهو المسيح، وهو عيسى، وهو ابن مريم، وهو رسول الله، لكنهم لم يطلقوها عليه من باب الإيمان بها، فلو كانوا مؤمنين بها لما صمّموا على قتله، إنما أطلقوها عليه ساخرين متهكمين[٢].

قال الإمام ابن كثير: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي يدّعي لنفسه هذا المنصب قتلناه، وهذا منهم من باب التَّهكُّم والاستهزاء، وهذا كقول المشركين لرسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦][٣].

---

(١) الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٣٦٥.
(٢) الخالدي، المرجع السابق، ٤/ ٣٦٥.
(٣) تفسير ابن كثير، ١/ ٥٤٣.

٣ـ اليهود ما قتلوا عيسى ولا صلبوه:

لما سجل الله تعالى عليهم جرائمهم السَّبعَ الفظيعة التي استحقوا بها لعنته وغضبه وسخطه، كذَّبهم في زعمهم قتل عيسى عليه السلام، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٧ـ١٥٩].

فبيَّن الله تعالى كذب اليهود فيما زعموه وأنهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه، ولكن قتلوا وصلبوا شبيهه، والصَّلْب هو تعليق الإنسان للقتل، والصَّليبُ: أصله الخشب الذي يُصلَب عليه، والصَّليبُ الذي يتقرَّب به النصارى، وسُمِّي بذلك لكونه على هيئة الخشب الذي زعموا أنه صُلب عليه عيسى عليه السلام[١].

واليهود من مكر الله بهم لم يقتلوا عيسى، وإنما قتلوا الشبيه وصلبوه ظانِّين بأنهم قتلوا عيسى[٢]، والذي شبه لهم هو الشخص المقتول، حيث ألقى الله شبه عيسى عليه السلام على الشخص الآخر، فأخذوه وقتلوه وهم يوقنون أنه عيسى، مع أنه لم يكن عيسى في الحقيقة[٣].

٤ـ ما الذي جرى ليلة القبض على الشبيه؟

إنَّ قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه قضية تخبَّط فيها اليهود، كما تخبَّط فيها النصارى بالظنون، فاليهود يقولون: إنهم قتلوه، ويسخرون من قوله: إنه رسول الله، فيُقرِّرون له هذه الصفة على سبيل السخرية. والنصارى

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٤٩٩.
(٢) الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ٤/ ٣٦٧.
(٣) المرجع نفسه، ٤/ ٣٦٩.

يقولون : إنه صُلب ودفن ولكنه قام بعد ثلاثة أيام .

وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين ، فلقد تتابعت الأحداث سراعًا ، وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة ، بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين ، إلا ما يقصّه رب العالمين .

وتروي الأناجيل الأربعة قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته ، كلها كُتبت بعد فترة من عهد المسيح كانت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه ، يتعذر معه التحقُّق من الأحداث في جو السرية والخوف والتشريد ، وقد كُتبت معها أناجيل كثيرة ، ولكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد ، واعتُبرت رسمية واعتُرف بها ، لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات[١] .

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبرًا يقينيًا عن تلك الواقعة التي حدثت في ظلام الليل قبل الفجر ، ولا يجد المختلفون فيها سنداً يُرجِّح رواية على رواية ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ ، وأما الله تعالى في كتابه العزيز فقد قرّر قراره الفصل : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾ ، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [٢] .

وقد اهتمَّ مُؤرِّخو الإسلام بهذه الحادثة ، وخيرُ من لخَّص تلك الأحداث المفسر والمؤرخ الكبير ابن كثير (وهو من علماء بلاد الشام المُطَّلعين على تاريخها) ، وإليك ما فصله حول هذه الحادثة في تفسيره حيث قال :

وكان من خبر اليهود ـ عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه ـ أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى ، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرة ، التي كان يُبرِئُ بها الأكمه والأبرص ويحيي بها الموتى

---

(١) أبو زهرة ، محاضرات في النصرانية ، نقلاً عن : في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٢ .
(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٢ .

بإذن الله، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذَّبُوه وخالفوه، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل عيسى عليه السلام لا يُساكنهم في بلدة، بل يُكثر السياحةَ هو وأمُّه، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان ـ وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان ـ وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويُضلُّهم، ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يَحتاطَ على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويَكُفَّ أذاه على الناس فلما وصل الكتاب امتثل والي المقدس ذلك.

وذهب هو وطائفة من اليهود إلى البيت الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثني عشر أو ثلاثة عشر ـ وقيل: سبعة عشر نفرًا ـ وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصروه هناك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيُّكم يُلقى عليه شبهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب ـ فقال: أنت هو ـ وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو، وفتحت روزنة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سِنَةٌ من النوم، فرُفِع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ...﴾.

فلما رفع عيسى من سقف البيت، خرج أولئك النفر من البيت فلما رأى اليهود والجنود ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجَّحوا بذلك، وسلَّم لهم طوائف من النصارى ذلك، لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنُّوا كما ظَنَّ اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت.

وهذا كله من امتحان الله عبادَه ، بما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وقد أوضح الله الأمر وجلّاه وبيّنه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم ﷺ ، حيث بيّن أنهم ما قتلوا عيسى عليه السلام وما صلبوه ، ولكن شُبِّه لهم ، حيث ألقى الله شبهه على ذلك الشاب ، فبدا لهم عيسى ، فقتلوا الشاب وصلبوه ظانِّين أنه عيسى .

وأخبر الله الذين اختلفوا في عيسى عليه السلام من اليهود الذين ادَّعَوا قتلَه والنصارى الجهال الذين سلَّموا لهم بذلك كلهم في شك وحيرة وضلال من ذلك ، وأخبر الله أنهم ما قتلوه ، مُتيقِّنينَ أنه هو ، وإنما كانوا شاكِّينَ مُتوهِّمينَ ، وأما عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إليه ، والله هو العزيز الحكيم[1] .

وفي رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج عليهم من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة ، بعد أن آمن بي . ثم قال : أيُّكم يُلقى عليه شبهي ، فيُقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً ، فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب ، فقال : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب ، فقال : أنا . فقال : هو أنت . فأُلقي عليه شَبَهُ عيسى ، ورُفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء ، وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ، ثم صلبوه ، فكفر بعيسى بعضهم اثنتي عشر مرة ، كما قال لهم .

ـ وافترق النصارى في عيسى ثلاث فرق :

فقالت فرقة منهم : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء هم اليعقوبية .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٧٢ ، نقلاً عن تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤ بتصرف .

وقالت فرقة أخرى: كان ابن الله فينا ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة أخرى: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء هم المسلمون. فتظاهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المسلمة ، فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس[1].

٥ ـ ترتيب أحداث مسلسل تلك الليلة:

من خلال النظر فيما سبق ، يُمكننا تصوُّر تلك الليلة وتصوير ما جرى فيها بإيجاز:

ـ نجح اليهود في إقناع الحاكم الروماني في إلقاء القبض على عيسى وقتله ، حيث أمر الحاكم بتنفيذ ذلك.

ـ توجهت مجموعة من الجنود الرومان واليهود إلى المكان الذي يوجد فيه عيسى عليه السلام لتنفيذ أمر الحاكم.

ـ المكان الذي كان يقيم فيه عيسى كان في بيت المقدس ، حسب سياق أحداث القتل والصلب ودرب الآلام بعد ذلك.

ـ كان عيسى عليه السلام في أحد بيوت القدس في تلك الليلة مع اثني عشر رجلاً من الحواريين ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ.

ـ علم عيسى عليه السلام بقدوم الجنود واليهود لاعتقاله وقتله وصلبه ، فلم يَخَفْ ولم يحزن ولم يقلق لأنه يوقن أن الله معه يحفظه ويحميه.

ـ أخبر الله عيسى عليه السلام أنهم لن يصلوا إليه ولن يؤذوه ، وأنه سيُلقي شبهَهُ على أحد تلاميذه الحواريين وأنه سيرفعه إليه ، وطلب منه أن يسألهم

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٧٣. انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥.

ليتبرع أحدهم ليلقي الله عليه شبه عيسى عليه السلام فيكون المصلوب الشهيد .

ـ أخبر عيسى عليه السلام الحواريين أن الله سيحميه من الجنود واليهود ، وأنه سيرفعه إليه ، وذلك ليطمئنهم عليه .

ـ عرض عيسى عليه السلام على الحواريين الاثني عشر أن يتبرَّع أحدهم ليفديه بنفسه ، بأن يُلقى شبهه عليه ، فيؤخذ ويقتل ويُصلب ويموت شهيدًا ، وضمن لذلك الفدائي أن يكون معه في الجنة .

ـ استجاب لعرض عيسى عليه السلام شابٌّ ، لعلّه كان من أصغر الموجودين سنًا ، فاستصغره عيسى عليه السلام ، وأراد من هو أكبر منه ، ولكن لم يستجب له في المرات الثلاث التي انتدبهم فيها إلا هو ، فقال له عيسى عليه السلام : هو أنت !

ـ لم يُذكر اسم ذلك الشاب المُتطوِّع العظيم ، الذي بذل نفسه وحياته وعمره لله ، فهو من مُبهَمات القصة .

ـ أجرى الله على ذلك الشاب أمره ، وأوقع عليه آيته الخارقة ، حيث حوله الله من ملامحه الأصلية التي خلقه عليها ، إلى ملامح عيسى عليه السلام ، فما هي إلا لحظات حتى تحوَّل الشخص إلى شبه عيسى ، وكل من رآه لا يشك أنه عيسى ولا يعرف كيف فعل الله ذلك ، لأننا لا نعرف كيفيات أفعال الله .

ـ نظر الحواريون الذين في البيت إلى ذلك الشخص فإذا هو عيسى ، لأنه أشبهه شبهًا كاملاً وهم يعلمون أن الله ألقى شبه عيسى عليه .

ـ لما وصل اليهود والجنود إلى ذلك البيت كان فيه شخصان ، كل منهما عيسى ، عيسى الحقيقي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وعيسى الآخر الذي ألقى الله شبه عيسى عليه والحواريون يرون الشخصين .

ـ لما أراد اليهود والجنود دخول البيت ، أجرى الله آية أخرى باهرة حيث فتح سقف البيت فتحة معجزة بأمره سبحانه وتعالى .

ـ ألقى الله على عيسى عليه السلام سِنةً من النوم ، وهو بين تلاميذه وحواريِّيه ، تمهيدًا لرفعه إلى السماء من الفتحة التي في سقف البيت ، والحواريون الذين في المنزل ينظرون إليه ويلاحظون هذه الآية الباهرة من آيات الله وقد اطمأنُّوا على نجاة نبيهم وحبيبهم عيسى عليه السلام[١] .

ـ دخل اليهود والجنود البيت ، ورأوا أمامهم (عيسى) وهو في الحقيقة عيسى الثاني ، عيسى المُتحوِّل شبيه عيسى النبي الذي رفع إلى السماء ، ونظروا إليه وهم لا يَشكُّون لحظة أنه عيسى .

ـ أخذ الجنود عيسى الشبيه المتحول لقتله وصلبه ، ويبدو أنه لم يكلمهم واحدة ، ولم ينفِ أنه عيسى ولم يخبرهم أن عيسى الحقيقي النبي في السماء وأنهم فشلوا في القبض عليه وقتله ، فإنه استعد للقتل والاستشهاد .

ـ لا نعرف ماذا جرى للحواريين الأحد عشر الآخرين الذين كانوا في المنزل ، هل اعتُقلوا أم هربوا أم قُتِل بعضهم وأفرج عن الآخرين ، فهذا من مُبهَمات القصة .

ـ أخذ الجنود واليهود عيسى الثاني الشَّبيه ، وصلبوه على الخشبة ، وقتلوه على الصليب ، وخرجت روح هذا الفدائي المؤمن ـ وهو على الصليب ـ ولقي الله شهيدًا ، بينما كان عيسى النبي في السماء عليه الصلاة والسلام .

ـ كان الناس يأتون إلى الشاب المصلوب الشهيد ينظرون إليه ، فإذا به عيسى ، ولا يَشكُّون لحظة أنه عيسى؛ لأن الله ألقى شبه عيسى عليه ، وهم لا يعرفون المعجزة التي أجراها الله ، وكانوا بين فرح شامت وبين حزين متألم ، وبعد حين أنزلوا الشهيد المصلوب ودفنوا جثته .

ـ كان اليهود فرحين شامتين؛ لأنهم قتلوا عيسى وصلبوه ـ وهو في الحقيقة

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٧٥ .

عيسى الشبه ـ وأذاعوا في الناس ، وقالوا ساخرين : إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله .

ـ لم تعلم النصارى ماذا جرى من معجزات ربانية في تلك الليلة ، فأيقنوا أن الذي شاهدوه ميتًا على الصليب هو نبيهم عيسى ابن مريم ، فصَدَّقوا اليهود في تبجُّحهم في قتله ، وقالوا : قتلوا وصلبوا نبينا عيسى(١) .

ـ صبَّ اليهود والرومان العذاب على الحواريين ، وعلى كل من آمن بعيسى عليه السلام ، وقتلوا منهم وصلبوا وسجنوا وشرّدوا ، ولم يلتقط النصارى أنفاسهم ليُفكِّروا بتأنٍّ وتَمهُّل فيما جرى في تلك الليلة ، ووقع اختلاف شديد بين النصارى في أحداث الليلة المذكورة ، فصدّقوا اليهود في ادعائهم أنهم قتلوا عيسى عليه السلام ودخل الشرك على النصرانية ، فاختلفوا في عيسى عليه السلام ، فمنهم من اعتبره إلهًا ، ومنهم من اعتبره ابنًا لله .

ـ بقيت أحداث تلك الليلة الحقيقة خافية على اليهود والنصارى وكلُّ ظنِّهم أن المقتول المصلوب هو عيسى ابن مريم رسول الله ، حتى بعث الله محمدًا رسولاً ﷺ ، وأنزل عليه القرآن ، وذكر في آياته حقيقة ما جرى(٢) .

٦ ـ نظرات في الآيات التي تحدثت عن قتل الشبيه :

بعد تلخيص تلك الأحداث في النقاط السابقة المتسلسلة نفهم معنى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٧ ـ ١٥٩] .

---

(١) صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٧٦ .
(٢) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٧٧ .

ـ ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ : لم يقتل اليهود عيسى عليه السلام ، ولم يصلبوه على الصليب .

ـ ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ : ألقى الله شبه عيسى ابن مريم على تلميذه الفدائي ، وأخذ اليهود والجنود عيسى الثاني الشبه وقتلوه وصلبوه ، لكن عيسى بن مريم الحقيقي رسول الله لم يقتلوه ولم يصلبوه .

ـ ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ : فهناك شخص مقتول مصلوب ، يشبه عيسى تمامًا ، لكن من هو؟ أهو عيسى الحقيقي أم عيسى الشبه؟ اختلفوا في ذلك القتل والصلب على من وقع .

ـ ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ : ينطبق على الطائفتين : اليهود الذين قالوا : إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، والنصارى الذين قالوا : رسولنا عيسى قتله وصلبه اليهود . لقد كانت الطائفتان في شكٍّ من هُوِيَّةِ المقتول المصلوب .

ـ ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ : ليس عند اليهود والنصارى علم حازم يقيني في المقتول المصلوب ، هل هو عيسى أم غيره؟

ـ ﴿ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ : بعد ما نفى عن اليهود والنصارى العلم بهوية المقتول ، أثبت لهم الظن فيه ، وأنكر عليهم اتباع ذلك الظن الذي لا يقود إلى اليقين ، وإنما إلى الحيرة والشك ، والمعنى : شاهد اليهود والنصارى شخصًا مقتولاً مصلوبًا يشبه عيسى شبهًا تامًا كاملاً ، فاختلفوا في تحديد هويته ، أهو عيسى أم غيره ، ولم يُحقِّقوا في ذلك علمًا وصاروا في شك وحيرة ، لأنهم اتبعوا الظن ، واتباع الظن يقود للشك ، ولا يوصل صاحبه إلى علم[1] .

ـ ومعنى قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ : بعدما نفى عنهم العلم بهوية المقتول ، نفى عن اليهود القتل اليقيني لعيسى عليه السلام فقال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ ،

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٧٨ .

والضمير الهاء في ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ يعود على عيسى عليه السلام: أي: ما قتلوا عيسى مُتيقِّنين أنه عيسى ، بل كانوا في ذلك شاكِّينَ مُتوهِّمِينَ.

لقد قتلوا شخصًا ظنوه عيسى ، لكنهم ما قتلوا عيسى يقيناً ، وإذا كانوا ما قتلوا عيسى ابن مريم رسول الله فأين عيسى إذًا؟ وماذا كانت نهايته؟ وماذا جرى له في تلك الليلة؟

الجواب في قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

ـ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾: بل: حرف إضراب وإبطال ، فقد تمّ فيها الإضراب عن الكلام السابق وإبطاله وإلغاؤه وهو مزاعم اليهود بقتل عيسى ، وإن قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾: إبطال وإلغاء لقول اليهود: ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ، وهو صريح في أن الله رفعه بروحه وبدنه حيًا من سقف البيت إلى السماء.

لقد وعد الله عيسى قبل تلك الحادثة أن يتوَفّاه ، ويرفعه إليه وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إني سأُلقي عليك النومَ ، ثم أرفعك إليّ ، وبذلك أطهرك من الذين كفروا ، ولما صار عيسى في الخطر وجاء اليهود والجنود لقتله وصلبه حقَّق الله له وعدَه ، وتوفّاه وألقى عليه النوم ، ثم جعل فتحة في سقف البيت ورفعه إليه في السماء ، وكان رفعه بروحه وبدنه ، رفعًا ربانيًا خاصًّا ، وهو آية بينة ومعجزة باهرة.

ـ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: عقبت الآية على رفع عيسى إلى السماء بالإشارة إلى عزّة الله وحكمته ، وهذا تعقيب يتناسب مع ما قبله ، فالله عزيز قوي قادر قاهر ، ينصر أولياءه ويحفظهم ويفرج عنهم ويحميهم من أعدائهم ، كل ذلك بعزّته ، ولذلك رفع عيسى عليه السلام إليه ونجاه من مكر اليهود بعزّته ، والله حكيم في تدبيره وتقديره وقضائه وتصريف أمور خلقه ومن حكمته إنجاء رسوله

عليه السلام بتلك الطريقة الباهرة ، وإيقاع أعدائه في الحيرة والظن والشك والوهم[١] .

وعندما ننظر في حديث القرآن عن أحداث تلك الليلة فإننا نرى تأكيد اليهود على قتل عيسى ، وذلك التأكيد الذي ظهر في قولهم : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ حيث جمعوا بين اسمه ولقبه ووصفه ، للتأكيد على جزمهم بقتله . ونرى أيضًا تأكيد القرآن على كذبهم في تأكيدهم باستخدام ثلاث جمل منفية ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ ، ﴿ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ ، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ ، لقد نفى قتلهم له ، ثم أكد ذلك بنفي صلبهم له ، والنفيان متلازمان ، فبما أنهم لم يقتلوه ، فإنهم لم يصلبوه ، والنفي الثالث ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ ، وبما أن اليهود لم يقتلوا عيسى رسول الله ، وإنما رفعه الله إليه ، فهو حي عنده في السماء ، لم يَمُتْ وسينزل في آخر الزمان بأمر الله ويعيش باقي عمره الذي قدره الله له ، وسيؤمن به أهل الكتاب الذين يكونون أحياء عند نزوله على أنه عبد الله ورسوله ، وقد أشار إلى هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩] [٢] . وسيأتي الحديث عن هذه الآية عندما نتكلم عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان .

٧ ـ اضطراب الأناجيل في أحداث تلك الليلة وأقربها إنجيل برنابا :

إنَّ الأناجيل الأربعة : (متّى ، لوقا ، مرقس ، يوحّنا) ، وهي المعتمدة عند النصارى ، اضطربت في حديثها عن تلك الليلة اضطرابًا كبيرًا ، واختلفت اختلافًا بينًا وتناقضت تناقضًا واضحًا ، حيَّر النصارى المؤمنين بهذه الأناجيل ، وجعلهم في شك واضطراب لا يعرفون ماذا جرى في تلك الليلة .

وأقرب ما سجل في تلك الأناجيل من الحقيقة القرآنية التي عرضناها هو

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٨١ .
(٢) المرجع السابق ، ٤/ ٣٨٢ .

ما ورد في إنجيل (برنابا) هو الإنجيل الذي لا يؤمن به النصارى ، ولا يعتمدونه ، حيث يرى (برنابا) ـ أحد حواريِّ عيسى عليه السلام ـ أن أحد الحواريِّين وهو (يهوذا الإسخريوطي) هو الذي وشى بعيسى وتآمر عليه وخانه ، واتفق مع اليهود للمجيء إليه واعتقاله ، ولما جاء بهم ألقى الله شبه عيسى عليه ، فأخذوا (يهوذا) وصلبوه على أنّه عيسى ، ويختلف برنابا في هذه النقطة مع ما سبق ذكره من قول ابن عباس وجمهور العلماء من أن الشَّبيهَ هو أحد الحواريين الصالحين ، تبرع وتطوع ليُقتل وينجو عيسى عليه السلام والله أعلم بالذي حصل.

ورد في الفصل الحادي عشر بعد المئتين من إنجيل برنابا أن عيسى عليه السلام أخبرهم قبل أيام من الحادثة ، أنه حان وقت مغادرته لهذا العالم : «ولما كان يسوع في بيت (نيقوديموس) وراء جدول (قدرون) عزّى تلاميذه قائلاً : لقد دنت الساعة التي أنطلق فيها من هذا العالم ، تعزَّوا ولا تحزنوا ، لأنني أمضي ولا أشعر بمحنة» (١).

وورد في الفصل الثالث عشر بعد المئتين من إنجيل برنابا حوار بين عيسى عليه السلام والحواريين ومنهم يهوذا الإسخريوطي : «وقال يسوع أيضاً الحق أقول لكم : إن واحدًا منكم سيُسلِّمُني ، فأُباغُ كخروف ، ولكن ويلٌ له ، لأنه سيتم كل ما قال داود أبونا عنه أنه سيسقط في الهوة التي أعدّها للآخرين؟ فنظر من ثمّ التلاميذ بعضهم إلى بعض ، قائلين بحزن : من سيكون الخائن. فقال حينئذ يهوذا : أنا هو يا معلم؟ أجاب يسوع : لقد قلتَ أنت لي من الذي سيُسلِّمُني» (٢).

---

(١) إنجيل برنابا ، تحقيق : سيف الدين أحمد فاضل ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م ، ص٢٨٤.

(٢) إنجيل برنابا ، ص٢٨٤.

وخُصّصَ الفصل الخامس عشر والسادس عشر بعد المئتين في الإنجيل للحديث عن ليلة رفع عيسى والقبض على الخائن.

قال: «ولما دَنَتِ الجنود مع يهوذا من المَحَلِّ الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دُنوَّ جمع غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفًا، وكان الأحد عشر نيامًا، فلما رأى الله الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تسبّح الله إلى الأبد، ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصعد منها يسوع وكان التلاميذ كلهم نيامًا، فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغيّر يهوذا في النطق والوجه، فصار شبهًا بيسوع، حتى اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش، لينظر أين كان المعلّم، لذلك تعجَّبنا وأجبنا: أنت يا سيِّدُ هو مُعلِّمنا، أنسيتنا الآن؟

أما هو فقد قال مبتسمًا: هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفوا يهوذا الإسخريوطي، وبينما كان يقول هذا، دخلت الجنود، وألقوا أيديهم على يهوذا لأنه كان شبيهًا بيسوع من كلّ وجه، أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين، ويوحنا الذي كان مُلتفًّا بملحفة من الكتان ترك ملحفة الكتان وهرب عُريانَ لأنّ الله سمع دعاء يسوع، وخلص الأحد عشر من الشر، فأخذ الجنود يهوذا، وأوثقوه، ساخرين منه، لأنه أنكر ـ وهو صادق ـ أنه يسوع.

فقال الجنود مستهزئين به: يا سيدي لا تخف لأننا قد أتينا لنجعلك ملكًا على بني إسرائيل، وإنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة. أجاب يهوذا: لعلكم جننتم: إنكم أتيتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصري كأنه لص، أفتوثقونني، أنا الذي أرشدتكم إليه»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.

ويكمل برنابا سرد القصة إلى أن صُلب يهوذا الإسخريوطي ، ودُفن على أنه عيسى ؛ لأن الله ألقى شبه عيسى عليه[١] .

وهذا العرض من برنابا ـ وهو شاهد عيان ـ يتوافق مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[٢] .

٨ ـ فكرة الصلب والفداء ، ومفهومها في عقيدة النصارى :

صُلب المسيح في معتقدهم للتكفير عن خطيئة البشر ، هو الأساس الثاني في عقائد النصارى ، بل هو الركن الأعظم الذي تدور حوله هذه العقائد ، فمسألة النبوة والتأليه في نظرهم هذه علة لمسألة الصلب .

وتقوم هذه العقيدة ـ كما تقول المسيحية ـ على أن الجنس البشري قد وُصم بوصمة المعصية ، وأن هذه الوصمة قد نالته من جراء أكل آدم من الشجرة المحرمة ، بإيعاز من الحية ، فأصبح على ذلك مستحقًا للعنة الله ، محكومًا عليه بالهلاك الأبدي في الجحيم[٣] .

ويقولون بجانب ذلك : إن رحمة الله شاءت تخليص هذا العالم ، والتجاوز عن ذلك الذنب الفطري المورث له ، فوجب تقديم الترضية اللازمة لله ، ويقولون : إنه لما كان المحكوم عليه بالموت يجب تنفيذ الحكم عليه أو تقديم غيره أو تَطوُّعُ سواه بدلاً عنه فقد سمح الله بتضحية ابنه على الصليب كفارة على الناس ، لأن خطيئة آدم ظلت عالقة في ذريته حتى جاء يسوع الذي جمع بين الألوهية والبشرية ، فهو ابن الله وابن مريم فصُلب جسمه البشري ليمحوا الخطيئة عن أبناء آدم ، وبالرغم من ذلك فإنهم يدّعون أنه لا ينجو من آمن بهذه الدعوى واتخذها له عقيدة[٤] .

---

(١) إنجيل برنابا ، ص٢٨٩ ـ ٢٩٣

(٢) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٨٦ .

(٣) محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٥٣٦ .

(٤) محمد وصفي ، المسيح والتثليث ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ط١ ، ١٩٣٧م ، ص١٤٨ .

وعليه فإن الفداء عند النصارى: هو الخلاص من الموت الناتج عن الخطيئة التي دخلت إلى البشرية بآدم(١).

ويعتقد النصارى أن المسيح مات مصلوبًا فداء للخليقة وذلك أن الله ـ لشدة حبه للبشر ـ قد أرسل وحيده ليُخلِّص العالمَ من الخطيئة التي ارتكبها آدم حينما أكل من الشجرة المُحرَّمة ، وأن عيسى قد صلب عن رضًا تامٍّ ، فتغلَّبَ بذلك على الخطيئة ، وأنه دُفن بعد صلبه وأنه قام بعد ثلاثة أيام متغلبًا على الموت ، ثم ارتفع إلى السماء ، ومن لم يؤمن بقضية الصلب لا يُعد نصرانيًا ، لذلك أدمجوا قضية الصلب في دستور إيمانهم الذي يجمع كل عقائدهم ، وعلى هذا فالله كما يزعم النصارى نزل من السماء وتجسد في الروح القدس ومريم العذراء ، وتأنَّسَ وصُلب بإراقته دمَهُ ليرفع عن البشر وِزْرَ خطيئة آدم(٢).

وعقيدة الصلب هذه باطلة من أولها إلى آخرها؛ لأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله لم يُصلب ، بل رفعه الله إليه ، والمسيح عليه السلام لم ينسب إلى نفسه الخلاص ، كذلك لم ينسب الحواريون إلى عيسى الخلاص ، وإنما الذي نَسب إلى المسيح أنه مُخلِّصٌ هو بولس ، الذي كان من ألد أعداء المسيحية ، ثم انقلب فجأة وبدون مقدمات إلى المسيحية وأصبح عقلَها المُفكِّرَ وراعيَها المُدبِّرَ ، وكان أول إعلان له أن المسيح ابن الله ، ونسب إلى المسيح أنه الإله المُتجسِّدُ الذي نزل ليصلب ويخلص البشرية على غرار الآلهة المُخَلِّصِينَ الوثَنِيِّين.

ولقد انتشرت عقيدة بولس في الخلاص بسبب الأسلوب الذي استخدمه لنشر دعوته ، والطريقة التي سار عليها ، إذ رأى أن يخرج بالمسيحية من دائرتها

---

(١) محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٥٣٧.

(٢) أبو عبيدة الخزرجي ، بين الإسلام والمسيحية ، تحقيق: د. محمد شامة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢ ، ص٧٢.

الضيقة في بيت المقدس إلى الميدان الواسع في البيئات غير اليهودية ، ولكي تناسب دعوته هذا المجتمع الجديد أجرى بعض التعديلات للعقائد التي لا يرضى عنها هذا المجتمع الجديد .

إنَّ عقيدة الخلاص المسيحية ، التي هي من وضع (بولس) قائمة على أسس باطلة ، وهي أن آدم عليه السلام أخطأ ، وهذه الخطيئة انتقلت بالوراثة إلى كل أبنائه والطريق الوحيد للخلاص منها هو ما زعموه من أن الله نزل وتجسّد في صورة بشرية ليُصلَب ويَتغلَّبَ على الموت فيقوم ، وبذلك ينال الناس الخلاص[١] .

إننا نُنزِّه المسيح عليه السلام عمّا جاء في كتب النصارى من الصلب والإهانات التي تَعرَّض لها ، وما ذلك التنزيه إلا لأن المسيح عليه السلام واحد من رسل الله المُصطفَين الأخيار الذين اختارهم الله لتبليغ رسالته إلى خلقه ، فكيف يُهان هذه الإهانة وقد جعله الله مباركًا كما أخبر المسيح عن نفسه: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١] .

إنَّ النصارى استندوا في قولهم بالصلب على الأناجيل ، وقد بَيَّنا أنها مُحرَّفة ومُبدَّلة ومتناقضة وذلك بالدليل والبرهان وأنها لم تُنقل عن طريق التواتر ، فهي أخبار آحاد مقطوعة الصِّلة بالمسيح ؛ لانقطاع سندها فكل ما جاء فيها من أخبار مشكوك فيه ، ولا يرقى أبدًا إلى درجة الصدق واليقين .

وقد أجمعت الفرق النصرانية المثلِّثة على أن المسيح صلب تكفيرًا عن خطيئة آدم التي ارتكبها وتوارثها أبناؤه من بعده ، ومن أجل أن تمحى الخطيئة لا بدَّ أن يتجسَّد الإلهُ ويُقتل ، وأن يدخل نار جهنم ويعذب نفسه عذابًا أليمًا ، ثم يصير الإله ملعونًا بذلك الصليب ، كل ذلك فعله الإله في زعم ـ النصارى ـ ليمحو

---

(١) أحمد علي عجيبة ، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص٧٥٥ .

خطيئة آدم ، فهل يُعقل هذا في حقِّ الله سبحانه وتعالى[١]؟

ولا شك أن هذا الاعتقاد به جهل بالغ وفاضح ، تُنكره العقول السليمة والفطر المستقيمة ، والعلوم الراسخة التي مصدرها هدايات السماء من الوحي المعصوم الذي من عند الله عز وجل والذي بيّناه في الصفحات السابقة .

ومن الردود التي ذكرها العلماء في هذا الباب :

أ ـ ليس عند الله خطيئة موروثة :

تحتاج إلى التكفير عنها بصلب نبيٍّ أو ابنٍ لله ِفي زعمهم ، بل آمن المسلم أن كل إنسان مسؤول عمّا اقترفه ومحاسَب عليه ، والإنسان يولد مُبرأ من كل خطيئة ومن كل ذنب ، وإنما يولد على الفطرة مُهيَّئًا لقبول الحق ، ذلك أن الفطرة هادية إلى الخير والحق ، فالإنسان يولد نظيفًا لا يحمل شيئًا من أوزار من سبقه ، وإذا كان الإنسان لا يحمل وزر غيره ، فإن غيره لا يحمل وزره ، وإنما كل إنسان مسؤول عن عمله .

ـ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .

والشرائع السماوية اتَّفقت على هذا المبدأ .

ـ قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم : ٣٦ ـ ٤١] .

وإن القول الكريم ليصور لنا أخذ البريء بالمذنب لا على أنه مضادٌّ للشريعة فحسب ، بل هو مع ذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية[٢] ،

---

(١) محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٥٤٥ .
(٢) أحمد علي عجيبة ، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه ، ص٧٥٧ .

قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

ب ـ إذا كان آدم عليه السلام قد أخطأ فما ذنب ذريته حتى يتوارثوا خطيئته من بعده:

هذا مبدأ قد نهت عنه كل الشرائع، وهل من العدل أن يُضارَّ البشر جميعًا بسبب خطيئة ارتكبها آدم، وكيف رضي الله أن يُخلِّدَ موسى وإبراهيم وسائر الأنبياء والمرسلين في النار بسبب خطيئة آدم؟ ثم ما بال المسيح يتحمَّلُ وِزرَ وجريرةَ آدم ويلقى ذلك العذاب الذي استغاث منه استغاثة شديدة، ويا ليته المسيح فحسب، بل الإله ـ في زعم النصارى ـ فالخطيئة لم تقتصر على النوع الإنساني بل تعدته إلى الإله فذاق مرارة العذاب ألوانًا[١].

إن أكْلَ آدمَ من الشجرة، لا يعدُّ خطيئة يترتَّبُ عليها العقاب، ذلك آدم عليه السلام كان نبيًا والأنبياء معصومون من الخطأ، وما وقع منه من الأكل من الشجرة إنما هو من قبيل أنَّ حسناتِ الأبرار سيِّئاتُ المُقرَّبين فلا يؤاخَذ عليها آدم على أن آدم أكل من الشجرة ناسيًا، والله سبحانه وتعالى أكرمُ من أن يُؤاخذ عبدًا على ذنب فعله ناسيًا.

هذا إلى جانب أن آدم تاب، والتوبة تغسل الحوبة وتغفر الذنب، والله سبحانه وتعالى قَبِلَ توبته فهو سبحانه وتعالى التواب الرحيم، كل ذلك ينفي الذنب عن آدم، وينفي وراثته حيث إنه لا يوجد ذنب، كما أن إهباط آدم إلى الأرض ليس عقوبة كما يتوهَّمُ النصارى، بل تكريمًا وتشريفًا، حيث يباشر مهمة استخلافه في الأرض، كما وعد الله من قبل في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

والله تعالى ما نزل بآدم إلى الأرض لِيُنقِصَه، ولكن نزل به إلى الأرض

---

(١) محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص٥٤٧.

ليُكمِّله ، ولقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلفه لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وما قال في الجنة ولا في السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتشريف ، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلمّا توافرت فيه العبوديتان استحقّ أن يكون خليفة[١] .

ويدل على ذلك أيضًا أن القرآن الكريم أشار إلى أن إهباط آدم إلى الأرض كان بعد التوبة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا﴾ [طه: ١٢٢ ـ ١٢٣] ، وهذا يدل على أن إهباط آدم إلى الأرض كان تكريمًا وتشريفًا ، إذ أن التوبة تمحو الذنب ، فلا بدَّ أن يكون لإهباط آدم معنى آخر غير العقوبة على الذنب ، وأقرب المعاني إلى الاجتباء هو التكريم والتشريف ، هذا إلى جانب أن نزول آدم إلى الأرض ليكون خليفة في الأرض وليحصل على معيشته بالكَدِّ والتعب والمَشقَّة ، ولاشك أن الثواب مع المشقة والتعب أكثر ، فثوابه وهو على الأرض أكثر ، وهذا يدل على أن إهباط آدم إلى الأرض ليحصل على ثواب عظيم ولحكمة بالغة أرادها الله في خلقه وتعمير ملكه[٢] .

ج ـ إنَّ الأناجيل التي تحدثت عن الصلب تختلف اختلافًا شديدًا وتتناقض تناقضًا بيّنًا:

تختلف في ذكرها لقصة الصلب سواء كان حامل الصليب هو المسيح أم إنسان غيره ، وسواء كان الشراب الذي شربه المصلوب خمرًا عادية أم خمرًا ممزوجة بمرارة[٣] ، وهل اللِّصّان اللذان كانا مَصلوبَين معه كانا يُعيِّرانه؟ أو واحد منهما هو الذي كان يُعيِّره[٤] ، وهل وقع الصلب في الساعة الثالثة أو

(١) أحمد علي عجيبة ، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه ، ص٧٥٦.
(٢) أحمد علي عجيبة ، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه ، ص٧٥٦.
(٣) مرقس (١٥/ ٢٣) ، ص٥٩ ، لوقا (٢٣/ ٣٦) ، ص٣٥ـ٣٦.
(٤) مرقس (١٥/ ٢٧ـ٣٢) ، ص٥٩ ، لوقا (٢٣/ ٣٩ـ٤٣) ، ص٣٥ـ٣٦.

السادسة[١]؟ وهل صرخ المصلوب أم أنه أسلم الروح[٢]. وهل النساء اللاتي شاهدن المصلوب كنّ كثيراتٍ لا حصر لعددِهِنَّ أو نساء معدودات معروفات[٣]؟

اختلفت الأناجيل في كل جُزئيّة من النصوص التي تحدَّثَت عن الصلب ، اختلفت حول حامل الصليب ، وشراب المصلوب ، وسبب الصلب ، وموقف اللِّصَّينِ من المصلوب ، ووقت الصلب ، وصلاة المصلوب وصراخه ، وغيرها من الأحداث التي أعقبت الصلب والشهود وغيرها ، وهذا الاختلاف الشديد يكفي لرفض ما جاء في هذه الأناجيل ، لأنه بتصديق بعضها يتعين تكذيب الباقي ، وحيث إنه لا يُعرف الصادق من الكاذب ، فيترتَّبُ على ذلك تطرُّق الشكِّ والكذب إليها جميعًا ، ولم يقف اختلاف النصارى حول قضية الصلب عند هذا الحد ، بل وصل بهم الأمر إلى أنهم اختلفوا في شكل الصليب الذي عُلِّقَ عليه المصلوب فقد ذُكر في قاموس الكتاب المقدس أن للصليب ثلاثة أشكال وهي :

- الصليب (x)
- والصليب(T)
- والصليب (+) [٤].

فإذا كان النصارى مختلفين في شكل الصليب فهذا يؤكد أنهم اشتبه عليهم كل شيء فيما يتصل بقضية الصلب ، وأن الحقيقة قد غابت عنهم ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٥٧] .

---

(١) مرقس ، ص١٣٨ ؛ محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٥٤٩ .
(٢) محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٥٤٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص٥٤٩ .
(٤) محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٥٤٩ .

لقد كان موقف القرآن الكريم واضحًا في ذلك الشأن ، حيث نقض الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم دعوى الزَّاعِمِينَ قَتْلَ المسيح وصَلْبَه ، ونفى وقوع القتل والصلب ، وإنما وقع على شخص آخر شبيه له ، وهذا هو القدر الذي يتحتم الجزم به[١] .

لقد اختلفت الأناجيل المعتمدة عند النصارى في ذكر أحداث الصلب اختلافًا كثيرًا ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ـ١٥٨] .

وإذا كانت عقيدة الصلب عند النصارى باطلة ولا أساس لها فإن ما يترتب عليها باطل وبذلك بطلت عقيدة قيامة المسيح من القبر ، وبقدر ما أخذت مسألة صلب المسيح في العقيدة النصرانية من أهمية فقد أخذت قيامته الأهمية الأكبر في هذه العقيدة ، حيث تأسست عليها قضايا عَقَدِيّة غاية في الحساسية وغاية في الخطورة ، والسبب في ذلك ربط هذه القيامة بألوهية المسيح ، وما يترتب على ذلك من رُؤى عَقَدِيّة وفلسفية مسيحية ، وشرع آباء الكنيسة الأسرار الكنسية والتي لم تكن معروفة زمن المسيح عليه السلام ولم تكن من الأمور التعبُّديّة ولا التشريعية التي جاء بها ، واختلفوا في عددها وجعلوا لها طقوسًا تمارس عند أدائها وكان من أهمها ، التمهيد والعشاء الرباني ، وتقديس الصليب وحمله[٢] .

إنَّ الخلاص المسيحي تأثر بالعقائد الوثنية ، فالتجسّد الإلهي من أجل الخلاص من المعتقدات الوثنية التي كانت منتشرة في البلاد اليونانية ثم الرومانية قبل ظهور المسيح بمئات السنين ، وكان لظهورها في هذا البلاد أكبر الأثر في تأثر دعاة المسيحية بها ، كما أن صلب وتعذيب الإله من أجل الخلاص صورة

---

(١) محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٥٥٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص٦٠٩ .

وثنية أخرى كانت سائدة في المجتمعات الوثنية قبل المسيحية ، وقيامة المُخلِّص من أجل الخلاص صورة وثنية ثالثة ظهرت بين الوثنيين قبل المسيحية ، وعليه فالخلاص عقيدة وثنية انتقلت إلى المسيحية بفضل بولس وأتباعه ، ولم يفعلوا شيئًا سوى وضع اسم المسيح عيسى ابن مريم بدلاً من هؤلاء الآلهة المخلّصين الوثنيين[١] .

ـ لقد ظلَّت التعاليم التي جاء بها المسيح عليه السلام على نقائها إلى أن دخل بولس النصرانية ، فطمس معالم الديانة وصاغها صياغة جديدة من الخرافات الوثنية التي ورثها من الديانات القديمة ، وضمنها رسائله التي تقارب نصف العهد الجديد الذي يقدسه النصارى ، فجاء بعقيدة الصلب والفداء والخطيئة وألغى الختان وأحل لحم الخنزير ، ويمكن القول بأن المسيحية الحالية هي مسيحية بولس وليست مسيحية عيسى عليه السلام .

ـ لقد كان لدخول الوثنيين في النصرانية أمثال الإمبراطور قسطنطين الأثر الأكبر في تلقيح النصرانية بالتعاليم الوثنية واقتباسها منها الكثير ، وقد بيَّن الباحثون من أمثال الدكتور محمد علي عبد المعطي[٢] ، والدكتور أحمد علي عجيبة أستاذ العقيدة والأديان[٣] أن ما يؤخذ من عقائد وشرائع في النصرانية لها ما يماثلها في الديانات الوثنية كالبوذية والزرداشتية ، والمصرية القديمة[٤] .

ـ لقد تولدت عقيدة التثليث من قرارات المجامع المتعددة ، وفي أزمنة مختلفة : فمجمع نيقية سنة (٣٢٥م) قرّر ألوهية المسيح . ومجمع القسطنطينية الأول سنة (٣٨١م) قرّر ألوهية الروح القدس . ومجمع أفس الأول سنة (٤٣١م)

---

(١) أحمد علي عجيبة ، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه ، ص٧٥٨ .
(٢) محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٦٠٧ .
(٣) يُنظر : كتاب الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه للمؤلف أحمد علي عجيبة .
(٤) محمد علي عبد المعطي أحمد ، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب ، ص٦٠٧ .

قرّر أن الآلهة ثلاثة: أب ، ابن ، وروح القدس ، ثم اختلفوا بعد ذلك في طبيعة المسيح هل هو:

ذو طبيعة واحدة؟

أم ذو طبيعتين؟

هل هو منشق من الأب وحده ، أم من الأب وروح القدس معًا؟

وبهذا يتضح أن عقيدة التثليث التي يؤمن بها النصارى لم يأتِ بها المسيح عليه السلام ، ولم يأمر بها أتباعه(١).

ذلك لأنّ عيسى عليه السلام كما بيَّن هذا الكتاب رسول الله ، ما دعا الناس إلاّ إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأنه عليه السلام لم يَدَّعِ لنفسه منصبًا أكثر من أنه عبد الله: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٧٢].

ولقد بين القرآن الكريم أنه عليه السلام سيتبرأ من معتقدات النصارى الحالية يوم القيامة ، وذلك حين سؤال الله له: قال تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧]. إن مغفرة الله للذنوب والخطأ لا تتوقف على الفداء ، وإنما تأتي نتيجة الإيمان الصحيح بالله عز وجل وتحقيق العبودية له سبحانه والتوبة إليه وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته واجتناب الكبائر والمنكرات(٢).

إن طريق الخلاص من عذاب الله والوصول إلى مرضاته سبحانه وتعالى ثم دخول جناته الواسعة يحتاج إلى توبة صادقة ، فعلى العبد أن يتوب عن كل إثم

---

(١) المرجع نفسه ، ص٦٠٨.

(٢) أحمد علي عجيبة ، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه ، ص٧٥٨.

ويمتنع عن كل عمل يبعده عن الله عز وجل ، وعليه أن يُخلِص النيَّةَ في هذه التوبة .

ـ يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٩] .

ـ ويقول تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم : ٦٠] .

ـ ويقول تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ [طه : ٨٢] .

ـ ويقول تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

وفي قوله : ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ ﴾ ، جاء في تفسير الآية أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النَّصوح حسناتٍ ، وما ذاك إلا لأنه كلما مال وأذنب ، ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار يوم القيامة ، وإن وجده مكتوبًا عليه ، فإنه لا يُغيِّره وينقلب حسنة في صحيفته[١] .

ـ وأما الايمان فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

ـ وقال تعالى مخاطبًا المؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

إذًا فالإيمان هو أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان

---

(١) صلاح أبو السعود ، إزهاق الباطل والرد على شبهات القمص زكريا بطرس ، مكتبة النافذة ، مصر ، ط١ ، ٢٠٠٩م ، ص٢٨٦ .

هو الخطوة الثانية على طريق الخلاص القرآني ، والمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد لا إله غيره ولا ربّ سواه ، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل ، والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرّقون بين أحد منهم ، فلا يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مَهدِيُّون هادون الى سبيل الله ، ويؤمنون بوجود الملائكة ويؤمنون باليوم الآخر ، وأن هناك يوم سيُحاسَب فيه الجميع فيُثاب المُحسنُ ويعاقب المُسيء(١) .

ـ قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] ، ليس هذا فقط ولكن الله سبحانه وتعالى يضاعف الحسنة بعشرةِ أمثالها ، وأما السيئة فلا يُجازي العبد إلا مثلها ، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] .

ـ وأما من يُنفق أمواله في سبيل الله وابتغاء مرضاته فإن الحسنة تتضاعف الى سبعمائة ضعف ، يقول الله عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

ـ إن طريق الجنة كما رسمه الله تعالى في القرآن الكريم يكون عبر الإيمان الصحيح بالله عز وجل وأركان الإيمان الستة ، الإيمان بالله واليوم الآخر ، وكتبه ورسله وملائكته والقدر خيره وشره ، والعمل الصالح من صلاة وزكاة ، وحج وصيام وذكر وتلاوة وصدقة واستغفار وثناء وحمد على الله . . . إلخ ، حتى تكون الموازين ثقيلة يوم القيامة برحمة الله تعالى وتوفيقه ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٧] .

ـ والعمل الصالح الذي يُثقل موازينَ العبد يوم القيامة هو كل طاعة أمر الله بها

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٨٦ .

سبحانه وتعالى بالامتثال لأوامره واجتناب نواهيه ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣] (١).

سادسًا: نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان:

إنَّ الله عزَّ وجل رفع عيسى عليه السلام إليه ، وأنه الآن حيٌّ في السماء حياة طيِّبة ، وقد التقى به رسولنا ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج ، التقى به أولاً في المسجد الأقصى ، عندما صلى رسول الله ﷺ بالأنبياء إمامًا ، وكان عيسى عليه السلام مأمومًا خلفه ، ثم التقى به ثانيًا لمّا عُرج به إلى السماء ، حيث أخبرنا أنه قابل عيسى عليه السلام في السماء الثانية ، ففي حديث الإسراء والمعراج: «فأتينا السماء الثانية ، قيل: من هذا؟ قال: جبريل ، قيل: من معك؟ قال: محمد ﷺ ، قيل: أُرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحبًا به ، ولَنِعْمَ المَجيءُ جاء ، فأتيت على عيسى ويحيى فقالا: مرحبًا بك من أخٍ ونبيٍّ»(٢).

١ ـ صفة عيسى عليه السلام:

أخبرنا رسول الله ﷺ عن بعض صفات عيسى عليه السلام الخَلقية وهيئته الخارجية ، فعن أبي هريرة ، رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: «ليلة أسري بي رأيت موسى ، فإذا هو رجل ضرب ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ، فإذا هو رجل ربعة أحمر ، كأنما خرج من ديماس . . . » (٣).

ومن خلال أحاديث صحيحة عديدة ذكرها رسول الله ﷺ نستطيع أن نُشكِّل هذه الصورة لعيسى عليه السلام: قامته معتدلة ، ولونه أبيض مُشرّب بالحمرة ،

---

(١) صلاح أبو السعود ، إزهاق الباطل والرد على شبهات القمص زكريا بطرس ، ص٢٨٦ .
(٢) البخاري ، رقم ٣٢٠٧ ، وانظر: مسلم رقم ١٦٤ . وانظر: صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٣٩٩ .
(٣) البخاري رقم ٣٣٩٤ ، مسلم رقم ١٦٨ .

وشعر رأسه سَبْطٌ مُمتَدٌّ إلى منكبيه ولونه أسود ، كأنه يقطر ماء ولم يُصبه بَلَلٌ ، وذلك من بهائه ، وهو مُتدفِّقٌ حَيَويّةً ونضارة وبهاء(١) .

٢ ـ أدلّة نزول عيسى عليه السلام من القرآن الكريم :

ـ قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الزخرف : ٥٧ ـ ٦٢] ، والشاهد في الآيات قوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا ﴾ ، والهاء في (إنه) تعود على عيسى عليه السلام ، لأن الآيات تتحدث عنه ، والمعنى : إن عيسى عليه السلام عِلْمٌ تُعلم به الساعة ، أي : أن نزوله في آخر الزمان سيكون علامة من علامات الساعة ، دالّة على قرب قيامها(٢) .

ـ قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴾ [النساء : ١٥٩] . والهاء في (موته) تعود على عيسى عليه السلام ، والمعنى : كل واحد من أهل الكتاب سيُؤمن بعيسى عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وهذا يكون عند نزوله في آخر الزمان حيث يقتل الدجال ويكسر الصليب ولا يقبل من الناس إلا الإسلام . والمعنى : أهل الكتاب يؤمنون بعيسى عند نزوله في آخر الزمان ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدًا ، يشهد على من كذَّبه بالكفر ، ويشهد لمن صدَّقه بالإيمان ، وعلى هذا القول الراجح تكون الآية خبرًا عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان(٣) .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٤٠١ .
(٢) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٤٠٣ .
(٣) المرجع نفسه ، ٤/ ٤٠٥ .

٣ ـ أدلّة نزوله من السنة المطهرة:

وأما الأحاديث الصحيحة التي تحدثت عن نزول عيسى عليه السلام فهي كثيرة ، بحيث خصَّص لها الإمام الكشميري كتابًا خاصًا سماه: (التصريح بما تواتر في نزول المسيح) ، وسنذكر بعضاً منها:

ـ ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ، ليوشِكنَّ أن ينزل فيكم ابنُ مريَمَ حَكَمًا عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها». ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم؛ ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (١).

ـ روى مسلم عن جابر رضي الله عنه ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمَّتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال: فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: صلِّ لنا ، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»(٢).

ولن أذكر جميع الأحاديث الواردة في نزوله خشية أن يطول البحث ، وقد جاءت هذه الأحاديث في الصحاح والسنن والمسانيد وغيره من دواوين السنة ، وهي تدل دلالة صريحة على ثبوت نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان(٣).

ـ وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: اعلم أن أحاديث الدّجّال ونزول عيسى عليه السلام متواترة ، يجب الإيمان بها ولا تغترّ بمن يدَّعي فيها أنها

---

(١) صحيح البخاري ، ٦/ ٤٩٠.
(٢) مسلم ، ٢/ ١٩٤ ، شرح النووي.
(٣) يوسف عبد الله الوابل ، أشراط الساعة ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، ط٢ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م ، ص٣٤٩.

أحاديث أحاد ، فإنهم جهّال بهذا العلم ، وليس فيهم من تتبَّع طرقها؛ ولو فعل لوجدها متواترة ، كما شهد بذلك أئمة هذا العلم كالحافظ ابن حجر(١) .

ـ وقال القاضي عياض: نزول عيسى وقتله الدّجّال حق وصحيح عند أهل السنّة للأحاديث الصحيحة في ذلك ، وليس في العقل ولا في الشرع ما يُبطله فوجب إثباته(٢) .

٤ ـ الحكمة في نزول عيسى عليه السلام دون غيره:

ذكر العلماء بعض الحِكَم من نزوله عليه الصلاة والسلام ، من هذه الحكم:

الحكمة الأولى: الردُّ على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه وصلبوه وتبجُّحِهم بذلك: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ . . .﴾ ، فنزوله في آخر الزمان تكذيب من الله لهم ، وسيقوم هو بقتلهم وقتل ملكهم المسيح الدجال ، فهو الذي يقتلهم ، وليسوا هم الذين قتلوه.

الحكمة الثانية: يُنزله الله في آخر الزمان ليستكمل باقي عمره الذي قدره له ، ثم يموت ، ويُدفن في الأرض ، إن عيسى عليه السلام مخلوق ، وهو حيٌّ في السماء حياة غيبية خاصة طيلة هذه القرون ، ولا بد أن يموت ، لأن البقاء لله الباقي وحده ، ولا يموت في السماء ولا يُدفن في السماء ، لأن السماء ليست مكانًا لموت البشر ولا مقبرة لهم ، فالله خلق الإنسان من تراب الأرض ، ودفنهم في تراب الأرض ويبعثهم من تراب الأرض ، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] ، حيث ينزل الله عيسى إلى الأرض ليموت على الأرض ويُدفن فيها ، فالسماء ليست قبرًا له.

الحكمة الثالثة: تكذيبهم للنصارى في ادعاءاتهم حوله ، وغُلُوِّهم فيه ،

---

(١) الألباني ، تمام المنة في التعليق على فقه السنة ، دار الراية ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ ، ص٧٩.

(٢) شرح صحيح مسلم ، ١٨/ ٧٥.

فيدعوهم إلى عبادة الله وحده ويرفض ما قامت عليه النصرانية من أباطيل وأكاذيب بكسر الصليب وقتله الخنزير ونزوله حيًّا في آخر الزمان ردًّ لأباطيل النصارى في أنه قُتل وصُلب ومات ، وخرجت روحه على الصليب[١] .

الحكمة الرابعة: شهادته العملية لخاتم النبيِّين محمد ﷺ وللإسلام بأنه الشريعة الخاتمة وإلغاؤه لما قبله من الديانات المنسوخة ، كاليهودية والنصرانية ، وهذا تكذيب آخر منه لليهود والنصارى ، الذين لم يعترفوا بنبوة ورسالة محمد ﷺ ، فيشهد بأعماله وجهاده أن محمدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن رسالته خاتمة الرسالات[٢] .

٥ ـ بماذا يحكم عيسى عليه السلام :

يحكم عيسى ـ عليه السلام ـ بالشريعة المحمَّدية ، ويكون من أتباع محمد ﷺ ، فإنه لا ينزل بشرع جديد لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباقٍ إلى قيام الساعة لا يُنسخ ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة ، ومُجدِّدًا لأمر الإسلام ، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ[٣] .

٦ ـ انتشار الأمن وظهور البركات :

جاء في حديث النوّاس بن سمعان الطويل في ذكر الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى ـ عليه السلام ـ ودعائه عليهم وهلاكهم[٤] ، وفيه قول الرسول ﷺ : «ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منهُ بيتُ مدرٍ ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة[٥] ، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك

---

(١) محمد أنور شاه الكشميري ، التصريح بما تواتر في نزول المسيح ، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٤، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، المرجع السابق ، ٤/ ٤٢٥ .

(٣) يوسف عبد الله الوابل ، أشراط الساعة ، ص٣٥٨ .

(٤) المرجع نفسه ، ص٣٦١ .

(٥) الزلفة : المرآة شبَّه الأرض بها لصفائها ونظافتها .

وردِّ بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويبارك في الرِّسل[١] ، حتى إن اللَّقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللَّقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللَّقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس»[٢] .

ومن أهم مظاهر البركة بعد نزوله: زوال التحاسد والتباغض والشحناء في قلوب الناس ، ومضاعفة حجم الثمار بحيث تكفي الرمانة الواحدة المجموعة من الناس وكذلك عنقود العنب ، والبركة في اللبن بحيث يكفي لبن الناقة الجماعة الكبيرة ويكفي لبن الشاة القبيلة ، وزوال العداوة بين الحيوانات بحيث يمشي الذئب مع الغنم وانتشار السلم والأمن بين الناس وانتشار الغنى بينهم[٣] .

٧ ـ من أهم أعمال عيسى عليه السلام بعد نزوله :

من خلال حديث رسول الله ﷺ الذي رواه النواس بن سمعان في مسلم وغيره من كتب السنة[٤] ، نلخِّص ما جاء في الحديث الفقرات المتعلقة بعيسى ـ عليه السلام ـ في النقاط الآتية :

ـ ينزل عيسى عليه السلام في عنفوان قوة المسيح الدجال وطغيانه .

ـ ويكون نزوله من السماء عند المنارة البيضاء ، شرقيّ مدينة دمشق المعروفة .

ـ وعندما ينزل يكون لابسًا (مهرودتين) ، وهما حلتان جميلتان فيهما لون أصفر خفيف جميل فيجمع بين جمال الخِلقة والهيئة وجمال اللباس والزينة .

ـ ويصاحبه في النزول اثنان من الملائكة ، ينزلان من السماء معه حيث يكون بينهما واضعًا كفيه على أجنحتهما .

---

(١) الرِّسل : اللبن .
(٢) صحيح مسلم مع شرح النووي ، ١٨/ ٦٣ ـ ٧٠ .
(٣) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٤٢٧ .
(٤) رواه مسلم رقم ٩٣٧ ، سنن الترمذي رقم ٢٣٤١ .

ـ ويكون رأسه يقطر ماء ، وهذا الماء عليه من السماء ، فإذا طأطأ عليه السلام رأسه وخفضه نحو الأسفل ، نزل منه الماء على شكل قطرات كثيرة متتابعة ، وإذا رفع رأسه إلى أعلى نزل منه الماء بطيئًا وتكون قطراته كبيرة كحبات اللؤلؤ .

ـ ونزوله والماء يقطر من رأسه ليوافق الحالة التي رفعه الله فيها إلى السماء ، حيث مرَّ معنا كلام ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه السلام قبل أن يرفعه الله إلى السماء كان رأسه يقطر ماء ، فينزل ورأسه يقطر ماء ليكون نزوله على نفس الحالة التي رفعه الله عليها .

ـ وعندما ينزل عيسى عليه السلام يُقوّي الله نفسه ، ويزيد الله في مدى تأثيره ، فَيَصلُ مفعول أنفاسه إلى نهاية بصره ، وأيُّ كافر يشمُّ نفسه يموت مباشرةً ، قبل أن يصله عيسى عليه السلام ، وهذه معجزة لعيسى عليه السلام يُجريها الله على يديه .

ـ واللطيف أن نفس عيسى عليه السلام جعل الله فيه معجزةً باهرة ، فلمّا كان نبيًّا في بني إسرائيل كان ينفخ في التمثال الذي على هيئة الطير ، فيجعله الله طيرًا حيًا ، أي نفسه كان سببًا مباشرًا في إحياء التمثال الجماد ، وعند نزوله في آخر الزمان يكون نفسه سببًا في موت الكفار الأحياء ، والله هو المُحيي في الأولى والمُميت في الثانية .

ـ ويلحق عيسى ـ عليه السلام ـ المسيح الدجال ، فيهرب الدجال منه ، ويتوجه إلى فلسطين ، فيدركه عيسى عليه السلام في مدينة (اللّد) فيقتله فيها ، وهي مدينة فلسطينية بجانب الرملة ، وقريبة من بيت المقدس ، وبقتله المسيح الدجال يُنهي فتنته الكبرى ويريح الناس من شرّه .

ـ ويتجمع حول عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ المؤمنون الصالحون ، الذين عصمهم الله من فتنة المسيح الدجال ، ويفرحون بالتخلص منه ، ويسعدون

بالحياة مع عيسى عليه السلام ، فيمسح على وجوههم ويُبشِّرهم بالفوز ويخبرهم بدرجاتهم في الجنة .

ـ وبينما هم كذلك في غاية السعادة والسرور يُخرج الله قوم يأجوج ومأجوج من جهة الشرق ، ويتوجَّهون نحو فلسطين[١] .

ـ ويخبر الله عيسى عليه السلام أنه لا قدرة لأحد على قتال يأجوج ومأجوج ، لأنهم أقوى قوة بشرية على وجه الأرض ، ويأمر الله عيسى عليه السلام أن يَتحصَّن مع أتباعه المؤمنين في جبل الطور ، وهو الجبل الذي في سيناء الذي ناجى موسى عليه السلام ربّه عليه ، فإن الله سيحميهم من يأجوج ومأجوج .

ـ يتحصَّن عيسى عليه السلام مع أتباعه المؤمنين على جبل الطور ، ويغزو يأجوج ومأجوج البلاد ، وهم كثيرون كثرة عجيبة ، يملؤون السهول والجبال وينسلون ويسيرون مسرعين في جميع البلدان .

ـ مما يدل على كثرتهم أن أولهم يمرُّ على بحيرة طبرية المعروفة الواقعة في الجولان ، والتي يخرج منها نهر الأردن ليصبَّ في البحر الميت ، فيشربون ماءها وما أن يأتي آخرهم عليها حتى يروها جافّة لا ماء فيها لأن من سبقوهم استنزفوها وشربوها فيقولون: علمنا أنه كان هنا بحيرة ، وأنه كان فيها ماء ، فأين يذهب ماؤها؟

ـ يحاصر يأجوج ومأجوج عيسى عليه السلام وأتباعه على حبل الطور ، حيث يكون المؤمنون محصورين على الجبل ، وتكون جموع يأجوج ومأجوج محيطة به .

ـ يشتد الحصار على المؤمنين ، وتضيق عليهم الأمور ولا يجدون ما يأكلون ، حتى يكون رأس الثور خيرًا من مائة دينار ، لأنهم لا يجدونه .

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٤١٠ .

ـ ويُقبل عيسى عليه السلام ومن معه على الدعاء ، فيدعون الله ويتضرعون إليه ، ويطلبون منه إهلاك يأجوج ومأجوج .

ـ ويستجيب الله دعاء نبيّه وأوليائه المحصورين ويرسل على يأجوج ومأجوج المرض والوباء ، ويكون على شكل (النَّغف) في رقابهم ، والنغف هو دود يكون في أنوف الإبل والغنم ، ويكون هذا وباءً عامًا يقضي عليهم في ليلة واحدة ، وإهلاكهم بالدود الصغير لهوانهم على الله ومكره سبحانه بهم ، حيث يقضي عليهم ويهلكهم بأهون شيءٍ وأحقره .

ـ وفي الصباح يُصبحون جميعًا أمواتًا ، ليس فيهم إنسان حي .

ـ وينزل عيسى عليه السلام والمؤمنون عن جبل الطور ، فيجدون أرض سيناء حول الجبل مغطاة بجثث يأجوج ومأجوج ويتأذّون بروائح جيف الهالكين الكفار ويطلبون من الله أن يُريحهم من هذه الجيف النتنة .

ـ يستجيب الله سبحانه وتعالى دعاءهم بآيةٍ واضحةٍ من آياته ، فيرسل طيوراً من عنده ، هذه الطيور كبيرة ضخمة ، الواحد منها بحجم الجمل الكبير ، فتحمل الطيور تلك الجيف وتطرحها بعيدًا .

ـ ويُتمُّ الله إنعامه على المؤمنين فيرسل مطرًا شديدًا قويًا يعمُّ المنطقة ويَصلُ كل مدنها وقراها وبيوتها وخيامها ، ويغسل هذا المطر الأرض من آثار ونتن الكفار ويطهِّرُها ويعقِّمُها فتصبح نظيفةً نقيةً معقمةً .

ـ ويقيم عيسى عليه السلام والمؤمنون في الأرض المقدّسة ، ويحمدون الله على الخلاص من الدجال وجيشه ، والخلاص من يأجوج ومأجوج ، ويعيشون حياة من أسعد الحياة على وجه الأرض في تاريخ الأرض كله منذ آدم عليه السلام .

ـ ويأمر الله الأرض أن تُنبت ثمرها ، وأن تُعمَّ بركتها ، فقد زال الكفر الذي كان يمحق البركة ، ويهلك الثمرة ، ويكرم الله المؤمنين بالخصب والرفاه والبركة .

ـ وتكبر ثمار الأشجار كثيرًا ويبارك الله فيها ، فإن حبة الرمان الواحدة تكفي الجماعة من الناس بحيث يشبعون منها ، وإذا قشّروها وأكلوها ، فإنهم يستظلّون بقشرها لكبر حجمه وكأنه خيمة كبيرة ، أي أن حجم الرمانة الواحدة يكون بحجم الخيمة .

ـ وتدرُّ الأنعام من الإبل والبقر والغنم ويبارك الله في حليبها فيزيده زيادة كبيرة ، بحيث إذا حلبوا الناقة فإنَّ حليبها يكفي المجموعة الكبيرة من الناس الذين هم أكثر من القبيلة ، وإذا حلبوا البقرة فإن حليبها يكفي القبيلة ويُشبعها ، وإذا حلبوا الشاة فإن حليبها يكفي الفخذ من القبيلة ويشبعهم[١] .

ـ ويسعد المؤمنون مع عيسى عليه السلام بهذه الحياة الإيمانية السعيدة ، وهذا الخصب والرخاء الاقتصادي ، ويموت عيسى عليه السلام موتًا طبيعيًا ، ويدفنه المؤمنون ، وبعد فترة يُنهي الله أعمارهم ويأتيهم بآجالهم ، فيرسل عليهم ريحًا طيبة ، تأخذهم تحت آباطهم ، فيموتون جميعًا بهدوء ويسر .

ـ ولا يبقى إلا شرار الناس وسفهاؤهم ، ويستحوذ عليهم الشيطان ويكونون عبيد الشهوات والفواحش ، ويتهارجون كما تتهارج الحمير ، بحيث يسير الرجال والنساء عراة ويجامع الرجل المرأة ويزني فيها علانية على مرأى من الآخرين ، وعلى هؤلاء السفهاء تقوم الساعة[٢] .

وهذا معنى الجزء المتعلق بعيسى عليه السلام عند نزوله في آخر الزمان[٣] .

٨ ـ بقاء عيسى عليه السلام بعد نزوله أربعين سنة :

أخبرنا رسول الله ﷺ أن المسلمين الصالحين سيسعدون بالحياة مع عيسى

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٤١١ ـ ٤١٢ .
(٢) المرجع نفسه ، ٤/ ٤١٢ .
(٣) المرجع نفسه ، ٤/ ٤١٢ .

عليه السلام بعد نزوله أربعين سنة ، ونصَّ على أنَّ عيسى سيعيش أربعين سنة ، يقوم فيها بالأعمال العظيمة ، وبعد ذلك سيُنهي الله أجله ، فيموت موتًا طبيعيًا ، ويدفنه المسلمون بعد أن يُصَلُّوا عليه ، (روى أبو داود وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس بيني وبين عيسى نبيّ وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين مُمصرتين ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل النّاس على الإسلام فيدقُّ الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله في زمانه المِلل كلّها إلاّ الإسلام ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنةً ثم يُتوفَّى ، فيصلّي عليه المسلمون») [١].

ولقد مرَّت بنا صفات عيسى ـ عليه السلام ـ وأفعاله بعد نزوله في أحاديث سابقة ، والجديد في هذا الحديث تحديده المدّة التي سيعيشها عيسى عليه السلام بعد نزوله ، حيث سيعيش أربعين سنة ، ولا يتعارض هذا التحديد مع بعض الروايات التي فيها تحديد المدّة بسبع سنين ، ومنها رواية في صحيح مسلم ، (روى مسلم عن عبد الله عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال من جملة حديث عن ظهور الدجال ونزول عيسى عليه السلام ومجيء أشراط الساعة: . . . . فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبُه فيهلِكُه ، ثم يمكث في الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوةٌ ، ثم يرسل الله ريحًا باردةً من قِبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبلٍ لَدَخَلَتْه عليه حتى تقبضه) [٢].

وعروة بن مسعود الذي شبّه رسول الله ﷺ عيسى به ، صحابيّ ثقفي كان سيّد

---

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٤١٢ . وانظر: سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، رقم ٤٣٢٤ .

(٢) صحيح مسلم رقم ٢٩٤٠ .

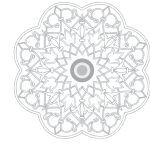
ثقيف رضي الله عنه ، والسبع سنين المذكورة في الحديث ليس لمدة لبث عيسى في الأرض ، فإنّه سيلبث أربعين سنة كما في الحديث الصحيح السابق ، وإنما هي لمدة حياة الناس بدون شحناء ولا بغضاء ولا عداوة (ثم يمكث الناس سبع سنين) و«الناس» فاعل ، فالحديث عن الناس وليس عن عيسى عليه السلام .

والراجح أن السبع سنين في حديث ابن عمرو للتكثير ، والدليل على أنها للتكثير وليست للحصر ، مجيئها في بعض آيات التكثير ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ . . . ﴾ [لقمان : ٢٧] .

هذه أهمّ وأصحّ الأحاديث التي أخبرنا فيها رسول الله ﷺ عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان ، ويجب علينا أن نقول بما قالت هذه الأحاديث ، وأن نعتقد نزوله عليه الصلاة والسلام ، وقد لاحظنا من تلك الأحاديث أنَّه ينزل بالإسلام ويُطبِّق رسالة محمد رسول الله ﷺ ، ولا ينزل برسالة جديدة ، بل يتبرّأ من النصارى ، ويُلزمهم بالدخول في الإسلام ويقضي على اليهود ، ويُهلك المسيح الدجال[1] .

* * *

(١) الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، ٤/ ٤٢٤ .



المبحث الرابع

نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة

ذكرت كُتب السيرة والدلائل أن وفدًا من نصارى نجران قدِموا على النبيّ ﷺ وجادلوه وناظروه في أمر المسيح وألوهيته ، وقد رُويت هذه الواقعة بأسانيد متعددّة وروايات كثيرة وألفاظ متقاربة في بعض الأحيان ، ومختلفة في أحيان أخرى ، تسهيلاً للأمر ، وتوضيحًا له ، ومحاولة لاستقراء ما فيه من قواعد وأساليب للحوار والمناقشة ، بل والمجادلة والمناظرة ، ولرصد أهم المعطيات لممارسة الحوار والجدال بالتي هي أحسن[1] .

أولاً: موقف نصارى نجران من دعوة النبي ﷺ:

عندما وصل كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران يدعوهم فيه إلى الإسلام ووصل إلى الأسقف الكتاب وقرأهُ ، خاف خوفًا شديدًا ، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له «شرحبيل بن وداعة» وكان من أهل همدان ، ولم يكن أحد يُدعى إذا نزلت معضلة قبله ، لا الأبهم ولا السيد ولا العاقب ، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأهُ ، فقال الأسقف: يا أبا مريم ، ما رأيك؟ ، فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذريّة إسماعيل من النبوّة ، فما يُؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل ، ليس لي في النبوّة رأي ، لو كان

---

(١) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، ص١١ .

أمر من أمور الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك ، فقال له الأسقف: تنحَّ فاجلس. فتنحّى شرحبيل فجلس ناحية ، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له عبد الله بن شرحبيل ، وهو من ذي أصبح من حمير ، فأقرأه الكتاب ، وسأله الرأي فيه ، فقال له مثل قول شرحبيل. فقال له الأسقف: فاجلس ، فتنحى فجلس ناحية ، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له جبّار بن فيض من بني الحارث بن كعب ، أحد بني الحماس ، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه ، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله ، فأمره الأسقف فتنحّى فجلس ناحية ، فلمّا اجتمع الرّأي منهم على تلك المقالة جميعًا أمر الأسقف بالناقوس فضُرب به ، ورُفعت النيران في الصوامع ، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنّهار ، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس ، ورُفعت النيران في الصوامع ، فاجتمعوا حين ضُرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله ، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع ، وفيه ثلاث وسبعون قرية ، وعشرون ومائة ألف مقاتل ، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ ، وسألهم عن الرأي فيه ، فاجتمع رأي أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني ، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي ، وجبّار بن فيّاض الحارثي ، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ[١].

ولقد استقرَّ الرأي بعد حوارات ومناقشات ، ومشاورات بين زعماء نصارى نجران على إرسال وفد منهم لرسول الله ﷺ لمعرفة أمره وتثبت القوم عن حقيقة هذا النّبي[٢].

---

(١) البيهقي ، دلائل النبوة ، ٥/ ٣٨٥ – ٣٨٦. وانظر: ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامية ، بيروت ، ط٢٧ ، ١٩٩٤م ، ٣/ ٦٣١ ـ ٦٣٢؛ أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص٢١.

(٢) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص٢٢.

وفود بعض نصارى نجران إلى رسول الله ﷺ ، واعترافهم بنبوَّته :

توجَّه وفد إلى رسول الله ﷺ من نجران ، حيث جلس أبو حارثة[١] على بغلة له متوجهًا إلى رسول الله ﷺ وإلى جنبه أخ له يقال له (كوز بن علقمة) ، فعَثرت بغلة أبي حارثة فقال كوز : تعس الأبعد ـ يريد رسول الله ﷺ ـ فقال أبو حارثة : بل أنت تعست ، فقال : ولمَ يا أخي؟ قال : والله إنه النّبي الأمي الذي كنّا ننتظره ، فقال له كوز : فما يمنعك من إتّباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ـ يعني ملوك الروم ـ شرَّفونا ، ومَوَّلونا ، وأكرمونا ، وقد أبوا إلا خلافَه ، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى ، فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك[٢] .

وكان رؤساء نجران يتوارثون كتبًا عندهم ، فكلما مات رئيس منهم وأفضت الرئاسة إلى غيره ختم على تلك الكتب خاتمًا مع الخواتم التي كانت قبله ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي فعثر ، فقال له ابنه : تعس الأبعد ـ يريد رسول الله ﷺ ـ فقال له أبوه : لا تفعل ، فإنه نبي واسمه في الوضائع ـ يعني الكتب ـ فلما مات لم تكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم ، فوجد في الكتب ذكر النبي ﷺ ، فأسلم فحسن إسلامه وحجَّ[٣] .

وبالنظر في هذا المقطع من الروايات الخاصة بوفد نصارى نجران ، يمكننا أن نقف عند بعض الموضوعات كما يلي :

---

(١) أبو حارثة بن علقمة : أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم ، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم ، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات ، لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

(٢) البيهقي ، دلائل النبوة ، ٥/ ٣٨٣. وانظر : أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، المرجع نفسه ، ص٢٣ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق : د. أحمد حجازي السقا ، دار التراث العربي ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ٢/ ٣٧٦ـ٣٧٧.

الموضوع الأول:

إنَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا على علم ببعثة النبي ﷺ ، وأنهم عرفوه بصفته ، وتحقَّقوا ممّا في كتبهم من الإشارات وموافقتها وانطباقها على شخصه ﷺ ، ومن حكمة الله أن يُبشِّر الأنبياء السابقون برسالة النبي محمد ﷺ ، ليكون ذلك دليلاً على صِدقه ، وحجّة على أقوالهم ، وحثًّا لهم على الإيمان به ، والإذعان لدعوته والإقرار برسالته ، ونصرة دينه[١] .

وإليك شاهد على ذلك: هرقل ملك الروم حين اعترف بصحة نبوَّة النبي ﷺ ومات على الكفر ، فقد اعترف ببعثة النبي ﷺ ، وأنه بُشِّر به في الكتب السابقة ، وقال هرقل لدحيَة الكلبيّ حين قدم عليه بكتاب رسول الله ﷺ: «ويحك ، والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل ، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته ، فاذهب إلى ضغاطر الأسقف ، فاذكر له أمر صاحبكم ، فهو أعظم في الروم مني ، وأجوز قولاً مني عندهم ، فانظر ما يقول ، فجاء دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ فقال له ضغاطر: صاحبك ، والله نبي مرسل ، نعرفه في صفته ونجده في كتابنا باسمه ، ثم ألقى ثياباً كانت عليه سوداً ، ولبس ثياباً بيضاً ، ثم أخذ عصاه ، ثم خرج على الروم وهم في الكنيسة ، فقال: يا معشر الروم ، إنه قد جاءنا كتاب أحمد ، يدعونا فيه إلى الله ، وإنني لأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن أحمد رسول الله ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد ، فضربوه فقتلوه ، فرجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر ، فقال: قد قلت لك: إنا نخافهم على أنفسنا ، وضغاطر كان والله أعظم عندهم مني» [٢] .

وفي الحديث المطوّل الذي ذكره البخاريّ ومسلم وغيرهما أن هرقل حينما

---

(١) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص٢٤ .
(٢) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص٢٧ .

جاءه كتاب رسول الله ﷺ طلب من جنوده أن يأتوه بأحد من قومه ليسألهم عن رسول الله ﷺ فجيء له بأبي سفيان الذي كان في تجارة إلى الشام ، وكان لا يزال على شركه ، فسأله عدة أسئلة وأجاب عنها أبو سفيان ، ثم قال هرقل: وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أعلم أنه منكم ، وإن يكُ ما قلت حقًا فيوشك أن يملك موضع قدميَّ هاتين ، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدميه[١] .

وفي رواية ابن إسحاق أن هرقل حينما جاءه كتاب رسول الله ﷺ وقرأه ، أخذه فجعله بين فخذته وخاصرته ، ثم كتب إلى رجل من أهل روميّة كان يقرأ العبرانية ما يقرأ بخبره مما جاءه من رسول الله ﷺ ، فكتب إليه أنّه النّبيّ المنتظر لا شك فيه فاتَّبِعْه ، فأمر بعظماء الروم فجُمعوا له في دسكرة[٢] ملكه ، ثم أمر بها فأُسرجت عليهم واطَّلَع عليهم من عليّة[٣] له وهو منهم خائف ، فقال: «يا معشر الروم إنه جاءني كتاب أحمد ، وإنه والله للنّبيّ الذي كنّا ننتظره ، ونجد ذكره في كتبنا نعرفه بعلاماته ، فأسلموا واتّبعوه تسلم لكم دنياكم وآخرتكم ، فنخروا نخرة رجل واحد ، وابتدروا أبواب الدسكرة ، فوجودها مغلقة دونهم ، فخافهم فقال: كرُّوهم عليَّ فكرّوهم عليه ، فقال لهم: يا معشر الروم إني إنما قلت لكم هذه المقالة أغمزكم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم ، فلقد رأيت منكم ما سرَّني فوقعوا له سُجَّدًا ، ثم فُتحت لهم أبواب الدسكرة فخرجوا» [٤] .

لقد عرف زعماء الروم نبوَّته ﷺ القادةُ السياسيُّون والدينيُّون ، ولكنهم انحازوا إلى مصالحهم ومتاع الفانية والحرص على المناصب .

---

(١) البخاري ، رقم ٢٩٤١ .
(٢) الدسكرة: بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم ، فيها الشراب والملاهي ، ويكون للملوك .
(٣) العُليّة: الغرفة من الطبقة الثانية من الدار وما فوقها .
(٤) البيهقي ، دلائل النبوة ، ٥/ ٣٨٤ .

الموضوع الثاني :

إنَّ اعتراف أهل الكتاب بنبوّة النبي ﷺ لا يُدخلهم في دين الإسلام ، إذ لا يكفي للإيمان الاعتراف بنبوّته ولا تكفي المعرفة بها ، بل يجب الانقياد له فيما أمر وتصديقه فيما أَخبر(١) .

فقد أقرَّ هرقل عظيم الروم بنبوّته ، ولكنه لم يَنقَدْ وبقي على دين قومه ، وكذلك عمّ النبيّ ﷺ أبو طالب ، فقد شهد بالصدق للنبي ﷺ وشهد أنّ دينه خير الأديان إلاّ أنه لم يدخل في الإسلام ، وقال في ذلك شعرًا :

والله لن يَصلوا إليكَ بجمعهم ... حتَّى أُوسَّدَ في الترابِ دفينا
فاصدع بأمركَ ما عليك غضاضة ... وابشر بذاك وقرَّ منك عيونا
ودعوتني وزعمتَ أنّك ناصحي ... فلقد صدقتَ وكنت قبلُ أمينا
وعرضت دينًا قد عرفت بأنّه ... من خير أديان البريّةِ دينا
لولا الملامة أو حذار مسبّة ... لوجدتني سمحًا بذاك يقينا(٢)

وهذا يدلّ على أنّ الاعتراف بصدق النبي ﷺ وصحّة نبوّته لا يعني الدخول في الإسلام ، ولذلك يقول ابن القيم : ومن تأمّل ما في السّير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق ، فلم تُدخلهم هذه الشهادة في الإسلام ، علم أنّ الإسلام أمر وراء ذلك وأنّه ليس هو المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط ، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرًا وباطنًا(٣) .

الموضوع الثالث :

وهو خاص بالحديث عن سبب امتناع هؤلاء عن الدخول في الإسلام رغم

---

(١) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص٣٠ .
(٢) عجيبة ، المرجع السابق ، ص٣٣ .
(٣) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٣/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩ .

علمهم ومعرفتهم بالنّبيّ ﷺ ، ففي الرّواية التي مرّت معنا في هذا المبحث أنّ كوز قال لأبي حارثة: فما يمنعك من اتّباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرّفونا وموّلونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه ، ولو فعلت نزعوا منّا كلّ ما ترى.

إنَّ الذين منعتهم الرّياسة والسّيادة والمأكل والسلطان من اختيار الهدى كثيرون ، وقد صرّحوا بهذا لخاصّتهم وعامّتهم ، ولا أدلّ على ذلك من موقف هرقل الذي عرف الحقّ ، وهمّ بالدخول في الإسلام فلم يطاوعه قومه وخافهم على نفسه ، فاختار الكفر على الإسلام بعد ما تبيّن له الهدى ولذلك يقول الخفاجي عن هرقل: وكان يعرف أمره ﷺ في الكتب ، ولكن أحبَّ الملك فحكم بشقائه مالِكُ المُلك[١] ، كما أنّ الحسد كان من أكبر وأعظم الأسباب المانعة من دخولهم الإسلام واتباعهم شريعة النّبيّ محمد ﷺ ، فإن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يعرفون النّبيّ ﷺ وصرّحوا بذلك ، بل وأقرّوا بصحّة نبوّته وصدق دعوته ، منهم من آمن ودخل في دين الإسلام ومنهم من أعرض عنادًا وحسدًا ، وقد اعترف بهذا العناد والحسد كثيرون[٢].

ثانيًا: هيئة الوفد النجراني:

لما قَدِم رؤساء نجران على رسول الله ﷺ فدخلوا عليه مسجده حين صلّى العصر ، عليهم ثيابُ الحبرات ، جبَبٌ وأرديةٌ في جمال رجال بني الحارث بن كعب ، يقول بعض من رآهم من أصحاب النّبيّ ﷺ يومئذ: ما رأينا وفدًا مثله ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلّون ، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم فصلّوا إلى المشرق[٣].

---

(١) أحمد شهاب الدين الخفاجي ، نسيم الرياض في شرح الشفاء ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، ط١ ، ٣/ ٢٦٧.

(٢) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص٣٧.

(٣) البيهقي ، دلائل النبوة ، ٥/ ٣٨٢؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٥/ ٥١.

وفي رواية للبيهقي: أنهم قاموا يصلّون في مسجده فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم فاستقبلوا المشرق فصلّوا صلاتهم[١]، ثم أتوا النّبيّ ﷺ فأعرض عنهم ولم يُكلِّمْهم، فقال لهم عثمان بن عفان رضي الله عنه: ذلك من أجل زِيِّكم هذا، فانصرفوا من يومهم ذلك ثم عادوا عليه بعد أن وضعوا حللهم وخواتيمهم ولبسوا زي الرهبان، فسلّموا عليه فردَّ السلام، ثم قال رسول الله ﷺ: والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرّة الأولى وإن إبليس لمعهم[٢]. وقد أعرض النّبيّ ﷺ عنهم ولم يرد السلام عليهم لما رأى منهم التَّعاظُم والتكبُّر من خلال ما يلبسون من حلل وخواتيم وذهب، وحينما رجعوا ولبسوا ملابس متواضعة ردَّ عليهم السلام وبدأ حديثه معهم[٣].

ثالثًا: مجالس الجدل والمناظرات:

١ ـ أمر الله لرسوله بجدال أهل الكتاب:

دعا النّبيّ ﷺ الناس إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له وإلى تصديقه فيما يدعو إليه من دين الله وشريعته، مبيّنًا أنه خاتم الأنبياء والمرسلين وأنّ شريعته ناسخة للشرائع السابقة.

والإيمان بالله وبالرّسل يقتضي الإيمان بالأنبياء والرّسل السّابقين ومن فرَّق بين رسل الله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافرًا، ولذلك دعا النّبيّ ﷺ أهل الكتاب إلى الإيمان بدعوته وتصديقه وجادل وناظر أهل الكتاب واندفع اليهود لمجادلة النبي ﷺ وسائر المسلمين وناقشوهم مناقشة دينيّة أخذت أولاً دورًا دينيًّا هادئًا ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة ـ ثم أخذت من جانبهم سبّاً واستهزاء وخيانة، حتى اضطرّ النّبيّ ﷺ إلى إجلاء بعضهم ومحاربة الآخرين، وفي دور المجادلة

(١) البيهقي، دلائل النبوة، ٥/ ٣٨٢.
(٢) المرجع نفسه، ٥/ ٣٨٦ـ٣٨٧.
(٣) أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص٤٣.

كانت المجادلة واسعة النّطاق غير محدودة لأن النبي ﷺ كان يخاطب أقوامًا يقرّون بكتاب ويؤمنون برسل ، فالنّبيّ كان يُلزمهم بما جاء في كتبهم ويُنكِر عليهم مخالفتهم لما جاءت به رسلهم ، وهم كانوا لعلمهم بالكتاب يوجهون أسئلة فيها شيءٌ من الدقّة والمعرفة وإن كانوا ضالّين(١) .

وقد أمر الله نبيّه ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى دين الله وأن يجادلهم إن استدعى الأمر ذلك ، وأرشده إلى الجدل بالحسنى ، قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] (٢) ، لذا فقد قام رسول الله ﷺ بمناظرة ومجادلة أهل الكتاب خير قيام ، وممن ناظرهم رسول الله وفد نجران .

٢ ـ حضور أطراف عديدة مجالس المناظرة :

لم تكن مجالس المناظرات بمعزل عن الناس ، حيث حضرها أطراف عديدة من المسلمين واليهود والنصارى وكانت جلسات المناظرة حاشدة ، إذ شهدها أعضاء الوفود ، وشهدها فريق كبير من المسلمين أو كبارهم ، وحضرها بعض سكان المدينة من اليهود وجادلوا النصارى في بعض مسائل العقيدة(٣) .

قال ابن إسحاق : ولما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيءٍ وكَفَر بعيسى والإنجيل ، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيءٍ وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ

---

(١) محمد أبو زهرة ، تاريخ الجدل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٠م ، ص٨٩ .

(٢) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص٦٦ .

(٣) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص٧٠ .

ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣] (١).

وتنازعوا أيضًا في إبراهيم عليه السلام، فاليهود يدّعون أنّه يهودي وأنهم على دينه، بينما يدّعي النصارى أن إبراهيم عليه السلام ما كان إلا نصرانيًّا، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨].

ويبدو أيضًا أن اليهود تدخلوا في بعض المناظرات التي كانت بين رسول الله ﷺ ونصارى نجران، فقد قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟، فقال رجل من أهل نجران نصراني ـ يقال له الربيس(٢) ـ: أوذاك تريد منّا يا محمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره وما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠] (٣).

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٣٥٦.

(٢) الربيس: كبيرهم، ويروى: (الريس، والرئيس).

(٣) أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص٧٢.

رابعًا: موضوعات الجدل:

جادل نصارى نجران رسول الله ﷺ في موضوعات عديدة تتعلّق بالعقيدة النصرانيّة ، من أهمها :

١ ـ ادعاؤهم أُلوهية المسيح لولادته من غير أب :

ناقش رسول الله ﷺ نصارى نجران فيما يعتقدون بأن ولادة المسيح من غير أب هي دليل على ألوهيته ، وقد رُويت روايات عديدة بشأن المناظرات حول هذه الشبهة ، نذكر بعضًا منها فيما يلي :

روى ابن جرير الطبري عن الربيع في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٢] ، قال : إن النصارى أَتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ابن مريم وقالوا من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا .

فقال لهم النّبيّ ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟

قالوا : بلى . فقال : ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت ، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟

قالوا : بلى . وقال : ألستم تعلمون أن ربنا قيّمٌ على كل شيءٍ يَكلَؤُه ويحفظه ويرزقه؟

قالوا : بلى . ثم قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟

قالوا : لا . فقال : أفلستم تعلمون أن الله عز وجل لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟

قالوا : بلى . فقال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم؟

قالوا : لا .

قال : فإن ربنا صوّرَ عيسى في الرحم كيف شاء فهل تعلمون ذلك؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربَّنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يُحدِث الحَدَث؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غُذِّي كما يغذّى الصبي، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب، ويُحدث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟

قال: فعرفوا، ثم أَبوا إلّا جحودًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢] (١).

وواضح من الرواية السابقة أن محور هذه المناظرة كان هو الحديث عن بشريّة عيسى عليه السلام، وقد ساق لهم النبي ﷺ الدلائل والبراهين الواضحة على كون عيسى عبد الله ورسوله، وفنّد النّبيّ ﷺ لهم شبهة أنه إله أو ابن إله لكونه ولد من غير أب، ويبدو أن هذا الموضوع أخذ حيّزًا كبيرًا من المناقشات والمناظرات؛ لأنه أساس عقيدتهم النصرانيّة.

وقد نزلت الآيات القرآنية تردُّ على عقائد النصارى في صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية اشتملت على الحجج الدامغة لبطلان شُبَه النصارى(٢).

---

(١) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: محمود شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ٦/ ١٥٤.

(٢) أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص٧٨.

٢ ـ ادعاؤهم ألوهية المسيح بسبب معجزاته :

روى ابن جرير الطبري عن ابن جريج عن عكرمة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] ، قال : نزلت في العاقب والسيد من أهل نجران ، قال ابن جريج : بلغنا أن نصارى أهل نجران قدم وفدهم على النّبيّ ﷺ فيهم السيّد والعاقب ، وهما يومئذٍ سيدا أهل نجران ، فقالوا : يا محمد ، فيم تشتم صاحبنا؟ قال : من صاحبكما؟ قالا : عيسى ابن مريم ، تزعم أنه عَبد . قال رسول الله ﷺ : أجل ، إنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فغضبوا وقالوا : إن كنت صادقًا ، فأرنا عبدًا يُحيي الموتى ويُبرى الأكمه ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ، لكنه الله . فسكت حتى أتاه جبريل فقال : يا محمد : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ . . . ﴾ [المائدة : ٧٢] [(١)] .

ونزل القرآن الكريم وأوضح حقيقة هذه المعجزات كما بيّنتها في الصفحات السابقة ، فالمسيح عليه السلام لم ينسب المعجزة إلى نفسه بل نسبها إلى الله ، في قوله : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي بتكوين الله وتخليقه ، فالخالق والمحيي في الحقيقة هو الله ولذلك لم ينسب المسيح إلى نفسه أي قدرة في فعل هذه المعجزات[(٢)] .

إن هذه المعجزات قد بيّنا في حديثنا عنها أنها تدلُّ على نبوّته ورسالته لا على ألوهيته ، فمن أراد التوسع فليرجع إلى ما فصّلنا .

٣ ـ تأويلاتهم لوصف المسيح بأنه كلمة الله وروح منه :

ناقش النصارى رسول الله ﷺ وجادلوه في معنى وصف الله لعيسى بأنه روح الله وكلمته ، حاجّوه وخاصموه وقالوا : ألست تزعم أنّه كلمة الله وروح منه؟

---

(١) عجيبة ، المرجع السابق ، ص٨١ .
(٢) عجيبة ، المرجع نفسه ، ص٨٣ .

قال: بلى. قالوا: فحسبنا، وتأولوا في ذلك ما يقولون فيه من الكفر[١].

فأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]، ثم إن الله جلّ ثناؤه أنزل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩].

بيّنت الآية الأولى أن سؤالهم فيه مغالطة، وردّت عليهم مفنّدة، إذ قرّرت أن هناك آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب، وفيها جوهر الدعوة وأسسها التي لا تتحمل تأويلاً، وهناك آيات متشابهات فلا يتمسّك بهذه ويتجاهل تلك، أو يريد أن ينقض تلك بهذه على تأويل خاطئ، إلا من في قلبه زيغ.

لقد أورد النّبيّ ﷺ لهم الآيات المحكمة التي تقرّ بجلاء ووضوح وحدانية الله بحيث لا يجوز في حقه سبحانه أبوّة ولا بُنُوّة ولا تعدد ولا تجزّؤ، ولا انفصال، وعليه إذا جاء في القرآن الكريم أنّ عيسى كلمة الله ومن روحه الذي أريد به بالتنويه بالمعجزة الربانيّة التي تمت بولادته بلا أب، فلا يصح أن يحاول بهذه نقض تلك الآيات المحكمة، فوحدانيّة الله أمرٌ محكم لا يحتمل أي كلام أو تأويل[٢].

فعيسى عليه السلام مخلوق ويدلّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧].

فهذه الآيات تبيّن أنّ عيسى عليه السلام ليس كما يقول النصارى أنّ قوله

(١) المرجع السابق، ص٨٣.

(٢) محمد عزت دروزة، سيرة الرسول (ﷺ)، المؤتمر العالمي للسيرة النبوية، مطابع الدوحة، ط٣، ١٤٠٠هـ، ٢/ ٢٤٣.

تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ نكرة في الإثبات يقتضي أنه كلمة من كلمات الله وليس هو كلامه كما يقول النصارى ، وبيّن سبحانه مراده بقوله: (بِكَلِمَة مِّنهُ) حيث قال في الآيات التالية:

ـ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

ـ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ـ وقال تعالى في سورة مريم: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤ ـ ٣٥] ، فهذه الآيات كلها تبيّن أنه سبحانه وتعالى قال له (كُن فَيَكُونُ) ، وهذا تفسير كونه كلمة منه[(١)].

وأما قول الله تعالى عن المسيح في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١] ، فقد بيّن مراده أنه خلقه بـ (كُن) من غير واسطة الأب ، فالمراد بها كلمة التكوين ، فكلمة كُنْ تدلّ على التكوين وقدرة الله عند إرادته إيجاد الشيء ، وقد خلق المسيح بهذه (كُن) فكان عيسى ، فالكُن من الله وعيسى بالكن كان ولذلك هو مخلوق[(٢)].

وأمّا وصف المسيح بأنّه (وَرُوح مِّنهُ) ، فلا يوجب أن يكون منفصلاً من ذات الله:

---

(١) ابن تيمية ، دقائق التفسير الجامع ، جمع وتقديم وتحقيق: محمد السيد الجليند ، سلسلة التراث الفلسفي ، دار الأنصار ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م ، ٢/ ٨٢ـ ٨٣.

(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨١٧.

ـ كقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ﴾ [الجاثية: ١٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النحل: ٥٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النساء: ٧٩].

ـ وقوله تعالى: ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴾ [البينة: ١ ـ ٢].

فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة، وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلى مريم وهي مخلوقة[١]. و﴿ وَرُوحٞ مِّنۡهُ ﴾ ليست للتبعيض؛ لأنّ روح الله لا تتبعض ولا تتجزأ ولا تنقسم إلى أبعاض وجزيئات وأقسام، وإنّ (منه) هنا لابتداء الغاية، فهي من عند الله سبحانه وتعالى[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ وَرُوحٞ مِّنۡهُ ﴾ إضافة الروح إلى الله هي إضافة أعيان منفصلة عن الله، فهي إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره، يعني أنها روح خيريّة مطيعة لله تعالى[٣].

ولم يقتصر القرآن الكريم على إضافة المسيح فقط إلى الله، بل إنه أضاف إلى الله الأمور الآتية، وكلها إضافات إليه تعالى إضافة تشريف:

ـ روح آدم عليه السلام في قول الله تعالى للملائكة عنه: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

ـ الناقة إضافتها إلى الله وهي معجزة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود،

---

(١) أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص٨٣.
(٢) أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، ٢/ ٧٣٩.
(٣) الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق، ص١٨٤ ـ ١٨٦.

وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٣]. ويتبيّن إذًا أنّ المقصود بالكلمة والروح غير ما قصده النصارى.

٤ ـ من مناقشات القرآن الكريم للموضوعات المشارة في الجدال:

إنَّ الآيات القرآنية التي نزلت على رسول الله بسبب وفد نصارى نجران ـ وهي من أول سورة آل عمران حتى بضع وثمانين آية منها ـ اشتملت على أغراض عدة، منها مناقشتها لعقيدتهم والتعرض لشبههم ومفترياتهم وبيان زيغها وبطلانها، وبيّنت في افتتاحية سورة آل عمران بطلان عقيدة النصارى[١].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢]، أخبر الله عباده أن الألوهية خاصة به دون ما سواه من الآلهة والأنوار، وأن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا له، لانفراده بالرّبوبية وتوحيده بالألوهية وأن كل ما دونه فَملكه، وأن كل ما سواه فَخلقه، لا شريك في سلطانه وملكه[٢]، فبيّن الله سبحانه وتعالى أن أحدًا لا يستحق العبادة سواه، وهذا رَدٌّ على النصارى لأنهم يقولون بعبادة عيسى عليه السلام[٣].

وفي قوله: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]، ردّ عليهم في قولهم بأنّ المسيح ابن الله، لأن الحيّ القيّوم يستحيل أن يكون له ولد، يقول فخر الدين الرازي: ثبت أنّ الولاء له يجب أن يكون حيًّا قيومًا، وثبت أنّ عيسى ما كان حيًّا قيومًا لأنه ولد، وكان يأكل ويشرب ويُحْدِث، والنصارى زعموا أنّه قتل وما قدر على دفع القتل عن نفسه، فثبت أنه ما كان حيًّا قيومًا وذلك يقتضي القطع والجزم بأنّه ما كان إلهًا فهذه الكلمة وهي قوله ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ جامعة لجميع وجوه الدلائل

---

(١) أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص٨٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٨٨.
(٣) المرجع نفسه، ص٨٨.

على بطلان قول النصارى في التثليث[١].

وبعد هذه الدلائل الباهرة حذرهم الله سبحانه وتعالى من العذاب الشديد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]، وفي قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي هم الذين جحدوا آيات الله، وهي أعلام الله وأدلّته وحججه[٢].

يقول الطبري: إنّ الذين جحدوا أعلام الله وأدلّته على توحيده وأُلوهيته، وأنّ عيسى عبد الله واتخذوا المسيح إلهًا وربًا، أو ادّعوا لله ولدًا، لهم عذاب من الله شديدٌ يوم القيامة[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، يعني بذلك جلّ ثناؤه: إنّ الله لا يخفى عليه شيء هو في الأرض ولا شيء هو في السماء، أي قد علم ما يريدون وما يكيدون وما يضاهون في عيسى، إذ جعلوه ربًّا وإلهًا، وعندهم من علمه غير ذلك غرَّةً بالله وكفرًا به[٤].

وبعد أن بيّن الله بالبراهين بطلان عقيدة النصارى وفسادها، بتقرير أنّ عيسى ما كان إلهًا، وما ينبغي له أن يكون إلهًا ولذلك لا يستحق العبادة، وشرع في الرد على شبههم التي يتمسكون بها والتي من أهمها تلك الشبهة المتعلقة بولادة المسيح من غير أب. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦]، يعني بذلك جلّ ثناؤه: الله الذي يصوركم فيجعلكم صورًا في أرحام أمهاتكم كيف شاء وكيف أحب، فيجعل هذا ذكرًا وهذا أنثى، وهذا أسود وهذا أحمر، يعرّف عباده بذلك أن جميع من اشتملت عليهم أرحام النساء، وأن عيسى ابن مريم ممن صوّره في رحم أمّه

---

(١) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ٧/ ١٢٩.
(٢) أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص٨٩.
(٣) تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، ٦/ ١٦٤.
(٤) عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص٨٩.

وخلقه فيها كيف شاء وأحب ، وأنه لو كان إلهًا لم يكن ممن اشتملت عليه رحم أمّه؛ لأن خلّاق ما في الأرحام لا تكون الأرحام عليه مشتملة وإنّما تشتمل على المخلوقين.

لقد كان عيسى ممَّن صُوِّر في الأرحام ، لا يدفعون بذلك ولا ينكرونه ، كما صوّر غيره من بني آدم ، فكيف يكون إلهًا وقد كان بذلك المنزل[١]؟

وذكرت الآيات في سورة آل عمران: أنّ حبّ الشهوات من الأموال والأولاد والجاه هو المانع لهم من اتباع الحق بعد معرفتهم به ، مع أنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى وأعظم للمؤمنين المستغفرين الصابرين ، وذكرت الآيات وجوهًا من الدلائل القاطعة على فساد قول النصارى بألوهية المسيح ، وأتبعها بذكر الجواب عن جميع شبههم على سبيل الاستقصاء التام ، فلم يترك شبهة من شبههم إلا وناقشها ودحضها ، وأورد الدلائل والآيات والحجج والبراهين على فسادها وبطلانها ، وختم بما يدل على فساد كلامهم بالمباهلة[٢].

وأمر الله نبيّه بأن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى عليه السلام بعد ظهور البيان[٣].

خامسًا: المباهلة الحد الفاصل في الجدال:

إنَّ معنى المباهلة هو: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منّا ، وأن يخلص كلا الطرفين في الدعاء واللعن على الكاذب منهم[٤].

---

(١) تفسير الطبري ، تقريب وتهذيب ، نقلاً عن أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص١٠١.
(٢) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص١٠١.
(٣) تفسير ابن كثير ، ١/ ٤٥٢.
(٤) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص١١٤.

وعندما فصل الله سبحانه وتعالى بين نبيّه محمد ﷺ وبين الوفد من نصارى نجران بالقضاء الفاصل والحكم العادل ـ أمره ـ إن هم تولّوا عما دعاهم إليه من الإقرار بوحدانية الله ، وأنّه لا ولد له ولا صاحبة ، وأنّ عيسى عبده ورسوله ، وأبَوا إلا الجدل والمخاصمة أن يدعوهم إلى الملاعنة(١) .

ولذلك قال الله لرسوله ﷺ : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] .

ـ ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ ﴾ أي : جادلك يا محمد .

ـ ﴿ فِيهِ ﴾ في المسيح عيسى ابن مريم .

ـ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ الذي بيّنه الله لك في عيسى أنّه عبد الله ورسوله .

ـ ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم قولاً يظهر علمك الحق وارتيابهم الباطل .

ـ ﴿ تَعَالَوْا ﴾ هلمّوا .

ـ ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ نلتقي .

ـ ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ منّا ومنكم في أنَّ عيسى عبد الله ورسوله(٢) .

أي فإن استمروا على مُحاجّتهم إيّاك مكابرةً في هذا الحق أو في شأن عيسى فادعهم إلى المباهلة ، والملاعنة ، ذلك أنّ تصميمهم على معتقدهم بعد هذا البيان مكابرة محضة بعد ما جاءك من العلم وبيّنت لهم ، فلم يبقَ أوضحُ مما

---

(١) تفسير الطبري ، تقريب وتهذيب ، نقلاً عن أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص١١٤ .

(٢) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) ، ٣/ ٢٦٤ .

حاججتهم به ، فاعلم إنما يحاجّونَكَ عن مكابرة وقلة يقين ، فادعهم إلى المباهلة بالملاعنة الموصوفة في الآية السابقة[١] .

ولذلك قال لهم رسول الله ﷺ: إنّ الله تعالى أمرني إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم ، فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك[٢] .

وبعد مشاورات بين وفد نصارى نجران كان القرار النهائي رفض المباهلة بأي حال من الأحوال ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا[٣] .

١ ـ لماذا امتنعوا عن المباهلة:

لقد امتنعوا عن المباهلة خوفًا من عذاب الله لما يعلمون من صدقه ﷺ وصحّة نبوّته ، فقد أكدت الروايات الواردة عنهم عدمَ اعتراضهم بأنّه النبيّ الذي بشّرت به الكتب .

ـ حيث قال عبد المسيح ـ العاقب ـ لهم: لقد علمتم ما لاعن قوم نبيًّا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم .

ـ وقال السيد للعاقب: قد والله علمتم أنّ الرجل لنبيٌّ مرسل ولئن لاعنتموه إنه لاستئصالكم .

ـ ولما رأى وفد نصارى نجران رسول الله ﷺ ومعه فاطمة والحسن والحسين وعلي ، قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أنّ يزيل الجبال لأزالها ولم يباهلوا[٤] .

إنَّ امتناعهم عن المباهلة برهانٌ واضح على نبوّته ﷺ ، فما الذي كان يمنعهم

---

(١) محمد الطاهر عاشور ، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، ٣/ ٢٦٤ .
(٢) الآلوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ٣/ ١٨٨ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ٢/ ١٦٢ .
(٤) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص١٣٩ .

من المباهلة لولا أنّهم عرفوا يقينًا أنّه نبي ، وأنهم عرفوا صحّة نبوّته بالدلائل وبما وجدوا من نعته في كتب الأنبياء المتقدمين .

وإذ كان امتناعهم عن المباهلة يدلُّ على صحّة نبوّته ﷺ فإنّه أيضًا يدلُّ بالضرورة على صحّة ما جاء به من أنّ عيسى عبد الله ورسوله وأنّه ليس كما يقول النصارى إله أو ابن إله ، ولذلك لو كانوا متيقنين من صحّة ما يقولونه في عيسى لما خافوا من المباهلة والدعاء باللعنة على الكاذبين .

إنّه قد ظهر بالدعوة إلى المباهلة انقطاع حجج المكابرين ، ودلّ نكولهم عنها على أنهم ليسوا على يقين من اعتقادهم ألوهية المسيح ، وفاقد اليقين يتزلزل عندما يدعى إلى شيءٍ يخاف عاقبته[١] .

٢ ـ طلب وفد نجران الصلح :

رفض القوم المباهلة وأرادوا صلحًا يدفعون بسببه الجزية ، ووافق رسول الله ﷺ على الصلح ، وحدّد لهم الجزية وكيفية تأديتها ، وشرح لهم فيه الحقوق والواجبات ، وأسس التعامل بينهم وبين المسلمين[٢] .

وقالوا لرسول الله ﷺ: إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلاً أمينًا ولا تبعث معنا إلا أمينًا ، فقال ﷺ: «لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين» ، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرّاح» ، فلما قدم قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمّة»[٣] .

وفي قولهم: (إنّا نعطيك ما سألتنا) أي ما صالحكم عليه النبي ﷺ ألف حلّة في رجب وألف حلّة في صفر[٤] .

---

(١) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص١٥٠ .
(٢) المرجع نفسه ، ص١٥٢ .
(٣) البخاري ، رقم (٤٣٨٠) .
(٤) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ٧/ ١١٨ .

وقد أكّد الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لأهل نجران عدالة الإسلام وسماحته في التعامل مع غير المسلمين، وفيه أيضًا التأكيد على حقوقهم وعلى التزام الدولة الإسلامية بحمايتهم وتوفير الأمن لهم، وعدم التدخل في شؤونهم الدينيّة بالتغيير أو خلافه، فلا يُغيِّرُ أسقفٌ ولا راهب، ولا كاهن، ولا حَقٌّ من حقوقهم ولا سلطانهم، لهم جوار الله ورسوله وأمانه وحمايته ما داموا ملتزمين بالصلح[١].

٣ـ الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى:

عندما بين الله سبحانه وتعالى القول الحق في شأن عيسى عليه السلام وأقام الحجج والدلائل على الغالين فيه ـ بجعله ربًّا وإلهًا ـ ثم إلزامهم عن طريق الوجدان بما دعاهم إلى المباهلة ، لم يبقَ إلا أن يأمر نبيّه بأن يدعوهم إلى الحق الواجب اتّباعه في الإيمان ، ويدعوهم إلى أصل الدين الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء والرسل[٢].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إنّ النّبيّ ﷺ كان حريصًا على هداية القوم ، وأورد على نصارى نجران أنواع الدلائل وأقام الحجة عليهم ، ودعاهم إلى المباهلة كما أمره ربّه ، ثم بعد الصّلح أمره بدعوتهم إلى كلمة سواء ، والوصول إلى الحقيقة الإيمانية المجرّدة من الهوى والتعصّب ، والتقليد الأعمى.

فالإيمان بالله وحده لا شريك له هو هدف الرسالات السماويّة ، ولذلك دعاهم النّبيّ إلى هذا الإيمان الذي هو الأساس والأصل الذي يربط بين الرسالات السماويّة كلها.

---

(١) أحمد علي عجيبة ، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، ص١٦٨.
(٢) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) ، ٣/ ٢٦٧ـ٢٦٨.

لقد دعاهم النّبيّ ﷺ إلى الالتقاء عند هذا الأصل المشترك الذي يؤمن به كل أتباع الرّسل ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولذلك كان النّبيّ ﷺ يدعو بهذه الآية أهل الكتاب إلى الإسلام كما ثبت في كتبه إلى هرقل، والمقوقس، وغيرهما، ولولا أن هذه الآية الكريمة أساس الدين وعموده لما جعلها آية الدعوة إلى الإسلام(١).

سادسًا: المرسلون دعوا إلى توحيد الله عزَّ وجل:

دعا الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إلى توحيد الله وعبادته وطاعته، وعَرَّفوا الناس من هو خالقهم، وحقائق الكون والحياة والموت والجنة والنار والشياطين والملائكة وطبيعة الإنسان من خلال هدايات السماء التي نزلت عليهم من الله عزَّ وجل.

وقد حفظ لنا القرآن الكريم ـ كتاب الله العزيز ـ سِيَرهم وتاريخهم وأصول دعوتهم ومن بينهم عيسى عليه السلام، وهذا الكتاب تحدث عن عيسى عليه السلام من خلال الرؤية القرآنية الصادقة والمحكمة التي قدمت سيرة عيسى عليه السلام وأمه في أبهى صورة وأروع بيان.

* * *

وفي ختام هذا الكتاب رأيت أن أختمه بشرح أعظم آية في كتاب الله عزَّ وجل، وكيف عرّف نفسه سبحانه وتعالى لخلقه، وذلك من خلال آية الكرسي لعل الله أن يهدي بهذا الكتاب أقوامًا ينتفعون به في الوصول إلى الحقيقة الكاملة عن عيسى عليه السلام، وما دعا إليه من التوحيد وعبادة الله عزَّ وجل.

تعدُّ آية الكرسي من أعظم الآيات في كتاب الله، إذ كل ما فيها متعلق بالذات

(١) أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص١٧٩.

الإلهية العَلِيّة وناطقة بربوبيته تعالى ، وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالّة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه(١) .

وهذه الآية تملأ القلب مهابة من الله وعظمته وجلاله وكماله ، فهي تدل على أن الله تعالى منفرد بالألوهية والسلطان والقدرة ، قائم على تدبير الكائنات في كل لحظة ، لا يغفل عن شيء في السماوات والأرض(٢) .

وهذه الآية لها شأن عظيم ، فقد صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ ، بأنها أفضل آية في كتاب الله(٣) .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . وإليك شرح هذه الآية العظيمة التي تحدّث الله فيها عن نفسه عزَّ وجل :

١ ـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ :

أي : لا خالق ولا معبود بحق وصدق إلا (الله) عزَّ وجل وكل ما سواه باطل أصلاً ، وهذه الآية أصل في التوحيد : واحد ليس له شريك ، ولا نظير ولا وزير ولا مُشير ، ومعناها : النهي عن أن يُعبد شيء غير الله(٤) .

فهو الإله الحق الذي نتوجَّه إليه بجميع أنواع العبادة والطاعة والتأليه له

---

(١) أبو بكر الجزائري ، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، السعودية ، ط٥ ، ٢٠٠٣م ، ١/ ٢٤٥ .

(٢) وهبة الزحيلي ، التفسير المنير ، دمشق: دار الفكر ، ط١ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٢م ، ٣/ ١٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ، ١/ ٣٧٧؛ صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، دار ابن حزم ، ط١ ، ٢٠١٠م ، ص٦٥ .

(٤) صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، ص٧٨ .

تعالى ، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه ، ولكون العبد مُتشرِّفاً أن يكون عبدًا لربه ممتثلاً أوامره متجنبًا نواهيه ، وكل ما سوى الله تعالى باطل فعبادة ما سواه باطلة ، لكون ما سوى الله مخلوقًا ناقصًا مُدبَّرًا فقيرًا من جميع الوجوه ، فلم يستحق شيئًا من أنواع العبادة(١) .

ـ (الله) : الله دال على كونه مألوهًا معبودًا ، تُؤلِّهه الخلائق محبةً وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب(٢) .

ـ (الله) هو اسم علم دال على ذات الله تعالى رب العالمين ، الإله المعبود حقًا المُتَّصِف بجميع الكمالات المطلقة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى ولا تُحدُّ ولا تستنقص ، ومتنزهًا عن جميع العيوب والآفات ولم يتسمَّ بهذا الاسم غيره سبحانه(٣) .

ـ (الله) هذا الاسم الجليل ، تعلقت به جميع العوالم بذاتها وبأنواعها ، قال تعالى : ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] ، فجميع العباد يقولون : يا الله ، دعاءً أو سؤالاً ، نداءً أو ذكرًا أو مناجاة(٤) .

ـ (الله) هذا الاسم هو جامع الأسماء الإلهية : الظاهرة والباطنة ، على الوجه الذي لا نهاية له كما هو أهله سبحانه ؛ لأنَّ أسماءه تعالى هي على حسب صفاتِ كماله ، وصفات كماله ما لها نهاية ، فأسماؤه ما لها نهاية ، ولهذا الاسم الجليل خصائص وفضائل كثيرة مذكورة في كتب المطولات(٥) .

إنّ معرفة الله تعالى أجلُّ المعارف ، وإرادة وجهه أجلُّ المقاصد ، وعبادته

---

(١) السعدي ، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ١/ ١١٢ .
(٢) ابن قيم الجوزية ، تفسير الفاتحة ، ص٤٧ .
(٣) حول تفسير الفاتحة أم القرآن ، ص١٩ .
(٤) السعدي ، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ٤/ ١٨١٠ .
(٥) صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، ص٧٩ .

أشرف الأعمال ، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال[١] .

٢ ـ ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ :

مدح الله تعالى نفسه بصفتين جليلتين جميلتين فقال : (الحي القيوم) .

ـ (الحي) الذي لا يموت : الحي في صفة الله تعالى ، وهو الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا ، لم تحدث له الحياة بعد الموت ، ولا يعتريه الموت بعد الحياة ، وسائر الأحياء سواء ، يعتريهم الموت والعدم ، فكل شيءٍ هالك إلاّ وجهه سبحانه وتعالى[٢] .

ـ (الحي) : من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع (صفات الذات) كالسمع والبصر والعلم والقدرة ، ونحو ذلك[٣] .

والحياة التي وصف بها الإله الواحد هي (الحياة الذاتية) التي لم تأتِ من مصدر آخر ، كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق ، ومن ثم ينفرد الله سبحانه بالحياة على هذا المعنى كما أنها هي الحياة الأزليّة الأبديّة التي لا تبدأ من مبدأ ، ولا تنتهي إلى نهاية[٤] .

ـ (القيوم) أي : دائم القيام بجميع شؤون الخلق ، وهو القائم على كل شيء ، فالله عزَّ وجل قائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه[٥] .

---

(١) ابن قيم الجوزية ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ٢/ ٢٠٨ .
(٢) صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، ص٨٠ .
(٣) السعدي ، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ٣/ ١١٢ .
(٤) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٦٦ .
(٥) صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، ص٨٢ .

ـ (القيوم): هو الذي قام بنفسه وقام به غيرُه ، وذلك مستلزم بجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين ، من فعله ما يشاء ، من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء وسائر أنواع التدبير ، كل ذلك داخل في قَيُّوميّة الباري[١].

إن صفة (الحياة) متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها ، وصفة (القَيُّوميّة) متضمنة لجميع صفات الأفعال ، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، هو اسم (الحَيُّ القَيُّومُ). ويكون التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء ، وهو أسماؤه وصفاته ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات (الحَيُّ القَيُّومُ) ، والمقصود: أن لاسم (الحَيُّ القَيُّومُ) تأثيرًا خاصًا في إجابة الدعوات وكشف الكربات ، ولهذا كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: يا حيُّ يا قَيُّوم[٢].

٣ـ ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾:

هذا من تمام حياته وقَيُّوميّتِه ، أنه تبارك وتعالى ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، أي: لا يعتريه نعاس ولا نوم؛ لأنهما من أعراض البشرية ، والله بخلاف ذلك.

ـ (السِّنة): ابتداء النعاس ، ثم يصير نومًا ، و(النوم) أقوى من السِّنة ، وإذا كان ذلك كذلك فإن: نفي استيلاء السنة والنّوم على الله تعالى تحقيق لكمال (الحياة) ودوام التدبير وإثبات لكمال (العلم) ، والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال[٣].

والخلاصة: أنَّ هذه الجملة مُؤكِّدة لما قبلها ، مُقرِّرة لمعنى الحياة والقيومية

---

(١) المرجع السابق ، ص٨٢. وانظر: السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، ٣/ ١١٢.
(٢) المرجع نفسه ، ص٨٣.
(٣) صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، ص٨٦.

على أتمّ وجه ، إذ من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة ، ضعيف القيام بشؤون نفسه وبشؤون غيره[١] .

٤ ـ ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ :

لما كان الله سبحانه وتعالى دائم القيام في ملكه ، وليس لأحد معه تعالى شركة ولا لأحد عليه سلطان، قرّر عزَّ وجل قيوميته هذه بقوله (له مافي السماوات وما في الأرض) ، أي: جميع من فيهما وما فيهما ملكه ، يتصرّف وحده بحكمته وقدرته وعنايته[٢] ، وأن جميع عبيده وملكه تحت قهره وسلطانه[٣] .

٥ ـ ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ :

أي : ليس لمخلوق سواءٌ كان مَلكاً مُقَرَّباً أو نبيّاً مُرسَلاً شفاعة ولا ضراعة عند الله عزَّ وجل إلا برضاه وبعد إذنه ، فإن (الشفاعة) كلها لله وحده وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عزَّ وجل ، فلا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذن اللهِ له في الشفاعة[٤] .

إن الله تعالى لا يشفع عنده أحد بحق وإدلال؛ لأن المخلوقات كلها ملكه ، ولكن يشفع عنده من أراد هو أن يُظهر كرامته عنده ، فيأذن له بأن يشفع فيمن أراد[٥] .

٦ ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ :

أي : إنَّ الله عزَّ وجل عالم بكل ما في السماوات وما في الأرض من شؤون

---

(١) العود ، المرجع السابق ، ص٨٦ .
(٢) المرجع نفسه ، ص٨٨ .
(٣) المرجع نفسه ، ص٨٨ .
(٤) المرجع نفسه ، ص٩١ .
(٥) محمد الطاهر عاشور ، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، ٣/ ٢١ .

خلقه؛ ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ومن أمر الدنيا والآخرة ، والمقصود من ذلك : عموم العلم بسائر الكائنات في الأرض وفي السماوات[١] .

وإنَّ الله عزَّ وجل عالمٌ بجميع المخلوقات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه حتى دبيب النملة السّوداء في الليلة الظّلماء على الصخرة الصّماء تحت الأرض الغبراء ، وحركة الذرة في جو السماء والطير في الهواء والسمك في الماء[٢] ، فلا تخفى عليه غائبة في الأرض ولا في السماء ولا ما بينهما ، فهو عالم بخفايا ملكه وأسراره ، ومخلوقاته سبحانه وتعالى .

٧ ـ ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ :

أي : لا يُدركون من العلم أو المعرفة إلا بقدر ما عرّفهم به أو منه رب العالمين ، الذي علّم الإنسان ما لم يعلم[٣] ، فآتاهم الله من علمه ما شاء وكما شاء ، لا مُعقِّبَ لحكمه وهو سريع الحساب[٤] .

لا يطّلع أحد من علم الله على شيء إلا بمشيئة الله وتعليمه ، فما عَرفه الإنسان من عالم الغيب وما عرفه الإنسان من عالم الشهادة وقوانين هذا الكون وكيفية تسخيره كل ذلك بمشيئة الله وتعليمه ، فهو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم ، وهو الذي علّم كل شيء ما عَلِم[٥] .

---

(١) صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، ص٩٤ .
(٢) أبو الطيب محمد صديق البخاري القِنَّوجي ، فتح البيان في مقاصد القرآن ، صديق حسن خان القنوجي . تقديم ومراجعة : عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر ، صيدا ، بيروت ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م ، ١/ ٤٢٣ .
(٣) صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، ص٩٦ .
(٤) الشافعي ، الرسالة ، تحقيق : أحمد شاكر ، مكتبه الحلبي ، مصر ، ط١ ، ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م ، ص٤٨٥ .
(٥) سعيد حوى ، الأساس في التفسير ، دار السلام ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م ، ١/ ٥٩٦ .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على سعة علم الله عزَّ وجل ، وأنه محيط بكل شيء قَلَّ أو كثر صغر أو عظم ، كما جاء في سورة يونس : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس : ٦١] .

إنَّ علم الله تعالى محيط بتفاصيل الأمور؛ متقدمها ومتأخرها ، بالظواهر والبواطن ، بالغيب والشهادة ، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ، ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علّمهم الله تعالى[١] .

٨ـ ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ :

إنَّ الكرسي في الآية هو كناية عن عظم العلم وشموله واتساعه وتفسيره بعظم السلطات يتناسب مع قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ وتفسيره بمعنى شمول العلم يتناسب مع قوله سبحانه قبل ذلك (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ ، ولذلك يصح أن تقول إن قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كناية عن عظم قدرته ونفوذ إرادته وواسع علمه وكمال إحاطته ، وقد فسر ذلك عبد الله بن عباس بأن (كرسيه) علمه ، هو كناية عن سعة الملك وسعة العلم[٢] .

وهذه الصورة تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقًا وثباتًا ، فالكرسيُّ يُستخدم عادة في معنى الملك ، فإذا وسع كرسيُّه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه ، وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية ، ولكن الصورة التي ترتسم في الحس من التعبير المحسوس أثبت وأمكن[٣] .

تأتي ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لتقرير ما تضمنته (الجمل) كلها من عظمة وكبرياء وعلم وقدرة في حق (الله) عزَّ شأنه وجل في علاه ، ولبيان عظمة

---

(١) السعدي ، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ١/ ١١٢ .
(٢) محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٢/ ٩٤٠ـ ٩٤١ .
(٣) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٩٠ .

خلقه في مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه ، أو إظهار سعة ملكه[١] .

٩ ـ ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ ﴾ :

أي : إنَّ الذي خلق ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات كثيرة ، لا يشق عليه عزَّ وجل حفظها ولا يعجز عن رعاية ما أوجده فيهما ولا يُثقله تعالى تسيير شؤونهما حسبما قضاه وقدّره فيهما[٢] ، فسبحان من تقوم السماء بأمره وتدور الأرض بوحيه ، رفع الجبال وأجرى الأنهار وحرّك الهواء وشقّ الحبَّ وأخرج الثمار ، والوجود قبضته وكل ما فيه إنما إرادته ، لا تعصيه سماء ولا تخرج عن طاعته أرض ولا سحاب[٣] .

١٠ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ :

أي : الله تعالى فوق خلقه ، فلا يعلو إلى مقامه الرفيع أحد ، وهو أيضًا الكبير ذو الهيبة والجلال المتعالي بعظمته جل جلاله على كل عظيم .

ـ (العلي) : الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص ، أو المُتنزِّه عن صفات المخلوقين[٤] .

ـ (العلي) : يُفسَّر بأنه أعلى من غيره قدرًا ، فهو أحق بصفات الكمال ، ويفسر بأنه العالي عليهم بالقهر والغلبة فيعود إلى أنه القادر عليهم ، وكان النبي ﷺ يستفتح دعاءَه : سبحان ربّي العليّ الوهّاب ، فكان النبي ﷺ إذا سجد ـ أي في صلاته ـ قال : سبحان ربي الأعلى (ثلاثاً) .

---

(١) التحرير والتنوير ، ٥/ ١١ .
(٢) صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، ص١٠١ .
(٣) العود ، المرجع نفسه ، ص١٠٢ .
(٤) عيسى السعدي ، دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه ، كليّة التربية بالطائف ، قسم الدراسات الإسلاميّة ، السعودية ص١٠٢ .

ـ (العظيم): الذي قد كمل في عظمته[١] ، فهو عظيم في ذاته وصفاته ، فذاته العليّة جَلَّت عن المشابهة ، وهو الخالق القاهر القادر ، وهو وحده الإله المعبود بحق ، وهو الذي يُسبِّح كل شيء في الوجود بحمده ، فهو العظيم وحده ، والمعبود وحده ، وإذا كانت غواشي الحياة قد أضلَّت الأكثرين فلم يدروا عظمته في الفانية فستنجلي لهم عظمة ذي الجلال في الباقية[٢] .

هذان هما الوصفان الشاملان ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ لكل الأوصاف السابقة ، فالله سبحانه وتعالى هو العلي العظيم .

إذن هذه آية الكرسي ، أعظم آية في كتاب الله ، كما ورد في بعض الآثار المثبتة في الصحاح ، وإنها لَتدلُّ على وحدانية الله بكل شعبها ، فقد دلّت على :

ـ وحدانية الألوهية بقول الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ .

ـ وحدانية الخلق والتكوين ، فلا خالق مع الله تعالى ، ولا إرادة تمنع إرادته وقد دلّ على ذلك بأكثر ما في الآية الكريمة كقوله سبحانه : ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

ـ وحدانية الذات والصفات ، بمعنى أن الله لا يشبهه شيء ، أو أحد من خلقه ، قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ تعالى الله رب العالمين علوًا كبيرًا تولانا الله سبحانه بعنايته وتوفيقه وهدايته[٣] .

سابعًا: إثبات صفات الكمال لله تعالى:

ورد في القرآن الكريم وصف الله بصفات الكمال ، وأنه المنفرد بها وحده دون سواه ، قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ

(١) صالح علي العود ، السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي ، ص١٠٣ .
(٢) محمد أبو زهرة ، ٢/ ٩٤٢ .
(٣) محمد أبو زهرة ، ٢/ ٩٤٢ .

وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

وصف الله سبحانه وتعالى ـ في هذه السورة ـ نفسه بأنه أحد صمد ، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق(١).

وجاء معنى الصمد: أنه المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد(٢) ، ويدل هذا المعنى للصمد على الإثبات والتنزيه ، فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يُصمَد إليه ، أي: يُرجع إليه في كل أمر؛ وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال فهو القادر على كل شيء ، والفعّال لما يريد ، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء ، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها فالمرجع والمَردُّ إليه سبحانه(٣).

وأمّا التنزيه: فبوصفه تعالى بأنه غنيّ عن كل شيء ، فلا افتقار فيه بوجه من الوجوه ، لا في وجوده فإنه الأوّل ، الذي ليس مثله شيء ، وهو الذي لم يلد ولم يولد ، ولا في بقائه فإنه الذي يُطعِم ولا يُطعَم ولا في أفعاله فلا شريك له ولا ظهير(٤).

ويدل وصفه سبحانه وتعالى بأنه أحد صمد على اتصافه بالكمال المطلق ، فـ (أحد صمد) يدلّان على معنى آخر وهو نفي الولادة والتولّد عن الله سبحانه ، فإن الصمد جاء في بعض الأقوال بأنه الذي لا جوف له ، ولا أحشاء فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(١) أبو الحسن خوجلي إبراهيم عمر ، إثبات علو الله على خلقه ، ص٢٨. بتصرف.
(٢) تفسير الطبري ، تقريب وتهذيب ، ٢٠/ ٢٤٥.
(٣) أبو الحسن خوجلي إبراهيم عمر ، إثبات علو الله على خلقه ، ص٢٨ـ٢٩. بتصرف.
(٤) المرجع السابق ، ص٢٨ـ٢٩. بتصرف.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

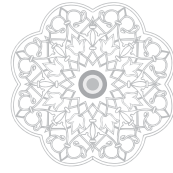
فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة ، والتولد إنما يكون من شيئين: قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]. وفي هذا نفي عن المخلوق مكافأته أو مماثلته للخالق ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] أي يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلاً ونظيرًا ، ومثال هذا قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ، أي لا شيء يساميه ، لا ندّ ، ولا عدل ، ولا نظير له يساويه ، فأنكر التشبيه والتمثيل ، وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته ، كما دلّت على ذلك سورة الإخلاص[1].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

* * *

(١) أبو الحسن خوجلي إبراهيم عمر ، إثبات علو الله على خلقه ، ص٢٩ . بتصرف .



خاتمة

١ ـ ولد عيسى عليه السلام بأرض الجليل من مناطق فلسطين أو (جليل الأمم) ، كما سمّاها الإسرائيليون فيما بعد؛ لأنها كانت إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية والغربية ـ في مدينة بيت لحم ـ والتي تبعد قرابة ١٠ كم جنوبي مدينة القدس .

٢ ـ مرّت حياة بني إسرائيل في فلسطين بثلاثة عهود؛ عهد القضاة ، وعهد الملوك ، وعهد الانقسام .

٣ ـ تعرَّضَ بنو إسرائيل لغزو بختنصر (حاكم بابل الكلداني) ، واحتل منطقة الشام وفلسطين ، وطرد الفراعنة وزحف على دولة يهوذا التي تمرّدت عليه فدمَّرها ، ودمَّر معبد أورشليم ، وساق شعبها مِسْبِيّاً إلى بابل ، وهو ما يُسمَّى بالسَّبْي البابلي .

٤ ـ سقطت دولة بابل في يد الفرس في عهد ملكهم قورش سنة (٥٣٨ ق . م) الذي سمح لليهود بالعودة إلى بيت المقدس وبناء هيكلهم ، وعيَّن عليها حاكماً منهم من قِبَله .

٥ ـ زحف الإسكندر المقدوني اليوناني إلى بلاد الشام وفلسطين ، واستولى عليها وأزال حكم الفرس ، ودخلت منطقة اليهود تحت حكم اليونان من نهاية القرن الرابع (ق . م) إلى منتصف القرن الأول ق . م .

٦ ـ في منتصف القرن الأول (ق . م) ، زحف القائد الروماني بومبي إلى بلاد

الشام وفلسطين سنة (٦٤ق.م) ، وأزال حكم اليونانيين عنها ، ودخل اليهود تحت حكم الرومان وسيطرتهم ، وفي زمانهم وُلد المسيح عليه السلام.

٧ ـ خضعت فلسطين للسياسة الرومانية وانتهجت في أول الأمر نظام الحماية ، وأوكلت ظاهر السلطة إلى ملك محلي من اليهود لضمان ولائه.

٨ ـ في عصر أغسطس إمبراطور روما (ت: ١٤م) أحاطت الإمبراطورية الرومانية في تلك الفترة بالبحر المتوسط كله ، وببلاد أوروبا الواقعة غرب نهر الراين إلى البحر الأسود ، وحكمت الأناضول (تركيا) وبلاد الرافدين والشام ومصر والشمال الأفريقي كله ، أي أن المجتمع النصراني ولد في مكان التقى فيه عالمان: الشرق والغرب ، والساميون والرومان ، والإغريق ، واليهود وغير اليهود.

٩ ـ تولى الحكم في منطقة فلسطين رجل متهوِّد هو (هيرودوس الأكبر) فحكم من (٣٧ ـ ٤٠ ق.م) ثم ما لبثت رومة من سنة ٦م أن أخضعت البلاد كلها للحكم المباشر ، فضَمَّت مقاطعتي اليهودية من الجنوب والسامرة في الوسط ضمن ولاية واحدة.

١٠ ـ كانت الحالة السياسية في عصر المسيح من أسوأ ما يكون ، وأبلغ منها في السوء الحالة الاجتماعية ، فبسبب السلطة المطلقة التي كانت بيد الحكام ضاع النظام مع القانون ، فحدث تفاوت كبير بين الحكّام والمحكومين ، فكانت الثروة والترف والطغيان من ناحية ، والفقر والهوان من ناحية أخرى ، إضافة إلى الضرائب التي كانت تُجبى لحساب روما ، وانحصر هدف رجال الدين في جمع الأموال ، وخلا المجتمع من الترابط والتآلف ، وانتشرت العصبية بين الناس وظهرت الفوارق الطبقيَّة.

١١ـ إنَّ التعاليم الإلهية التي جاء بها عيسى عليه السلام كانت مناسبة لهذه البيئة ، وجاءت علاجاً لمشكلاتها ، فبينما كانت تسيطر الأجواء المادية في ذلك

المجتمع جاءت تعاليم عيسى عليه السلام روحية سامية لتعالج ذلك الاستغراق المادي .

١٢ ـ إن الأفكار والمعتقدات السائدة في تلك البيئة وما حولها كان لها أثرٌ في تلوين المسيحية ـ بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ـ بألوان مختلفة ، وهذا العصر أو تلك البيئة كانت تتنازعها عوامل ثلاثة هي : (الحضارة الإغريقية) التي شكلت عقل الإنسان ، و(الدولة الرومانية) التي حددت له مؤسساته التي يعيش بينها ، ثم (الدين اليهودي) الذي جاءت المسيحية أساساً لإصلاحه بعد أن صار عامل تخريب في العقل وفي أُطُر الحياة معاً .

١٣ ـ خلَّف الرومان من بعدهم إلى جانب ما خلفه الإغريق فكرة (تأليه الإنسان) ، وإلى ما خلفه الإغريق من المؤسسات ، والهياكل والتنظيمات التي صارت تنظم الحياة الدينية الرومانية والتي انتقلت إلى الحياة الدينية المسيحية مع الانحراف الكبير والخطير عن الديانة النصرانية التي بعث الله بها عيسى عليه السلام .

١٤ ـ إن من أهم فرق اليهود في هذه الفترة ـ فترة مبعث المسيح عليه السلام ـ لدى الباحثين هي : السامريون ، الصدوقيون ، والفريسيون ، والقمرانيون ، والآسانيون ، وكلها باستثناء السامريين فرق ظهرت في الفترة الوسيطة بعد الأسر البابلي .

١٥ ـ تعرَّضَ الهيكل الذي هو مقرُّ العبادة عند اليهود للهدم على يد البابليين ، ثم أمر (قورش) الفارسي بإعادة بنائه ، وجاء الملك (هيرودوس) وجدّد بناءه ، وكان ذلك في عصر الميلاد .

١٦ ـ إن أصدق كتاب موجود لدينا اليوم هو كتاب الله عز وجل ، ولذلك اعتمدته في حديثي عن المسيح عيسى عليه السلام ، فهو محفوظ بحفظ الله له ، وهو ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ ، وهو مصدِّق لما قبله من الكتب السماوية ومهيمن عليها .

١٧ ـ ومن الناحية التاريخية نجد أن التاريخ لا يسعفنا بالمعلومات الأساسية الموثوق بها عن دعوة المسيح عليه السلام ، وذلك لأسباب عدّة منها : بُعد العهد واضطراب الروايات التاريخية ، بل من المؤكد أن لتدخّل العنصر البشري دوراً في هذا حتى اختلط الحابل بالنابل ، وتعسّر تمييز الطيِّب من الخبيث والحق من الباطل .

١٨ ـ إن الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام لا وجود له اليوم حتى في الأوساط النصرانية ، فكيف نعدل عن وحي سماوي ـ وهو القرآن الكريم ـ إلى مؤلفات بشرية وهي الموسومة اليوم بالأناجيل؟

١٩ ـ إن القرآن الكريم مع السنة النبوية الصحيحة في الحقيقة وحدهما المصدران ـ علميّاً وتاريخيّاً ـ اللذان صورا لنا بدقة عالية تاريخ الرسالات الإلهية كلها ، من أول الأنبياء آدم عليه السلام حتى آخرهم وخيرهم محمد ﷺ .

٢٠ ـ إن القرآن الكريم له مكانته العلمية حتى في الأوساط النصرانية فنجدهم يقرُّون ـ مع كفرهم به ـ بجودة مصدريته ، ودقة أخباره وبتواتره المنقطع النظير ، وخلوِّه مما اتَّسمت به كتبهم من التناقض والأخطاء والتغيير والتبديل والإضافة والحذف .

٢١ ـ لا يوجد كتاب على وجه الأرض منح السيد المسيح عليه السلام وأمه البتول وعائلته الكريمة ، تكريماً وتبجيلاً أعظم من القرآن الكريم .

٢٢ ـ إن تكريم القرآن الكريم للمسيح وأمه وعائلته يفوق بلا ريب تكريم كل من التوراة والإنجيل الموجودين حالياً ، وكان القرآن الكريم بالإضافة إلى هذا التكريم هو المصحح للأخطاء والاتهامات والافتراءات الباطلة التي كانت توجّه إلى السيد المسيح وأمه الطاهرة على ألسنة اليهود والمسيحيين أنفسهم .

٢٣ ـ في القرآن الكريم توجد سورة آل عمران ، وهي اسم عائلة المسيح عليه السلام ، ولفظة (آل) كلمة تُخاطَب بها العائلات الكريمة الطيبة ، وهذه السورة

هي ثاني أطول سورة في القرآن الكريم ، وهناك سورة باسم (مريم) ، وهو اسم السيدة مريم العذراء والدة المسيح عليهما السلام ، على حين لا يوجد في القرآن الكريم اسم لعائلة نبي الإسلام محمد ﷺ ، إذ لا توجد سورة تحمل اسم (بني هاشم) أو (بني عبد المطلب) ، ولا توجد سورة تحمل اسم (آمنة بنت وهب) والدة الرسول ﷺ .

٢٤ ـ إن الوثيقة التاريخية الوحيدة الصادقة التي لا يعتريها اللُّبس ولا الغموض ولا التحريف ، وتتمتع بمصداقية مطلقة (١٠٠٪) ما جاء من حديث صحيح وقصة صادقة عن عيسى عليه السلام وأمه وعائلته وعقيدته ودعوته وأنصاره وقومه ، وحقيقته في القرآن الكريم .

٢٥ ـ إن حديث القرآن الكريم عن سيرة عيسى عليه السلام دليل على الإعجاز التاريخي ويشهد أنه لا يمكن أن يكون القرآن الكريم صناعة بشرية ، بل هو كلام الله الخالق ، كما يشهد لرسول الله ﷺ بأنه لا يمكن أن يكون قد استقى هذه الحقائق من كتب العهدين القديم والجديد ، وذلك للاختلاف الكبير بين ما جاء عن حقيقة هذا العبد الصالح في تلك المصادر ، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن هناك من الوقائع القرآنية ما لم يرد له ذكر في أي من كتب العهدين القديم والجديد ، وذلك من مثل معجزة كلام المسيح عليه السلام وهو في المهد ونطقه بالعبودية الكاملة لله تعالى ، وتنزيهه للخالق العظيم عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله وغير ذلك .

٢٦ ـ ورد اسم عيسى عليه السلام خمساً وعشرين مرة في القرآن ، وورد اسم أمه مريم عليها السلام أربعاً وثلاثين مرة في القرآن ، ثلاثاً وعشرين مرة مقرونة باسم عيسى ابن مريم ، وإحدى عشر مرة مجردة عن عيسى .

٢٧ ـ تحدَّث القرآن الكريم عن أسرة عيسى عليه السلام من ناحية أمه عن جده من أمه ، وجدَّته من أمه ، وبيَّن عظمة هذه الأسرة في الصلاح والتقوى والعبادة .

٢٨ ـ ذكر الله عز وجل نشأة عيسى عليه السلام ببيان نشأة أمه بياناً لبطلان ما يعتقده النصارى فيه من أنه ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ ، فعيسى له أم ، وأمُّ عيسى لها أم وأب ، ولهما أمهات وآباء إلى آدم .

٢٩ ـ ذكر الله الأحوال التي اكتنفت حمل امرأة عِمران بالبتول مريم ، وولادتها وتربيتها ، ويلاحظ القارى أن العبادة والنسك أظلاها وهي جنين في بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء ، واصطفاها الله لأمرٍ جليل خطير ، فأمها وهي حامل بها نذرت ما في بطنها لما تحرك الحمل في أحشائها أن يكون محرَّراً خالصاً لوجه الله تعالى ، منقطعاً لعبادته وخدمة بيت المقدس ، والمُحرَّر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ، ولا يشغله شاغل عن عبادة الله .

٣٠ ـ كان دعاء امرأة عمران دليلاً على إخلاصها وقوة إيمانها وحسن عبادتها لربها والظن فيه ، ولذلك استمرت في نذرها ، وسألت الله أن يتقبله منها ، ودعت الله عز وجل أن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم .

٣١ ـ تقبل الله عز وجل مريم عليها السلام بقبولٍ حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وجعل لها من يقوم بشأنها ويُعنى بأمرها ويهتمُّ بصلاحِها ، وقيَّض لها نبياً من الأنبياء هو زكريا عليه السلام .

٣٢ ـ عاشت مريم طفولتها وشبابها عند زكريا عليه السلام ، واقتبست منه العلم والمعرفة واقتدت به في العبادة والذكر ، واستفادت منه الخُلق والسلوك فنشأت نشأة إسلامية صالحة ، وكانت عابدة ذاكرة زاهدة مُقبِلة على الله متصلة به .

٣٣ ـ كانت مريم عليها السلام سبباً في دعاء زكريا لربه بالذرية الصالحة لما رأى أفضال الله وكرامته على مريم ، وذكَّرَته أن رزقها من عند الله .

٣٤ ـ استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام وكتب له الولد برحمته ، وأجرى له معجزة خارقة ، فامرأته عاقر لا يمكن أن تنجب في المنطق البشري القائم

على الأسباب والعادات ، ولكنها حملت ، ووضعت بأمر الله وإرادته وكرمه وجوده .

٣٥ ـ كان زكريا ويحيى عليهما السلام من آخر أنبياء بني إسرائيل ، ولم يأتِ نبيٌّ بعدهما لبني إسرائيل إلا عيسى ابن مريم عليه السلام .

٣٦ ـ لما ذكر الله تعالى قصة ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً ، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة ، لعقم المرأة وهرم الشيخ ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات ، فذكر ولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، وهي شيء أعجب من الأول بكثير .

٣٧ ـ إن الله اصطفى مريم على نساء العالمين ، وانتقاها من بين النساء ونشّأها نشأة حسنة ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وأسبغ عليها نعمه وتوفيقه ورعايته ، وألهم أمها أن تنذرها له وهي في بطنها ليَقبَلها خالصةً محررةً له ، وهيأ لها الحياة والعيش تحت كنف ورعاية نبي كريم هو زكريا عليه السلام وقدَّم لها الرزق المنوَّع الشامل وهي في المحراب تكريماً لها ، ولم تتوفَّر هذه الأمور لأي امرأة غيرها ، مهما بلغت من الصلاح والتقوى ، وهذا هو الاصطفاء الأول لها القائم على الانتقاء والاجتباء ، وبما أن الله اصطفاها وانتقاها ، فقد صفّاها وخلَّصها من الشوائب ، وطهَّرَها من الأدناس والأرجاس ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ ، واصطفاها الله على نساء العالمين ، وفضلها عليهنَّ جميعاً في إنجابها الولد بدون أب ، حيث خصّها وحدها بهذه الآية الباهرة والمعجزة الخارقة .

٣٨ ـ وُصفت السيدة مريم عليها السلام بالصدِّيقة لكمال إخلاصها وانقيادها لله عز وجل ظاهراً وباطناً ، والتعبُّد بطاعته سبحانه في حركة وسكون مع إخلاصٍ عظيم في القصد لله عز وجل . وُصفت بالصديقة ، لكثرة تصديقها بآيات ربها ، وتصديقها ولدَها فيما أخبر به ، وتصديقها بوعد ربها وهو ميثاق الإيمان .

٣٩ ـ كانت حياة مريم عليها السلام طاعة وعبادة وخشوعاً وركوعاً وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظيم الخطير وهو مولد عيسى عليه السلام من غير أب.

٤٠ ـ إن الآيات التي تحدَّثَت عن آل عمران والسيدة مريم وزكريا عليهم السلام في سورة آل عمران من أنباء الغيب ، ودلالة واضحة على نبوة النبيﷺ ، وأن تلك الأخبار من وحي الله إليه ، لأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون أن محمداًﷺ أميّ لا يقرأ ولا يكتب ، وهذا معناه أنه لم يعلم بهذه الأخبار من الكتب ولم يصاحب أحبار أهل الكتاب ورهبانهم فكيف علم بهذه الأخبار الخفية التي لا يعلمها إلا عدد قليل من الأحبار والرهبان ، ولذلك لا شك بأن الله هو الذي أوحى إليه بها ، فهو رسول الله.

٤١ ـ إن ما ورد من الأناجيل في شأن عيسى عليه السلام وفي شأن مريم متضارب متناقض ، بعيد عن الحقيقة منحرف عن الصواب ، حتى شرّاح الأناجيل قد أصابتهم الحَيرة ووقعوا في أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل.

٤٢ ـ بشّرت الملائكة مريم بعيسى عليهما السلام وذكرت جملة من أوصافه ، تحقَّقَت فيما بعد ، ومن أهم تلك الأوصاف كونه وجيهاً في الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ، ومن الصالحين.

٤٣ ـ ذكر القرآن الكريم الحوار بين جبريل ومريم عليهما السلام بدقةٍ متناهية لا توجد إلا في كتاب الله عز وجل.

٤٤ ـ معنى كون عيسى (كلمة الله) في قوله تعالى ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ فهي كلمة الله التي يخلق بها المخلوقات وهي (كن) وتفسير هذه العبارة أنه سبحانه خلق عيسى بالأمر الإلهي الكوني المباشر ، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن الكريم إنه (كن فيكون) ، فقد ألقى هذه الكلمة إلى

مريم ، فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب ـ كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم ـ والكلمة التي تخلق كل شيء من العدم ، لا عجب في أن تخلق عيسى عليه السلام في بطن مريم من النفخة التي عُبِّر عنها ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ . إن عيسى عليه السلام بالكلمة كان ، وليس هو عين الكلمة ، فالكلمة التي ألقاها الله عز وجل إلى مريم حين قال له : (كن) فكان عيسى بـ(كن) وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكُن كان ، فالكُنْ من الله قوله : ليس مخلوقاً ، وعيسى بالكن كان ولذلك فهو مخلوق من الله تعالى .

٤٥ ـ في قوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ليست للتبعيض ، لأن روح الله لا تتبعّض ولا تتجزّأ ولا تنقسم إلى أبعاض وجزئيات وأقسام ، إن (من) هنا لابتداء الغاية أي من عند الله سبحانه ، وإضافة الروح إلى الله هي إضافة أعيان منفصلة عن الله فهي إضافة مخلوق إلى خالقه ، ومصنوع إلى صانعه وهي تقتضي تشريفاً وتخصيصاً يتميز بها المضاف عن غيره ، يعني أنها روح خيرية مطيعة لله تعالى كمثل ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ ، فالروح مخلوق من عند الله تعالى .

٤٦ ـ جاءت تفاصيل مولد عيسى عليه السلام في سورة مريم ، بدقة متناهية ، وأوصافٍ محكمة للمكان والحالة النفسية التي مرت بها مريم عليها السلام ، ابتداء من أخذها للمكان البعيد ومجيء المخاض وآلامها عند الوضع وتمنِّيها الموت ومناداة ابنها لها من تحتها ، وما صاحب ذلك من نفحات وبركات .

٤٧ ـ جعل الله صوم مريم وصمتها عن الكلام آية لها ودليلاً على براءتها وطهارتها فبينما صامت هي عن الكلام وهي القادرة عليه فقد أنطق الله وليدها عيسى عليه السلام الذي لم تمض على ولادته إلا فترة يسيرة ، وهو في المهد ، فكان كلامه أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها ، كما أن السكوت عن السفهاء وعدم الرد عليهم من أخلاق الصِّدِّيقة العفيفة الطاهرة المُطهَّرة .

٤٨ ـ عندما نطق عيسى عليه السلام في المهد أخرس كل من اتَّهم والدته وبيَّن معجزته الخالدة في كون الله خلقه من دون أب ، وبيَّن رسالته في الحياة وأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً وأوصاه بالصلاة والزكاة ، وجعلَه بَرًّا بوالدته وقدم نفسه لقوم أمه ، وذكر عبوديته لله الواحد ، وما سيُؤتيه الله من النُّبوّة والكتاب ، وما أنعمَ عليه من السمات والمزايا الإيجابية القائمة كبرِّه بأمه وتواضعه وعدم تجبره ، أو تكبره ، وإضفاء السلام والأمان عليه في حياته ، وتوقَّفَ عرض القرآن لقصة ميلاد عيسى عليه السلام عند هذا الحد .

٤٩ ـ بعدما ذكر الله عز وجل سيرة مريم وابنها عليهما السلام بشفافية عالية ومصداقية لا يوجد مثيل لها علّق على القصة بتبيانه ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

٥٠ ـ إن القرآن الكريم ذكر قصة عبد الله ورسوله المسيح عيسى ابن مريم بقدر هائل من الدقة المتناهية بعد أن كانت كل من سيرته الشريفة ودعوته الكريمة قد شابها الكثير من التحريف والتشويه ، ويُعتبر ذلك بحق وجهاً من أوجه الإعجاز التاريخي في هذا الكتاب العزيز ، يشهد له بأنه كلام الله الخالق ، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقّاه بالنبوة والرسالة .

٥١ ـ تأثر ملك الحبشة النجاشي بعدما قرأ عليه جعفر بن أبي طالب سورة مريم وأسلم في ختام المطاف .

٥٢ ـ ليس في القرآن الكريم سورة باسم امرأة سوى سورة مريم عليها السلام لا آمنة أم رسول الله محمد ولا خديجة زوجه ولا فاطمة ابنته .

٥٣ ـ شبَّ عيسى عليه السلام وعاش صباه وشبابه طاهراً تقيّاً يحفظه الله ويحميه ويرعاه ويُبعد عنه الشيطان ووساوسه حتى أنزل عليه الوحي وجعله نبياً رسولاً وبعثه إلى بني إسرائيل وأنزل عليه كتابه الإنجيل ، وكانت بعثة عيسى عليه

السلام وإنزال الإنجيل تحقيقاً للبُشرى التي قدَّمها الله إلى أمه قبل حملها به ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩]. وهي تحقيق لما أخبر هو عن نفسه عندما كلم بني إسرائيل وهو في المهد قائلاً: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾.

٥٤ ـ خاطب عيسى عليه السلام بني إسرائيل وبيَّن لهم أنه رسول الله إليهم، ودعاهم إلى عبادة الله وتوحيده والالتزام بشرعه.

٥٥ ـ بيَّنت الآيات القرآنية الكريمة بَشَريّة عيسى عليه السلام وأن مثل خلقه كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، ونهى عن الغلو فيه ووضَّحت الآيات القرآنية حقيقة عيسى عليه السلام وبأنه ليس إلهاً ولا ابن إله وإنما عبد الله ورسوله، وإن الله منزّه عن الولد والشريك والصاحبة.

٥٦ ـ تحدّثت الآيات الكريمة عن الاستجواب العظيم على رؤوس الأشهاد من الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة.

٥٧ ـ بيّنت الآيات القرآنية بأن عيسى عليه السلام عبد أنعم الله عليه وداعية إلى التوحيد وعبادة الله عز وجل.

٥٨ ـ عرض القرآن الكريم موكب الإيمان الجليل يقوده ذلك الرهط من الرسل: من نوحٍ عليه السلام إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين، وكان من بينهم عيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، حتى يُعلَم أنه نبيٌّ كباقي الأنبياء والمرسلين وليس هو الله، أو ثالث ثلاثة، ولا ابن الله.

٥٩ ـ شملت رسالة المسيح كذلك الإيمان بالوحي، وأن التعاليم التي يُبلِّغها ليست من عنده وإنما يُوحي بها إليه ربُّه، وذكر الله المسيح في القرآن الكريم من جملة من يوحى إليهم من النبيين.

٦٠ ـ ذكرت الآيات الكريمة أن عيسى، ونوحًا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم من أولي العزم.

٦١ ـ بيّنت الآيات الكريمة أن أصول الشرائع ووحدة الدين عند الله حقيقة دلت عليها النصوص كالأمر بالصلاة والزكاة والصيام والقصاص والجهاد. . . إلخ.

٦٢ ـ اتفقت جميع الرسالات السماوية على أصول الإيمان على امتداد دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان قبل أن ينال منها التحريف والتبديل؛ لأنها تتحدث عن مقررات ثابتة لا يقوم الإيمان إلا بها فهي حقائق ثابتة لا تتطوَّر ولا تتغيَّر ، ولا يدخلها النسخ كما يدخل فروع الشرائع ، وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكد هذه الحقيقة.

٦٣ ـ كان همُّ عيسى عليه السلام أن يدعو الناس إلى طاعة الله ، وتقديم العبادة له دون سواه ، وتحقيق التوحيد تحقيقاً حقيقياً مبنياً على إيمانٍ عميق ، ومعرفة راسخة ، ومن أصول دعوته الإيمان بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب السماوية ، والأنبياء والمرسلين والإيمان بالقدر.

٦٤ ـ اتَّصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل ، وفي مقدمتها الصدق والأمانة والفطانة والبيان وغيرها ، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن أصول الدين وأخلاقه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل في كل الديانات السماوية والمقررة في كل الشرائع العادلة كالوصايا العشر المذكورة في سورة الأنعام.

٦٥ ـ إنَّ الإسلام هو دين الله الخالد الذي لا يقبل الله سواه ، وأن هذا الدين هو الدين الذي فرضه الله على البشرية ، منذ خلقهم ، جاء به آدم ، وإدريس ونوح وإبراهيم ، وآل إبراهيم ، وآل عمران ، وأنه تم برسالة خاتم النبيين ، وأن هذا الدين جاء به النبيون ، لأنه هو الدين الوحيد الذي يدعو إلى الوحدانية الخالصة التي لا يشوبها أدنى شرك ، وهو الدين الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام العامة التي لا تتغيَّر بتغيُّر الزمان أو المكان ، أو بتغيُّر أحوال الناس في

سلسلة حياتهم الإنسانية على وجه الأرض ، مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم ، ومهما تغيَّرت مهنهم وحرفهم وثقافتهم في الحياة الدنيا .

٦٦ ـ أرسل الله تعالى المسيح عيسى ابن مريم برسالة الإسلام ، فكان يدعو بني إسرائيل إلى اعتناق هذا الدين المؤسَّس على الاعتراف بالخالق ووحدانيته .

٦٧ ـ أخبر الله بأن عيسى عليه السلام مصدِّق لما بين يديه من التوراة في مواضع مختلفة من كتابه العزيز ، فدعوة عيسى مكمِّلة لشريعة موسى عليه السلام ، ومُوضِّحة لها وامتداد لها ومصحِّحة لما طرأ عليها من انحرافات وضلالات مع توالي الحقب والأزمان ، كما أنه عليه السلام قد أتى ببعض التخفيفات والتسهيلات لبني إسرائيل ، ولهذا كان المفهوم الطبيعي للنصرانية أن تحكم شريعة التوراة مع مراعاة التعديلات الواردة في الإنجيل .

٦٨ ـ وصف القرآن الكريم التوراة بصفات إيجابية ، حيث مدحها وأثنى عليها ، واعترف بفضلها ، وهذا أمر طبيعي؛ لأن القرآن من عند الله والتوراة أيضاً من عند الله أنزلها على عبده موسى عليه السلام ، ولذلك وُصفت بالهدى والرحمة والنور والضياء والفرقان وهذا الوصف للتوراة الربانية .

٦٩ ـ لقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن أحبار اليهود قد قاموا بتحريف التوراة ، وأنهم أضافوا إليها ، وأنقصوا منها الشيء الكثير ، وقد فضحهم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في مواضع عديدة

٧٠ ـ لا يعترف القرآن الكريم بالتوراة المحرّفة التي ألّفها وصاغها أحبار اليهود وحاخاماتهم على مدار التاريخ اليهودي الطويل ، وأظهروها للناس ، وسمَّوها (العهد القديم) بأسفارها الكثيرة ، والتي فيها من الأخطاء والأكاذيب والأباطيل الشيء الكثير ، والصواب والصحيح فيها قليل جدّاً لا يكاد يذكر .

٧١ ـ لم يكن حظّ الإنجيل خيراً من حظّ التوراة ، فبعدما رُفع عيسى عليه

السلام ، اختفت معه صحائف الكتاب الذي أُنزل عليه ، ولم يجد أحد أثراً لها إلى يومنا هذا .

٧٢ ـ إنَّ الفوضى الواسعة التي أعقبت غياب عيسى عليه السلام ، ترجع إلى سطوة السلطة الرومانية وإلى أثر اليهود بين طبقات الشعب ، فقد تعاون الفريقان على مطاردة من آمن بعيسى ومصادرة ما يُشير إلى تعاليمه ، وظلَّ هذا الاضطهاد أكثر من ثلاثة قرون اختلف المسيحيون خلالها اختلافاً كبيراً .

٧٣ ـ ظهر اختلاف في الكتب التي قيل فيها إن تلاميذ عيسى ألَّفوها متضمِّنة تعاليمه ، وقد سُمِّيت هذه الكتب كلها (أناجيل) ، وقد اختلفت فيما بينها اختلافاً واسعاً بلغ حدَّ التناقض ، والمرويّ أنها بلغت سبعين إنجيلاً وقيل أكثر .

٧٤ ـ إنَّ الأناجيل الحالية عبارة عن مصنفات تاريخية حول قضية حياة مريم وابنها عيسى وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الأرض حسب معتقداتهم ، ولم يُكتب شيء من هذه الأناجيل في حياة عيسى عليه السلام وإنما كُتبت بعد رَفْعه إلى السماء .

٧٥ ـ إنَّ وجود التحريف في الأناجيل الأربعة واضح بيّنٌ ظاهر بأنواعه الثلاثة؛ تحريف بالتبديل ، وتحريف بالزيادة ، وتحريف بالنقصان ، كما ورد الإخبار بتحريفها في آيات كثيرة في الذكر الحكيم .

٧٦ ـ تدخلتِ العوامل السياسية في القرن الرابع الميلادي في تشكيل المسيحية وبنائها بالصورة التي تُعرف بها اليوم ، فالإمبراطور قسطنطين حاول توحيد كلمة النصارى تحت سلطانه خشية على إمبراطوريته من الانقسام والفرقة ، فجمع القساوسة في مؤتمر نيقية ، وتآمر هو وبطريرك الإسكندرية واتفقا على القول بوجود ثلاثة آلهة ، وحاربت السلطات الحاكمة كل من كان يقول بغير تلك المقالة ، كما أن الإمبراطور قسطنطين كان وثنياً قبل أن يعتنق المسيحية ، فلا غرابةَ أن يُؤيِّد المقالة التي تنادي بوجود ثلاثة آلهة ، لأن ذلك يتوافق مع هواه وعقيدته السابقة الوثنية .

٧٧ ـ بشّر عيسى عليه السلام برسول الله ﷺ ، وذُكرت صفاته في التوراة والإنجيل ، وسطعت بشارته في كتب أهل الكتاب ، وأثبت ذلك علماء من أهل الكتاب من أشهرهم عبد الأحد داود في كتابه (محمد في الكتاب المقدس) .

٧٨ ـ شاء الله عز وجل أن يجعل عيسى عليه السلام آية ، ولذلك جعل معجزاته عديدة في حياته ، وصاحبته منذ خَلْقه إلى موته قبل قيام الساعة ، ومن أشهر معجزاته ، ميلاده من أم بلا أب بقدرة الله ، وتأييده بروح القدس ، وتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله ، والخلق من الطين ونفخ الروح بإذن الله ، وإخباره عن الغيوب ونزول المائدة من السماء بدعائه .

٧٩ ـ الحَواريُّون هم أنصار عيسى عليه السلام ، فقد استجابوا لدعوة عيسى عليه السلام وأصبحوا أنصار الله ، آمنوا بالله ، وبما أنزل ، واتَّبعوا رسوله .

٨٠ ـ تعرَّضَ عيسى عليه السلام لمكر اليهود وحاولوا قتله ، ولكن الله حماه ونجّاه ورفعه إليه .

٨١ ـ من معاني التوفّي في القرآن الكريم : الموت والنوم ، فأحياناً يرد بمعنى الموت وقبض الروح ، وأحياناً يراد به النوم .

٨٢ ـ توَفَّى الله عيسى له دلالتان : وفاة نوم ووفاة موت :

ـ **الأولى** : وفاة نوم عندما أراد اليهود صلبه وقتله ومكروا به فأنجاه الله منهم ، وذلك بأن تَوفّاه ورفعه إليه وقال له قبل تَوفِّيه : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وهو توفي نوم ، وذلك بأن ألقى الله النوم على عيسى عليه السلام ، ولما نام رفعه إليه : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ .

ـ **الثانية** : عندما سيُنزله الله قُبيل قيام الساعة ليستكمل باقي عمره الذي حدَّده الله له ، حيث سيتوفّاه الوفاة الحقيقية بقبض روحه ، وخروجها من جسده وموته كما يموت الناس .

٨٣ ـ تحدث القرآن الكريم عن محاولة اليهود قتل عيسى عليه السلام في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم :

ـإشارة سريعة إلى كف بني إسرائيل عنه لما جاءهم بالبينات وذلك في سورة المائدة ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

ـحديث مجمل في حماية عيسى عليه السلام منهم بأن ألقى عليه النوم ثم رفعه إليه وذلك في سورة آل عمران ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ .

ـوحديث أكثر تفصيلاً عن نفي قتل اليهود وصلبهم لعيسى عليه السلام لأن الله رفعه إليه ، وقيامهم بقتل وصلب شبيه له وذلك في آيات سورة النساء ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٧ ـ ١٥٨] .

٨٤ ـ إن الأناجيل الأربعة (متى ، ولوقا ، ومرقس ، ويوحنا) وهي المعتمدة عند النصارى ، اضطربت في حديثها عن أحداث تلك الليلة الأخيرة من حياة عيسى عليه السلام على الأرض اضطراباً كبيراً ، واختلفت اختلافاً بيناً ، وتناقضت تناقضاً واضحاً .

٨٥ ـ إن عقيدة الخلاص المسيحية التي هي من وضع بولس قائمة على أسس باطلة ، وهي أن آدم عليه السلام أخطأ وهذه الخطيئة انتقلت بالوراثة إلى كل أبنائه ، والطريق الوحيد للخلاص منها هو ما زعموه من أن الله نزل وتجسّد في صورة بشرية ليُصلب ويتغلَّب على الموت فيقوم ، وبذلك ينال الناس الخلاص .

٨٦ ـ إن تعرُّضَ المسيح للصّلب والإهانات التي تعرَّضَ لها قد استدلَّ النصارى عليها بما ورد في الأناجيل ، وقد بيّنا أنها محرّفة ومُبدَّلة ومتناقضة بالدليل والبرهان .

٨٧ ـ ليس عند الله خطيئة موروثة تحتاج إلى التكفير عنها بصلب نبيٍّ أو ابن إله ـ بل إن كل إنسان مسؤول عمّا اقترفه ، ومحاسَب عليه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ٦٤].

٨٨ ـ إنَّ الخلاص المسيحي تأثر بالعقائد الوثنية ، فالتجسُّد الإلهي من أجل الخلاص من المعتقدات الوثنية التي كانت منتشرة في البلاد اليونانية ثم الرومانية قبل ظهور المسيح بمئات السنين ، وكان لظهورها في هذه البلاد أكبر الأثر في تأثُّر دعاة المسيحية بها ، كما أن الصلب وتعذيب الإله من أجل الخلاص صورة وثنية أخرى كانت سائدة في المجتمعات الوثنية قبل المسيحية ، وقيامة المُخَلِّص من أجل الخلاص في صورة وثنية ثالثة ظهرت بين الوثنيين قبل المسيحية بفضل بولس وأتباعه ، ولم يفعلوا شيئاً سوى وضع اسم المسيح عيسى ابن مريم بدلاً من هؤلاء الآلهة المُخلِّصين الوثنيين.

٨٩ ـ لقد كان لدخول الوثنين في النصرانية أمثال الإمبراطور قسطنطين الأثر الأكبر على تلقيح النصرانية بالتعاليم الوثنية ، وتولدت عقيدة التثليث من قرارات المجامع الكنسية المتعددة ، وفي أزمنة مختلفة:

ـ مجمع نيقية سنة ٣٢٥م قرر ألوهية المسيح.

ـ ومجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١م قرر ألوهية روح القدس.

ـ ومجمع آفس الأول سنة ٤٣١م قرر أنّ الآلهة ثلاثة: أب وابن وروح القدس.

ثم اختلفوا بعد ذلك في طبيعة المسيح: هل هو: ذو طبيعة واحدة؟ أم ذو طبيعتين؟ ، هل هو: منبثق من الأب وحده ، أم من الأب والروح القدس معاً؟ وبهذا يتضح أن عقيدة التثليث التي يؤمن بها النصارى لم يأت بها المسيح عليه السلام، ولم يأمر بها أتباعه، ذلك لأن عيسى عليه السلام ـ كما بيَّن هذا الكتاب ـ ما دعا الناس إلا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأنه عليه السلام لم يَدَّعِ لنفسه منصباً أكثر من أنه عبد الله ورسوله ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [مريم: ٢٠].

٩٠ ـ استمرت المسيحية المؤمنة بنبوة عيسى عليه السلام وبَشَرِيَّتِه منذ العصور الأولى للمسيحية وتعرَّضت للاضطهاد من قبل السلطة الدينية القائلة ببُنُوّة المسيح مدعومة بالسلطة السياسية.

٩١ ـ كان من أشهر الدعاة إلى بشرية عيسى عليه السلام آريوس الذي وُلد في ليبيا وقد لاقت دعوته قبولاً من جموع غفيرة من شعب الإسكندرية، وجماعة من الشمامسة والقساوسة، وحتى في فترات السيطرة الأرثوذكسية كان للآريوسية تواجد واضح بمصر وسائر بلدان الإمبراطورية البيزنطية.

٩٢ ـ يوجد حالياً الكثير من النصارى الموحدين بدليل كثرة كنائسهم وتزايد أعدادهم في أوروبا وأمريكا وبعض دول آسيا، واعتنقت شخصيات متميزة في عطائها الفكري عقيدة التوحيد المسيحية فكان منهم الساسة والأدباء والأطباء، بل كان منهم عدد لا يستهان به من رجال الدين المسيحي، وقد اهتم رسولنا محمد ﷺ بتوجيه الدعوة إلى الآريوسيين، فقد ورد ذكرهم في كتابه إلى هرقل عظيم الروم لدعوته إلى الإسلام.

٩٣ ـ إن الله عز وجل رفع عيسى عليه السلام إليه، وإنه الآن حيٌّ في السماء حياة طيِّبة قد التقى به رسولنا ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج، التقى به أولاً في المسجد الأقصى عندما صلى رسول الله ﷺ بالأنبياء إماماً وكان عيسى مأموماً خلفه، ثم التقى به ثانياً لما عرج به إلى السماء، حيث أخبرنا أنه قابل عيسى عليه السلام في السماء الثانية.

٩٤ ـ هناك أدلة من القرآن الكريم والسنة المطهرة تدل على نزول عيسى عليه السلام قبل قيام الساعة ونزوله من علامات يوم القيامة الكبرى والتي منها خروج يأجوج ومأجوج، والخسوفات الثلاثة، والدخان وطلوع الشمس من مغربها، والنار التي تحشر الناس.

٩٥ ـ يحكم عيسى عليه السلام بالشريعة المحمدية ويكون من أتباع محمد ﷺ فإنه لا ينزل بشرع جديد، لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباقٍ إلى قيام

الساعة لا يُنسخ ، فيكون عيسى عليه السلام حاكماً من حكام هذه الأمة ومُجدِّداً لأمر الإسلام إذ لا نبي بعد محمد ﷺ .

٩٦ ـ حدثت مجادلة عظيمة خلَّدَها القرآن الكريم في سورة آل عمران بين نصارى نجران والنبي ﷺ وكان من أهم موضوعات الجدل بطلان ألوهية المسيح .

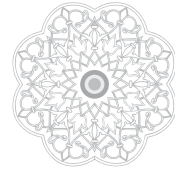
٩٧ ـ امتنع نصارى نجران عن المباهلة خوفاً من العذاب ، لما يعلمون من صدقه ﷺ وصحة نبوته ، فقد أكَّدت الروايات الواردة عنهم اعترافهم بأنه النبي الذي بشَّرَت به الكتب السماوية ، وقد طلبوا الصلح مع النبي ﷺ واستجاب لهم رسول الله ﷺ .

٩٨ ـ ثار العقل الأوروبي على تعاليم الكنيسة البعيدة عن وحي السماء وهدايات الله عز وجل ، والخطاب العقلاني والمنطقي والوجداني الذي يُلبّي أشواق الروح ، وقد قاد رجال الإصلاح البروتستانتي الثورة على الكنيسة ، وعارضوا مظاهر الطقوس الدينية واحتكار رجال الكنيسة للسلطة الدينية وسلطة البابا المطلقة ، كما أن العقل الأوربي ثار على المسيحية المُحرَّفة كدينٍ يعوق الفكر ويقف أمام التقدم العلمي ويُقيِّد البحث العلمي المستقل القائم على العقل والمنطق ، وكان لهذا أثره في الخروج على تعاليم الكنيسة .

٩٩ ـ إن الخطاب القرآني هو الأقرب للعقل الأوروبي المتحرِّر ووجدانه المتلهِّف للحقائق الإيمانية ومنطقه الذي ضاع في عالم الماديات والشهوات وغاب عن عوالم المعاني والقيم الروحية .

١٠٠ ـ إن القرآن الكريم بيّن حقيقة عيسى عليه السلام وكونه لا يعدو إلا أن يكون عبداً ورسولاً لله تعالى من أولى العزم .

الله ولي التَّوفيق



قائمة المصادر والمراجع

١ ـ **آباء وأبناء ملامح تربوية في القرآن الكريم** ، د. فاروق حمادة ، دمشق: دار القلم ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م.

٢ ـ **أثر الكنيسة على الفكر العربي الأوربي** ، د. أحمد علي عجيبة ، دار الآفاق العربية ، ط١ ، ٢٠٠٤م.

٣ ـ **الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة** ، شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي القرافي ، شركة سعيد رأفت للطباعة ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٤ ـ **الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء** ، إبراهيم العلي ، دمشق: دار القلم ، ط١ ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م.

٥ ـ **أحبك أيُّها المسيح** ، عبد المجيد العرابلي ، الأردن: مطبعة أروى ، ط٢ ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٦م.

٦ ـ **إحياء علوم الدين** ، محمد بن محمد الغزالي الطوسي ت (٥٠٥هـ) ، بيروت: دار المعرفة.

٧ ـ **أديان العالم المقارن** ، د. عبد القادر نجوش ، الكويت: دار الضياء ، ١٤٣٥هـ ، ٢٠١٤م.

٨ ـ **الأديان في كفة الميزان** ، محمد فؤاد الهاشمي ، دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر ، ١٩٨٦م.

٩ ـ **آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية عرض وتقويم في ضوء عقيدة السلف** ، محمد بن عبد العزيز الشايع ، مكتبة دار المناهج ، ط١ ، ١٤٢٧ هـ.

١٠ ـ **الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل** ، د. محمد وصفي ، دار ابن حزم ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م.

١١ ـ **الآريوسية في مصر البيزنطية** ، د. عبد الباقي السيد عبد الهادي ، مصر: دار الآفاق العربية ، ط١ ، ١٤٣٧هـ ، ٢٠٠٦م.

١٢ ـ **إزهاق الباطل والرد على شبهات القمص** ، زكريا بطرس صلاح أبو السعود ، مصر ، الجيزة: مكتبة النافذة ، ط١ ، ٢٠٠٩م.

١٣ ـ **الأساس في التفسير** ، سعيد حوى ، القاهرة: دار السلام ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

١٤ ـ **أشراط الساعة** ، يوسف عبد الله الوابل ، السعودية ، الأحساء: دار ابن الجوزي ، ط٢ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م.

١٥ ـ **أضواء على المسيحية** ، متولي يوسف ، ط٢ ، الكويت: الدار الكويتية ، ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م.

١٦ ـ **إظهار الحق** ، رحمة الله الهندي العثماني ، تحقيق: أحمد حجازي السقا ، طبعة دار التراث ، الطبعة القطرية.

١٧ ـ **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان** ، ابن قيم الجوزية ، المملكة العربية السعودية الرياض: مكتبة المعارف.

١٨ ـ **إنجيل برنابا** ، تحقيق: سيف الدين أحمد فاضل ، الكويت: دار القلم ، ط١ ، ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م.

١٩ ـ **إنجيل متى**: الكتاب المقدس ، بيروت: دار الكتب المقدس ، ط١ ، ١٩٩٣م.

٢٠ ـ **إنصاف غير المسلمين** ، د. سرين محمد أحمد صعيدي ، الأردن: دار الفتح ، ط١ ، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

٢١ ـ **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير** ، أبو بكر الجزائري ، المملكة العربية السعودية ، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٢ ـ **الإيمان بالرسل والرسالات للصلابي** ، علي محمد محمد الصلابي ، تركيا: دار الروضة استنبول ، ط١ ، ٢٠١٧م.

٢٣ ـ **البداية والنهاية** ، الحافظ إسماعيل بن كثير ، بيروت: مكتبة المعارف ، ط٢ ، ١٩٧٤م.

٢٤ ـ **البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان** ، عباس بن منصور السكسكي الحنبلي ، تحقيق: د. بسام العموش ، ط١ ، الأردن: مكتبة المنار ، ١٤١٨هـ.

٢٥ ـ **بين الإسلام والمسيحية** ، أبو عبيدة الخزرجي ، تحقيق: د. محمد شامة ، القاهرة: مكتبة وهبة ، ط٢.

٢٦ ـ **تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)** ، ابن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٧ ـ **تاريخ الأقباط** ، زكي شنودة ، دون بيانات النشر ، ١٩٩٨م.

٢٨ ـ **تاريخ الجدل** ، محمد أبو زهرة ، القاهرة: دار الفكر العربي ، ط٢ ، ١٩٨٠م.

٢٩ ـ **تاريخ الفكر المسيحي** ، القس حنا الخضري ، ط١ ، القاهرة ـ دار الثقافة.

٣٠ ـ **التاريخ اليهودي** ، يوسيفوس اليهودي ، دون بيانات نشر.

٣١ ـ **تاريخ مختصر الدول** ، العلامة غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري ، ط١ ، بيروت : المطبعة الكاثوليكية .

٣٢ ـ **تأملات في سورة مريم** ، د. عادل أحمد الرويني ، ط١ ، ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م ، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم .

٣٣ ـ **التحرير والتنوير** : محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، دون تاريخ .

٣٤ ـ **تحريف رسالة المسيح عبر التاريخ** ، بسمة أحمد جستنية ، دمشق : دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م .

٣٥ ـ **التحريف والتناقض في الأناجيل** ، د. سارة العبادي ، مكة المكرمة : دار طيبة الخضراء ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م .

٣٦ ـ **التصريح بما تواتر في نزول المسيح** ، محمد أنور شاه الكشميري ، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، حلب : مكتب المطبوعات الإسلامية ، ط٤ ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م .

٣٧ ـ **تفسير القرآن العظيم** (تفسير ابن كثير) ، إسماعيل بن كثير الدمشقي ، القاهرة : دار الحديث ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م .

٣٨ ـ **تفسير الرازي (التفسير الكبير)** ، محمد عمر الرازي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط٢ .

٣٩ ـ **تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران** ، محمد صالح المنجد ، الرياض : دار العبيكان ، ط١ ، ١٤٣٧هـ ، ٢٠١٦م .

٤٠ ـ **تفسير السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، الدمام : دار ابن الجوزي ، ط٤ ، ١٤٣٥هـ .

٤١ ـ **تفسير الطبري : تقريب وتهذيب** ، صلاح الدين الخالدي ، دمشق : دار القلم ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م .

٤٢ ـ **تفسير القرآن الكريم** ، د. عبد الله شحاتة ، القاهرة: دار غريب ، ط١ ، ٢٠٠٠م.

٤٣ ـ **تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم)** ، محمد رشيد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠م.

٤٤ ـ **التفسير المنير** ، د. وهبة الزحيلي ، دمشق: دار الفكر ، ط١ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٢م.

٤٥ ـ **تفسير إنجيل لوقا** ، ترجمة: مكرم نجيب ، القاهرة: دار الثقافة المسيحية.

٤٦ ـ **تفسير إنجيل مرقس** ، وليم باركلي ، تعريب: د. فهيم عزيز ، بيروت: دار الجيل.

٤٧ ـ **التفسير والبيان لأحكام القرآن** ، د. عبد العزيز الطريفي ، الرياض: مكتبة دار المنهاج ، ط٢ ، ١٤٣٩هـ.

٤٨ ـ **جامع البيان في تأويل القرآن** ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٢م.

٤٩ ـ **الجامع لأحكام القرآن** (تفسير القرطبي) ، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دمشق: مؤسسة مناهل العرفان ، مصورة عن الطبعة المصرية.

٥٠ ـ **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه** ، محمود صافي ، بيروت: دار الرشيد ، ط١ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م.

٥١ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق: سفر الحوالي ، مجلة البيان ، ط١ ، ١٤٣٢هـ.

٥٢ ـ **حديث القرآن عن التوراة والإنجيل** ، صلاح الدين الخالدي ، الأردن ، عمّآن: دار النفائس ، ط١ ، ١٤٣٨هـ ، ٢٠١٧م.

٥٣ ـ حقيقة المسيح والتثليث ، منصور تميم نتشة ، الأردن ، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠٠٨م.

٥٤ ـ الحوار الإسلامي المسيحي ، د. بسام داود عجك ، دمشق: دار قتيبة للطباعة ، ط٢ ، ٢٠٠٨م ، ١٤٢٩هـ.

٥٥ ـ حياة محمد ، واشنطن إيرفنغ ، ترجمة وتعليق د. علي حسن الخربوطلي ، مصر: دار المعارف ، ط١ ، ١٩٦٠م.

٥٦ ـ حياة محمد ﷺ ، إميل درمنغم ، تحقيق عادل زعيتر ، القاهرة: دار العالم العربي ، ط٣ ، ٢٠١٦م ، .

٥٧ ـ خصائص الأمة الإسلامية الحضارية ، د. إبراهيم زيد الكيلاني ، الأردن: منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم ، ط١ ، ٢٠٠٤م.

٥٨ ـ الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه ، د. أحمد عجيبة ، القاهرة: دار الآفاق العربية ، .٢٠٠٦

٥٩ ـ الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون ، أحمد يوسف (السمين الحلبي) ، تحقيق: د. أحمد الخراط ، دمشق: دار القلم ، ط١ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م.

٦٠ ـ دراسات في الأديان ، د. سعود بن عبد العزيز الخلف ، المدينة المنورة: مكتبة جامع العلوم والحكم ، ١٤١٤هـ.

٦١ ـ دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، د. زاهر بن عوض الألمعي ، السعودية ، ط٢ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.

٦٢ ـ دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية ، د. محمد علي البار ، دمشق: دار القلم ، ط٢ ، ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م.

٦٣ ـ **دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية** ، سليمان الرومي ، الرياض: مكتبة الرشد ، ط١ ، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م.

٦٤ ـ **دقائق التفسير الجامع** ، ابن تيمية ، جمع وتقديم وتحقيق: محمد السيد الجليند ، القاهرة: سلسلة التراث الفلسفي ، دار الأنصار ، ط١ ، ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م.

٦٥ ـ **دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه** ، عيسى بن عبد الله السّعدي ، السعودية: كليّة التربية بالطائف ، قسم الدراسات الإسلاميّة.

٦٦ ـ **دلائل النبوة** ، أبو بكر أحمد بن الحسين ، تحقيق ، د. عبد المعطي قلعجي ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ط ، ١٩٨٥م.

٦٧ ـ **رسالات الأنبياء** ، عمر أحمد عمر ، دمشق: دار الحكمة ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ١٤١٨هـ.

٦٨ ـ **الرسالة** ، محمد بن إدريس الشافعي ، تحقيق: أحمد شاكر ، مصر: مكتبه الحلبي ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٨هـ ، ١٩٤٠م.

٦٩ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، باكستان: مكتبة إمدادية ملتان.

٧٠ ـ **زاد المسير في علم التفسير** ، أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي ، بيروت: المكتب الإسلامي ، ط ، ١٣٨٥هـ.

٧١ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد** ، محمد بن أبي بكر ، المعرف بـ(ابن قيم الجوزية) تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، بيروت: مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامية ، ط٢٧ ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م.

٧٢ ـ **زهرة التفاسير** ، الإمام محمد أبو زهرة ، القاهرة: دار الفكر العربي ، ٢٠٠٨م.

٧٣ ـ **السرُّ القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي** ، صالح علي العود ، لبنان: دار ابن حزم ، ط١ ، ١٤٣٠هـ ، ٢٠١٠م.

٧٤ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ، محمد ناصر الدين الألباني ، عمان: المكتبة الإسلامية ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ، الكويت: الدار السلفية.

٧٥ ـ **سنن الترمذي** ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، بعناية أحمد محمد شاكر ، مصر: شركة مصطفى الحلبي ، ط٢ ، ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م.

٧٦ ـ **سيرة الرسول** (ﷺ) ، محمد عزت دروزة ، الدوحة: المؤتمر العالمي للسيرة النبوية ، مطابع الدوحة ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ.

٧٧ ـ **السيرة النبوية** لابن هشام ، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا ، القاهرة: دار التراث العربي ، ١٩٧٩م.

٧٨ ـ **الشخصية النسائية في القصة القرآنية** ، هدى عبد اللطيف عريان ، دمشق: دار غار حراء ، ط١ ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م.

٧٩ ـ **شرح العقيدة الطحاوية** ، علي بن علي بن أبي العز الحنفي ، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني ، بيروت: المكتب الإسلامي ، ط٤ ، ١٣٩١هـ.

٨٠ ـ **شرح صحيح مسلم** ، محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، بيروت: دار إحياء التراث العربي ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ.

٨١ ـ **شرعة الله للأنبياء** ، محمد الزحيلي ، لبنان ، دمشق: دار ابن كثير ، ط١ ، ١٤٣٩هـ ، ٢٠١٨م.

٨٢ ـ **صحيح البخاري** ، محمد إسماعيل البخاري ، الرياض: بيت الأفكار الدولية.

٨٣ ـ **صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء** ، أبو أسامة سليم عبد الهلالي السلفي الأثري ، بيروت: دار ابن حزم ، ط١ ، ١٤٢٩هـ ، ٢٠٠٨م.

٨٤ ـ **صحيح مسلم** ، مسلم بن الحجاج ، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

٨٥ ـ **صيحة تحذير من دعاة التنصير** ، محمد الغزالي ، دمشق : دار القلم ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م .

٨٦ ـ ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ **قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء** ، عثمان محمد الخميس ، الكويت : دار إيلاف الدولية ، ط١ ، ١٤٣١هـ ، ٢٠١٠م .

٨٧ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق وتصحيح : محمد فؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب ، بيروت : دار المعرفة ، ١٣٧٩هـ .

٨٨ ـ **فتح البيان في مقاصد القرآن** ، أبو الطيب محمد صديق حسن البخاري القِنَّوجي ، تقديم ومراجعة : عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، بيروت : المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢م .

٨٩ ـ **فقه دعوة الأنبياء** ، أحمد الأميري ، دمشق : دار القلم ، ط١ ، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م .

٩٠ ـ **الفكر الإسلامي في الرد على النصارى** ، عبد المجيد الشرفي ، تونس : الدار التونسية للنشر ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، ١٩٨٦م .

٩١ ـ **الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه** ، د. حسن ظاظا ، دمشق : دار القلم ، بيروت : دار العلوم والثقافة ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ .

٩٢ ـ **في رحاب قصص الأنبياء والرسل** ، عبود الراضي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٣٥هـ ، ٢٠١٤م .

٩٣ ـ **في ظلال القرآن** ، سيد قطب ، القاهرة : دار الشروق ، ط ٣٨ ، ١٤٣٠هـ ، ٢٠٠٩م .

٩٤ ـ **قاموس الكتاب المقدس** ، د. بطرس عبد الملك ورفيقاه ، القاهرة: دار الثقافة ، ط١٠ ، ١٩٩٥م.

٩٥ ـ **قصة الحضارة** ، ول ديورانت ، تقديم محيي الدين صابر ، ترجمة زكي نجيب محمود ، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، لبنان ، بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع ، د.ت.

٩٦ ـ **قصص الأنبياء** ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، دمشق: دار الفيحاء ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م.

٩٧ ـ **قصص الأنبياء** ، عبد الوهاب النجار ، بيروت: دار الجيل للطباعة والنشر ، ط١ ، ٢٠٠٩م.

٩٨ ـ **قصص التوراة والإنجيل في ضوء القرآن والسنة** ، د. عمر سليمان الأشقر ، الأردن ، عمان: دار النفائس ، ط١ ، ١٤٣٢ه.

٩٩ ـ **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث** ، د. صلاح الدين الخالدي ، دمشق: دار القلم ، بيروت: الدار الشامية ، ط١ ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م.

١٠٠ ـ **قصص أولي العزم** ، ليلى بلخير ، دمشق: دار طيبة ، ط١ ، ١٤٣٢هـ.

١٠١ ـ **قوانين النبوة** ، موفق الجوجو ، دمشق: دار المكتبتي ، ط١ ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢.

١٠٢ ـ **الكامل في التاريخ** ، أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م.

١٠٣ ـ **مباحث في إعجاز القرآن** ، مصطفى مسلم ، دمشق: دار القلم ، ط١ ، ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م.

١٠٤ ـ **مجادلة أهل الكتاب** ، د. نور الدين عادل ، الرياض: مكتبة الرشد ، ط١ ، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م.

١٠٥ ـ **محاضرات في النصرانية** ، محمد أبو زهرة ، المملكة العربية السعودية ، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ط٤ ، ١٤٠٤هـ.

١٠٦ ـ **محمد الرسالة والرسول** ، د. نظمي لوقا ، ط٢ ، مصر: وزارة التربية والتعليم ، ١٩٥٩م.

١٠٧ ـ **محمد في التوراة والإنجيل والقرآن** ، إبراهيم خليل أحمد ، بيروت: دار المنار ، ١٤٠٩ه ـ ١٩٨٩ م.

١٠٨ ـ **محمد في الكتاب المقدس** ، البروفيسور عبد الأحد داود ، طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، دولة قطر ، ط٤ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.

١٠٩ ـ **المدخل إلى العهد الجديد** ، د. القس فهيم عزيز ، القاهرة: دار الثقافة.

١١٠ ـ **المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم** ، محمد البار ، دمشق: دار القلم ، ط٢ ، ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م.

١١١ ـ **المرأة في القصص القرآني** ، د. أحمد الشرقاوي ، القاهرة: دار السلام ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م.

١١٢ ـ **مريم والمسيح** ، محمد متولي الشعراوي ، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي ، ط٢ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.

١١٣ ـ **المستدرك على الصحيحين** ، الإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ط٢ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م.

١١٤ ـ **مستقبل الثقافة في مصر** ، طه حسين ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م .

١١٥ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل** ، تحقيق : شعيب أرناؤوط وآخرين ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ٢٠٠٨م .

١١٦ ـ **المسيح في الإسلام ومحاورة مع قسيس حول ألوهية المسيح** ، أحمد ديدات ، القاهرة : دار الفضيلة .

١١٧ ـ **المسيح في الإسلام** ، أحمد ديدات ، ترجمة وتحقيق : محمد مختار ، المملكة العربية السعودية ، الرياض : دار الفضيلة للنشر ، ١٩٨٨م .

١١٨ ـ **المسيح والتثليث** ، محمد وصفي ، مصر : المطبعة الرحمانية ، ط١ ، ١٩٣٧م .

١١٩ ـ **المسيح والمسيحية والإسلام** ، عبد الغني عبود ، ط١ ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٤م .

١٢٠ ـ **المسيحية الحق كما جاء بها المسيح** ، علاء أبو بكر ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م .

١٢١ ـ **المسيحية المؤمنة بنبوة عيسى عليه السلام** ، أميمة بنت أحمد جلاهمة ، السعودية : جامعة أم القرى ، ط١ ، ١٤٣٠هـ ، ٢٠٠٩م .

١٢٢ ـ **المسيحية في الأحاديث النبوية** ، عبد الرزاق الدغري ، تونس : دار مسكيلياني .

١٢٣ ـ **مصادر النصرانية** ، د . عبد الرزاق بن عبد المجيد ، الرياض : دار التوحيد ، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م .

١٢٤ ـ **مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب** ، محمد علي عبد المعطي ، مكتبة عباد الرحمن ، ط١ ، ١٤٣١هـ ، ٢٠١٠م ، القاهرة .

١٢٥ ـ **مع الأنبياء وجهادهم** ، محمود عبد الحميد ، دمشق: دار الفكر ، ط١ ، ٢٠٠٣م.

١٢٦ ـ **المعجزة الكبرى القرآن** ، محمد أبو زهرة ، مصر ، القاهرة: دار الفكر العربي.

١٢٧ ـ **معجم الحضارات السامية** ، هنري س عبودي ، لبنان: جروس برس ، ط٢ ـ ١٤١١م.

١٢٨ ـ **المعجم الوسيط** ، أحمد حسين الزيات ورفاقه ، القاهرة: مجمع اللغة العربية ، تركيا: دار الدعوة ، ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م.

١٢٩ ـ **المفردات في غريب القرآن** ، الراغب الأصفهاني ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي ، دمشق: دار القلم ، بيروت: الدار الشامية ، ط١ ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.

١٣٠ ـ **مقارنة الأديان المسيحية** ، د. أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٩ ، ١٩٩٠م.

١٣١ ـ **مقاييس اللغة** ، أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو ، بيروت: دار الفكر ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.

١٣٢ ـ **من أنباء الرسالات السماوية** ، د. محمد عبد المجيد لاشين ، القاهرة: دار الآفاق العربية ، ط١ ، ١٤٣٠هـ ، ٢٠٠٩م.

١٣٣ ـ **من آيات الإعجاز الأنبائي والتاريخي في القرآن الكريم** ، د. زغلول النجار ، لبنان: دار المعرفة ، ١٤٣٤هـ ، ٢٠١٣م.

١٣٤ ـ **من قصص التنزيل** ، محمد الحجار ، بيروت: دار البشائر الإسلامية ، ط١ ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م.

١٣٥ ـ مناظرة بين الإسلام والنصرانية ، مجموعة من رجال الفكر من الديانتين الإسلامية والنصرانية ، الشارقة: مكتبة الصحابة ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٧م.

١٣٦ ـ منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل ، د. عزية علي طه ، لبنان: مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م.

١٣٧ ـ مواجهة الصدمات النفسية من خلال تدبر قصة مريم عليها السلام ، فوزية الخليفي ، الرياض: دار الحضارة ، ط١ ، ١٤٣٦هـ ، ٢٠١٥م.

١٣٨ ـ مواقف الأنبياء في القرآن ، صلاح الدين الخالدي ، دمشق: دار القلم ، ط١ ، ٢٠١٠م.

١٣٩ ـ الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ، عبد المنعم الحفني ، ط١ ، بيروت: دار السيرة ، ١٤٠٠هـ.

١٤٠ ـ موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله ، د. سارة بنت حامدين محمد العبادي ، الرياض: مكتبة الرشد ، ط١ ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م.

١٤١ ـ موكب النبيين ، سيد أحمد الكيلاني ، دمشق: دار القلم ، ط١ ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م.

١٤٢ ـ الميزان في مقارنة الأديان ، المستشار محمد عزت طهطاوي ، دمشق: دار القلم ، ط٢ ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م.

١٤٣ ـ نبوة محمد بين الشك واليقين ، د. فاضل صالح السامرائي ، مكتبة القدس ، بغداد ـ دار البشائر ، عمان ، ١٩٧١م.

١٤٤ ـ نسيم الرياض في شرح الشفاء ، أحمد شهاب الدين الخفاجي ، المطبعة الأزهرية ، ط١.

١٤٥ ـ نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة ، د. أحمد علي عجيبة ، القاهرة: دار الآفاق العربية ، ط١ ، ٢٠٠٤م.

١٤٦ ـ النصرانية في ميزان العقل والإسلام ، محمد سليم القاضلي ، الأردن ، إربد: دار الكتاب الثقافي ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م.

١٤٧ ـ النصرانية من التوحيد إلى التثليث ، محمد أحمد الحاج ، دمشق: دار القلم ، بيروت: الدار الشامية ، ط١ ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م ،

١٤٨ ـ نقض دعوى عالمية النصرانية ، د. فرج الله عبد الباري ، القاهرة: دار الآفاق العربية ، ط١ ، ٢٠٠٤م.

١٤٩ ـ هل بشر الكتاب المقدس بمحمد (ﷺ)؟ ، د. منقذ محمود السقار ، مصر: دار الإسلام ، ط١ ، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م.

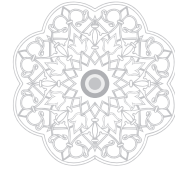
١٥٠ ـ الهيكل المزعوم بين الوهم والحقيقة ، د. عبد الناصر قاسم الفرا ، مجلة علوم سياسية ، جامعة القدس المفتوحة ، فلسطين.

١٥١ ـ وقفات في حياة الأنبياء ، خالد عبد العليم ، بيروت: دار ابن كثير ، ط١ ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م.

١٥٢ ـ ولله الأسماء الحسنى ، عبد العزيز ناصر الجليل ، الرياض: دار طيبة ، ط٣ ، ١٤٣٠هـ ، ٢٠٠٩م.

١٥٣ ـ اليهودية ، شلبي ، أحمد شلبي ، ط٨ ، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٨م.

* * *



كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: شخصيته وعصره.

٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: شخصيته وعصره.

٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: شخصيته وعصره.

٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: شخصيته وعصره.

٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.

٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

١٢. الوسطية في القران الكريم.

١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.

١٧. عصر الدولة الزنكية.

١٨. عماد الدين زنكي.

١٩. نور الدين زنكي.

٢٠. دولة السلاجقة.

٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣. الشيخ عمر المختار.

٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.

٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧. وسطية القران في العقائد.

٢٨. فتنة مقتل عثمان.

٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.

٣٠. دولة المرابطين.

٣١. دولة الموحدين.

٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣. الدولة الفاطمية.

٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١. الشورى في الإسلام.

٤٢. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.

٤٣. الإيمان باليوم الآخر.

٤٤. الإيمان بالقدر.

٤٥. الإيمان بالرسل والرسالات.

٤٦. الإيمان بالملائكة.

٤٧. الإيمان بالقران والكتب السماوية.

٤٨. السلطان محمد الفاتح.

٤٩. المعجزة الخالدة.

٥٠. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

٥١. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

٥٢. التداول على السلطة التنفيذية.

٥٣. الشورى فريضة إسلامية.

٥٤. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

٥٥. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

٥٦. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٧. العدل في التصور الإسلامي.

٥٨. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٩. الأمير عبد القادر الجزائري.

٦٠. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

٦١. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

٦٢. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

٦٣. أعلام التصوف السُني «ثمانية أجزاء».

٦٤. المشروع الوطني للسلام والمصالحة

٦٥. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

٦٦. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٧. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -الحقيقة الكاملة-.

٦٨. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٦٩. نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٧٠. إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة».

٧١. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كليم الله.

٧٢. - موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والخضر.

٧٣. - موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة طه.

٧٤. - موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة القصص.

٧٥. - موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الشعراء.

٧٦. - مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

٧٧. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

٧٨. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).

٧٩. سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).

٨٠. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.



د. عَلي محمَّد محمَّد الصَّلَّابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.
- سير الخلفاء الراشدين.
- الدولة الحديثة المسلمة.
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.
- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية.
- الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحقيقة الكاملة.
- قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
- إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة».
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (كليم الله).
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والخضر.
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة طه.
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة القصص.
- – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الشعراء.
- – مؤمن آل فرعون في سورة غافر.
- لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات).
- سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).
- سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).
- مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.

الفهرس

تقديم ٥
مقدمة ١٣

المبحث الأول

الجذور التاريخية للوطن الذي ولد فيه عيسى عليه السلام

أولًا: تاريخ فلسطين ٢٦
ثانياً: عهود بني إسرائيل ٢٨
١ ـ عهد القضاة ٢٨
٢ ـ عهد الملوك ٢٨
٣ ـ عهد الانقسام «زوال ملك بني إسرائيل» ٢٩
ثالثاً: الحالة السياسية والاجتماعية ٣٠
رابعاً: الحياة الفكرية: ٣٤
١ ـ الحضارة الإغريقية ٣٥
٢ ـ الدولة الرومانية ٣٩
خامساً: الطوائف اليهودية عند ظهور المسيح عليه السلام ٤١
١ ـ السامريون ٤٢
٢ ـ الصدوقيون ٤٣
٣ ـ الفريسيون ٤٥
٤ ـ القمرانيون (جماعة وادي قمران) ٤٧

٥ ـ الآسانيون ٤٩
٦ ـ الهيكل ورجال الدين ٥٠
سادساً: مفاهيم لكلمات مهمة: ٥٢
١ ـ النصارى ٥٢
٢ ـ المسيحية ٥٣
٣ ـ لماذا لقب عيسى بالمسيح؟ ٥٤
٤ ـ الفرق بين المسيحي والنصراني ٥٦

المبحث الثاني
حديث القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام

مواضع ذكر مريم عليها السلام في القرآن ٦٥
مواضع ذكر عيسى عليه السلام في القرآن ٦٦
أولًا: عائلة المسيح عليه السلام في القرآن الكريم: ٦٩
١ ـ من هم آل عمران؟ ولماذا ذكروا في الآية ٦٩
٢ ـ من هو عمران الأول؟ ومن هو عمران الثاني؟ ٧٠
٣ ـ من هم آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين؟ ٧١
٤ ـ ولادة مريم ٧٣
٥ ـ ولادة امرأة عمران بأنثى ٧٦
٦ ـ تقبُّل المولى عز وجل وإنباتها نباتاً حسناً ٨١
٧ ـ كفالة زكريا لمريم عليهما السلام ٨٥
ثانياً: زكريا يتوجه إلى المولى عز وجل بالدعاء أن يرزقه ذرية صالحة: ... ٩٠
١ ـ نداء زكريا الخافت ٩٢
٢ ـ تمهيد بديع للدعاء ٩٢
٣ ـ ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ ٩٤
٤ ـ حليلة زكريا عليه السلام (من امرأة عاقر إلى زوج حامل) ٩٥
٥ ـ بشارة الله لزكريا عليه السلام في المحراب ٩٧

٦ ـ زكريا عليه السلام يطلب آية من الله عزَّ وجل ٩٨
٧ ـ صفات يحيى عليه السلام كما ذُكرت في القرآن الكريم ١٠١
٨ ـ الحكمة والمناسبة من ذكر يحيى بن زكريا عليهما السلام ١٠٩
ثالثاً: اصطفاء الله تعالى لمريم عليها السلام على العالمين: ١٠٩
١ ـ في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ ١١٠
٢ ـ ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مريم الطاهرة ١١١
٣ ـ ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ١١٢
٤ ـ قنوت مريم وسجودها وركوعها مع الراكعين ١١٦
٥ ـ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ١١٧
٦ ـ بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بعيسى عليه السلام وجملة من
أوصافه ١٢١
٧ ـ موقف مريم من هذه البشارة ١٢٨
٨ ـ الحوار بين جبريل ومريم قبل النفخ ١٣١
٩ ـ وقوع النفخ في مريم عليها السلام ١٣٧
١٠ ـ معنى كون عيسى (كلمة الله وروح منه) ١٤١
١١ ـ مريم تلد عيسى عليه السلام ١٤٨
رابعاً: عيسى عليه السلام يكلم الناس في المهد: ١٦٢
١ ـ مريم تحمل ابنها وتتجه إلى قومها ١٦٢
٢ ـ استقامة أسرتها وهارون شقيق لها ١٦٤
٣ ـ استغراب قومها من إشارتها إلى وليدها ١٦٥
٤ ـ البداية الإيمانية في بيان الوليد عيسى عليه السلام ١٦٦
٥ ـ تعقيب القرآن على عرض مشهد ولادة عيسى ١٧١
٦ ـ موقف النجاشي من سماعه آيات سورة مريم ١٧٧
٧ ـ مريم عليها السلام ودورها في تاريخ الإنسانية ١٧٩

خامساً: عيسى عليه السلام رسول إلى بني إسرائيل: ١٨٣
١ ـ وجوب الإيمان بأن عيسى عبد الله ورسوله ١٨٦
٢ ـ عيسى مقفَّى وخاتم أنبياء بني إسرائيل ١٨٧
سادساً: دعوة عيسى عليه السلام إلى التوحيد: ١٨٨
١ ـ بشرية عيسى عليه السلام ١٩١
٢ ـ الله ليس المسيح ولا ثالث ثلاثة ٢٠٢
٣ ـ لعن كفار بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ٢٠٧
٤ ـ الله تعالى منزّه عن الولد والشريك ٢٠٩
٥ ـ الاستجواب العظيم من الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة .. ٢١٩
٦ ـ عيسى ابن مريم عبد أنعم الله عليه، وداعية إلى التوحيد وعبادة الله .. ٢٢٥
سابعاً: عيسى عليه السلام في موكب الأنبياء والمرسلين: ٢٣٢
١ ـ تعاليم عيسى ابن مريم عليه السلام من عند الله تعالى ٢٣٥
٢ ـ عيسى عليه السلام من أولي العزم ٢٣٩
٣ ـ أصول الشرائع ٢٤٢
٤ ـ أصـول الإيمان ٢٤٥
٥ ـ أصول الأخلاق والفضائل ٢٥٠
٦ ـ التفاضل بين الرسل ٢٦٠
ثامناً: الإسلام دين الأنبياء والمرسلين وأتباعهم المخلصين: ٢٦٢
١ ـ نوح عليه السلام والرسل من قبله كانوا على الإسلام ٢٦٣
٢ ـ إبراهيم عليه السلام كان ممن حمل رسالة الإسلام بعد نوح ٢٦٤
٣ ـ إسماعيل عليه السلام يحمل رسالة الإسلام مع إبراهيم ٢٦٤
٤ ـ دين لوط عليه السلام هو الإسلام ٢٦٤
٥ ـ إسحاق ويعقوب والأسباط مسلمون ٢٦٥
٦ ـ يوسف كان مسلماً ٢٦٥

٧ ـ موسى يدعو قومه إلى الإسلام ٢٦٥
٨ ـ أنبياء بني إسرائيل يدعون إلى الإسلام ٢٦٥
٩ ـ داود وسليمان يدعوان إلى الإسلام ٢٦٦
١٠ ـ المسيح عيسى ابن مريم يدعو إلى اعتناق الدين الإسلامي ٢٦٦
١١ ـ استمرار الإسلام حتى نزول القرآن الكريم ٢٦٧
١٢ ـ محمد عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الإسلام ٢٦٧
تاسعاً: تصديق عيسى عليه السلام لما بين يديه من التوراة: ٢٧٠
١ ـ التوراة ٢٧٠
٢ ـ أوصاف التوراة في القرآن الكريم ٢٧١
عاشراً: الإنجيل والأناجيل ٢٨٨
١ ـ إنجيل (متى) ٢٩٢
٢ ـ إنجيل (مرقس) ٢٩٣
٣ ـ إنجيل (لوقا) ٢٩٣
٤ ـ إنجيل (يوحنا) ٢٩٤
الحادي عشر: عيسى عليه السلام يبشر برسول الله محمد ﷺ: ٣٠٢
١ ـ صفات محمد ﷺ في التوراة والإنجيل ٣٠٤
٢ ـ عيسى عليه السلام يبشر بمحمد ﷺ ٣٠٦
٣ ـ بعض صفات المؤمنين بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل ٣١٩
٤ ـ الرهبانية المبتدعة الباطلة ٣٢٢

المبحث الثالث

معجزات عيسى عليه السلام والحواريون ورفعه إلى السماء

أولًا: المدخل لتعريف المعجزة وشروطها: ٣٢٥
١ ـ تعريف المعجزة ٣٢٥
٢ ـ شروط المعجزة ٣٢٦

٣ـ المعجزة قرينة الرسالة ٣٢٦
٤ـ سنة الله سبحانه وتعالى في معجزات الأنبياء ٣٢٧
٥ـ الفرق بين المعجزة والكرامة ٣٢٨
٦ـ الفرق بين الكرامة وخوارق السحر ٣٣٠
ثانياً: معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام: ٣٣٠
١ـ ميلاده من أمٍّ بلا أب ٣٣٣
٢ـ تأييده بروح القدس ٣٣٣
٣ـ نطقه ببيان دقيق وهو لم يزل في المهد ٣٣٣
٤ـ تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ٣٣٤
٥ـ إبراء الأكمه والأبرص ٣٣٤
٦ـ إحياء الموتى بإذن الله ٣٣٥
٧ـ الخلق من الطين ونفخ الروح بإذن الله ٣٣٨
٨ـ إخباره عن الغيوب ٣٤١
٩ـ نزول المائدة من السماء لطلب حواريه ٣٤٣
ثالثًا: عيسى عليه السلام والحواريون والمائدة: ٣٤٤
١ـ الحواريون ٣٤٤
٢ـ ذكر الله تعالى لنعائمه على عيسى عليه السلام يوم القيامة ونزول المائدة ٣٥٤
رابعًا: المكر بعيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء: ٣٦٠
١ـ ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ٣٦٣
٢ـ معنيان للتوفي في القرآن: الموت والنوم ٣٦٤
٣ـ توفّى الله عيسى مرتين: وفاة نوم ووفاة الموت ٣٦٦
٤ـ ألقى الله النوم على عيسى ثم رفعه ٣٦٧

خامسًا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ : ٣٦٨
١ ـ من مسلسل جرائم اليهود ٣٦٩
٢ ـ من أسباب لعنة الله لليهود ٣٧٠
٣ ـ اليهود ما قتلوا عيسى ولا صلبوه ٣٧٣
٤ ـ ما الذي جرى ليلة القبض على الشبيه؟ ٣٧٣
٥ ـ ترتيب أحداث مسلسل تلك الليلة ٣٧٧
٦ ـ نظرات في الآيات التي تحدثت عن قتل الشبيه ٣٨٠
٧ ـ اضطراب الأناجيل في أحداث تلك الليلة وأقربها إنجيل برنابا ... ٣٨٣
٨ ـ فكرة الصلب والفداء ، ومفهومها في عقيدة النصارى ٣٨٦
سادسًا: نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان: ٣٩٨
١ ـ صفة عيسى عليه السلام ٣٩٨
٢ ـ أدلّة نزول عيسى عليه السلام من القرآن الكريم ٣٩٩
٣ ـ أدلّة نزوله من السنة المطهرة ٤٠٠
٤ ـ الحكمة في نزول عيسى عليه السلام دون غيره ٤٠١
٥ ـ بماذا يحكم عيسى عليه السلام ٤٠٢
٦ ـ انتشار الأمن وظهور البركات ٤٠٢
٧ ـ من أهم أعمال عيسى عليه السلام بعد نزوله ٤٠٣
٨ ـ بقاء عيسى عليه السلام بعد نزوله أربعون سنة ٤٠٧

المبحث الرابع
نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة

أولًا: موقف نصارى نجران من دعوة النبي ﷺ ٤١١
ثانيًا: هيئة الوفد النجراني ٤١٧
ثالثًا: مجالس الجدل والمناظرات ٤١٨
١ ـ أمر الله لرسوله بجدال أهل الكتاب ٤١٨
٢ ـ حضور أطراف عديدة مجالس المناظرة ٤١٩

رابعًا: موضوعات الجدل: ٤٢١
١ ـ ادعاؤهم ألوهية المسيح لولادته من غير أب: ٤٢١
٢ ـ ادعاؤهم ألوهية المسيح بسبب معجزاته ٤٢٣
٣ ـ تأويلاتهم لوصف المسيح بأنه كلمة الله وروح منه ٤٢٣
٤ ـ من مناقشات القرآن الكريم للموضوعات المشارة في الجدال ٤٢٧
خامسًا: المباهلة الحد الفاصل في الجدال: ٤٢٩
١ ـ لماذا امتنعوا عن المباهلة ٤٣١
٢ ـ طلب وفد نجران الصلح ٤٣٢
٣ ـ الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ٤٣٣
سادسًا: المرسلون دعوا إلى توحيد الله عزَّ وجل ٤٣٤
شرح أعظم آية في كتاب الله عز وجل ٤٣٤
١ ـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ٤٣٥
٢ ـ ﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ ٤٣٧
٣ ـ ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ ٤٣٨
٤ ـ ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ٤٣٩
٥ ـ ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ ٤٣٩
٦ ـ ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ ٤٣٩
٧ ـ ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ ٤٤٠
٨ ـ ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ ٤٤١
٩ ـ ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا ﴾ ٤٤٢
١٠ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ ٤٤٢
سابعًا: إثبات صفات الكمال لله تعالى ٤٤٣
خاتمة ٤٤٧
قائمة المصادر والمراجع ٤٦٧
كتب صدرت للمؤلف ٤٨٢
المؤلف في سطور ٤٨٧
فهرس الموضوعات ٤٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إيماناً من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بأن الأمة الإسلامية إنما تنهض بالعلوم النافعة، وتنهض بالأفكار العالية، وترتقي بالأخلاق الراقية، وتتقوى بالحضارة الجامعة، وشاء الله تعالى أن تمتاز حضارة الإسلام بالقراءة الصحيحة لكتاب الله المسطور (القران والسنة) وكتاب الله المنظور (الكون وما فيه) قراءة دقيقة تجديدية تحليلية في ظلال الإيمان والأخلاق، وكرامة الإنسان وحقوقه، حيث دل على ذلك قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1-5].

وبـهذه القراءة الجامعة للوحي الصحيح، والعقل المستضيء بنور الله تعالى، يتحقق الاستخلاف والشهود الحضاري النافع، القائم على العزة، والعدل، والرحمة للعالمين.
ونحـن في الاتحـاد تبنينا هذا المشروع بطريقة جديدة وهي: نشر خلاصة جهود العلماء المتخصصين في فروع العلوم الإسلامية، بدل أن نبدأ من جديد.

فاليوم نقدم جهود فضيلة العالم المحقق المتخصص في سير الأنبياء (عليهم السلام) الدكتور علي محمد الصلابي التي بذل فيها جهوده المباركة خلال سنوات طوال: مستهدفًا الإسهامَ في هذا المشروع الحضاري العظيم، جزاه الله خيراً.

وبعد هذه الموسوعة سنقدم موسوعة أخرى في السياسة، ثم في الاقتصاد، ثم في الفكر إلخ... بتوفيق الله تعالى آملين من أمتنا -وبخاصة علماؤها ومفكروها- دعم هذا المشروع، وإفادتنا بملاحظاتهم القيمة.

والله أسأل أن يجعل هذه الموسوعات التي نقدمها إلى أمتنا خالصة لله تعالى، ونافعة للبلاد والعباد، ومحققة الغايات التي وضعت لها، والمقاصد التي أريد منها.. آمين.

محبكم جميعا: أ.د. علي محيي الدين القره داغي رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

TK: 978-625-5637-70-3
ISBN: 978-625-5637-87-1
9 786255 637871

asaletyayinlari.com.tr
asaletyayinlari

دار الأصالة